



في رحاب الرسول

المصطفى محمد ﷺ

خادم أهل البيت
أبو محمد الموسوي

الجزء الاول



في رحاب الرسول المصطفى

محمد ﷺ وسيرته العطرة

دراسة عن حياته ﷺ

على ضوء الكتاب والسنة

وما ورد في الكتب المعتمدة

(الجزء الاول)

خادم أهل البيت / أبو محمد الموسوي

مراجعة وتدقيق
الشيخ محمد الماجدي

التصميم والإخراج الفني
احمد مصطفى



إهداء

الى رسول الإنسانية جمعاء والذي هو رحمة للعالمين..

الى أهل بيت المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين..

الى من لم يخلق الله شيئاً فى سماواته وأرضه إلا لأجلهم أجمعين..

الى من أذهب الله الرجس عنهم وهم أهل البيت الطاهرين المعصومين

الى بقية الله من أهل بيت المصطفى .. و خاتم الاوصياء المنتجبين..

أهدي هذه السطور المتواضعة عسى أن تنفعنى يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم..

شعر في حب الرسول المصطفى ﷺ

يارسول الله ياخير الورى أنت للدين اماما وهدى
ولد المختار من نور السماء أفضل الخلق الذي زان السما
ابشري ياأرض جاء المصطفى زانها فخرا ونورا ورضا
رحمة الله حباها للعباد ياشفيح المذنبين المرتجى
رب ثبتني على ملته في طريق الطاهرين النجبا
رب واحشرنا على حبههم يوم نفخ الصور يوم الملتقى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

عندما نستعرض حياة العظماء والشخصيات المتميزة لندرس سيرتهم ومنجزاتهم العظيمة، وما قدموه من عطاء للبشرية جمعاء، والتي سجلها التاريخ بصدق وأمانة وموضوعية لتعيش حياة نابضة بالعطاء والخير على مر الدهور والعصور، نجد في طليعة تلك الشخصيات العظيمة والمتميزة وفي مقدمتها والتي لها السبق في كل ميادين الحياة هي شخصية رسول البشرية والأنسانية، وخاتم الأنبياء والمرسلين ونبي الرحمة، الصادق الأمين محمد بن عبدالله ﷺ.

وعندما نستطلع الآيات القرآنية ونستعرضها نجد أن هنالك عناية فائقة وواضحة لشخصية الرسول ﷺ حيث خاطب الله تعالى الأنبياء والمرسلين في القرآن بأسمانهم كما في قوله تعالى: (يا نوح اهبط بسلام منا..)

وقال تعالى مخاطباً إبراهيم على نبينا وعليه السلام: (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا..).
وقال تعالى مخاطباً عيسى على نبينا وآله وعليه السلام:
(يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس..).

وقال مخاطباً موسى على نبينا وآله وعليه السلام: (يا موسى أقبل ولا تخف..).
وكذلك خطابه تعالى لأدم ويحيى وغيرهم ﷺ، إلا الرسول الأكرم محمد ﷺ فلم يخاطبه الله سبحانه وتعالى إلا بأوصافه وكنيته.

قال تعالى: (يا أيها النبي) و(يا أيها الرسول) و(يا أيها المدثر) و(يا أيها المزمل)..

ولعل من أسرار نزول الملائكة في ليلة القدر أو مشايعتهم لبعض السور حين نزولها على الرسول المصطفى ﷺ هو الاستفادة مما ينزل على الحبيب المصطفى ﷺ من خير وبركة وتسديد.

هذا وآننا نحاول من خلال هذه السلسلة المباركة وهي سلسلة (أصحاب الكساء)، وسلسلة (التسعة المعصومين) ﷺ والتي تبدأ بسيرة الحبيب المصطفى محمد ﷺ أن نستضيء بهديهم وننهل من سيرتهم العطرة حتى نتمكن أن نرسم الطريق السوي لحياتنا و حياة المجتمع الصالح على ضوء ما نتعلمه ونستقيه من هدي النبي ﷺ وسيرة أهل بيته الأطهار، قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)، وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين).

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لتقديم هذا الجزء اليسير من حياته ﷺ وسيرته العطرة والمشرقة ولنسير على هدي القرآن والسنة الشريفة، وما ورد في الكتب والموسوعات التاريخية المعتمدة.

وسنبدا هذه السلسلة بالجزء الاول من سيرة المصطفى ﷺ ثم أهل بيته الأطهار ﷺ وستكون المجموعة الاولى لأهل الكساء، وهم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ مع بحث لموضوع الإمامة على ضوء العقل والنقل، والمجموعة والثانية ستكون بإذن الله وتوفيقه لبقية الأئمة المعصومين ﷺ.

إن استعراض سيرة الرسول ﷺ على ضوء القرآن والسيرة النبوية والمصادر التاريخية الصحيحة وبما يتماشى مع العقل السليم والنقل الرفيع وبالتالي الوقوف على الحقيقة الناصعة السليمة، كل هذا لغرض الاقتداء بسيرتهم العطرة للوصول لمرضات الله وكما قال تعالى: (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا).

وقال تعالى على لسان رسوله ﷺ: (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله). وقال تعالى: (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا).

الفصل الاول

ولادته ونسبه واسماؤه ﷺ:

تمثل ولادة رسول الأنسانية المصطفى الأكرم محمد ﷺ منعطفًا تاريخيا واضحا لأنقاذ البشرية جمعاء من الجاهليه والضياع والتحلل والأنسانية ونظام شريعة الغاب، حيث يقودهم نحو الطريق السوي والسليم الى شاطئ الأنسانية والوحدة والمحبة والصلاح.

إن أعظم وأسمى ذكرى مرّت على تاريخ البشرية جمعاء هي ذكرى ولادة أفضل وأشرف مخلوق على الإطلاق وهو حبيب إله العالمين والرحمة المهداة للناس أجمعين محمد المصطفى ﷺ.

لقد هيات كافة الرسالات والنبوات السابقة ومهدت للرسالة الإسلامية العالمية الخاتمة ليتم تتويجها بخاتم الأنبياء والمرسلين وأشرفهم وسيد اولى العزم من المرسلين.

إن اليوم الذي ولد فيه الحبيب المصطفى ﷺ هو اليوم الاول في تاريخ البشرية النابض بالحياة، سواء قيمناه على أساس ما حدث فيه او على أساس ما نتج عنه؛ لأنه هو اليوم الذي خُتمت فيه النبوة بشخصيته الفذة، وخُتمت الرسالات السماوية بالرسالة الإسلامية الخالدة الى قيام يوم الدين.

الولادة الميمونة للمصطفى ونشأته ﷺ:

تجلى مولد الهادي وعمت	بشائرهِ البوادي والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب	يدا بيضاء طوقت الرقابا
لقد وضعتهُ وهاجا منيرا	كما تلد السماوات الشهابا
فقام على سماء البيت نورا	يضيء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكا	وفاح القاع أرجاء وطابا

لقد ولد الحبيب المصطفى ﷺ في أم القرى مكة المكرمة في السابع عشر من ربيع الاول من عام الفيل لسنة ٥٧٦ ميلادية، وقيل في الثاني عشر منه، وجاءت ولادته استجابة لدعوة جده إبراهيم الخليل عليه السلام عندما بنى الكعبة فقال كما ورد في قوله تعالى: (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم).

لقد فقد الرسول المصطفى ﷺ والده وهو في بطن أمه، وتوفيت أمه وهو في سن السادسة من عمره، فكفله جده عبدالمطلب، وتوفى وهو في سن الثامنة فكفله عمه أبو طالب، وجاءت قریش سنة شديدة القحط، فخرج أبو طالب ومعه محمد ﷺ

يستسقى، فأخذه أبو طالب فالصق ظهره بالكعبة، ولاذ بإصبعه ﷺ بالدعاء، فاقبل السحاب مترامكا، ونزل المطر كقواه القرب، فأخصب الوادى والأراضى بدعوته، وانشأ أبو طالب شعراً واصفاً كرامة الحبيب المصطفى ﷺ عند الله، وقد جاء فيه:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

طهارة مولد المصطفى ﷺ:

إن نسب النبي محمد ﷺ من آباء وأجداد مؤمنين وموحدين، بدلالة القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة: قال الله تعالى عن المشركين: (إنما المشركون نجس..). والدليل القرآني الآخر قوله تعالى: (الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين) ، وكان عبدالمطلب قد حرم في الجاهلية نساء الآباء على الأبناء، وكان موحداً وعلى دين إبراهيم الحنيف.

وقد ورد عن النبي المصطفى ﷺ: (خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم) ، وهذا يدل على أنه كان على الحنفية والشرائع السماوية.

كما ورد عنه ﷺ: (لم يزل ينقلني الله تعالى من أصلاب الطاهرين الى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا، لم يدنسني بدنس الجاهلية).

ولقد وقعت أحداث كثيرة وعظيمة في يوم مولده المبارك، ولا بد من التعرض للتخطيط السماوي والرعاية الفائقة الربانية لهذا المولود الذي هورحمة للعالمين، فمنذ ولادته بل حتى قبل حمله كان نورا في السماء بعرش الله يستبح.

ورد عنه ﷺ في قوله لجابر بن عبدالله الأنصاري: (باجابر اول ما خلق الله نور نبىكم ثم خلق منه كل خير..).

وقد ورد عن السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء ؑ قولها في خطبتها المباركة: (وأشهد أن أبى محمداً عبده ورسوله اصطفاه قبل أن يبعثه..).

وورد عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت علي بن الحسين ؑ يقول: (إن الله عز وجل خلق محمداً وعلياً والأنمة الأحد عشر من نور عظمته، أرواحاً في ضياء نوره يعبدون قبل خلق الخلق، يسبحون الله عز وجل ويقدمونه وهم الأنمة الهادية من آل محمد ؑ).

وبمجيئ المصطفى ﷺ الى الحياة الدنيا تزامن معه مخاضات كونية؛ لعظمته وعلو شأنه، فقد حدثت أمور كثيرة؛ اكراما لمقدمه الشريف وتشريفاً له، ومنها ما جاء في كتب التاريخ والسير:

١- أنه وُلد مختوناً مقطوع السرة، وهو يقول: (الله أكبر والحمد لله كثيراً.. سبحان الله بكرةً وأصيلاً).

٢- خرج نورٌ مع ولادته ﷺ أضواء مساحة واسعة من الجزيرة العربية ثم استطار حتى بلغ المشرق والمغرب.

٣- وقد ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ع: بشان ولادة النبي محمد ﷺ أنه قال: (كان إبليس - لعنه الله- يخترق السماوات السبع، فلما وُلد عيسى عليه السلام حُجب عن ثلاث سماوات، وكان يخترق أربع سماوات، فلما وُلد رسول الله ﷺ حُجب عن السبع كلها، ورميت الشياطين بالنجوم).

٤- لقد أصبحت الأصنام كلها صبيحة ولادة الرسول المصطفى ﷺ منكسة على وجوهها، وليس منها صنمٌ إلا وهو منكبٌ على وجهه، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: (لَمَّا وُلد رسول الله ﷺ أُلقيت الأصنام في الكعبة على وجوهها، فلما أمسى سُمِع صيحة من السماء: جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً).

٥- اهترت عروش الملوك والحكام ايذاناً بقدوم دولته المباركة، حيث لم يبق سريراً لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً، والملك مخرساً لا يتكلم في يومه ذلك.

٦- انتزع علم الكهنة، وبطل سحر السحرة، ولم تبق كاهنة في العرب إلا حُجبت عن صاحبها، وعظمت قريش في العرب، وسُموا آل الله عز وجل.

٧- انفلق إيوان كسرى وتصدع وتفتتت بعض أجزاءه، حيث ارتج في تلك الليلة إيوان كسرى، وسقطت منه أربعة عشر شرفة.

٨ - لقد أطفأ الله سبحانه وتعالى نار المجوسية والتي كانت متوقدة لعقود طويلة ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وقد كانت تعبد في الأرض.

٩- لقد حدث في عام مولده ﷺ أن أهلك الله تعالى إبرهة وجيشه بعد قدومه لهدم الكعبة المشرفة.

١٠- غاضت بحيرة ساوة، وانقطع وادي السماوة ولم تجر بحيرة طبرية.

١١- حملت به أمه أيام التشريق، وقالت: فما وجدت له مشقة حتى وضعت.

١٢- أن السيدة أمنة قد ذكرت كيفية ولادته ﷺ فقالت: (إن ابني والله لقد سقط وما سقط كما يسقط الصبيان، سقط ولقد اتقى الأرض بيديه ورفع رأسه الى السماء فنظر إليها ثم خرج منه نور حتى نظرت الى قصور بصرى - في الشام - وسمعت هاتفاً في الجو يقول: لقد ولدته سيد الأمة، فإذا وضعتيه فقولي: (أعيذه بالواحد من شر كل حاسد وسميه محمداً ﷺ).

١٣- وورد عن الإمام الكاظم عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: (ومحمد ﷺ سقط من بطن أمه واضعاً يده اليسرى على الأرض، ورافعاً يده اليمنى الى السماء، ويحرك شفثيه بالتوحيد، وبدا من فيه الطاهر نور رأى أهل مكة منه قصور بصرى

من الشام وما يليها والقصور الحمر من أرض اليمن وما يليها، والقصور البيض من اصطخر وما يليها، ولقد أضاءت الدنيا ليلة وُلد النبي ﷺ حتى فزعت الجن والأنس والشياطين).

١٤- أن الله تعالى زكى وطهر الرسول الأكرم في كل تصرفاته وحركاته وسكناته وزكاه بروحه وجسده واعضائه، فلقد زكاه في لسانه فقال تعالى: (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى).

وزكاه في عقله وعلومه المختلفة فقال تعالى: (علمه شديد القوى)..وزكى قلبه (ما كذب الفؤاد ما رأى).

وزكاه في عينه (ما زاغ البصر وما طغى)..وزكاه في أخلاقه فقال تعالى: (بالمؤمنين رؤوف رحيم).

وزكى صدره الشريف (ألم نشرح لك صدرك)..وزكاه في كيانه وفي شخصيته (وانك لعلى خلق عظيم).

وأخيرا فقد جعل الله تعالى ذكره خالدا مع ذكره تعالى فقال سبحانه: (ورفعنا لك ذكرك)، فذكره في الإذان وفي كل صلاة، أشهد أن محمدا رسول الله، هذا بالإضافة الى صلاة الله وملائكته عليه، فقال تعالى: (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما..). وقال الشاعر:

وضم الإله اسم النبي الى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود وهذا محمد

وهكذا تشير هذه الأحداث الخارقة والعجيبة وما صاحبها من أمور توشح وتدلل على أمرين مهمين وهما :

الأمر الأول: أنها تبرهن على الشأن العظيم للوليد الجديد، وعلى أنه ليس عادياً، بل هو كغيره من الأنبياء العظام الذين رافقت ولادتهم أمثال تلك الحوادث العجيبة والوقائع الغريبة.

الأمر الثاني: أنها تدفع الجبايرة والوثنيين الى التفكير فيما هم فيه من أحوال، فيتساءلون عن الأسباب التي دعت الى ذلك لعلهم يعقلون؛ إذ إن تلك الأحداث كانت في الواقع تبشر بعصر جديد وهو عصر انتهاء الوثنية وزوال مظاهر السلطة الطاغوتية واندحارها.

أمنة تبشّر عبدالمطلب بحفيده الجديد:

لما أصبح الصباح كان اول ما فعلته أمنة بنت وهب رضوان الله عليها أن أرسلت الى عمها عبدالمطلب تبشّره بمولد حفيده الأكرم ﷺ فأقبل مسرعا وانحنى

على وليده المبارك يملأ منه عينيه، وقد ألقى كل سمعه الى السيدة آمنة وهي تحدت عما رأت وسمعت حين الوضع لمولودها المبارك وعن كل ما قالت.

ثم حمل عبدالمطلب حفيده العزيز بين ذراعيه في رفق ورقّة، وانطلق به خارجا الى الكعبة المعظمة، فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولدا عوضا عن أبيه السيد الفقيه عبدالله، وأحاط به بنوه في خشوع وهو يطوف بالكعبة المشرفة ويعودُه منشداً:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهدي على الغلمان أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان أعيذه من شر ذي شأن
من حاسد مضطرب العنان

ثم رده الى أمه وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة، وكانت مكة حين ذاعت بشرى المولد ما زالت تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل، فرأى القوم في مولد محمد ﷺ آية تذكر بأخرى.

نسبه ﷺ:

هو أبو القاسم محمد ﷺ بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وقد قيل في وصف عدنان:

وكم من أب قد علا بابن له شرفاً كما علت برسول الله عدنان
وعدنان بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل على نبينا وعليهم السلام.

أمه ﷺ:

وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، فكان مولده ﷺ من أبوين حنفيين طاهرين من كل دنس وشرك، كما ورد في القرآن المجيد: (وتقلبك في الساجدين). وكما ورد عن الحبيب المصطفى ﷺ بمولده فقال: (لم أزل انقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات).

ولدت ﷺ في حدود منتصف القرن السادس الميلادي، وتوفيت وعمر رسول الله ﷺ ست سنوات، في سنة ٤٥ قبل الهجرة والموافق لسنة ٥٧٥ للميلاد.

أسرتها: سليلة الأسرة المباركة من القبيلة ذات الشأن العظيم التي استأثرت وحدها بخدمة البيت العتيق، وما نالها من خدمته من أمجاد وامتيازات، أجل لقد كانت آمنة أفضل امرأة نسباً وموضعاً، حيث امتازت بالذكاء وحسن البيان.

وتنتمي أسرتها الى (زهرة) بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي، وهو الأخ الشقيق (قصي) الذي ملك مدينة (مكة) ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تناقسها في شيء منه قبيلة أخرى حتى جاءها محمد ﷺ حفيد قصي بن كلاب بمجد الدهر وعزّ الأبد.

أمّا أمّها: فهي فاطمة بنت سعد بن شبل أحد بني الجدره حيث لقّبوا بذلك نسبة الى جدّهم (عامر بن عمرو الأزدي) الذي بنى للكعبة المعظمة جدارا حين دخلها السيل ذات مرة ففزعت قبيلة قریش لذلك، وخافت من أثر السيل ان يجرف الكعبة حيث يذهب شرفها ودينها، ولما التفتوا الى جدار عامر، سمّوه بالجادر، ولقّبوا اولاده من بعده ببني الجدره.

وكان (بنو زهرة) ممن سبقوا الى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قریش الى حلف (الفضول)، وقد كان ذلك قبل مبعث النبي ﷺ بنحو عشرين عاما، وكان أكرم حلف وأشرفه.

فمن هذه الأسرة القرشية الكريمة التي عرفت بصلة الودّ والحبّ لبني عبد مناف بن قصي، كانت السيدة (أمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة) التي توجت ذلك المجد العريق بالشرف الذي لا يدرك.

لقد نشأت السيدة (أمنة) في أعزّ بيئة وأطيب منبت، فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعة الحساب ما تزهو به في مجتمع مكة المتميز بكرم الأصول ومجد الأعراق، فقد كانت زهرة قریش اليانعة، وبنت سيد بني زهرة نسبا وشرفا، وقد ظلت في خدرها محجوبة عن العيون مصونة عن الابتدال حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها او يتمثلونها في صباها الغض.

أبوها: هو (وهب بن عبد مناف) سيد بني زهرة شرفا وحسبا، وقد مدحه الشاعر حيث أنشد:

يا وهب يا بن الماجدين زهرة سُدت كلابا كلها ابن مرّة

بحسب زاك وأمّ حرّة

جدّها لأبيها: هو عبد مناف بن زهرة الذي يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصي، وكان يقال لهما (المنافان) تعظيما وتكريماً.

جدّتها لأبيها: هي أم وهب عاتكة بنت الاوقص بن مرّة بن هلال السلمية، إحدى أكرم مخدرات آل سليم.

أمّها: برّة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب.

جَدَّتْهَا لِأُمَّهَا: أم حبيب بنت أسد بن العزى بن قصي.

والدة جَدَّتْهَا لِأُمَّهَا: برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن لؤي بن غالب بن فهر.

وهكذا قبض الله تعالى لهذه الأسرة العريقة أن تنجب السيدة (أمنة) لتحمل في أحسانها مصباح الكون الاوحد و بحر الهداية المفرد الى البشر و حبيب إله العالمين و خير البشرية من الاولين و الآخرين، محمد بن عبدالله ﷺ.

وقد ورد عنه ﷺ حيث قال: (أنا أنفسمك نسبا وصهرا وحسبا).

كراماتها: لا يخفى أن أم الرسول ﷺ لا تحصى كراماتها، كيف لا وقد حملت في أحسانها أشرف الخلق والكائنات في الوجود الذي دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، وقد وردت جملة من الأحاديث المشيرة الى طهارتها ﷺ:

كقوله ﷺ: (لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين، الى أرحام الطاهرات، حتى أسكنت في صلب عبدالله ورحم أمنة بنت وهب).. وقوله ﷺ: (نقلنا من الأصلاب الطاهرة الى الأرحام الزكية).

وقوله ﷺ: (ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، وما ولدني إلا نكاح كنيح الإسلام). وقوله ﷺ: (لم يلتق لي أبوان على سفاح قط، لم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة (المطهرة) هادياً مهدياً).. وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في (نهج البلاغة) واصفاً حسب ونسب الرسول ﷺ:

(فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر، تناقلتهم كرائم الأصلاب الى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف، حتى اقتضت كرامته سبحانه وتعالى الى محمد ﷺ فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً وأعزّ الأرومات مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناؤه، عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبئت في حرم، وسبقت في كرم، لها فروع طوال، وثمر لا ينال، فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوؤه، وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه، سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل، أرسله على حين فتره من الرسل، وهفوة من العمل، وعباوة من الأمم).

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: (لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفياً مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما).

وأخرج ابن الجوزي بإسناده عن علي (عليه السلام) مرفوعاً: (هبط جبرئيل (عليه السلام) فقال: إن الله يقرئك السلام ويقول: حرمت النار على صلب أنزلك، وبطن حملك، وحجر

كفلك)، أما الصلب فعبدالله، وأما البطن فأمنة، وأما الحجر فعمه - يعني أبا طالب - وفاطمة بنت أسد، أخرجه ابن الجوزي بإسناده عن الإمام علي عليه السلام مرفوعاً.

خطوبتها عليها السلام : لقد عرفت السيدة (أمنة) في طفولتها وحدثتها ابن عمها (عبدالله بن عبدالمطلب) حيث إن بني (هاشم) كانوا أقرب الأسر جميعاً إلى بني (زهرة) فجمعتهم أو اصرا الوَدَّ القديم التي لم تنفصم عراه منذ عهد الشقيقين قصي وزهرة ولأدي كلاب بن مرة.

هكذا عرفته قبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها، والتقت وإياه في الطفولة البرينة على روابي مكة وبين ربوعها وفي ساحة الحرم الأمن، كما جمعتهما مجامع القبيلة، إذ كان عبدالمطلب سيد بني هاشم ووهب سيد بني زهرة يتزاوران ويجتمعان على ودّ، وكذا يجتمعان كلما أهمهما وأهم قريش معضل، ثم حجبت السيدة (أمنة) حين لاحت بواكير نضجها في الوقت الذي كانت فيه خطوات (عبدالله) تسرع من مرحلة الصبا إلى غض الشباب.

أجل: إن شذى عطرها ينبعث من دور بني زهرة، فينتشر في أرجاء مكة ويثير أكرم الآمال في نفوس شبانها.

ورنت انظار الفتيان من بيوتات مكة إلى زهرة قريش، وتسابقوا إلى باب بيتها يلتمسون يدها، ويزقون إليها ما لهم من مآثر وأمجاد، لقد تسابق إليها سلام الله عليها الكثيرون، لكن (عبدالله) لم يكن من بين هؤلاء.

أما الذي منعه من زواجها وهي الجديرة بذلك، فهو نذر أبيه عبدالمطلب، لأنه ما لم تنته من قضية النذر فإن زواجه منها لا يصح، وصارت مسألة النذر تدور في فكر عبدالمطلب.

وحدث ما حدث من مسألة ذبح عبدالله حينما أقرع صاحب الأقداح فخرج الذبح على عبدالله، وهم عبدالمطلب بذبح ابنه الحبيب، وأخيراً انتهت المسألة بأن يُقرع بين عبدالله ونحر الإبل، حيث قام عبدالمطلب يدعو الله ثم قرّبوا عبدالله وعشرا من الإبل وأقرعوا بينهما فخرج القدح على عبدالله، ثم زادوهما عشرا عشرا وعبدالمطلب يدعو الله بخالص الدعوات حتى بلغت الإبل المائة فقرعوا بينهما، فهتفت قريش ومن حضر من الناس أنه قد انتهى رضا ربك يا عبدالمطلب، وخرج القدح على المائة من الإبل، فهزّ عبدالمطلب رأسه في ارتياح وقال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على عبدالله وعلى الإبل المائة، وعبدالمطلب يدعو الله فخرج القدح على الإبل، ثم عادوا الثانية والثالثة والقدح يخرج على الإبل، وعند ذلك اطمأن قلب شيخ قريش ونحرت الإبل.

وبعد أن حصل الاقتراع بين (الأقداح وعبدالله) وانتهت المسألة بفداء عبدالله بمائة من الإبل، انصرف عبدالمطلب أخذاً بيد ابنه عبدالله، وكان ذلك بعد حفر بئر زمزم بعشر سنوات، حتى أتى دار وهب بن عبد مناف ابن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، ليطلب يد ابنته (أمنة) لابنه المفدى (عبدالله).

وهنا أقبلت أمها (برّة) متهلّلة الوجه مشرقة الأسارير بعد أن رأت وهب زوجها يدنو منها ليقول لها في رقة وحنو: إن شيخ بني هاشم قد جاء يطلب يد ابنتها (أمنة) زوجة لابنه المفدى عبدالله، ثم عاد أبوها من فوره الى ضيفه عبدالمطلب، ولكن السيدة أمّنة أصيبت بذهول، وما لبثت أن أفافت على صوت قلبها يخفق عالياً حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة الى جوارها، أحقاً أثرتها السماء بفتى هاشم زوجها لها؟

وحينئذ توافدت سيّدات آل زهرة مهنّات مباركات، ثم توافدت نساء قريش على (زهرة قريش) مهنّات اقترانها بفتى هاشم الصبيح، ولهذا الحسب والنسب أشار النبي ﷺ قائلاً: (ما ولدتني بغي قط مذ خرجت من صلب أبي آدم، ولم تزل تنازعني الأمم كابرأ عن كابر حتى خرجت في أفضل حين في العرب: هاشم وزهرة).

وتزوج عبدالله أمّنة بنت وهب، وفي اول ليلة جمعتهما رأت أمّنة أن شعاعاً من النور خرج منها فأضاء الدنيا من حولها حتى تراءت لها قصور بصرى في الشام وسمعت هاتفاً يقول لها: يا أمّنة لقد حملت بسيد هذه الأمة.

سافر زوجها في تجارة الى الشام وتوفي في تلك الرحلة في يثرب، وبينما هي عائدة من زيارة قبر عبدالله وأخواله بني عدي بني النجار أدركها المرض وتوفيت في الأبواء بين مكة والمدينة.

وقد أجاد الشاعر في تأبين سيدة الأمهات أمّنة، منشداً:

نبكي الفتاة البرّة الأمانة	ذات الجمال العفة الرزينة
زوجة عبدالله والقرينة	أم نبي الله ذي السكينة
لو فوديت لفوديت ثمينة	وللمنايا شفرة سنية
لا تبقي ظعناً ولا ظعينة	إلا أتت وقطعت وتينه

أمّنة بنت وهب سيدة الامهات (ع):

إن هذه الشخصية التاريخية العظيمة والأمّ الجليّة القدر والتي قلما تذكرها المصادر والروايات وتحدث عنها بأنها الطاهرة النجبية والمؤمنة بدين جدّها إبراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام، وهي الأمّ لأعظم وأشرف مخلوق خلقه الله واجتباها ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، وحبیب اله العالمين ورحمة للعالمين، وقد رعت في أحسانها

وغذته بدمها وخدمته براحتها واتصلت حياته بحياتها، فكان عليه السلام هو الأثر الجليل الذي تركته السيدة أمنة بنت وهب، وأن الله تعالى قد اختار رسوله محمد عليه السلام من كنانة واختار كنانة من قريش واختار قريشاً من العرب..

ولقد كان له الأثر في تكوين ولدها الخالد، حيث قال عليه السلام معتزاً بأمهاته المؤمنات (أنا ابن العواتك من سليم)؛ وذلك لطهارة نسله ونبل نسبه.

قال بعض المحدثين والمؤرخين: كان له ثلاث جدات من سليم كل منهن تسمى عاتكة:

الأولى: هي أم عبد مناف بن قصي بن كلاب، وعبد مناف هو جد شيبه الحمد عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف، جد الرسول الأكرم عليه السلام.

والثانية: أم هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب وهاشم هو جد أبي الرسول الأكرم عليه السلام عبدالله بن عبدالمطلب.

والثالثة: هي أم وهب جد الرسول الأكرم لأمه السيدة أمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة (الجد الأعلى لبني زهرة) بن كلاب بن مرة..

لقد عانت وكابدت هذه المرأة العظيمة من صنوف الظلم والقهر الاجتماعي أيام الجاهلية ومنها عملية وأد البنات وانتقال المرأة بالميراث من الآباء الى زوجات الأبناء وغيرها الكثير، ولم يحدثنا التاريخ عن حقيقة أمومة السيدة الطاهرة النقية أمنة بنت وهب، وعن فضلها في إنجاب أشرف الخلق وأعظم الأنبياء وخاتمهم عليه السلام.

شمالها وصفاتها عليها السلام :

كانت من أحسن النساء جمالاً، وأعظمن كمالاً، وأفضلهن حسبا ونسبا، وكان وجهها كلفة القمر المضيء، وقد وصفها أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً:

(والله ما في بنات مكة مثلها، لأنها محتشمة ونفسها طاهرة مطهرة، عفيفة أديبة عاقلة، فصيحة بليغة، وقد كساها الله جمالاً لا يوصف).

والحق: أن السيدة أمنة كانت من أكابر النساء، ومن أشراف النسوة المكرّمات، وأنها من أعلى العرب نسبا وحسبا، سطع نور فخرها في السماوات العلى، وهبت رياح عطرها في كل ذرات الهواء، فلها الفضل الجميل إذ لم يسمح الدهر لغيرها بمثل، وكل ما يذكره المؤرخون عنها عليها السلام أنها كانت: (أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا).

ولهذا أشار في حقها العباس بن عبدالمطلب عليه السلام قائلاً: كانت - أمنة - من أجمل نساء قريش وأتمها خلقاً.

حملها بسيد الكائنات محمد ﷺ :

لقد تمّ زواجهما ﷺ وسرعان ما بأنت البشرى لهما، حيث نامت السيدة أمنة ليلتها وعبدالله الى جانبها ساهر يقظان يرقب نور الفجر الوليد، حتى إذا دنا الصباح استيقظت العروس (أمنة) من نومها الهنيء وأقبلت على زوجها تحدّثه عن رؤياها: رأت كأن شعاعا من النور انبج من كيانها اللطيف بضيء الدنيا من حولها حتى إنها لترى قصور بصرى في الشام، وسمعت هاتفا يهتف بها: لك البشرى فانك حملت بسيد هذه الأمة/ السيرة النبوية لابن هشام .

وبقي عبدالله مع عروسه الميمونة عدّة أيام، وقيل عشرة أيام، وكان يشعر أن عروسه أمنة تحمل له جنينه الغالي، وقد بدت لعينه في تلك اللحظات داخل إطار من نور مقدّس ووسط هالة من الإشعاع السماوي، ولكنه كان مضطراً الى السفر وهو على أمل اللقاء القريب؛ إذ كان عليه أن يلحق بقافلة قريش التجارية المسافرة من مكّة المشرفة الى مدينة غزّة بفلسطين ثمّ الشام، فسافر ﷺ مودّعاً زوجته الحبيبة حيث أخبرها أن سفرته ليست طويلة، وإنما هي بضعة أسابيع، وقد مضى شهر واحد ولا جديد فيه سوى أن السيدة (أمنة) شعرت بالبادرة الاولى للحمل، وكان شعورها به رقيقاً لطيفاً.

روى الحافظ ابن سيد الناس من طريق الواقدي بسنده الى وهب ابن زمعة عن عمته قالت: كُنّا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به أمه أمنة ﷺ كانت تقول: ما شعرت بأني حامل فيه، ولا وجدت له ثقله كما تجد النساء، فقال: هل شعرت أنك حملت؟

فكأنني أقول، ما أدري، فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها، وذلك يوم الاثنين، فكان ذلك مما أيقن عندي الحمل/ شرح المواهب اللدنية: الزرقاني وعن الزهري قال: قالت السيدة أمنة: لقد علقتُ به فما وجدت مشقة حتى وضعتهُ/ الطبقات الكبرى: ابن سعد

أمّا خبر حمل السيدة أمنة بوليدها، ففي ديار الحجاز كانت قد علمت الكهنة بذلك نظراً لكثرة هطول بركات السماء وبزوغ بركات الأرض، حيث إن العرب كان قد أصابهم قحط ومخمصة، وعند حمل السيدة بوليدها ﷺ نزل المطر وكثرت النعم عليهم حتى سميت تلك السنة بسنة الأنقع، (سنة الأنقع: يعني سنة نزول المطر وارتواء الأرض والناس والدواب من الماء) / منتهى الآمال: الشيخ عباس القمي.

هل الاحتفال بذكرى ولادة رسول الإنسانية يعتبر شركاً ؟

يعتبر ابن تيمية الحراني ومن سار على دربه وهم الوهابية حرمة الاحتفال بذكرى ولادة الرسول الأكرم ﷺ ويعتدونه شركاً، ويمنعون زيارة قبره الشريف ويعتبرونه ميتاً وقد انتهى دوره في هذه الحياة الدنيا..

إنهم بطريقتهم هذه يخالفون القرآن والسنة والعقل، وما تعارفت عليه الأمة من عامها وخاصها، ولا بد من التعرض لأهمها:

١- لقد ركز القرآن الكريم على ذكر الأنبياء والسلام عليهم بعد التحاقهم بالرفيق الأعلى لبيان عظيم منزلتهم والافتداء بسيرتهم، وكما قال تعالى: (سلام على نوح).. (سلام على إبراهيم).. كما وسلم على غيرهما من الأنبياء والمرسلين..

٢- في الصلاة اليومية حيث نختتم بالسلام على الرسول المصطفى ﷺ وعلى عباد الله الصالحين بقولنا: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين..)، وقد التحق الرسول المصطفى بالرفيق الأعلى ونحن نسلم عليه في كل صلاة ولا تصح الصلاة الا بالسلام عليه ﷺ.

٣- قال تعالى في كتابه الكريم في شخصية المصطفى ﷺ: (ورفعنا لك ذكرك) وقد أصبح ذكره ﷺ في الإذان وفي الإقامة صباحاً ومساءً الى قيام يوم الدين.. (أشهد أن محمداً رسول الله)..

٤- كيف تكون دعوة الأموات شركاً وقد ورد في القرآن بأنهم أحياء عند ربهم: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون).

وقال تعالى في كتابه الكريم: (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون).

٥- ورد في الأخبار المتواترة بأن المصطفى ﷺ بعد واقعة بدر كان يكلم أبدان المشركين التي فارقت أرواحهم الدنيا، فسأله أحد المسلمين: وهل يسمعوننا؟.. فرد عليه ﷺ ما مضمونه: أنهم يسمعون الكلام .

٦ - لقد احتفل حوارى عيسى على نبينا وعليه السلام بنزول مائدة من السماء كما ورد في القرآن الكريم: (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين).. فلماذا الاحتفال بمبعث الرسول ﷺ حرام كما يدعي الوهابية؟

٧ - أن الغرب يعظمون ويقدمون عظاماً لهم وعلماءهم ومفكريهم ويجعلون لهم قبوراً ومزارات لكي يستذكرونها ويقفون إجلالاً لمكانتهم وما قدموه خدمة للبشرية فما الضير في ذلك بمن أنقذ البشرية من الضلال وعبودية الأصنام وهوى النفس بأن نحقق في ذكرى مولده الشريف؟

٨- هذا بالإضافة الى أن زيارة قبر الرسول الأكرم ﷺ تعتبر من العبادات، فقد أجمعت الأمة الإسلامية إلا من شذ عنها بأن زيارة قبر الرسول المصطفى ﷺ تعتبر من أعظم العبادات، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة عند الخاصة والعامة ومنها: قاله ﷺ: (من زار قبري وجبت له شفاعتي).

وورد عنه ﷺ أيضاً: (من زارني في حياتي أو بعد مماتي فقد زار الله).
وورد في سنن الدارمي في باب ما أكرم الله نبيه بعد موته: (قحط لأهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا الى عائشة، فقالت: انظروا قبر النبي فاجعلوا منه كوا للسماء (فتحة في أعلى الغرفة) حتى لا يكون بينه وبين الله سقف، فمطرنا حتى نبت العشب)، وسمي ذلك العام بعام الفتق.

وورد في مسند أحمد بن حنبل أنه: أقبل مروان بن الحكم يوماً فوجد رجلاً واضعاً خده على قبر النبي ﷺ، فقال مروان له: أتدري ما تصنع؟.. فأقبل فإذا هو الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري.

فقال: نعم، جنت رسول الله ولم آتي الحجر.. ثم قال أبو أيوب الأنصاري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تيكوا على الدين إذا ولي أهله، ولكن ايكوا إذا تولوا غير أهله. كما ورد أن كعباً دخل على عائشة، فذكر رسول الله ﷺ، فقال كعب: ما من يوم يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بقبر النبي ﷺ يضربون بأجنحتهم ويصلون على رسول الله ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم، فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انتشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه/ سنن الدارمي

وروى بسنده عن وهب بن منبه ما لفظه: من حج فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي.

وأخرجه الطبراني والبيهقي عن ابن عمر. وفي كنز العمال ولفظه: من زار قبري وجبت له شفاعتي.

وأخرجه البيهقي عن ابن عمر. وفي كنز العمال ولفظه: من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً - أو شفيعاً - يوم القيامة، قال: أخرجه البيهقي عن انس.

وفي كنز العمال: قال رسول الله ﷺ: (من جاءني زائراً لا يعلم له حاجة إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة).. ورواه الطبراني في الاوسط والكبير والهيثمى في مجمعه.

وبهذا يتضح أن الفكر المتطرف لابن تيمية الحراني ومن سار على دربه من الوهابية (نسبة الى محمد بن عبد الوهاب) أصبح فكراً سياسياً، وبالتالي فهو بعيد كل البعد عن الاستنباط الفقهي وفق الفرق الإسلامية المعروفة.

الشخصيات التي قامت برعايته وتربيته عليه السلام:

إن أهم من قام برعايته وتربيته عليه السلام هو جده عبدالمطلب بن هاشم وعمه أبو طالب، وهنا لا بد من التعرض لإيمانهم بالله وعدم سجودهم لأي صنم، فقد كانوا موحدين بالله تعالى وكما ورد ذلك في كتب التاريخ وأصحاب السير.

عبدالمطلب بن هاشم (جد النبي عليه السلام):

ولد عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي رضوان الله عليه في المدينة المنورة سنة ١٢٧ قبل الهجرة، واسمه شيبية الحمد، وكان سيد العرب وسيد الوادي وسيد قريش وحكيمها وعالمها، وُلد وفي رأسه شيبية فقيل له: شيبية الحمد - رجاء أن يكبر ويشيخ ويكثر حمد الناس له- وقد حَقَّقَ اللهُ ذلك فكثر حمدهم له، لأنه كان مَفْرَع قريش في النوائب، وملجأها في الأمور.

زعامة هاشم: إنَّ عبدالمطلب هو ابن هاشم الذي هو أكبر أبناء عبد مناف واسمه عمرو العلاء، وإنما سمي هاشم لأنه أول من هشم الثريد لقومه وأطعمهم، ويمتاز بشخصية قوية ونفوذ واسع لما قَدَّم من خدمات لقومه وما أوجد من مشاريع خدمية للناس، ومن مشاريعه حفر الآبار مثل بئر (سجله) وبئر بدر وغيرها.

وهاشم أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء للحبشة، ورحلة الصيف الى غزة وبلاد الشام. وهاتان الرحلتان ذكرهما القرآن الكريم في سورة إيلاف، وكان هاشم موحداً لله وعلى دين إبراهيم عليه السلام.

منزلته الاجتماعية: لقد كانت لعبدالمطلب الرفادة والسقاية وحكمته قريش بأموالها، وكانت له إبل كثيرة يجمعها في المواسم ويسقي لبنها بالعسل في حوض من أدم عند زمزم، ويشترى الزبيب فينقعه في ماء زمزم ويسقيه الحُجَّاج.

لقد أفاض الله عليه من الشرف ما لم يُعْطَ أحداً، وكان فصيح اللسان، حاضر القلب، وكان طيب الرائحة تفوح منه رائحة المسك، وكان نور النبي المصطفى عليه السلام يضيء من عُرتِه.

إيمانه رضوان الله عليه:

لقد كان رضوان الله عليه مؤمناً بالله تعالى وباليوم الآخر، ويؤيد ذلك ما ورد في قوله للناس: (لن يخرج من الدنيا ظلم حتى ينتقم الله منه ويصبيه بعقوبة..) وورد عنه قوله: (فوالله إن وراء هذه الدار داراً، يجزى المحسن بإحسانه، والمسيء يعاقب على إساءته).

لقد رفض عبادة الأصنام، ونهى عن أكل ما يُذبح على النصب، ودعا الى توحيد الباري عزَّ وجلَّ، والى صلة الأرحام، واصطناع المعروف، والاتصاف بمكارم الأخلاق وهذه من التعاليم الحنفية.

وكان يختلي كثيراً بغار حراء ليجمع فكره وقلبه في الاستغراق بالتفكير بصفات الله وأفعاله الدالة عليه، فإذا دخل شهر رمضان سعد غار حراء بعد أن يأمر بإطعام المساكين، وتخلّى عن الناس مفكراً في جلال الله وعظمته، وكان عبدالمطلب اول من طيب غار حراء بذكر الله، فإذا استهل رمضان سعد حراء، وأطعم المساكين ورفع من مائدته الى الطير والوحوش في رؤوس الجبال.

وهو وحده الذي يدبّر أمر السقاية ورعاية الحجيج، فقد حفر بنز زمزم في المكان المطلوب بعدما جاءه الهاتف: أحفر زمزم، لا تنزف أبداً ولا تدم، تسقي الحجيج الأعظم وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النحل.

لقد طلب عبدالمطلب من الله أن يرزقه عشرة أبناء وقد نذر الله نذراً إن رزقه ذلك أن يجعل أحدهم قرباناً لله، وقد رزقه الله بعشرة اولاد، وأراد ذبح أحد أبناء العشرة وفاءً بنذره، ووقعت القرعة على عبدالله والد الرسول المصطفى ﷺ فيعود عبدالله منتصراً حيث يفديه عبدالمطلب بعشرة من الابل، وتقع عليه القرعة واستمرت حتى فداه بمئة من الإبل وهي دية القتل في الإسلام.. وهكذا بقي عبدالله ليكون له وليد فيما بعد ليصبح سيد الاولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين وصاحب الرسالة الإسلامية الخالدة والخاتمة لجميع الرسالات السماوية.

موقف عبدالمطلب من أصحاب الفيل: عندما جاء أبرهة الأشرم لهدم الكعبة في حادثة أصحاب الفيل، قابله عبدالمطلب وطلب منه أن يردّ عليه إبله التي أخذها الجيش، فقال أبرهة:

ألا تطلب منّي أن أعود عن هدم البيت (أي الكعبة)؟ .. فأجابه عبدالمطلب بكلمة الإيمان الراسخ: أما الإبل فإننا ربّناها، وأما البيت فإن له ربّاً يحميه، وأمسك عبدالمطلب بحلقة باب الكعبة وناجى ربّه قائلاً:

يا ربّ لا أرجو لهم سواكا
يا ربّ فامنّع منهم حماكا
إن عدوّ البيت من عاداكا
امنعمهم أن يُخربوا فناكا

ثمّ عبّ بقوله مخاطباً قريش:

يا معشر قريش: لا يصل الى هدم هذا البيت، فإن له ربّاً يحميه ويحفظه.
ولقد حدث فعلاً ما تتبأ به فأهلك الله أبرهة وجيشه، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في سورة الفيل بقوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ لِكَيْدِهِمْ فِي تَضَلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ).

وكانت الحادثة في السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ولأجل ذلك قالوا: ولد النبي عام الفيل وكانت من مبادرة عبدالمطلب رضوان الله عليه.

ولقد سنَّ عبدالمطلب كثيراً من السنن التي أقرها الإسلام: كقطع يد السارق، وفرض الدية مائة من الإبل، والوفاء بالنذر، ونهى أن يطوف في البيت (الكعبة) عريان، وحدد الطواف بسبعة أشواط، وحرّم الخمر والزنا ونكاح المحارم، ونهى عن وأد البنات، وكان اول من أخرج الخمس، وكان يأمر اولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن مساوئ الأمور.

كرمه رضوان الله عنه:

كان رضوان الله عليه كثير العطاء وقد نُقِبَ بالفتياض مُطعم الوحش والطيور ولشدة كرمه أطلقت عليه العرب إبراهيم الثاني، وكذلك للخصال الحميدة التي تجتمع فيها ومن أقوال المعصومين عليه فيه:

١- ورد عن رسول الله ﷺ: (قال لي جبرائيل: إن الله مشفّعك في سنة: بطن حملتك - أمانة بنت وهب - وصُلب أنزلك - عبدالله بن عبدالمطلب - وحجر كفلك - أبو طالب - وبيت أوك - عبدالمطلب - وأخ كان لك في الجاهلية وتدي أرضعتك - حليلة بنت أبي ذؤيب -).

٢- ورد عن الأصمغ بن نباتة، قال: سمعت علياً عليه يقول: (والله ما عبد أبي ولا جدّي عبدالمطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط)، قيل له: فما كانوا يعبدون؟ فقال عليه: (كانوا يصلّون الى البيت، على دين إبراهيم عليه متمسكين به).

٣- وقال الإمام الصادق عليه: يُبعث عبدالمطلب أمة وحده، عليه بهاء الملوك، وسيماء الأنبياء.. وإنه اول من قال بالبداء. . وورد عنه عليه: وكان عبدالمطلب قد أرسل رسول الله ﷺ الى رعاته في ابل قد نذت له (أي نفرت وذهبت على وجهها شاردة) فجمعها فأبطأ عليه، فأخذ بحلقة باب الكعبة وجعل يقول:

يا رب أتهلك ألك؟ .. إن تفعل فأمر ما بدا لك.

وقوله رضوان الله عليه (أتهلك ألك)، أي أتهلك من جعلته أهلك، ووعدت أنه سيصير نبياً، ثم تفتن بامكان البداء فقال: إن تفعل فأمر آخر بدا لك فيه، فظهر أنه كان قانلاً بالبداء.

فجاء رسول الله ﷺ بالإبل، وقد وجّه عبدالمطلب في كل طريق، وفي كل شعب في طلبه، ولما رأى رسول الله ﷺ أخذه فقبله، وقال: يا بُني، لا وجهتك بعد هذا في شيء، فإني أخاف أن تُغتال فتقتل.

والاغتيال: هو أن يخدع ويقتل في موضع لا يراه أحد.

كفالتة للنبي المصطفى ﷺ:

كفل النبي ﷺ بعد وفاة أبيه عبدالله، وقام بتربيته وحفظه أحسن قيام، ورقّ عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه، ولا يأكل طعاماً إلا أحضره، وكان يدخل عليه إذا خلا وإذا نام، ويجلس على فراشه فيقول: دعوه، ولما صار عمره ﷺ ست سنين، أخرجته أمّه الى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به، ومعه أم أيمن، فبقيت عندهم شهراً، ثم رجعت به أمّه الى مكّة، فتوقّيت بالأبواء بين المدينة ومكّة، فعادت به أم أيمن الى مكّة الى جدّه عبدالمطلب، فبقي في كفالتة حتى وفاته رضوان الله عليه.

يقينه رضوان الله عليه بالنبوة:

كان شديد اليقين بنبوة محمد ﷺ وأنه نبي مرسل من قبل الله عزّ وجلّ، وقد فرح كثيراً بولادته وأنشد يقول:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالله ذي الأركان
حتى أراه بالغ الثنيان أعيذه من شرّ ذي شنان
من حاسد مضطرب العنان

وصاياها بالنبي المصطفى ﷺ:

كان قبل وفاته كثيراً ما يوصي ولده أبا طالب بمحمد ﷺ قائلاً:
يا بني: تسلّم ابن أخيك، فإنت شيخ قومك وعاقلمهم، ومن أجّد فيه الحجى دونهم، وهذا الغلام تحدّثت به الكهّان، وقد روينا في الأخبار أنه سيظهر من تهامة نبيّ كريم، وقد روي فيه علامات قد وجدتها فيه، فأكرم مثواه واحفظه من اليهود فإنهم أعداؤه .
فأجابه أبو طالب: قد قبلت، والله على ذلك شاهد. ثمّ مدّ يده إليه، فضرب بها على يد ابنه أبي طالب قائلاً: الآن خُفّ عليّ الموت، وودّعه عبدالمطلب وهو يقبله قائلاً:
أشهد اني لم أر أحداً في ولدي أطيب ريحاً منك، ولا أحسن وجهاً.

تاريخ وفاته رضوان الله عليه ومكانته عند الناس:

توفي عبدالمطلب رضوان الله عليه في ربيع الاول لسنة ٤٥ قبل الهجرة في مكّة المكرمة، ودُفن بمقبرة الحجون في مكّة. قال اليعقوبي في تاريخه: وأعظمت قریش موته، وغُسل بالماء والسدر وكانت قریش اول من غسل الموتى بالسدر، وأُفّ في خلتين من حلل اليمن قيمتهما ألف مثقال ذهب، وطُرح عليه المسك حتى ستره، وحُمّل على أيدي الرجال عدّة أيام إعظماً وإكراماً وإكباراً لتغيبه في التراب.

أبو طالب بن عبدالمطلب عم الرسول ﷺ :

هو أبو طالب (عبد مناف) بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لوي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وأمه فاطمة بنت عمرو من بني مخزوم..

نشأته: نشأ أبو طالب في بيت كريم ورأى في أبيه عبدالمطلب ذلك الزعيم المطاع والرجل المهاب، والذي لُقّب بالفتياض ومطعم طير السماء، وهو مرضيٌّ عنه في السماء ومحمود في الأرض، فدُعي (شبيبة الحمد)، وهو عميق الإيمان لم يفارق الحنيفية البيضاء، ولم يخالجه الشك فيما جاءت به ملة إبراهيم ﷺ، وصدق دعوته التي وُحِّد فيها الرب الأعظم، فهو يرفض أن يسجد لصنم، وأنه ليُحرّم الخمر على نفسه ويحرّم نكاح المحارم، ويحدد الطواف بالبيت سبع مرات بعد أن كانت غير محدودة، ويحرم الزنا وينهى عن الوأد، وأكل ما يذبح على النُصب ويسن الوفاء بالنذر، ويجيء الإسلام فيُفقر كل هذه السنن التي سنّها عبدالمطلب، وأن أبا طالب ليسمع أباه في نجواه يوم جاء أبرهة لهدم الكعبة وهو يقول:

(اللهم أنيس المستوحشين، ولا وحشة معك فالبيت بيتك، والحرم حرمك والدار دارك، ونحن جيرانك، إنك تمنع عنه ما تشاء، ورب الدار أولى بالدار) ثم انشأ يقول:

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم جماكا

إن عدوّ البيت من عاداكا إنمنعهموا إن يخرّبوا فناكا

لقد صودرت لعبدالمطلب الأبل التي كانت له وكان جوابه : أنا ربّ الإبل، وللبيت ربّ يحميه.

ثم دعى الله فإذا بالطير الأبايل تحلق في السماء لتقذفهم بالحجارة.

وهذا يكشف بوضوح عن إيمان عبدالمطلب بالله تعالى وتوكله على الله تعالى .

لقابه: لقب أبو طالب بالقاب أشهرها: شيخ البطحاء، شيخ الأباطح، ومؤمن قريش.(وهذا ما يدل على إيمانه بالله). . لقد تولى أبو طالب زعامة قريش بعد أبيه عبدالمطلب ويمكن ملاحظة الأمور التالية في شخصيته:

١- أن أبا طالب لم يكن أكبر أخوته، مع أن العمر كان له حينئذ تأثيره في تحديد المواقع وتقويم الرجال لاستلام المناصب المتقدمة .

٢- كان أبو طالب كريما لا يذخر الا القليل من ماله، مع أنه لم يكن يتبوء سدة الزعامة في قريش في الجاهلية إلا من كان مستندا الى ثراء وغنى كبيرين وظاهرين.

٣- لقد كان بين إخوانه من هو فعلا على غنى وثراء واسع وهو العباس بن عبدالمطلب.

وكل هذه أمور تجعل أبا طالب عظيما وفذا في زعامته لقريش، مما يؤكد أنه كان على مواهب وصفات ألغت التأثير المعاكس لكل هذه العوامل الثلاثة بالنسبة له، وأتاحت له أن يتصدر قومه ويسودهم دون منازع، فلقد كانت له من مكارم الصفات ومعالي السجايا والأخلاق، ما جعله محل احترام الجميع ومحبتهم، وقد غلبت عليه كنيته حتى لم يعرف أن أحدا كان يناديه باسمه الأصلي (عبد مناف) أبدا.

لقد كانت شخصية أبو طالب القوية تسيطر على النفوس بطهارتها واستقامتها وترفعها عن الدنيا وأنه مع ذلك، كان شاعرا مجيدا، فأضاف الى تأثيره بالشخصية تأثيره باللسان وسحر البيان. ولقد خلف أبو طالب أباه عبدالمطلب في كل مناصبه ومكانته، ولكن كثرة انفاقه وكرمه جعله يكل الى أخيه العباس شان السقاية وأعبائها نظرا لما كان له من ثراء واسع، يعينه على أن ينهض بمهمتها بصورة أحسن تتناسب مع ما اعتاده بنو هاشم من إكرام ضيوف البيت الحرام من الحجيج.

ومما يؤثر عن حكمته وحسن تقديره أنه كان اول من سن القسامة في العرب قبل الإسلام، وذلك في دم عمرو بن علقمة، ثم جاء الإسلام فأقرها.

كفالته للنبي ﷺ: كان أبو طالب الأخ الشقيق الوحيد لعبدالله والد النبي، وقد عهد إليه والده عبدالمطلب بكفالة النبي ﷺ، فكان عند حسن الظن به خوفا عليه، وانعطافا إليه، ورعاية له وعناية به، حيث لم يجعله فقط كواحد من أبنائه، بل كان يقدمه عليهم أجمعين، وكان مما زاد في حبه له، واهتمامه بشانه وحرصه عليه أن جميع الدلائل كانت ترهص بأن له شانا في المستقبل وكان من ذلك:

اولا: ما يرويه ابن إسحاق: من أن رجلا قانفا من لهب، كان إذا قدم مكة أتاه رجال قریش بغلمانهم ينظر إليهم، ويتفرس في وجوههم، فاتاه أبو طالب بالنبي وهو غلام فنظر إليه.. ثم قال بعد فترة ردوا علي هذا الغلام الذي رأيت أنفا، فوالله ليكون له شأن، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه، غيبه عنه.

ثانيا: ما سمعه أبو طالب من بحيرى الراهب، إذ قال له: ارجع بابن أخيك الى بلده، وأحذر عليه اليهود، فوالله لو راوه، وعرفوا منه ما عرفت ليبيغينه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به الى بلاده.

ثالثا: ولقد سبق أن سمع أبو طالب من والده عبدالمطلب في شانه صدقه كلام القائف والراهب من بعده، فكان لهذا أثره الكبير في أنه صار على أتم الثقة من أنه سيكون له شأن عظيم.

رابعا: ولقد بقي محمد ﷺ في بيت عمه أبي طالب، محل الإعزاز والإكرام والاهتمام والعناية الى أن انتقل الى بيت الزوجية حيث بنى بخديجة بنت خويلد إحدى كرائم مكة، ومعالم ثرائها في تلك الأيام، ولعل مما يشير الى مكانة النبي عند أبي

طالب وتقديره له أن نستمع إليه وهو يخطب في حفل زواج النبي من السيدة خديجة إذ يقول:

(إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله، من علمتم قرابته وهو لا يوزن بأحد إلا رجحه: شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، فإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي، ومحمد بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل).

على أن أبا طالب لم يكن يصدر في تقديره لمحمد ﷺ عن مجرد الحب والقرابة بينهما، أو مجرد الإعجاب بمحامد الصفات، وجميل السجايا، وكريم الأخلاق، التي كان يتحلى بها النبي، وإنما كان عن إكبار وإجلال وتقدير واحترام على ما كان بينهما من فارق السن ودرجة القرابة لشخصية النبي ﷺ فكان وهو كافلة وحاميه، يمدحه بالقصائد التي لا يمدح بمثلها إلا الملوك والعظماء ومنها قوله:

وتلقوا ربيع الأبطحين محمدا على ربوة من فوق عنقاء عطيل
وتأوي إليه هشام أن هاشما عرانيين كعب، آخرا بعد أول
وكذلك قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يطوف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

ويقول علي بن يحيى البطريق في بيان سر ذلك: (لولا خاصة النبوة وسرها، لما كان مثل أبي طالب وهو شيخ قريش ورنيسها وذو شرفها يمدح ابن أخيه محمدا ﷺ، وهو شاب قد تربى في حجره، وهو يتيمه ومكفوله، وجار مجرى اولاده. فإن هذا الأسلوب من الشعر لا يمدح به التابع من الناس، وإنما هو مديح الملوك والعظماء، فإذا تصورت أنه شعر أبي طالب، ذلك الشيخ المبجل العظيم، في محمد ﷺ وهو شاب مستجير به، معتصم بظله من قريش، قد رباه في حجره، علمت موضع خاصة النبوة وسرها، وأن الله تعالى أوقع في القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكانا جليلا).

ولم يكتف أبو طالب بهذا وإنما وقف حياله ﷺ منذ بعثته يعينه وينصره ويحميه دون أن يلقي تفكيراً بما يترتب على ذلك من مشاق ومتاعب مادية ومعنوية، وظل على ذلك حتى انتقل إلى آخرته، وحينما تألبت قريش كلها ضد ابن أخيه، وواجهوا أبا طالب في هذا، لم يلبس ولم يهن ودعا بني هاشم وبني عبدالمطلب إلى مشاركته في منع الرسول والقيام دونه، فأجمعوا إليه، وقاموا معه، فسّر بذلك وطابت نفسه، وتفجرت مشاعره بمدحهم، ويفخر بهم، وذلك إذ يقول:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبد منافسها وصميمها

وإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا هو المصطفى من سرها وكريمها
وحيثما أحس بأن روح الشر التي سيطرت على قريش قد تجاوزت حدودها، بعد أن
ذاع أمر النبي بين القبائل وخشي أن تتضمن دهماء العرب ورعاها إلى المخالفين
من قومه، مما لا قبل له به، توجه مع وفد من بني هاشم، إلى البيت متعوذا بحرمته
ومكانته، وبما يصوره بقوله:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طأوعوا أمر العدو المزابل
وقد حالقوا قوما علينا أظنة يعضون غيظا خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمرء سمحة وأبيض غضب من تراث المقاول
وأحصرت عند البيت رهطي واخوتي وامسكت من أثوابه بالوصلات
أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوء أو ملح بباطل
وبالبيت -حق البيت- من بطن مكة وبالله، إن الله ليس بغافل
فهل بعد هذا من معاذ لعائد وهل من معيذ يتقي الله عادل

ولقد كان آخر سهم في جعبة قريش ضد أبي طالب ومن معه في حماية النبي
ﷺ هو فرض الحصار والمقاطعة لبني هاشم، لا يتناكحون معهم، ولا يبايعونهم،
فقبل بنو هاشم ذلك التحدي وانحازوا إلى شيخهم وكبيرهم أبي طالب في شعبه، ولم
يشذ منهم في ذلك إلا شقيهم أبو لهب واستمر الحال على ذلك ثلاث سنوات صمدوا
خلالها وثبتوا رغم الجوع والإملاق الذي أصابهم حتى هيا الله انتهاء هذا الحصار.

إيمان أبي طالب رضوان الله عليه: لقد كان أبو طالب رضوان الله عليه ممن يكتف
إيمانه حتى يتمكن من الدفاع عن الرسول الأكرم ﷺ، كمؤمن آل فرعون وأصحاب
الكهف، وتعبير الإمام الصادق (عليه السلام): (كتموا إيمانهم فأتاهم الله سبحانه مرتين ثواب
الإيمان وثواب الكتمان).

والتاريخ مليء بالتواتر المعنوي عن تصريحات أبي طالب النثرية والشعرية
ومواقفه الدفاعية عن رسول الله ﷺ، وعن الرسالة الإسلامية بعد إيمانه بالله تعالى
عند المؤلف والمخاف، وذلك من خلال أبياته الشعرية إذ نلتمس ثبات موقفه وحبّه
للرسول ﷺ كنبى من انبياء الله سبحانه. ومما يكشف عن تلك المواقف قوله:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

وقوله: ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا نبيا كموسى خط في اول الكتب

وقوله: فأيده رب العباد بنصره وأظهر دينه حقه غير باطل

لقد علموا أن أبنا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل وقوله:

فمن مثله في الناس إلا مؤمل إذا قاسه الحكام عند التفاضل

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى اوسد في التراب دفينا وقوله:

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وأبشر وقر بذاك منك عيوننا

وقوله: يا شاهد الله علي فاشهد إني على دين النبي أحمد

فهو في هذه الأبيات كلها يصدق محمدا ﷺ، ويؤمن بنبوته ودينه، ومن ثم تصدى لنصرته بكل غال ونفيس في سبيل الله واعلاء كلمة الله تعالى. هذا وقد روي في الأخبار الثابتة أنه:

١- لم ينكر على ابنه علي ﷺ إيمانه بدين محمد ﷺ، ولم يزجره على ذلك، او ينهه عنه، بل أقره عليه، مع ما يعلمه بما يعرضه ذلك للمتاعب والأهوال .

٢- لما رأى النبي ﷺ وعلياً ﷺ يصلي خلفه عن يمينه وكان معه ولده جعفر قال لجعفر: صل جناح ابن عمك، فصل عن يساره، مما يدل دلالة واضحة على إسلامه فعلا، وإلا لما أقر لابنه علي على إسلامه وصلاته، ولما أمر ابنه الثاني جعفرا بأن ينضم الى أخيه في الصلاة، وهي عمود الإسلام.

فالولد هو أعز ما يحرص الإنسان على تنشئته وفق آرائه ومعتقداته، بل وعاداته ، وبخاصة في ذلك الزمان، وكذلك في تلك البيئة القبلية، بل كان هذا هو دين الناس في تلك الفترة كما سجّله القرآن عنهم، قال تعالى: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون). ويزيد هذا تأكيدا أن أبا طالب أنشد حينئذ شعرا سجل فيه سعادته بذلك، يقول فيه:

إن عليا وجعفرا ثقتي عند ملم الزمان والنوب

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما أخي لأمي من بينهم وأبي

والله لا أخذل النبي ولا يخذله من بني ذو حسب

فهو لا يكتفي بأمرهما بالصلاة خلف النبي ﷺ فحسب، وإنما هو يمدحهما ويثني عليهما في ذلك، يأمرهما بنصرته وعدم خذلانه، ويقسم على ألا يصدر منه، ولا من أحد بنيه، خذلان له أبداً.

٣- أن زوجته فاطمة بنت أسد (أم علي وجعفر) كانت ثاني امرأة تعلن إسلامها لأنها كانت على الحنفية، بعد خديجة الكبرى، زوجة رسول الله، فكيف يوافق الرسول المصطفى أن تبقى مع أبي طالب إن لم يكن مسلماً؟

هذا بالإضافة الى ما هو معلوم من تأثير كل أم على بنيتها ذكورا وإناثا ومع ما هو معلوم أيضا من أن تقاليد ذلك الزمان كانت تقضي بالألا يقر الزوج زوجته إذا خرجت عن عقيدته الى عقيدة أخرى، ومن ثم فكيف يتصور أن يقرها أبو طالب وهو من هو في قومه على إسلامها، بينما يكون هو باقيا ومصرا على أن يكون على غير الإسلام؟

٤- لما علم أن قريش عملت على الدس لدى نجاشي الحبشة ضد مهاجري المسلمين لارجاعهم إليها، كتب إليه كتابين من الشعر، نبهه في أحدهما الى هذا الدس وأغراه بأن يكون على الأمل في شهامته وبسط جواره على كل من يلجأ الى حماه، وذلك إذ يقول فيه:

تعلم أبيت اللعن أنك ماجد كريم فلا يشقى لديك المجانب

تعلم بأن الله زادك بسطة وأسباب خير كلها بك لازب

وأنك فيض ذو سجال عزيزة ينال الأعداي نفعها والأقارب

ويدعوه في ثانيهما الى الإسلام .. كما جاء فيه من قوله:

تعلم ملئك الحبش أن محمدا نبي كموسى والمسيح ابن مريم

أتى بالهدى مثل الذي أتيا به فكل بأمر الله يهدي لمعصم

وانكم تتلون في كتابكم بصدق حديث لا حديث المرجم

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا فإن طريق الحق ليس بمظلم

فهل من يدعو الى الإسلام هو غير مسلم ؟

٥- لما علم بتظاهر قريش على الرسول ﷺ قال :

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا نبيا كموسى خط في اول الكتب

فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا لعزاء من عض الزمان ولا كرب

٦- لما بلغه أن أحد المشركين وضع أقداره على ظهر النبي ﷺ، وهو ساجد في الصلاة، وأنه يسخر من حركاته فيها ويظاهاه في هذه السخرية بعض الحاضرين، جاء مسرعا مغضبا الى حيث يوجد النبي حينئذ، وسأل من فعل به هذا، فلما علم أنه الشاعر ابن الزبيري لطمه لطمه أدمته، وألقى عليه نفس القاذورات، ولو بث بها لحبيه أمام الحاضرين من مشركي قريش، ثم توجه الى النبي ﷺ في عطف وحنان فقال له: أرضيت؟.. ولم يلبث ان جادت قريحته بشعر يتحدى فيه كل من يقف في وجه النبي ﷺ، ودعوته الى دينه، يقول فيه:

أنت النبي محمد قدما أعز مسود

أنى تضام ولم أمت وأنا الشجاع العربيد

وبطاح مكة لا يرى فيها نجيع أسود

وبنو أبيك كانهم أسد العرين توقدوا

نعم الأرومة أصلها عمرو الحطيم الاوحد

ولقد عهدتك صادقا بالقول لا تتزيد

ما زلت تنطق بالصواب وأنت طفل أمرد

ما قيل في أبي طالب ﷺ :

روي عن علي ﷺ: أن نور أبي يوم القيامة يطفى أنوار الخلائق إلا خمسة أنوار، نور محمد ﷺ ونوري، ونور الحسن والحسين، ونور تسعة من ولد الحسين. وروي أيضاً: أن مثله كان مثل أصحاب الكهف، وأنه كان مستودعاً للوصايا، فدفعتها إلى رسول الله ﷺ.

وقال الصدوق: روي أن عبدالمطلب كان حجة، وأن أبا طالب كان وصياً. وقال المجلسي: كان من اوصياء إبراهيم، وفي روضة الواعظين: أن جابراً قال لرسول الله ﷺ: يقولون أن أبا طالب مات كافراً. قال ﷺ: يا جابر، الله أعلم بالغيب، أنه لما كانت الليلة التي أسري بي إلى السماء انتهيت إلى العرش، فرأيت أربعة أنوار، فقلت: إلهي، ما هذه الأنوار؟ فقال: يا محمد، هذا عبدالمطلب، وهذا أبو طالب، وهذا أبوك عبدالله، وهذا أخوك طالب. فقلت: إلهي وسيدي، فيم نالوا هذه الدرجة؟ قال: بكتانهم الإيمان، وإظهارهم الكفر، وصبرهم على ذلك حتى ماتوا.

وهكذا يبقى إيمان أبي طالب واضحاً وجلياً لمن أراد أن يعرف حقيقة شخصية أبي طالب رضوان الله عليه ودفاعه عن الدين الإسلامي وعن صاحب الرسالة الخالدة؛ لكي لا نبخسه حقه، والذي يعتبر أحد الأقطاب الذين حافظوا على إبقاء الرسالة الإسلامية، فقد ورد في الروايات أن الفضل يرجع في بقاء الدين إلى ثلاثة: أبي طالب وخديجة وعلي سلام الله عليهم أجمعين، فقد ورد: (لولا منعة أبي طالب، ومال خديجة، وسيف علي لما كان للإسلام أثر).

وأخرج ابن الجوزي السيوطي عن علي ﷺ عن الرسول الأكرم ﷺ: (هبط جبرئيل ﷺ فقال: إن الله يقرئك السلام ويقول: حرمت النار على صلب أنزلك ووطن حملك وحجر كفلك)، فأما الصلب فأبوه عبدالله وأما البطن فأمه أمنة بنت وهب وأما الحجر فعمه أبو طالب وفاطمة بنت أسد أم الامام علي رضوان الله عليهم أجمعين.

وفاته رضوان الله عليه: استمرت مناصرة أبي طالب للنبي الأكرم منذ بعثته من دون ضعف أو وهن ولا تخلّى بحال من الأحوال، حتى ارتفعت روحه الطاهرة من الدنيا، وذلك في السنة الثالثة قبل الهجرة، وكان ذلك بعد الحصار المشار إليه بسنة ونصف تقريباً، بل إنه لم ينس وهو في آخر رمق من حياته أن يمارس نصرته للنبي ﷺ، فقد التفت إلى المحيطين به قبيل وفاته، فأوصاهم بالنبي المصطفى قائلاً:

(أوصيكم بمحمد خيرا، فإنه الأمين في قريش، والصادق في العرب، والجامع لكل ما أوصيكم به، والله لا يملك أحد سبيله إلا رشد، ولا يهتدي بهديه إلا سعد، ولو كان في العمر بقية لكففت عنه الهزاهز، ورفعت عنه الدواهي، إن محمدا هو الصادق فأجيبوا دعوته، واجتمعوا على نصرته، فإنه الشريف الباقي لكم على الدهر). وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه النصرة بقوله: (ما زالت قريش كاعّة عني حتى مات أبو طالب)، وبذلك فُجع الإسلام بفقد مؤمن قريش – أبي طالب – وذلك في السابع من شهر رمضان في العام العاشر للبعثة وقد سمي بعام الحزن. وقد روي أنه حين توفي أبو طالب هبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ وقال له أخرج منها (يعني مكة) فقد مات ناصرك، وجعل رسول الله ﷺ يمسح على جبينه الأيمن ثم الأيسر يفعل به كما كان يفعل معه، ثم قال: (رحمك الله يا عم، ربيت صغيراً وكفلت بيتياً ونصرت كبيراً فجزاك عني وعن الإسلام خيراً الجزاء). فسلام عليه يوم ولد ويوم لقي ربه مؤمناً ويوم يُبعث حياً.

محاولات اليهود للقضاء على الرسول والرسالة الإسلامية:

لقد حاول الكهنة والأخبار قتل عبدالله والد الرسول المصطفى ﷺ، فقال كبيرهم، ويسمى ريبان: اعملوا طعاما وضعوا فيه سما، ثم ابعثوا به الى عبدالمطلب، فصنعوا طعاما ووضعوا فيه سُمًا، وأرسلوه مع نساء متبرعات الى بيت عبدالمطلب، ولما خرجت إليهن فاطمة ورحبت بهن قلن: نحن من قرابتك من بني عبد مناف. فقال عبدالمطلب: هلموا الى ما خصكم به قرابتكم، فقاموا وأرادوا الأكل منه، وإذا بالطعام قد نطق بلسان فصيح، وقال: لا تأكلوا مني فإنني مسموم، وكان هذا من دلائل نور رسول الله ﷺ فامتنعوا عن أكله وخرجوا يقتفون أثر النساء فلم يروا لهن أثرا.

كما حاولت شخصيات من الأخبار قتل عبدالله بن عبدالمطلب مرة أخرى، فجاءوا من الشام الى مكة بصفة تجار، ومعهم سيوف مسمومة، وفي مكة تحينوا الفرصة لقتل عبدالله، فحصلوا على فرصتهم أثناء ذهاب عبدالله الى الصيد خارج مكة، ولما حاصروه واوشكوا على قتله أنجاه الله منهم بمساعدة بني هاشم، فقتل بعض الأخبار وأسر الآخرون.

لقد توفي عبدالله بن المطلب وعمره (١٧) سنة في ظروف مشكوكة وقال الكازروني في كتاب المنتقى: (ولد عبدالله لأربع وعشرين سنة مضت من ملك كسرى أنوشروان فبلغ سبع عشرة سنة ثم تزوج أمناة، فلما حملت برسول الله ﷺ توفي).

لقد توفي بعد عودته من تجارة الشام الى مكة، وتوفي في المدينة، ويحتمل أن اليهود سمّوه في الشام بعد فشلهم في قتله في مكة، رغبة في قتل رسول الله ﷺ وهو في صلبه، لكن الله سبحانه أفضل مسعاهم، ما دام المصطفى ﷺ في صلب عبدالله. ثم أفضل الله تعالى محاولاتهم لقتل النبي ﷺ، وبعدها أتم ﷺ تبليغ الرسالة والوصية الى علي عليه السلام تمكن المنافقون من اغتياله، وهذا ما سيتم التعرض له في الفصل الثاني عشر (الرسول ﷺ يلبى نداء السماء).

لقد اهتم الملك سيف بن ذي يزن بحياة الرسول ﷺ وذلك عندما وفد عبدالمطلب على سيف بن ذي يزن مع جلة قومه لما غلب على اليمن، فقدمه سيف عليهم جميعا وأثره، ثم خلا به فبشره برسول الله ﷺ ووصف له صفته فكبر عبدالمطلب وعرف صدق ما قاله سيف، ثم خر ساجدا، فقال له سيف: هل أحسست لما قلت نيا ؟ فقال له: نعم، ولد لابني غلام على مثال ما وصفت أيها الملك، قال: فاحذر عليه اليهود وقومك، وقومك أشد من اليهود، والله متم أمره ومعلي دعوته. وكان أصحاب الكتاب لا يزالون يقولون لعبدالمطلب في رسول الله منذ ولد، فيعظم بذلك ابتهاج عبدالمطلب، فزاد اهتمام عبدالمطلب بمحمد ﷺ ..

قال اليعقوبي: كان يُفرش لعبدالمطلب بفناء الكعبة، فلا يقرب فراشه حتى يأتي رسول الله، وهو غلام، فيتخطى رقاب عمومته، فيقول لهم عبدالمطلب: دعوا ابني، إن لابني هذا شانا، وكان أبو طالب يخشى اغتيال قريش للنبي ﷺ.

أسماءه ﷺ:

أما أسماء الرسول ﷺ فيعرفنا بها من خلال ما ورد عنه ﷺ فيقول: (لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي).

ومن الأسماء والالقب التي نُسبت له ﷺ في القرآن ما ذكره ابن شهر آشوب في المناقب والذي اوصلها الى أربع مائة اسم منها: العالم: (وعلمك ما لم تكن تعلم)، والحاكم: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكموك)، والخاتم: (وخاتم النبيين)، والعايد: (واعيد ربك)، والساجد: (وكن من الساجدين)، والشاهد: (إنا أرسلناك شاهدا)، والمجاهد: (يا أيها النبي جاهد الكفار)، والشاكر: (شاكرًا لأنعمه)، والصابر: (واصبر وما صبرك)، والذاكر: (واذكر اسم ربك)، والقاضي: (إذا قضى الله ورسوله)، والراضي: (لعلك ترضى)، والداعي: (وداعيا الى الله)، والهادي: (وإنك لتهدي)،

والقارى: (اقرأ باسم ربك)، والتالي: (يتلو عليهم)، والصادع: (فاصدع بما تؤمر)، والقانت: (أمن هو قانت)، والمعصوم: (والله يعصمك). وهكذا بقية الأسماء والألقاب: كالأمي والمزمل والمدثر والندير المبين، والكريم، والنور، والنعمة، والرحمة، والعبد، والرؤوف، والرحيم، والمبشر، والندير، وعبدالله، ومذكر، وطه، ويس، وغيرها.

فهذه نبذة من اسمائه والقابيه والحديث حولها يطول ويتشعب.

البعد الإلهي في أسماء الرسول الأكرم ﷺ:

إن مستوى البعد الإلهي المعنوي في أسماء الرسول الأعظم ﷺ هو أعلى ممّا نتصوّر، فهو لا يمكن أن يقاس بأحد من الناس، وتكفي لذلك أسماؤه الثلاثة (أحمد، محمّد، محمود)، وهذه الأسماء الثلاثة ترجع الى أصل واحد، ولكن لكلّ منها سرّ خاص فما هو السر في هذه التسمية؟

الحمد خاص بالله تعالى: ورد في أطيّب البيان: (أن غير الواجب الوجود من الممكنات ليست مؤهلة لأن تحمد لا من حيث الصفات ولا من حيث الأفعال، لأنها جميعاً صرف الحاجة والفقر والفاقة)، ثم قال: (ولو أردنا أن ننتزل من هذا المستوى الى مستوى أدنى، وأردنا أن نسري الحمد في الممكنات فالرسول ﷺ وأهل بيته الكرام هم الذين يستحقون الحمد).

وأما أصل هذه التسمية فهو راجع الى بداية خلق نوره، والأحاديث تؤكّد على ذلك فقد ورد في تفسير فرات بن إبراهيم الكوفي، عن أبي عبدالله ﷺ، قال: قال ﷺ: (إن الله تبارك و تعالى كان ولا شيء فخلق خمسة من نور جلاله، واشتق لكل واحد منهم اسما من أسمائه المنزلة، فهو الحميد وسمّاني محمّداً).

أحمد: وهذا الاسم يرجع الى العالم العلوي: وقد ورد ذكره في قوله تعالى: (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين).. فكان الآية تريد القول بأنه ﷺ هو أحمد، أي أكثر حمداً من عيسى وغيره من الأنبياء والله أعلم، وكلّ ذلك لا ينافي أن يكون هذا الاسم علماً للرسول ﷺ.

محمّد: وهو يدلّ على الكثرة والمبالغة في الحمد، فله ارتباط بعالم الظاهر، فالنبي الأكرم ﷺ قد وقع في معرض الحمد الإلهي الصادر من الأنبياء والملائكة والبشر والجن وسائر الموجودات حتّى الجمادات.

محمود: وفي دعاء جوشن الكبير، يا خير ذاكر ومذكور يا خير شاكر ومشكور يا خير حامد ومحمود يا خير شاهد ومشهود يا خير داع ومدعو يا خير مجيب ومجاب يا خير مونس وأُنيس يا خير صاحب وجليس يا خير مقصود ومطلوب يا خير حبيب ومحبيب.

فمن أراد أن يحمد فعليه أن يقول (يا خير الحامدين)، وينبغي أن يقصد من هذا الحمد، نفس (الحمد لله رب العالمين)، وفي دعاء الامام السجاد عليه السلام: (بسم الله كلمة المعتصمين ومقالة المتحرزين وأعوذ بالله تعالى من جور الجائرين وكيد الحاسدين وبغي الظالمين وأحمده فوق حمد الحامدين..)، وأي حمد هو فوق حمد الحامدين، إنما أراد به حمده لنفسه تعالى شأنه.

وقد ورد في القرآن في بيان شأن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا).

لأن كل فيض نازل على الموجودات في الدنيا والآخرة إنما هو من هذا البيت وهم أهل بيت النبوة وأهل بيت الرحمة وهم واسطة الفيض الالهي على الناس جميعا، ولا يخفى أن الشفاعة الكبرى هي للمقام المحمود ولهذا سمي أحمد ومحمود ومحمد.

لماذا يكنى المصطفى بأبي القاسم؟

قيل نسبة لولده القاسم كما ورد في الأخبار: سأل أحد تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام هذا السؤال: لماذا يُقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أبو القاسم)؟ ولماذا هذه الكنية؟

فاجابه عليه السلام: (كان لرسول الله ابن اسمه القاسم فكُنِيَ أبو القاسم.)، فقال السائل: أريد أن أفهم منك معنى أعمق لهذه الكنية؟ فقال عليه السلام: ألم يكن علي التلميذ المخلص لرسول الله؟ أليس التلميذ ابن الاستاذ؟ قال السائل: نعم. قال عليه السلام: والنبي بمنزلة الأب لعلي. وعلي هو القاسم، (قسيم الجنة والنار).

وعليه نفهم من ذلك قول علي عليه السلام لعدو يقاتله: لأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحدا إلا دخل النار. وعليه أيضا نفهم أن علي بن ابي طالب (قسيم الجنة والنار)، توزع الجنة والنار على ولانه، فحبّه وطاعته واتباعه معيار الذهاب الى الجنة، وعدوانه وبغضه علامة الذهاب الى النار. وعليه تُدرك أن علي بن ابي طالب هو نفس محمد لقوله تعالى (وأنفسنا وأنفسكم)، وتلميذه وصهره ووالد أبنائه

وخليفته وأخوه وسنده وابن عمّه، (كلهم من نور واحد). وهم أعظم من تخلّق بإخلاق الله تعالى.

صفات الرسول المصطفى ﷺ:

إن كل نبي أو رسول يبعثه الله لا بد أن يمثل الأنموذج الأمثل والقُدوة والأفضل من بين الناس، وهذا ما يريد الله سبحانه وتعالى ليكون خليفته في أرضه، وهو الإنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. فهو رجل الفضل والعقل والكمال ومثال الحكمة والوقار والجلال. عالم حكيم، تقي، شجاع، حازم الى غير ذلك من الصفات الإنسانية الفاضلة، والكمالات الرفيعة. فلا نرى في أقواله وأفعاله أي خلل أو ضعف، ولا في تصرفاته أي تشتت أو تناقض وبعبارة أخرى: إنه الرجل المعصوم من الخطأ، فهو أكمل الخلق وأفضلهم، ولأجل ذلك جعل الله تعالى نبينا المصطفى محمد ﷺ الأسوة لبني الإنسانية مدى الدهر، وفرض عليهم أن يقتدوا به في كل شيء حتى في جزئيات أفعالهم، فقال تعالى في كتابه المجيد: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) فهذا هو الرسول الأكرم ﷺ بكل ما يحمل من معاني سامية وأخلاق رفيعة.

أوصافه ﷺ: ورد في الأخبار في اوصاف الرسول المصطفى ﷺ بأنه كان فخما مفخما يتلألأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر، فهو أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفردت عقيصته قرن والا فلا يجاوز شعره شحمة إذنيه، إذا هو وفرة، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب، سوابغ في غير قرن له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، ادعج، أشنب، مفلج الاسنان، دقيق المسربية، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادنا متماسكا، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين ضخم الكراديس، عريض الصدر، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين ، سائل الاطراف، سبط القصب، خمسان الاخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قلعا، يخطو تكفوا، ويمشي هونا، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط في صيب، وإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف، نظره الى الأرض أطول من نظره الى السماء، جل نظره الملاحظة بيد من لقيه بالسلام.

وأما منطقه: فكان ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليس له راحة، طويل الصمت لا يتكلم في غير حاجة، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم

فصلاً، لا فضول فيه ولا تقصير، دمثاً ليس بالجافي ولا بالمهين، تعظم عنده النعمة وإن دقت، ولا يذم منها شيئاً غير أنه كان لا يذم ذواقاً ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام.

وكان سكوته ﷺ على أربع: على الحلم والحذر والتقدير والتفكير، فأما التقدير ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس.. وأما تفكيره ففيما يبقى ويفنى.. وجمع له الحلم والصبر فكان لا بغضبه شيء ولا يستفزه.

وجمع له الحذر في أربع: أخذته بالحسن ليقندي به، وتركه القبيح لينتهي عنه، واجتهاده الرأي في إصلاح أمته، والقيام فيما جمع لهم خير الدنيا والآخرة. وورد عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه.

وفي المناقب كان ﷺ: يبكي حتى يغشى عليه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً.. وكذلك كانت غشيات علي ابن أبي طالب وصيه ﷺ في مقاماته.

وكان ﷺ يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويأكل مع العبد ويجلس على الأرض، ويركب الحمار ويردف، ولا يمنعه الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويصافح الغني والفقير، ولا ينزع يده من يد أحد حتى ينزعها غيره، ويسلم على من استقبله من غني وفقير وكبير وصغير، ولا يخقر ما دُعي إليه ولو إلى حشف التمر، وكان خفيف المؤونة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذله، جواداً من غير سرف رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، ولم يتجشأ وما شبع قط.

السيرة النبوية الشريفة:

تعد السيرة النبوية الشريفة إحدى العلوم الشرعية المهمة، فهي مصدر رئيسي ومهم من مصادر المعرفة والثقافة الإسلامية، ومن أخصب الموضوعات الإسلامية، إيناساً للنفس وانعاشاً للروح وإمتاعاً للفكر ومنهجاً للحياة، في نموذج للإنسان الكامل من مختلف جوانبه، فالنبي ﷺ بلغ أقصى ما وصل إليه الإنسان الكامل في مدارج الكمال.

والسيرة: لغةً: تعني السنة والطريقة والهيئة، يقال: سار بهم سيرة حسنة.

واصطلاحاً: ترجمة حياة شخص او تاريخ حياته، فهي تمثل الصورة العملية للقواعد والتعاليم التي اشتملت عليها رسالة الإسلام.

إن مفهوم سيرة النبي المصطفى ﷺ تعني مضمون حياته القيادية والفكرية والعلمية، ومنهجه في تبليغ الدعوة الى البشرية وطريقة عرض منهجه سواء من الوجهة الأخلاقية او من الوجهة النفسية والسياسية والاجتماعية، وما واجه من مصاعب ومحن، وكيف تغلب عليها بعزم الرجال وتأييد الله تعالى له.

ويمكن أن نقول: هي سلوك النبي ﷺ وتصرفاته في الحياة، والتي تعكس التطبيق العملي لمبادئ الإسلام، وتجسيد علاقته بربه ونفسه، وتعامله مع الآخرين، لنقتدي به ﷺ في هذه السلوكيات وتلك التصرفات في حياتنا.

أهمية السيرة:

إن أهمية سيرة النبي ﷺ تكمن في أنها تبني العزائم، وتوحد الأهداف وتنشئ الإرادة، وتقوّم الخلق الذي حاولت الأمم غير الإسلامية ويشاركها ضعاف الإيمان من المسلمين أن تميته او تجعله في غفلة وبعيداً عن أخلاق الإسلام وعن أخلاق رسول الله ﷺ.

مصادر السيرة: أن المصادر التي يمكن الاعتماد عليها بعد غربلتها ومعرفة الصالح منها هي أربعة:

- ١ - القرآن الكريم وتفسيره المأثورة في معرفة الملامح العامة لحياة النبي ﷺ ومن خلال التفسير الصحيح لأهل البيت عليهم السلام، وقد نزل القرآن في بيوتهم.
- ٢- كتب السنة (الاحاديث) النبوية وشروحها المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كبحار الأنوار والكافي وغيرها من الكتب المعتبرة بعد تحريصها والتأكد من صحتها.
- ٣- كتب السيرة النبوية قديمها وحديثها بعد غربلتها ومعرفة الصحيح منها وما طابق القرآن، وأقوال أهل البيت عليهم السلام.
- ٤- كتب التاريخ قديمها وحديثها، بعد معرفة رجالها وأسانيدها وما طابق القرآن منها.

أهداف السيرة النبوية في القرآن:

لقد اعتنى القرآن الكريم بقصص أنبياء الله تعالى أساساً لأخذ العبرة منها، لأجل الهدف العقائدي والتربوي للاخلاق والسلوك، أما عنايته بوقائع خاتم الأنبياء فقد استهدفت أهداف ثلاثة وهي التشريع، العقائد، التربية بكافة تفاصيلها، وقد شملت كافة مفاصل الحياة ومنها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية وغيرها من شؤون الحياة الدنيا والآخرة، وقد صرح القرآن بأنه مبينا لكل شيء، فقال تعالى: (وأنزل عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) وقال تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء).

وقد ذهب القرآن الى أبعد من ذلك فوصف الشريعة الإسلامية التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين بأنها المهيمنة على كل الشرائع السابقة لها، فقال تعالى: (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه).

أهداف دراسة السيرة النبوية: هناك ثلاثة محاور لدراسة السيرة النبوية المطهرة وهي:

الاول: المحور التشريعي. الثاني: المحور العقائدي. الثالث: المحور التربوي.
المحور التشريعي :

إن دراسة السيرة من خلال هذا المحور تستهدف معرفة الحكم الشرعي من خلال الوقائع السلوكية، سواء كانت هذه الواقعة فعلاً مباشراً صدر من النبي ﷺ او كان إقراراً منه لسلوك أحد المسلمين صدر أمامه، وسواء كانت الواقعة السلوكية ضمن وقائع الحياة اليومية المتكررة للنبي ﷺ كالصلاة مثلاً او كانت ضمن واقعة تاريخية واحدة كقسمته ﷺ لغنائم الحرب في معركة بدر الكبرى وغيرها.

وكذلك يمكن من خلال دراسة هذا المحور فرع من العقيدة بعصمة النبي ﷺ لكونه قد جعله الله تعالى مبيناً وهادياً تفصيلاً للشريعة وقدوة وأمماً للناس، كما في قوله تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)

وقوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله ويوم الآخر وذكر الله كثيراً).

المحور العقائدي:

إن دراسة السيرة لهذا المحور تستهدف معرفة ما تنطوي عليه حوادث التاريخ النبوي من دلالات عقائدية، ويقوم هذا المحور من الدراسة على أساس أن النبي ﷺ شخص صنع على عين الله تعالى، فجاءت حياته منذ ولادته بل قبل ولادته حقلاً تظهر فيه رعاية الله تعالى الخاصة له بشكل ملحوظ، وتشتد هذه الظاهرة عند البيعة وحتى التحاق النبي بالرقيق الأعلى .

ولذا كانت قصص حياة النبي ﷺ والوصي ﷺ تجسداً للعقيدة الإسلامية والإيمان بالله وبالنبي والوصي، وبسبب ذلك سمى القرآن الكريم هذه القصص والحوادث بـ (الآيات) ودعا الأنسان الى التفكير فيها وأخذ العبرة منها وجعلها نظيراً للظواهر الكونية من حيث سماها (آيات) أيضاً ودعا الأنسان الى التفكير فيها وأخذ العبرة منها أيضاً.

فمن الآيات التي ذكرت القصص قوله تعالى: (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) // سورة الأعراف: ١٧٦ ومن الآيات التي تشير الى الظواهر الكونية قوله تعالى: (والله

أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون/ سورة النحل: ٦٥ .

إن الوقائع السلوكية لسيرة النبي ﷺ بمجموعها آية، ومن هذا المنطلق يكون جانب القدوة من حياة الرسول وسيرته بمجموعه أعظم آيات الله عظةً وعبرة، ذلك لأن وصول إنسان الى موضع القدوة والأسوة في مجتمع من المجتمعات او جماعة من الجماعات ليس غريباً وخارجاً على سنة الله في الأنسان والمجتمع.

بل الغريب والملفت للنظر والخارق للقانون هو أن تكون هذه القدوة على نسق واحد وحالة واحدة في كل مجالاتها، فلا يشذ سلوك منها على موازين العدل والنبيل مهما كان صغيراً، وفي كل حقل من حقول الحياة الأنسانية، فما لم يكن الله تعالى وجود حقيقي فاعل وما لم يكن هناك انفتاح واقعي تعليمي وتربوي من الله تعالى بأزاء عبده المرسل كما قال تعالى مخاطباً لنبيه موسى ﷺ: (ولتصنع على عيني) ، يستحيل أن يصل الأنسان الى هذا الموقع، وهذه الحقيقة جارية مع كل نبي وصفي من أصفياه تعالى.

وكما في قوله تعالى: (وذلك حجبتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم الى صراط مستقيم/ سورة الأنعام: ٨٣-٨٧ .

المحور التربوي:

ويستهدف هذا المحور المهم التعرف على ما تنطوي عليه السيرة النبوية بأقسامها الثلاثة والمتمثلة مع الخالق ومع المخلوق ومن تعامل الأنسان مع الآخرين، ومن خصوصية التأثير على الأنسان المؤمن وتحريكه نحو الله تعالى وانضباطه بمنهجه، ومما لاشك فيه هو أن التربية عن طريق عرض الواقعة التاريخية والقدوة هي أفضل أسلوب في التربية.

والذي تجتمع عليه المذاهب والفرق على اختلافها قديماً وحديثاً، وهو الأسلوب الذي اتبعه خالق الأنسان مع الأنسان نفسه، وهو واضح من خلال الكتب السماوية المعروفة، وقد تميز القرآن الكريم بهذا الصدد بما لا يضاويه كتاب آخر حين ضم بين دفتيه مجموعة من أحسن القصص وهي قصص أصفياء الله تعالى للأنبياء والمرسلين وبعض من عباده الصالحين.

تحريف أخبار سيرة النبي ﷺ.

لقد تعرضت سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وسنته من بعده للتحريف، وهي حقيقة لا يشك فيها اثنان، وذلك لأننا لو رجعنا الى المصادر المعتمدة لدى المسلمين حول تأريخ الرسول المصطفى ﷺ وسنته لوجدنا الروايات مختلفة ومتناقضة في وصف كثير من الوقائع التاريخية او السلوكية للرسول ﷺ وهذا التناقض والاختلاف واسع وكبير الى درجة نستطيع معها أن تكون من مجموع هذه الأخبار صورتين متناقضتين للنبي ﷺ سواء في جانب تأريخه أو في جانب طريقته في الحياة أو سنته. ويتجلى ذلك أمام الباحث في أعداد هائلة من الروايات، وكم عظيم جداً من الأحاديث، منها ما ضمه كتاب خاص في هذا الموضوع، ومنها ما تناثر في خلال المصنفات التراثية المعنية بالتاريخ بمعناه العام أو الخاص، ككتب التفسير والفقهاء والحديث وغيرها. ويمكننا تقسيم تلك الروايات المتصلة بالسيرة والمغازي الى قسمين:

١- القسم المقبول: - وهو ما ثبت بالشياع او التواتر او السند الصحيح، او لم يقم دليل على بطلانه، او كان متفقاً في مجمل دلالاته ومعناه مع العام لسير الأحداث والأسس الثابتة للعقيدة وأصولها المقررة وكان موافقا للقرآن.

٢- القسم المرفوض: ويشمل ما يلي:

أ- ما كان غير مرضي السند: إما لإرساله وعدم ورود اسم الراوي المشاهد بنفسه للحدث المروي فيه او لما ورد من طعون في رواته كلاً أو بعضاً، وهو في الحالين غير صالح لا يمكن الاعتماد عليه ولا الاستناد إليه.

ومثال ذلك: ما أخرجه مسلم بسنده قال: إن المسلمين كانوا لا ينظرون الى أبي سفيان ولا يقاعدونه، فقال للنبي ﷺ: يا نبي الله: ثلاث أعطينهن، قال: نعم، قال: عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها، قال: نعم، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك: قال نعم: قال وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال نعم - الى آخر الخبر.

وتفنيد هذا الخبر لا يحتاج الى شرح وتفصيل، لأن أبا سفيان قد تلفظ بالشهادتين لينجو بنفسه من القتل في السنة الثامنة من الهجرة عند فتح مكة، وكيف والنبي قد تزوج أم حبيبة وهي بارض الجبشة حينما ارتد زوجها أي قبل فتح مكة بكثير.

ب - ما كانت دلالاته متضاربة مع الخطوط الرئيسة للإسلام، وعلى الضد من مسلمات الدين، ولا توافق القرآن وإن قيل بمدح رواته وتصحيح سنده.

ج - ما كان واضح الزيف وصريح الكذب بالمنظور التاريخي المحض، وبعيداً عن أية مناقشات او شكوك أخرى فهو مرفوض.

النبي ﷺ والشعر والرجز:

إن النبي ﷺ لم يكن شاعراً بإجماع العلماء استناداً لقوله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ) ، لكن ذلك لم يمنع أن يصدر منه في بعض الأحيان كلام موزون، وذلك شأن من شؤون الفصحاء الذين اكتملت فصاحتهم وبلغوا أعلى درجاتها أن يجري على لسانهم الشعر دون أن يقصدوا نظمه او يعدوا من الشعراء.

وولد عبدالمطلب كانوا من أفصح العرب وكانوا شعراء، رجالهم ونساؤهم إلا رسول الله ﷺ كما ذكره الشعبي.

إن أكثر ضروب الشعر انتشر بين العرب هو الرجز، فكان يجري على لسان كل أحد في شتى المناسبات شاعراً كان او غير شاعر، وأخص مناسباته معتك الأقران حينما تفرع السنان بالسنان، فتجد الفرسان يرتجزون أبيات الحماسة والفخر. ويرتجز الركيان أيضاً حينما تسير الإبل ويسمى (حذاء)، فهذا (الرجز) نوع ولون من ألوان الشعر وهو سهل خفيف وجميل، ولذلك حبب الى نفوسهم فقالوه غالباً دون تكلف لنظمه او قصد الى وزنه.

وإذا لاحظنا ما جرى على لسان رسول الله ﷺ من الشعر تجده من الرجز ليس غير، وهذا لا يمس قولنا إنه لم يكن شاعراً بشيء من الاعتراض او النقص، وهو وحده لا يكفي ليقال لصاحبه إنه شاعر.

ومن أشهر ما جرى على لسانه ﷺ ما رواه المؤرخون في حديث بناء المسجد أنه كان يرتجز ويقول: اللهم إنه لا عيش إلا عيش الأخرة فإنصر الأنصار والمهاجرة، فكان الصحابة يرددون معه ذلك.

وقد اورده البخاري أيضاً في كتاب الصلاة بلفظ:

اللهم لا عيش إلا عيش الأخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وفي باب مناقب الأنصار بلفظ: فأكرم الأنصار والمهاجرة، وفي باب غزوة

الخذق بلفظ:

اللهم إن العيش عيش الأخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقال الصحابة مجيبين: نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وروى ابن إسحاق أنه ﷺ كان يقول: لا عيش إلا عيش الأخرة اللهم ارحم

المهاجرين والأنصار.

وذكر ابن القيم في زاد المعاد أنه ﷺ كان يقول أيضاً عند بناء المسجد:

هذا الحمال لا حمال خبير هذا أبر ربنا وأطهر
فيجيبه بعض الصحابة قاتلاً: لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل
وروى ابن هشام أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يرتجز يومئذ فيقول:
لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

قال ابن إسحاق: فأخذها عمار بن ياسر فجعل يرتجز بها.
ومنه كذلك ما رواه المؤرخون عند ذكر غزوة حنين، ففي حديث البراء أنه قال:
أما أنا فأشهد على النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يول ولكن عجل سرعان القوم فرشقتهم هوأزن،
وأبو سفيان بن الحارث أخذ برأس بخلته وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب
لقد كان ذلك ما جرى على لسانه صلى الله عليه وسلم منظوما سواء اعتبر شعرا ام ليس بشعر،
إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقصد نظمه، هذا مع أن العادة جرت عند العرب كما ذكرنا
أنفا أن يرتجز أبطالهم في مثل هذه المواضع الحرجة، إثارة للحماسة وتحريضاً على
القتال، وهو هنا صلى الله عليه وسلم يقصد ذلك، ويقصد معه أيضاً إعلام أصحابه بوجوده وثباته،
وأنه لم يصب بسوء فتطمأن قلوبهم، ويتم جمعهم، فإن موت القائد مدعاة لاضطراب.
والرجز ضرب من ضروب الشعر، ولكن يختلف عنه في عدة أشياء مما لا
يجعل صاحبها شاعراً، وهي:

١- عدم القصد في النظم، أي يأتي القول مرتجلاً.

٢- عدم وجود وجوه الشعر كالتمثيل والإيحاء والصور الجمالية.

٣- أغلب الرجز يأتي غير موزون مما يخرج من مسمى الشعر تماماً، وسبب
تسمية الرجز بهذا الاسم هو تشبيهه له بالناقاة أو الدابة الرجزاء التي ربطت أحد
أقدامها فأصبحت رجزاء أي مضطربة.

الرسول المصطفى هو القدوة للعالمين جميعاً:

إن الرسول المصطفى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم قد بلغ من الكمال والأخلاق الفاضلة
الى ذروتها، ويكفى رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى في عليائه ذكره مادحا

ورافعا لشانه في كتابه الكريم في آيات كثيرة ونذكر بعضها: (وانك لعلی خلق عظیم) ، وقال أيضا: (وما أرسلناك إلا رحمة للعلمین).

ودعا الله تعالى المؤمنین الى التأسی برسول الله ﷺ وطاعته، فقال: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) و(من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا).

وقال تعالى: (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين)..

وقال تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا).

وقال تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقال تعالى: (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما).

وقال تعالى: (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما).

ونرى في هذا الجمع من الآيات الكريمة وفي غيرها أن الله تعالى قرن طاعة نبيه ﷺ بطاعته تعالى، وجعل اتباع النبي ﷺ والافتداء بهديه باباً الى رضوانه تعالى وجنته، وجعل عصيان النبي ﷺ وترك التمسك بسنته باباً الى سخطه وعقابه.

الفصل الثاني الرسول الأكرم ﷺ والجزيرة العربية

إن القرآن الكريم يُسمى الفترة التي سبقت ظهور الإسلام وانتشاره والمتصلة به قبل ظهوره بالجاهلية، وليس ذلك إلا إشارة منه إلى أن الحاكم فيهم يومئذ هو الجهل دون العلم. والمسيطر عليهم في كل شيء الباطل وفساد الرأي وابتعاده عن الحق، ومما أورده القرآن الكريم من شؤونهم هو قوله تعالى: (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية).

وقال تعالى: (أفحکم الجاهلية يبغون) وقال تعالى: (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) وقال تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى).

لقد كانت منطقة العرب يومئذ تجاورها من الجنوب الحبشة وهي ثنتين بالنصرانية، وفي مغربها امبراطورية الروم وهي نصرانية أيضا، وفي شمالها دولة الفرس وهم مجوس، وفي غير ذلك الهند ومصر وهما وثنيتان وفي أرضهم طوائف من اليهود.

والعرب بين هذا وذاك، فهم وثنيون ويعيش أغلبهم عيشة القبائل، وهذا كله هو الذي أوجد لهم مجتمعا همجيا بدويا، فيه اختلاط من مواريث اليهودية والنصرانية المنحرفة ومن المجوسية والوثنية وغيرها وهم سكارى بجهالتهم، وكما قال تعالى: (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون).

لقد كانت العشائر وهم البدو على ما لهم من خساسة العيش ودناءته يعيشون بالغزوات وشن الغارات واختطاف كل ما في أيدي الآخرين من متاع أو عرض فلا أمن بينهم ولا أمانه، ولا سلم ولا سلامه، والأمر إلى من غلب والملك لمن وضع عليه يده.

أما الرجال فالفضيلة بينهم هي سفك الدماء والحمية الجاهلية والكبر والغرور واتباع الظالمين وهضم حقوق المظلومين، والتعادي والتنافس والقمار وشرب الخمر والزنا وأكل الميتة والدّم وأكل حشف التمر.

وأما النساء فهن محرومات من مزايا المجتمع الأنساني، ولا يملكن من أنفسهن الإرادة، ولا من أعمالهن عملا، ولا يملكن ميراثا، ويتزوج بهن الرجال من غير تحديد بحد، كما عند اليهود وبعض أهل الوثنية، ومع ذلك فقد كن يتبرجن بالزينة، ويدعون من أحببن إلى أنفسهن، وفشا فيهن الزنا والسفاح حتى في المحصنات المتزوجات منهن، ومن عجيب بروزهن أنهن ربما كن يأتين بالحج عاريات.

وأما الاولاد فكانوا ينسبون الى آبائهم لكنهم لا يورثون صغارا ويذهب الكبار بالميراث ومن الميراث زوجة المتوفي، ويُحرم الصغار ذكورا واناثا والنساء. غير أن المتوفي لو ترك صغيرا ورثه لكن الأقوياء يتولون أمر اليتيم ويأكلون ماله، ولو كان اليتيم بنتا تزوجها وأكلوا مالها ثم طلقوها وخلوا سبيلها، فلا مال تفتت به ولا راغب في نكاحها ينفق عليها، والابتلاء بأمر الايتام من أكثر الحوادث المبثلى بها بينهم؛ لمكان دوام الحروب والغزوات والغارات فبالطبع كان القتل شائعا بينهم. وكان من شقاء اولادهم أن بلادهم الخربة وأراضيهم القفر البائرة كان يسرع الجذب والقحط اليها، فكان الرجل يقتل اولاده خشية الاملاق وكانوا يندون البنات كما قال تعالى: (وإذا المؤودة سنلت بأبي ذنب قتلت) ، وكان من أبغض الأشياء عند الرجل أن يُبشر بالأنثى، وكما قال تعالى: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم).

وهكذا ظلت الجزيرة العربية تتخبط في متاهات الجهل والتناحر والسلب والنهب ولا تعيش أية حضارة، ولم يكن لديها أية تعاليم وقوانين وأنظمة وآداب قبل بعثة الرسول المصطفى ﷺ، فكانت محرومة من جميع المقومات الاجتماعية والفكرية والعلمية والسياسية والتي توجب التقدم والرقي، وكانت تتخبط في العقائد المنحرفة من المجوسية والوثنية والصابئة والدهرية وعبادة اللاوثن بكل أبعادها، هذا بالإضافة الى المسيحية واليهودية المنحرفة.

لقد كانت القبائل العربية تعيش في غالبيتها العادات والتقاليد المحرفة فكان الشرك في العبادة حيث عبدوا الأصنام والاوثن والنجوم، وأنكر البعض المعاد ليوم القيامة والحشر، ولقد كان الفساد الأخلاقي مثل انتشار القمار والميسر والخمر والزنا والبيغاء والفساد الاجتماعى وذلك بقتل البنت بدفنها وهى حية، وكانت المرأة محرومة من جميع الحقوق الاجتماعية حتى حق الارث.

وكان الفساد الاقتصادى من ربا واحتكار منتشرا آنذاك، وكانت القبائل العربية تعيش النهب والسلب والإغارة وتعتبرها من المفخر العربية وكانت بعيدة كل البعد عن العلوم والمعارف الصحيحة والعلمية، فأراد الله لتلك الأمة أن ينتشلها من الهاوية وأن يجعل من ضلالها وضياعها أمة تقود العالم ببعثة الرسول ﷺ وهو منهم ومن أنفسهم حريص عليهم، وليكون رحمة للعالمين (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم).

لقد استطاع رسول الإنسانية والمبعوث رحمة للعالمين محمد المصطفى ﷺ خلال فترة بعثته القصيرة نسبيا بوقتها وفترتها أن يكون دولة إسلامية عالمية عادلة، وهى شاملة لكل العالم في منطقة الجزيرة العربية، والتي لاتعرف المقومات الأنسانية

ولا أي لون من ألوان الأخلاق السامية، فكانت تعيش مجتمع الغابة بالقوي ياكل الضعيف، لذا استطاع أن يغيّر صبغة المجتمع ومواقفه وعلاقاته الجاهلية، وأن يحمل مشعل تلك الرسالة بأيدي تلك الأمة الفتية المؤمنة المُستضعفة، والتي تجذرت فيها صفات النبيل والتضحية والفتوة بقيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام لخلافة الرسول صلى الله عليه وآله، والتي تستمر إلى قيام الساعة.. (ونريد ان نمّن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين).

شخصية الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله

لم تطأ الأرض شخصية مثل شخصية الرسول الأكرم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، فلقد خلق الله سبحانه وتعالى البشرية منذ آدم وجعل لهم ١٢٤ ألف نبي ورسول، وهم أفضل الناس وجعل أفضل هؤلاء الأنبياء والمرسلين أولى العزم وجعل أفضل اولي العزم وسيدهم هو خاتم الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى صلى الله عليه وآله.

ورد عن ابن عباس وهو حبر الأمة قوله: كان حديثاً بين قوم معنا، فقال بعضهم: إن الله تبارك وتعالى اتخذ من خلقه خليلاً هو إبراهيم عليه السلام، وقال آخر: ماذا بأعجب من موسى كلمه الله تكليماً وقال آخر: ماذا بأعجب من جعله عيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر ماذا بأعجب من آدم اصطفاه الله عليهم ونفخ فيه من روحه.

فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله من أصحابه ذلك، فقال: (قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وأن موسى نبي الله وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن آدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا والله حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا سيد الاولين والآخرين ولا فخر، وأنا اول شافع واول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا اول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعى المؤمنين ولا فخر).

لقد قيل في عظمة شخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وشرفها وسموها كثير من المستشرقين والباحثين ومنهم الفيلسوف البريطاني برنادشو فيقول: (إن العالم أحوج ما يكون لرجل كمحمد - صلى الله عليه وآله - ينقذه مما هو فيه).

ويقول الكاتب اليهودي مايكل هارت في وصفه لشخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: (هو اعظم الشخصيات أثراً في تاريخ الإنسانية، والذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي).

وقال ابن عباس: (ما خلق الله عز وجل ولا ذراً ولا براً نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وآله، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد الا بحياته، فقال تعالى: (لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون).

لقد ترك رسول الإنسانية محمدا ﷺ أثرا كبيرا في نفوس المسلمين حتى كثرت مظاهر محبتهم وتعظيمهم لشخصيته العظيمة، فلقد أرسله الله سبحانه وتعالى للبشرية جمعاء ليعيدهم لتوحيده وعبادته، وعلى ملة إبراهيم الخليل عليه السلام.

التوازن النفسي والسلوكي في شخصية رسول الله ﷺ:

إن الدارس لشخصية رسول الله ﷺ يجد من خلال تحليل شخصيته ذلك التوازن الدقيق بين معالم شخصيته وبما لا يمكن أن تجده في أي بشر سواه، هذا التوازن الذي يعد من أبرز دلائل نبوته يتمثل في الكم الهائل من السمائل ومحاسن الأخلاق التي اجتمعت في شخصيته ﷺ، على نسق متعادل لا تطغى صفة على صفة ولا توظف صفة في موقف لا تحتاجه ولا تليق به، بل لكل مقام مقال، إنه الكمال البشري الذي يقود المسلمين الى مزيد من الإعجاب والحب لرسولهم الكريم مفاخرين الدنيا بأسرها أنهم أتباع سيد البشر.

لقد حقق التوازن النفسي في شخصية الرسول المصطفى ﷺ أسمى غاياته فكان ذو نفس سوية تتمتع بمثالية يدركها من له أدنى معرفة بالسلوك النفسي وأبعاده، فما كان ﷺ بالكئيب العبوس الذي تنفر منه الطباع، ولا بالكثير الضحك الهزلي الذي تسقط مهابته من العيون ولم يكن حزنه وبكاؤه إلا مما يحزن ويبكى منه العقلاء في غير إفراط ولا إسراف، وفي ذلك يقول رواة الحديث وأهل السير:

وأما بكاؤه ﷺ فلم يكن بشهيق ورفع صوت ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملأ ويسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه تارة رحمة للميت وتارة خوفا على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية، ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له، وقال (تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون).

وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وانتهى فيها الى قوله تعالى: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)، وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كسفت الشمس وصلى صلاة الكسوف وجعل يبكي في صلاته ويقول (رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم، وهم يستغفرون ونحن نستغفرك).

أما ضحكه ﷺ فكان يضحك مما يُضحك منه، وهو مما يُتعبج من مثله ويستغرب وقوعه ويستندر كما كان يداعب أصحابه، فعن زيد بن أسلم قال: (أنت امرأة يقال لها أم أيمن الى النبي ﷺ فقالت أن زوجي يدعوك.

قال: ومن هو؟ أهو الذي بعينه بياض؟

قالت والله ما بعينه بياض، فقال: بلى إن بعينه بياضا، فقالت: لا والله، فقال ما من أحد إلا وبعينه بياض) ، وعن أنس بن مالك أن رجلا أتى النبي ﷺ فاستحمله، فقال رسول الله ﷺ (إنا حاملوك على ولد ناقة)، فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد ناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: (وهل تلد الإبل إلا النوق).

كان التوازن السلوكي في شخصية رسول الله ﷺ أحد دلائل نبوته، فلقد جعل هذا التوازن من رسول الله ﷺ القدوة العليا التي تمثلت فيها كل جوانب الحياة، فهو الأب والزوج ورئيس الدولة والقائد العام للقوات المسلحة (حسب تسميات العصر الحالي) والمحارب الشجاع، كما كان المستشار والقاضي والمربي والمعلم والعباد والزاهد، الى آخر صفاته ﷺ التي كانت من الوضوح بحيث استوعبت كل جوانب حياة البشر، الأمر الذي جعل من رسول الله ﷺ المثل الأعلى للناس كافة على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم.

ولقد تميزت شخصية الرسول ﷺ بصفات كثيرة نوجز بعضها بما يلي :

أ. الأُمى العالم

تميز الرسل المصطفى ﷺ بأنه لم يتعلم القراءة والكتابة عند أي معلم بشري، فهو عالم دون معلم بشري مع كونه لم ينشأ في بيئة علم وفكر وحضاره وإنما في مجتمع جاهلي وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان، بل الى أبعد من ذلك فلقد جاء بكتاب سماوي يدعو للعلم والثقافة والفكر والتعقل والانفتاح على العالم بافلاكه وغزو الفضاء وفتح الافاق أمام الإنسانية جمعاء.

والرسول ﷺ هو معجزة بنفسه في علمه ومعارفه وجوامع كلماته ورجاحة عقله ومنهاج تربيته، كما قال تعالى: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم).. فلقد شرح الله صدره وأعدّه للقيام بمهمة قيادة الأمة، فجعله نورا وسراجا منيرا يهتدي به الناس.

ب - أول المسلمين وأول العابدين:

لقد شهد القرآن بخضوعه المطلق لله سبحانه وتعالى والتسليم التام لعظيم قدرته، قال تعالى: (قل إنني هدانى ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).

ولقد كان العبد المسلم المثالي في عبوديته لله حيث تجلّت هذه العبودية في سلوكه حتى قال ﷺ: (قرة عيني في الصلاة) ، فكان ينتظر الصلاة بشوق ويشتدّ شوقه للوقوف بين يدي الله، فيقول لبلال: (أرحنا يا بلال) أى اجعل نفسى محلقة فى السماء، وهذا هو لقاء الحبيب بحبيبه، فكان إذا دخل وقت الصلاة فكأنه لم يعرفهم، وإذا صلى

يُسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل، ويبيكى حتى يبنتل مصلاه خشية من الله، ويصلى حتى تنتفخ قدماه، حتى قيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك، فيقول ﷺ: (أفلا أكون عبدا شكورا).

ج - الثقة المطلقة بخالفه:

عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كنا عند رسول الله ﷺ عند شجرة وقد تركنا الرسول ﷺ، فجاء مشرك وكان سيف الرسول ﷺ معلق بالشجرة، فقال المشرك للرسول ﷺ: أتخافني؟ فقال ﷺ للمشرك: لا، فقال المشرك: من يمنعك مني؟ فقال ﷺ: الله، فسقط السيف من يدي المشرك فأخذه الرسول ﷺ، فقال للمشرك: من يمنعك مني؟ فقال المشرك: كن خيرا مني، فقال ﷺ: تشهد بالشهادتين؟ قال المشرك: لا ولكن أعاهدك ألا أقاتلك ولا أغير بك فخلّى سبيله، فجاء المشرك قومه فقال: (جنتكم من عند خير الناس).

د - شجاعته الفائقة

يقول عنه أشجع فرسان العرب والمسلمين على بن أبي طالب رضي الله عنه والذي طأطأت له صنابير العرب من المشركين والكافرين والمنافقين، فيقول في شجاعة الرسول ﷺ: (كنا إذا أحمز الباس ولقى القوم اتقينا برسول الله ﷺ).

ويقول المقداد عن شجاعة الرسول الأكرم يوم أحد: (في يوم أحد عندما تفرق الناس كان ﷺ ثابتا في موقعه لم يتزحزح عن مكانه شيئا واحدا يلاقي العدو).

هـ - المعجزة الكبرى للرسول الأكرم ﷺ والمعجزات الأخرى:

لكل نبي مرسل يقوم بدعوة جديدة فلا بد له من أن يقدم منهجه الجديد، حيث يطالب الناس بتطبيقه وأن هذا المنهج هو من عند الله الخالق والمدبر، أي أنه منهج الهي، فلا بد له من معجزة (وهي خرق للعادة وأنه لا تقبل التقليد والمحاكاة، وأن يكون طرحه دليلا على صحة النبوة فتشدد القلوب اليها).

ففي زمن النبي موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كان السحر منتشرا بأقوى صورته ونشاطه، فجاءت عصا موسى على مستوى أعلى من تلك الظاهرة وإذا بها تلقف ما يأفكون وأمام أعين الناس، وأول من آمن برب موسى هم السحرة أنفسهم، ولقد أدركوا بأن قضية العصا ليست من شؤون السحر، فقال تعالى في كتابه العزيز: (قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى قال: بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فاجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فالقى السحرة سجدا قالوا أمنا برب هرون وموسى).

أما النبي عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فقد اشتهر في عصره وزمانه الطب فمنح الله تعالى قدرة فائقة للنبي عيسى في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، كما ورد في قوله تعالى: (ورسولا إلى بني اسرائيل إني أبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنينكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين).

وفي عهد الرسول الأكرم ﷺ اشتهرت العرب بالبلاغة والأدب والشعر والنثر في الجاهلية، وقد دفعهم ذلك لكتابة قصائد رائعة بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة، فجاء القرآن الكريم وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي أعلن وبكل صراحة بقوة عدم تمكن البشرية من الاتيان بمثله ولو تآزر الأنس والجن على مدى الدهر وإلى قيام الساعة، حيث لم يستطع أحد من البشرية جمعاء وعلى مر العصور أن يأتي بمثله بالرغم من تحدي القرآن لذلك، وكما قال تعالى: (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا). بل ذهب تحدي القرآن الى أبعد من ذلك بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات كما قال تعالى: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون) ، بل اكتفى القرآن بأن يأتوا بسورة واحدة من قبل المعاندين فقال تعالى: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ، وهذا التحدي هو لمن يكذب بالقرآن الى أن تقوم الساعة بأن يأتوا بآية واحدة وهم عاجزون عن ذلك.

ويتمثل القرآن الكريم بشكل أساسي في بلاغته وفصاحته، حيث يتميز بأسلوبه الغريب والمخالف لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها لوجوه الاعجاز، هذا بالإضافة لما يحتويه من الأخبار بالمغيبات وأخبار القرون الماضية والشرايع السالفة، وكذلك وجود الاعجاز العلمي حيث تُفسر بعض الآيات على أنها قد اثبتتها النظريات العلمية الرصينة والتي لم يكتشفها العالم إلا بعد فترة طويلة جدا من إعلان القرآن عنها.

لقد تفوق القرآن الكريم على جميع المعجزات التي ثبتت للأنبياء السابقين حيث اندثرت في وقتها بينما بقيت معجزة القرآن الكريم خالدة ومستمرة تُسمع الأجيال وتحج على القرون، وهي تشير بأن الشرايع السابقة منتهية ومنقطعة، والدليل على انتهائها هو انتهاء أمد حجتها وبرهانها لانتهاؤ زمان المعجزة.

ثم إن القرآن اختلف بخصوصية أخرى وبها يتفوق على جميع المعاجز التي جاء بها الأنبياء السابقون وهي تكفله بهداية البشرية جمعاء وتوجيههم الى غاية كمالهم.

ومن معجزه ﷺ الأخرى والتي هي كثيرة ولكن نوجز بعضها لتتعرف على درجته الكبيرة والتميزة عند الله سبحانه وتعالى ومنها:

١- إنشقاق القمر:

لقد أجمع المفسرون بصورة عامة على وقوع معجزة انشقاق القمر للنبي ﷺ كإحدى المعجزات الباهرات، وكان ذلك قبل هجرته الى المدينة المنورة، فقد ورد عن ابن مسعود قوله: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال ﷺ: اشهدوا.. فقال المشركون: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشه، وورد ذلك في القرآن الكريم (اقتربت الساعة وانشق القمر..).

٢ - اخباره بالغيب:

لقد أخبر ﷺ بالمغيبات ومن ذلك اخباره ﷺ يوم غزوة بدر بمصارع قريش، فلم يحد أحد منهم عن مصرعه الذي عيّنه فيه ومنها إخباره عن ابنته الزهراء البتول سلام الله عليها بأنها اول أهله لحوقا به بعد التحاقه بالملى الأعلى. وكذلك إخباره عمه أبا طالب عن حصار الشعب، عن أكل الأرضة لصحيفة الظلم. وكذلك إخباره عن واقعة الجمل وخروج عائشة فقال لنساءه: ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدب تخرج فتبجها كلاب الحوآب، يُقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرة.. وتتجو بعدها.

وقوله ﷺ لعمار: ستقتلك الفنة الباغية، وقال ﷺ: آخر زادك من الدنيا ضياح من لبن.

٣ - نبوع الماء من بين أصابعه ﷺ:

تروي كتب الحديث والسيرة المعتبرة وقوع معجزة نبوع الماء من أصابع الرسول المصطفى ﷺ، ولم يكن يحدث ذلك لأحد من مثله، وقد تكررت في عدة مواطن، فقد روى أنس بن مالك إحدى تلك الحوادث قائلا: (رأيت رسول الله ﷺ وقد جانت صلاة العصر فالتمس الوضوء فلم يجده، فأتى ﷺ بوضوء وقد وضع يده في إناء وأمر الناس أن يتوضوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضا الناس حتى توضوا من عند آخرهم).

وقد أشار أحد الشعراء الى أحد معجز نبوع الماء فقال:

يا من تفجرت الأنهار نابعة من أصبعيه فروى الجيش بالمدد

كما أن للرسول الأكرم ﷺ معجز أخرى منها حديثه مع الحيوانات والجمادات وبراء المرضى وذوي العاهات وكذلك ما ورد في القرآن في كتب السيرة، ومنها:

١- حماية الملائكة له ﷺ. ٢- سماعه لأهل القبور.

٣- مخاطبته لقتلى بدر. ٤- حنين جذع النخلة له ﷺ. ٥- اهتزاز جبل أحد.

6- اضاءة المدينة المنورة لقدمه وظلامها عند التحاقه بالرفيق الأعلى.

تصنيف معجزات الرسول الأعظم ﷺ

يمكن تصنيف معجزات الرسول الأكرم ﷺ الى عدة أنواع وهي كما يلي:

النوع الاول: المعجزات التي صدرت بالأجرام السماوية، كشق القمر وردّ الشمس وتضليل الغمام، ونزول المطر والأطعمة من السماء عليه ﷺ.

النوع الثاني: معجزاته ﷺ في الجمادات والنباتات، كسلام الشجر والمدر عليه، ومشى الشجرة بأمره، وتسبيح الحجر بيده، وانقلاب الجذع سيقاً لعكاشة بيدر ولعبدالله بن جحش في أحد، وانقلاب سعف النخلة سيقاً لأبي دجانة وانغماس قوائم جواد سراقه في الأرض لما تبع النبي ﷺ في اول الهجرة.

النوع الثالث: معجزاته ﷺ في الحيوانات، كتكلم عجل آل ذريح وحث الناس على نبوته وتكلم الرضيع والذئب والأبل والشاة المسمومة معه.

النوع الرابع: معجزاته ﷺ في إحياء الموتى وشفاء المرضى ومعجزات أعضائه الشريفة كانتهاء وجع عين عليّ ﷺ ببركة بصاقه الشريف، وإحياء ماعز الرجل الأنصاري الذي دعاه ﷺ، وتكلم فاطمة بنت أسد ﷺ معه في القبر، وإحياء الفتى الذي له أم عجوز عمياء، وشفاء جرح سلمة بن الأكوع الذي أصيب في خيبر، والتحام يد بريدة معاذ بن عفراء، وساق محمد بن مسلمة، وعبدالله عتيك، وعين قتادة، واشباعه الألاف بتميرات يسيرة قليلة، وسقي أصحابه ومواشيهم بالماء الذي نبع من بين أصابعه.

النوع الخامس: معجزاته ﷺ في كفاية شرّ الأعداء، كهلاك المستهزئين وأكل الاسد عتبة بن أبي لهب ودفعه لشرّ أبي جهل وأبي لهب وأم جميل وعامر بن الطفيل وأزيد بن قيس ومعمر بن يزيد ونضر بن الحارث وزهير الشاعر وغيرها من المعاجز.

النوع السادس: معجزاته ﷺ باستيلائه على الجنّ والشياطين وإيمان بعض الجنّ به. و - مجلسه وكلامه وسكوته ﷺ:

كان ﷺ دائم الفكرة، طويل السكوت، يتكلم بجوامع الكلم، يعظم النعمة ولا يذم منها شيئاً، وكان في مجلسه ﷺ لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر الله وإذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، وكان ﷺ دائم البشر سهل الخلق لين الجانب، وكان لا يذم أحداً ولا يعيره ولا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرقت جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا ولا ينتازعون عنده الحديث.

كان سكوته على أربع: على الحلم والحذر والتقدير والتفكير وجمع له الحلم والصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستنفره، وجمع له الحذر في أربع أخذة بالحسن

ليفتدى به وتركه القبيح لينتهى عنه واجتهاده فيما أصلح أمته والقيام فيما جُمع لهم خير الدنيا والآخرة. وكان ﷺ يعود المريض ويتبع الجنابة ويحيب دعوة المملوك ويركب الحمار.

ز - أخلاق الرسول الأكرم ﷺ:

لقد اجتمعت مكارم الأخلاق فيه حيث وصفه رب العالمين بأجمع وصف لمكارم الأخلاق وأجمله حيث لم يوصف به أحد من الخلق قال تعالى: (وإنك لعلی خلق عظیم). ويؤيده قوله ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وقوله ﷺ: (أدبني ربي فأحسن تأديبي).. وتقول عنه عائشه: (كان خلقه القرآن). وعن أنس بن مالك قال: (خدمت النبي ﷺ تسع سنين فما أعلمه يوماً قال لي قط: هلا فعلت كذا وكذا، ولا عاب عليّ شيئاً قط) ، وكان من خلقه أنه دائم البشر سهل الخلق لين الجانب.

ح - زهده ﷺ:

كان زهده ﷺ منقطع النظير، فقد هبط عليه جبرئيل عليه السلام وعرض عليه أن يجعل جبال مكة ذهباً فقال ﷺ: وبعد؟ قال جبرئيل: الموت، فقال ﷺ: (يا رب أشبع يوماً وأجوع يوماً فإذا جعت تضرعت اليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك) ، وقد ورد في دعاؤه قوله ﷺ: (اللهم أحييني مسكيناً وتوفني مسكيناً واحشروني في زمرة المساكين).

ط - اليتيم الذي انتشر الخير على يديه:

عندما ولد المصطفى ﷺ ولد معه الخير والبركة، حيث يقول المؤرخون: (لم تقبل أية مرضعة أن تأخذ محمد ﷺ بسبب يتمه، واوشكت القافلة أن ترجع، ومع كل مرضعة رضيع الا حليلة السعديه فقالت لزوجها والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلاخذنه، فوجدت فيه الخير والبركة بعد أخذه).

وتقول حليلة السعدية: (عندما أخذنا محمداً عرفنا الخير والزيادة في معاشنا ورياشاً وأثرينا بعد الجذب والقحط).

عصمة الرسول المصطفى ﷺ:

يشير القرآن الى عصمة الأنبياء والمرسلين وفي طليعتهم سادة الأنبياء وهم اولي العزم وفي مقدمة سادة أنبياء اولي العزم هو الرسول محمد ﷺ.. وإن عصمة الرسول الأكرم ﷺ يمكن تقسيمها الى ثلاثة أقسام وهي كالتالي:

١- العصمة عن الخطأ في تلقي الوحي.

٢- العصمة عن الخطأ في تبليغ الرسالة والاحكام

٣- العصمة عن المعصية وما فيه من هتك حرمة العبودية ومخالفة الأمور المولوية.

إن ما نعنيه بالعصمة هو وجود أمر في الإنسان يصونه من الوقوع فيما لايجوز من الخطأ او المعصية وكذلك عدم الهم بالنفس بالوقوع بالمعاصي والاعطاء.

فلقد اشار القرآن الكريم الى عصمته ﷺ وعصمة الأنبياء والمرسلين في جميع الجوانب الثلاث: أما العصمة عن الخطأ في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة فيدل عليها قوله تعالى في الآية المباركة: (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه).

فالظاهر أن الله سبحانه وتعالى إنما بعثهم بالتبشير والإنذار وإنزال الكتاب (وهذا هو الوحي) ليبينوا للناس الحق في الاعتقاد والحق في العمل، وبعبارة أخرى لهداية الناس الى حق الاعتقاد وحق العمل، وهذا هو غرضه سبحانه في بعثهم، وقد قال تعالى: (لا يضل ربي ولا ينسى) ، فبين أنه لا يضل في فعله ولا يخطئ في شأنه فإذا أراد شيئا فإنما يريد من طريقه الموصل اليه من غير خطأ، وإذا سلك بفعل الى غاية فلا يضل في سلوكه.

لقد بُعث الأنبياء بالوحي اليهم وتفهمهم معارف الدين لتبليغها للناس، قال تعالى: (إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) ، وقال تعالى: (والله غالب على أمره). ويَدَلُّ على العصمة عن الخطأ قوله تعالى: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا) ، فظاهره أنه يختص رسله بالوحي فيظهرهم ويؤيدهم على الغيب بمراقبة ما بين أيديهم وما خلفهم، وليتحقق ابلاغ رسالات ربهم.. قال تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا). وقال أيضا: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ، فوصف هؤلاء الذين أنعم عليهم من النبيين بأنهم ليسوا بضالين، ولو صدر عنهم معصية لكانوا بذلك ضالين، ولا بد من الإشارة الى الأمور التالية:

الاول: لأنعني بعصمة الأنبياء اوغيرهم هو عدم ارتكاب المعصية فحسب، إذ من الممكن أن لا يرتكب الفرد العادي معصية خلال عمره كله وذلك إذا ملك قوة نفسانية قوية تمنعه من ارتكاب المعصية حتى في أشد الظروف وهي ملكة تحصل من وعيه التام والدائم بقبح المعصية، و ارادة قوية على ضبط الميول النفسية.

الثاني: إنه يلزم من عصمة الشخص ترك الأعمال المحرمة عليه كالمعاصي المحرمة في كل الشرائع والأعمال التي يحرم ارتكابها في الشريعة التي ينتمي إليها. إذن فلا تنافي عصمة نبي بممارسة العمل الجائر في شريعته لشخصه الخاص.

ثالثا: المراد بالمعصية التي يُنزه المعصوم عن ارتكابها هي: العمل الذي يُطلق عليه مصطلح (الحرام) في الفقه، أو ترك العمل الذي يُطلق عليه الواجب في الفقه، وأما لفظة المعصية وما يُراد منها أمثال الذنب فإنها تستعمل فيما هو أوسع من ذلك بما يشتمل ترك الأولى وممارسة مثل هذه الذنوب لا يتنافى والعصمة.

الأدلة على عصمة الأنبياء:

يمكن تقسيم الأدلة على عصمة الأنبياء الى مجموعتين، وهما الأدلة العقلية والأدلة النقلية.

أولا: الأدلة العقلية:

الدليل العقلي الاول على لزوم عصمة الأنبياء من ارتكاب المعاصي حيث الهدف الاصلى من بعثتهم وهو هداية البشر للحقائق والوظائف التي عينها وحددها الله للبشر، وفي الواقع هم سفراء الله للبشر، ويلزم عليهم هداية الآخرين للطريق المستقيم، فإذا كان هؤلاء السفراء أنفسهم غير ملتزمين بالتعاليم الالهية، بل يعملون بما يخالف محتوى رسالتهم فهم أنفسهم يخالفون أقوالهم وتعاليمهم، فإن الناس سيرون في عملهم هذا بيانا مخالفا لأقوالهم وبذلك سوف لا يتقون بأقوالهم أيضا، ونتيجة لذلك فسوف لا يتعلق الهدف من بعثتهم بصورة كاملة.

إذن فالحكمة واللفظ الالهيان يقتضيان أن يكون الأنبياء معصومين ومنزهين عن المعاصي بل لا يصدر منهم غير العمل الصالح حتى سهوا أو نسيانا لنلا يحتمل الناس أنهم اتخذوا ادعاء السهو والنسيان مسوغا لارتكابهم الذنب والمعصية.

الدليل العقلي الثاني على عصمة الأنبياء أن الأنبياء هم مكلفون بإبلاغ محتوى الوحي والرسالة للناس وهدايتهم للطريق المستقيم كذلك هم مكلفون بالقيام بتزكية الناس وتربيتهم واصلاحهم، وايصال الأفراد المؤهلين وذوي الاستعداد الى آخر مرحلة من مراحل الكمال الانساني.

وبتعبير آخر إن على عاتقهم اضافة الى تكفلهم مهمة التعليم والهداية، مهمة التربية والقيادة والتوجيه، تلك المسؤولية الشاملة والتي تشمل أفضل الناس استعدادا واسماهم درجة، ولا يستحق مثل هذا المقام الاصلاحى الرفيع الا اولئك الذين بلغوا اسمى درجات الكمال الانساني، ويملكون أكثر الملكات النفسية كمالات وهي ملكة العصمة.

أضف الى ذلك أن دور سلوك المربي وأفعاله ربما أكثر تأثيراً من أقواله في تربية الآخرين واصلاحهم، ومن وُجدت نقائص وعثرات في أفعاله فإن قوله سوف لا يملك التأثير المنشود، إذن فإننا يتحقق الهدف الإلهي من بعثة الأنبياء بصورة كاملة بما هم مربوا المجتمع ومصلحوه فيما لو كانوا معصومين ومنزهين عن كل انحراف في أقوالهم وأفعالهم.

ثانياً: الأدلة النقلية على عصمة الأنبياء:

١ - عبر القرآن الكريم عن بعض الأفراد بالمخلص (بفتح اللام) حيث لا يطعم في إغوائهم حتى الشيطان، ومن هنا أقسم الشيطان على إغواء بني آدم جميعهم واستثنى المخلصين (بفتح اللام) كما جاء في القرآن الكريم (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين).

ولاشك في أن السبب في يأس الشيطان من إغوائهم إنما هو ما يملكونه من تنزيه وصيانة من الضلال والآثام وآلا فإن عداؤه شامل حتى على هؤلاء، ولو كان يمكنه اغواؤهم لما تخلى عن إغوائهم وأعرض عنهم.

إذن فعنوان (المخلص) مساو للمعصوم، وأنه لا يوجد دليل على اختصاص هذه الصفة بالأنبياء الا أنه لا يمكن الشك في شمولها لهم. وقد اعتبر القرآن الكريم بعض الأنبياء من المخلصين (بفتح اللام) كما ورد في قوله تعالى: (واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب اولي الأيدي والابصار أنا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار).

وفي سورة مريم: (واذكر في الكتاب موسى أنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا). وكذلك اعتبر السبب في تنزه يوسف عليه وعلى نبينا السلام عن الانحراف في أشد الظروف كونه كان مخلصاً كما في الآية المباركة (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين).

٢ - لقد فرض القرآن الكريم على البشر إطاعة الأنبياء بصورة مطلقة كما جاء في قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله).

وإنما تصح إطاعتهم المطلقة فيما لو كانت في مسار إطاعة الله وعلى امتدادها، بحيث لا تكون إطاعتهم منافية لإطاعة الله، وإلا فإن الأمر بالإطاعة المطلقة لله تعالى والأمر بالطاعة المطلقة لمن هم معرضون للخطأ والانحراف سيكونان على طرفي نقيض.

٣ - لقد خص القرآن الكريم المناصب الالهية لأولئك الذين لم يتلوثوا بالظلم، فيقول تعالى في جوابه لإبراهيم عليه وعلى نبينا السلام عندما طلب منصب الامامة لأبناءه: (لا ينال عهدي الظالمين).

ونحن نعلم أن كل معصية هي ظلم للنفس على الأقل وكل عاص ومذنب ظالم في عُرف القرآن الكريم، إذن فالأنبياء أصحاب المنصب الالهي للنبوّة والرسل لا بد أن يكونوا منزّهين عن كل ظلم ومعصية، ويمكن توضيح عصمة الأنبياء عليهم السلام من آيات أخرى.

السّر في عصمة الأنبياء:

أما السّر في عصمة الأنبياء في مجال القيام بالوظائف الالهية، ومنها إبلاغ رسالة الله للناس فيحتاج لمقدمة وهي:

أن الأعمال البشرية إنما تتم بأن يحصل في أعماق الإنسان ميل لأمر ينشده ويرغب فيه، ويثار هذا الميل نتيجة لعوامل ومثيرات مختلفة، ويحدد الإنسان طريق الوصول لهدفه المنشود بمعونة العلوم والمدرّكات المختلفة ثم يقدم على العمل المتناسب معه، وإذا وُجدت الميول والرغبات المتعارضة والمتزاحمة فإنه يسعى قدر جهده لتحديد أفضلها وأكثرها قيمة وأهمية، ويختاره عملياً ولكنه أحياناً ونتيجة لنقص في علمه وقصور في معرفته يكون مخطئاً في تقويم الأفضل وتحديدده، أو أنه لغفلة عن الأصلح أو نتيجة لتعوده على الأمر الأسوأ يسيء الاختيار، ولا يبقى لديه مجال للتفكير الصحيح واختيار الأصلح.

إذن فكلما كان الإنسان أكثر معرفة بالحقائق وكان بالنسبة إليها أكثر وعياً وتوجهاً وثباتاً وحيوية، وأقوى إرادة على ضبط الميول والأنفعالات الداخلية فإنه سيكون أفضل في حسن اختياره وسيكون أكثر مناعة من الانحرافات والعترات.

ومن هنا فإن بعض الأفراد المؤهلين ومن ذوي الاستعدادات العالية الذين يملكون الثقافة اللازمة والعالية والوعي الضروري والتربية الصحيحة سوف يتوصلون إلى مراحل متقدمة من الكمال والفضيلة، وربما يتقربون من حدود العصمة بل ولا يخطر في أذهانهم مجرد التفكير بالاقتراب للذنب والعمل السيء، كما لا يفكر أي عاقل بشرب السم والعقاقير المميّنة أو تناول الأشياء القذرة والعفنة.

إذن فإذا افترضنا أن الفرد قد بلغ الغاية في استعداده لادراك الحقائق وارتفع بصفاء روحه وقلبه إلى أعلى المستويات والدرجات وبهذا الاستعداد والصفاء الذاتي تتولاه التربية الالهية ويؤيد بروح القدس، فإن هذا الفرد يطوي مدارج الكمال بسرعة لا توصف، وربما اجتاز في ليلة واحدة طريقاً لا يجتازه إلا بمائة سنة.

وربما أكثر الآخرين أقل درجة في المعرفة وفي طريقهم إلى الله، فيظهر لمثل هذا الفرد قبح المعاصي والذنوب تماماً كظهور ضرر السم ووضوحه وقبح الأشياء العفنة والقذرة للآخرين، وكما أن اجتناب الأفراد العاديين أمثال هذه الأفعال القاتلة أو القذرة ليس جبرياً فإن اجتناب المعصوم عن المعاصي لا يتنافى مع اختياره ابداً.

شبهات وحلول

قد تُطرح بعض الشبهات حول عصمة الأنبياء ﷺ، وفيما يلي استعراض لبعضها مع الإجابة:

الشبهة الاولى: إذا كان الله تعالى هو الذي قد عصم الأنبياء ونزَّههم عن ارتكاب المعاصي، حيث يلزم من ذلك أنه ضمن ممارستهم للوظائف والتكاليف، فإنه في هذه الحالة سوف لا تثبت لهم إِبْرَءٌ مميزة اختيارية ولا يستحقون أي ثواب لممارستهم الوظائف والتكاليف والاجتناب عن المعاصي؛ لأن الله تعالى لو جعل أي شخص آخر معصوما لكان مثلهم تماما؛ لأنه تعالى هو الذي منح العصمة ووفرها فيه؟ .. والجواب عن هذه الشبهة يتوضح بما يلي:

إن العصمة لا تعني الجبر على القيام بالوظائف والتكاليف وترك المعاصي، وحين نقول إن الله عاصم المعصومين وحافظهم فلا يعني ذلك نفي اسناد الأفعال الاختيارية اليهم، ذلك لأن كل الظواهر وإن استندت في نهاية سلسلتها الى الإرادة التكوينية الالهية، ولكن هذه العناية الالهية الخاصة بالنسبة للمعصومين هي كسائر الوسائل والظروف والامكانات الخاصة التي توفر لبعض الأفراد المعنيين، مما يؤدي الى أن تكون مسؤوليتهم أكبر وأثقل، كما أن الثواب على عملهم يتضاعف فإن العقاب على المخالفة أشد، وبهذا الشكل يتم التوازن بين الثواب والعقاب.

الشبهة الثانية: أن الأنبياء وسائر المعصومين ﷺ يعتبرون أنفسهم من المذنبين كما يُنقل عن ادعيتهم ومناجاتهم واستغفارهم من الذنوب ومع صدور مثل هذا الاعتراف والاقرار منهم فكيف نعدّهم معصومين؟

والجواب: أن الأنبياء والمعصومين ﷺ قد ارتفعوا الى اسمى درجات الكمال والقرب الالهي؛ لذلك يشعرون بأنهم مكلفون بوظائف ومهام تفوق وظائف الآخرين، بل إنهم يعتبرون أي توجه والتفات منهم لغير معبودهم ومحبوبهم ذنبا كبيرا، ومن هنا يقفون موقف الاستغفار والاعتذار وإن ما يقدمونه لله هو قليل في حق الله تعالى.

الشبهة الثالثة: ذكرت بعض الآيات القرآنية الدالة على عصمة الأنبياء بأنهم يعتبرون من المخلصين، ولا يطعم الشيطان فيهم مع أن القرآن الكريم نفسه يذكر بعض تصرفات وتأثيرات الشيطان كما ورد في قوله تعالى: (يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) ، حيث تنسب للشيطان خداعه لآدم وحواء

والذي أدى الى خروجهما من الجنة، وكذلك على لسان أيوب قوله تعالى: (إذ نادى ربه إنني مسني الشيطان بنصب وعذاب).

وفي سورة الحج قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته). حيث نسبت نوعا من الوسوس الشيطانية لجميع الأنبياء ؟ والجواب: لم يُلحظ في هذه الآيات أي تصرف او تأثير شيطاني أدى الى مخالفة الأنبياء **عليهم السلام** للتكاليف الالتزامية، فأما الآية في وسوسة الشيطان لأدم وحواء للأكل من الشجرة المنهية فإنه لم يتعلق نهي تحريمي بالأكل بل ورد تذكير لأدم وحواء وتنبههما على أن الأكل منها يؤدي الى الخروج من الجنة والهبوط الى الأرض، وأن وسوسة الشيطان سببت مخالفتها لهذا النهي الإرشادي، هذا بالاضافة الى أن الأمر لم يكن في عالم التكليف.

أما بالنسبة الى أيوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فليس في الآية أية دلالة على مخالفتها للوامر والنواهي الالهية، أما سورة الحج فهي مرتبطة بالعراقيل التي يواجه بها الشيطان نشاطات الأنبياء عليهم السلام جميعا، والعقبات التي يضعها في سبيل وصولهم الى أهدافهم في مجال هداية الناس وأخيرا فإن الله تعالى يبطل مكر الشيطان وحيله ويثبت الدين الحق.

الشبهة الرابعة: في سورة طه، نسب العصيان لأدم عليه وعلى نبينا السلام وفي السورة نفسها نسب النسيان لأدم فكيف تتلائم مثل هذه النسبة مع المعصية؟ والجواب: قد اتضح مما سبق أن المعصية والنسيان لم يكونا مرتبطين بالتكليف الالزامي. ومن جهة أخرى فإن النسيان يعني ترك الشيء لقوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ).

الشبهة الخامسة: نسب الكذب في القرآن الكريم لبعض الأنبياء ومن الآيات التي تدل على ذلك ماقاله إبراهيم **عليه السلام**: (فقال إنني سقيم).. مع أنه لم يكن مريضا وفي سورة أخرى عن إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام: (قال بل فعله كبيرهم هذا).

مع أنه هو الذي حطم الأصنام، وفي سورة يوسف: (ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون).. مع أن أخوة يوسف لم يرتكبوا السرقة؟ والجواب: أن هذه الأقوال إنما صدرت من باب التورية (أي أن المراد معنى آخر) لأجل بعض المصالح الأكثر أهمية كما أشير الى ذلك في بعض الروايات، ويمكن القول بأنها كانت إلهام إلهي .. والله اعلم.

الشبهة السادسة: ورد في قصة موسى عليه وعلى نبينا السلام أن قبطيا تشاجر مع رجل من بني إسرائيل فقتله موسى، ولأجل ذلك هرب من مصر، وحين بعثه الله لدعوة الفراعنة قال: (ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون).
 وحين ذكره فرعون بالقتل أجاب موسى: (وفعلتها إذن وأنا من الضالين).
 فمثل هذه الحكاية كيف تتلائم وعصمة الأنبياء قبل بعثتهم؟
والجواب: أولا: أن قتل القبطي لم يكن عمدا بل كان نتيجة ضربة أصابته دون عمد من موسى.

ثانيا: أن الآية (ولهم عليّ ذنب)، والتي وردت على لسان موسى عليه السلام كانت وفق نظر الفراعنة، والمراد أنهم يعتبرونني قاتلا ومذنبا وأخاف أن يقتلونني قصاصا.
 ثالثا: أما جملة (وأنا من الضالين) فإنها مجازة للفراعنة بأنه على تقدير أنني كنت ضالا آنذاك فهداني الله وأرسلني بهذه البراهين القاطعة، والمراد من الضلال هو عدم المعرفة بعواقب العمل وعلى كل حال فلا تدل بمخالفة موسى للتكليف الإلزامي.

الشبهة السابعة: ورد في سورة يونس قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم عليه السلام:
 (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسنل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) ، وكذلك في آيات أخرى في سور أخرى ينهى فيها الله تعالى نبيه عليه السلام عن الشك والتردد، فكيف يمكن القول بأن إدراك الوحي لا يقبل الشك والتردد؟
والجواب: أن هذه الآيات لا تدل على وقوع الشك والتردد فعلا للنبي عليه السلام، بل إنها في صدد التأكيد على هذه الملاحظة بأنه لا مجال للشك في رسالته وهو خطاب من باب (إياك أعني واسمعي يا جاره).

الشبهة الثامنة: نُسبت في القرآن الكريم بعض الذنوب للرسول عليه السلام بظاها كما في قوله تعالى: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر).
والجواب: أن المراد بالذنب في هذه الآية المباركة هو الذنب الذي وجهه المشركون للنبي عليه السلام قبل الهجرة وبعدها بسبب أهانتهم لأصنامهم وأهنتهم، وقد جاء فتح مكة سببا لمغفرته حيث يقول تعالى: (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ، وإذا كان المراد من الذنب المعنى المصطلح فلا وجه لتعليل المغفرة بفتح مكة.

الشبهة التاسعة: يقول القرآن الكريم حول زواج النبي ﷺ بزوجة زيد بن حارثة (مُتبنى النبي) المطلقة، وهي زينب بنت جحش: (وتخش الناس والله أحق أن تخشاه). فكيف يتلائم مثل هذا القول مع العصمة؟

الجواب: أن مثل هذا العمل الذي صدر بأمر الله ومن أجل القضاء على تقليد من تقاليد الجاهلية المنحرفة (حيث كان يعتبر المُتبنى كالإبن من النسب) كان يخشى النبي ﷺ أن يحمله الناس لضعف إيمانهم على ميوله ورغباته الشخصية وأن يؤدي ذلك الى ارتدادهم عن الدين وقد أطلع الله بهذه الآية الشريفة على أن المصلحة في مكافحة هذا التقليد المنحرف أكثر أهمية، وعليه فهذه الآية ليست في مجال تأنيب النبي ﷺ وتوبيخه.

الشبهة العاشرة: أن القرآن الكريم عاتب النبي ﷺ بمواضع كثيرة ومنها: (عفا الله عنك لم إذنت لهم) ، ومنها (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك) ، فكيف ينسجم هذا العتاب مع العصمة؟

والجواب: أن مثل هذا الخطاب في واقعه (مدح بأسلوب العتاب)، حيث يدل على مدى ما كان يملكه النبي ﷺ من شفقة وحنان حتى على المنافقين ومرضى القلوب حيث لم يبعث اليأس فيهم ولم يكشف عن أسرارهم، وأيضا حين يقدم مرضاة زوجته على رغباته وميوله، ويحرم باليمين عملا مباحا في حقه، وهذا لا يعني (والعياذ بالله) أنه يحاول تغيير حكم الله وتحريم الحلال على الناس.

وفي الواقع أن هذه الآيات هي نظير الآيات التي تشير الى جهود النبي ﷺ الكبيرة واهتمامه البالغ وحرصه الشديد لهداية الكفار، أمثال قوله تعالى: (لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين) ، او الآيات التي تدل على ما يبذله من جهد ومشقة في سبيل عبادة الله مثل قوله تعالى: (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ، وعلى كل حال، فلا تنافي هذه الآيات عصمته ﷺ.

الفصل الثالث

البعثة النبوية الشريفة للمصطفى ﷺ

شخصية النبي الأكرم ﷺ قبل البعثة:

كان الرسول الأكرم ﷺ يمثل الحالة المستقيمة والشخصية الصافية من دون أية انحرافات في السلوك والأخلاق وسط مناخ الجزيرة العربية، كما أنه لم يكن قبل البعثة يقرأ ويكتب ولم يتلقَ أية دراسة أو تعليم منظم، أو غير منظم وكما قال تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون).. وهذا النص القرآني دليل واضح على مستوى ثقافة الرسول ﷺ قبل البعثة، وهو دليل حاسم حتى في حق من لا يؤمن بربانية القرآن؛ لأنه على أي حال نصّ أعلنه النبي ﷺ على بني قومه، وتحدث به إلى أعرف الناس بحياته وتاريخه، فلم يعترض أحد على ما قال، ولم ينكر أحد ما ادّعى، بل نلاحظ أن النبي لم يساهم قبل البعثة حتى في ألوان النشاط الثقافي الذي كان شائعاً في قومه من الشعر والخطابه، ولم يؤشّر عنه أي تميز عن أبناء قومه، إلا في التزاماته الخلقية وأمانته ونزاهته وصدقه وعفته واستقامته، وكانوا يعتبرونه (الصادق الأمين)، وهما من أعظم وأجلّ صفتين للإنسان في سمو أخلاقه وسيرته الرفيعة.

لقد عاش ﷺ أربعين سنة قبل البعثة في قومه دون أن يحسّ الناس من حوله بأي شيء يميّزه عنهم، سوى ذلك السلوك النظيف في سيرته، ودون أن تبرز في حياته أية بذور عملية أو اتجاهات جادة نحو عملية التغيير الكبرى التي طلع بها على العالم فجأة بعد أربعين عاماً من عمره الشريف، قال تعالى: (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدريكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون).

وكان ﷺ قد ولد في مكة، وظل فيها طيلة الفترة التي سبقت البعثة، ولم يغادرها إلى خارج الجزيرة العربية، إلا في سفرتين قصيرتين أحدهما مع عمه أبي طالب، وهو صبي في أوائل العقد الثاني، والأخرى بأموال خديجة، وهو في أواسط العقد الثالث.

ولم يتيسر له بحكم عدم تعلمه للقراءة والكتابة أن يقرأ شيئاً من النصوص الدينية لليهودية أو المسيحية، كما لم يتسرب إليه أي شيء ملحوظ من تلك النصوص عن طريق البيئة، لأن مكة كانت وثنية في أفكارها وعاداتها، ولم يتسرب إليها الفكر المسيحي أو اليهودي، ولم يدخل الدين إلى حياتها بشكل من الأشكال.

وحتى أولئك الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام من عرب مكة لم يكونوا قد تأثروا باليهودية أو المسيحية، ولم ينعكس شيء من الأفكار اليهودية والمسيحية على

ما خلفه قيس بن عباد (وهو خطيب من كبار خطباء العرب قبل الإسلام ومن المعروفين في الجاهلية، وكان أسقفا لنجران وكان يعظ القوم في عكاظ)، أو غيره من تراث أدبي وشعري.

ولو كان النبي ﷺ قد بذل أي جهد للاطلاع على مصادر الفكر المسيحي للوعظ في ذلك لظهر في سلوكه، فهو في بيئة ساذجة، ومنطقة بعيدة الصلة بمصادر الفكر اليهودي والمسيحي، ولا يمكن أن تمر بمحاولة من هذا القبيل دون أن تلفت الأنظار، ودون أن تترك بصماتها على كثير من التحركات والعلاقات.

لقد كان الرسول الأكرم ﷺ يتعمق في الرسالة الإسلامية العالمية الخاتمة للشرائع السماوية، فكان يخلو في غار حراء فيتعبد لله سبحانه وتعالى، وكان يصطحب معه علي ابن أبي طالب عليه السلام، ثم يعود إلى زوجته خديجة عليها السلام. وهكذا بقي يتعبد في غار حراء بعيدا عن مشركي مكة لتتحمل أعباء الرسالة الخاتمة، فكان جديرا بها وتحمل ما تحمل لنشر نور الإسلام في وسط الجاهلية المشركة في سبيل الله صابرا، وكما ورد عنه عليه السلام: (ما أودى نبي مثل ما أوديت).

تأليف القلوب:

لقد فطر الله عز وجل سيدنا ونبينا الرسول الأكرم ﷺ على الكمالات العليا من الأخلاق الإلهية وأودع أوصافه عند حبيبه فصارت جبلة وطبيعة له، فهي هبة له من خالقه ومؤدبه، فجعله انموذجا يحتذى به من قبل جميع البشرية، فهو الأنموذج الأكمل والمثال الأعظم في كل أخلاقه وتعاملاته وأحواله سواء مع أهل بيته أو مع جيرانه أو مع أخوانه من المؤمنين أو حتى مع أعدائه من الخلق أجمعين.

وهكذا ورد خلقه وأدبه في التوراة والأنجيل وهكذا كان هديه طوال حياته لأن الله تعالى جعله قطبا جاذبا للعالم أجمع بأوصافه وبأخلاقه التي كمله الله بها، فلا يراه إنسان مهما كانت قساوة قلبه أو غلظة طبعه إلا رقى لأخلاقه العالية وحن إلى صفاته العالية وتمنى أن يتجمل بتلك الصفات الجميلة، والتي جعلها الله تعالى به في سر قوله تعالى: (وانك لعلى خلق عظيم) وقال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

هذا هو النبي الأكرم الذي بعث في أمة كانت تعيش الجاهلية بكل أبعادها وبأسوأ أخلاقية وأشرس تعامل، وقد وصفوا بالغلظة ولم توصف أية أمة بمثل جفوتهم وقسوتهم وغلظتهم، وهكذا بخلقه العظيم رقق قلوبهم ولين أفئدتهم وحسن أخلاقهم وغير طباعهم نحو الأفضل وجعلهم يألفون ويألفون.

لقد فطر الله تعالى حبيبه بهذه الصفات والأخلاق الرفيعة والعالية مقترنة بجمال وكمال المبدع الجبار، والتي انعكست على رفع مستوى أمته بعد هدايتها، وعندما

القي جعفر بن أبي طالب كلمته المعروفة على النجاشي ملك الحبشة ومن معه وأراد أن يبين جمال الإسلام وكمال الرسول الأكرم ﷺ وسمو أخلاقه لم يذكر العبادات ولا أحكام التشريعات وإنما ذكر جمال صفات الرسول المصطفى ﷺ وحسن أخلاقه وكماله، فقال جعفر:

(أيها الملك، كنا قوما على الشرك نعبد الاوثان وناكل الميتة ونسيء الجوار ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئا ولا نحرمه فبعث الله إلينا نبيا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته فدعانا أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم ونحسن الجوار).

وقد ورد عن الرسول الأكرم ﷺ في الأخلاق: (إن أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا، الموطنون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون).

كما ورد أيضا: (إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا) ، وأصبحت تلك الأمة خير أمة أخرجت للناس بعد أن وصفهم الله بقوله: (إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا).

وهكذا أصبحت تلك الأمة هي التي رفعت علم الهداية برسولها وبأهل بيته الأطهار وهي تقود العالم نحو حلم الأنبياء والمرسلين بتطبيق المشروع الإلهي للحكومة العادلة ليملاً الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا وكما قال تعالى: (ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين).

مطعمه ﷺ:

ورد في كتاب مواليد الصادقين أن رسول الله ﷺ كان يأكل كل الأصناف من الطعام، وكان يأكل ما أحل الله له مع أهله وخدمه إذا أكلوا، ومع من يدعوه من المسلمين على الأرض، وعلى ما أكلوا عليه، ومما أكلوا إلا أن ينزل بهم ضيف فيأكل مع ضيفه، وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضف (الضف: التناول مع الناس، أو كثرة الأيدي، ومعناه: أنه لم يأكل خبزا ولا لحما وحده).

ولقد قال ذات يوم وعنده أصحابه: اللهم إنا نسألك من فضلك ورحمتك اللذين لا يملكهما غيرك، فبينما هم كذلك إذ أهدى إلى النبي ﷺ شاة مشوية فقال: خذوا هذا من فضل الله ونحن ننتظر رحمته، وكان النبي ﷺ إذا وضعت المائدة بين يديه قال: بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة نصل بها نعمة الجنة.

وكان إذا جلس ليأكل يأكل ما بين يديه ويجمع ركبتيه وقدميه كما يجلس المصلي إلا أن الركبة فوق الركبة والقدم على القدم ويقول ﷺ: أنا عبد أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد.

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما أكل رسول الله صلى الله عليه وآله منذ بعثه الله عز وجل نبيا حتى قبضه الله إليه متواضعا لله عز وجل، وكان صلى الله عليه وآله إذا وضع يده في الطعام قال: بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وعلينا خلفه.

وعن الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا أفطر قال: اللهم لك صمنا وعلى رزقك أفطرننا فتقبله منا، ذهب الظمأ وابتلت العروق وبقي الأجر.

وقال عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أكل عند قوم قال: أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار. وقال: دعوة الصائم تستجاب عند إفطاره. وقد جاءت الرواية: أن النبي صلى الله عليه وآله كان يفطر على التمر، وكان إذا وجد السكر أفطر عليه.

وعن الصادق عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يفطر على الحلو فإذا لم يجده يفطر على الماء الفاتر وكان يقول إنه ينقي الكبد والمعدة ويطيب النكهة والفم ويقوي الأضراس والحدق ويحد الناظر ويغسل الذنوب غسلا ويسكن العروق الهانجة والمرة الغالبة ويقطع البلغم ويطفي الحرارة عن المعدة ويذهب بالصداع.

وكان صلى الله عليه وآله لا يأكل الحار حتى يبرد ويقول: إن الله لا يطعمنا نارا، إن الطعام الحار غير ذي بركة فأبردوه. وكان صلى الله عليه وآله إذا أكل سمى ويأكل بثلاث أصابع ومما يليه ولا يتناول من بين يدي غيره ويؤتى بالطعام فيشرع قبل القوم ثم يشرعون، وكان يأكل بأصابعه الثلاثة: الأبهام والتي تليها والوسطى، وربما استعان بالرابعة، وكان صلى الله عليه وآله يأكل بكفه كلها، ولم يأكل بإصبعين ويقول: إن الأكل بإصبعين هو أكلة الشيطان.

وكان صلى الله عليه وآله في مشربه إن شرب بدأ فسمى وحسا حسوة وحسوتين، ثم يقطع فيحمد الله ثم يعود فيسمى ثم يزيد في الثالثة، ثم يقطع فيحمد الله، فكان له في شربة ثلاث تسميات وثلاث تحميدات ويمص الماء مصا ولا يعبه عبا، ويقول صلى الله عليه وآله: إن الكباد من العب، وكان صلى الله عليه وآله لا يتنفس في الأثناء إذا شرب فإن أراد أن يتنفس أبع الأثناء عن فيه حتى يتنفس.

ظهور الدعوة الإسلامية:

كان وضع المجتمع الإنساني (فترة الجاهلية) يسوده الباطل وسلطة الفساد والظلم في جميع شؤون الحياة، بينما دين التوحيد وهو دين الحق يريد أن يؤمر الحق ويؤليه عليهم تولية مطلقة، ويطهر قلوبهم من الوان الشرك، ويزكي أعمالهم ويصلح مجتمعهم بعد ما تمكن الفساد في جذوره وأغصانه وباطنه وظاهره يستشري فيهم.

وبالجملة يريد الله ليهديهم الى طريق الحق الواضح، وما يريد ليجعل عليهم في الدين من حرج، ولكن يريد ليطهرهم وليتم نعمته عليهم، بما هم عليه من الباطل، وكان يريد منهم أن تكون كلمة الحق هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى، وعليه يجب

أن يستمال منهم البعض ويصلح بهم الباقين، وكما قيل (إن أهمية الغاية تبيح المقدمة ولو كانت محظورة)، وهذا هو السلوك السياسي الذي يستعمله معظم أهل السياسة. إن هذا النحو من السلوك الى الغرض قلما يتخلف عن الايصال الى المقاصد في أي باب جرى غير أنه لا يجري في باب الحق الصريح وهو الذي تؤمّه الدعوة الإسلامية، فإن الغاية وليدة مقدماتها ووسائلها، وكيف يمكن أن يلد الباطل حقا وينتج السقيم صحيحا؟

كما وأن بغية السياسة وهواها أن تبلغ السلطة والسيطرة، وتحوز السبق والتصدر والتعيين والتمتع بأي نحو اتفق، وعلى أي وصف من اوصاف الخير والشر والحق والباطل انطبق، ولا هوى لها في الحق، ولكن الدعوة الحقّة لا تبتغي الا الغرض الحق، ولو توصلت اليه بباطل لكان ذلك منها إمضاء وإنفاذا للباطل فتصير دعوة باطلة لا دعوة حقّة.

وبهذه الحقيقة الناصعة ظهرت سيرة الرسول المصطفى ﷺ في أمور الدين، وكما قال تعالى: (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين) ، وقال تعالى: (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا).

وإذا كان الحق لا يمازج الباطل ولا يلتئم به فقد أمره الله سبحانه وتعالى حينما أعبأه ثقل الدعوة بالرفق والتدرج في أمرها بالنظر الى نفس الدعوة والمدعو والمدعو اليه من ثلاث جهات:

الاولى: من جهة ما اشتمل عليه الدين من المعارف الحقّة والقوانين المشرعة التي من شأنها اصلاح شؤون المجتمع الإنساني، وقطع مصادر الفساد، فإن من الصعب المستصعب تبديل عقائد الناس ولاسيما إذا كانت ناشئة في الأخلاق والأعمال وقد استقرت عليها العادات، ودارت عليها القرون، وسارت عليها الأسلاف، ونشأت عليها الأخلاف، ولا سيما إذا عمّت كلمة الدين ودعوته جميع شؤون الحياة، واستوعبت جميع الحركات الأنسانية وسكناتها في ظاهرها وباطنها، لذلك أظهرت الدعوة الاعتقادات الحقّة في اول أمرها جملة ولكن القوانين والشرائع الالهية ظهرت بالتدرج حكما فحكما.

وبالجملة تدرجت الدعوة في القاء التشريع الى الناس لئلا تنفر عن تلقيها الطباع ولا تتزلزل النفوس في نقد بعض أجزاء الدعوة على بعض.

فالآيات المكية تدعوا الى الكليات وقد أجمل فيها القول، أما الآيات المدنية (وهي التي نزلت بعد الهجرة أينما نزلت) تفصل القول وتأتي بالتفاصيل من الاحكام التي سبقت المكية كلياتها ومجملاتها، قال تعالى: (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى

إن إلى ربك الرجعى أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى).

وهذه الآيات نازلة في أول الرسالة بعد النبوة، وفيها إجمال التوحيد والمعاد وإجمال أمر التقوى والعبادة.. قال تعالى: (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر) وهي من الآيات النازلة في أول البعثة أيضا.
وقال تعالى: (ونفس وما سواها فالهههما فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاهما وقد خاب من دسّاهما).

وكيفما كان فالآيات المكية شأنها الدعوة إلى مجملات فصلتها بعد ذلك الآيات المدنية، ومع ذلك فالآيات المدنية نفسها لا تخلو عن مثل هذا التدرج، فالاحكام والقوانين المدنية لم تنزل في المدينة دفعة واحدة بل نجوما وتدريجا.

الثانية: السلوك التدريجي من حيث انتخاب المدعوين وأخذ الترتيب فيهم، فمن المعلوم أن النبي ﷺ كان مبعوثا إلى البشر من غير اختصاص دعوته بقوم دون قوم، ولا بمكان دون مكان، ولا زمان دون زمان وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض).
وقال تعالى: (واوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ).. . وقال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

إن هذا التاريخ يسجل دعوته ﷺ لليهود وهم من بني إسرائيل والروم والعجم والحبشة ومصر، وهم ليسوا من العرب، وقد آمن به من المشاهير ومنهم سلمان، وهو من بلاد فارس ومؤذن المسلمين بلال وهو من الحبشة، وصهيب وهو من الروم، فعموم نبوته ﷺ في زمانه لا يرب فيه والآيات السابقة تشمل بعمومها الأزمان والامكنة أيضا.

وبالجملة أمره الله تعالى بعد القيام بأصل الدعوة أن يبدأ بعشيرته أولا، فقال تعالى: (وانذر عشيرتک الأقربين).

فامتثل الرسول الأكرم ﷺ لأمر الله تعالى، فجمع عشيرته، ودعاهم إلى ما بُعث له، ووعدهم وأن أول من لبّاه فهو خليفته من بعده، وقد أجابه إلى ذلك علي ابن أبي طالب عليه السلام، فشكر له ذلك واستهزأ به الباقر على ما ورد في الروايات وكتب الحديث والتاريخ والسير، ثم لحق به أناس من أهل بيته عمه حمزة بن عبدالمطلب وعبيدة وعمه أبي طالب، وإنما لم يتظاهر بالإيمان عمه أبو طالب ليتمكن من حمايته عليه السلام، أما خديجة عليها السلام فقد أمنت به في بداية دعوته وهي أول النساء إسلاما.

ثم أمره الله سبحانه أن يوسع الدعوة لقومه على ما يظهر من قوله: (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) وقوله تعالى: (لتنذر قوما ما أتاهم من

نذير من قبلك لعلهم يهتدون) وقال تعالى: (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا) وقوله تعالى: (ولكن رسول الله وخاتم النبيين).

الثالثة: الدعوة الى رعاية الكرامات الإنسانية والأخلاق الحسنة وقد ورد في قوله تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ) وقال تعالى: (واحفض جناحك للمؤمنين)، وقال تعالى: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وقال تعالى: (ولا تمنن تستكثر) ، وغيرها من الآيات الكثيرة. وكذلك أمره ﷺ أن يستعمل جميع فنون البيان على حسب اختلاف مستويات واستعدادات الأشخاص قال تعالى: (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن).

وأما الدعوة السلبية فهي اعتزال المؤمنين في دعوتهم للكافرين في دينهم وأعمالهم وتكوين مجتمع إسلامي لا يمازجه دين غيرهم ممن لا يوحد الله سبحانه وتعالى، ولا أعمال غير المسلمين من المعاصي وسائر الرذائل الأخلاقية الا ما اوجبه ضرورة الحياة من المخالطة، قال تعالى: (لكم دينكم ولي دين). وقال تعالى: (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تتصرون). وقال تعالى: (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم).

هذا وقد مرّت أدوار الدعوة الإسلامية في مكة بثلاثة أدوار:

الدور الاول: وهو دور إعداد القاعدة الاولى والنواة الفاعلة لنشر الدعوة، وكانت في تلك الفترة من الدعوة وفي بدايتها سرية وكان مقرها دار ابن الأرقم، وقد امتدت حوالي ثلاث سنوات.

الدور الثاني: وهو دور التعريف بالدعوة وبداية الإعلان للدعوة وذلك بدعوة الأقراب عندما نزل قوله تعالى: (وأندر عشيرتك الأقربين).

الدور الثالث: وهو دور الإعلان والمواجهة العلنية بعدما نزل الأمر الالهي بأن يصدع بالدعوة فنزل قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين).

لقد واجه الرسول المصطفى ﷺ أعتى قوة من قبل مشركي مكة فكانوا يؤذونه يشتى الوان التعذيب النفسي والجسدي فوصفوه بالساحر وطعنوه بالسفاهة واستعملوا كل وسائل الترغيب والترهيب حتى قال ﷺ كلمته المعروفة: (ما اوذني نبي مثل ما اوذيت).. لقد أرسلت قريش وجهانها من الرجال الى أبي طالب فقالوا له:

يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أجمل فتى في قريش فخذ واتخذه ولدا، وسلم الينا ابن أخيك محمدا الذي فرّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل.

فَرَدَهُمْ أَبُو طَالِبٍ قَانِلًا: أَتَعْطُونِي ابْنَكُمْ أَغْذُوهُ لَكُمْ وَأَعْطِيكُمْ ابْنِي تَقْتُلُوهُ وَاللَّهِ مَا أَنْصَفْتُمُونِي، وَجَاءُوا إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى بِالْتَّرَغِيبِ بَأَن يَعْطُوهُ الْمَلِكُ سَنَةً وَسَنَةً لَهُمْ، وَإِذَا أَرَادَ الزَّوْجَ يَخْتَارُونَ لَهُ أَجْمَلَ فِتْنَةً مِنْ قَرِيشَ، فَسَأَلَهُ عَمَهُ أَبُو طَالِبٍ حَوْلَ الْأَمْرِ، فَقَالَ ﷺ: (يَاعَمُّ وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي عَلَى أَن أُتْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتَهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ).

فَقَالَ لَهُ عَمَهُ أَبُو طَالِبٍ: (أَذْهَبْ يَا ابْنَ أَخِي فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ فَوَاللَّهِ لَا اسْلَمْتُكَ لَشَيْئٍ أَبَدًا) هَذَا هُوَ الْمَوْقِفُ الثَّابِتُ لِلرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ، وَهَذَا هُوَ مَوْقِفُ أَبِي طَالِبٍ الْمُدَافِعِ عَنِ الرَّسُولِ وَالرَّسَالَةِ بِإِيْمَانٍ ثَابِتٍ.

لَقَدْ بُشِّرَتْ بِقُدُومِهِ ﷺ الْأَنْبِيَاءُ، فَلَقَدْ عَاشَتْ الْبَشَرِيَّةُ فِي انْحِدَارٍ فِكْرِي وَتَقَافِي وَاجْتِمَاعِي وَاخْلَاقِي خَطِيرٍ بَيْنَ جَاهِلِيَّةِ الْعَرَبِ الْجَهْلَاءِ وَوُثْنِيَّتِهَا وَوَحْشِيَّتِهَا وَمَجُوسِيَّةِ الْفَرَسِ وَسُلْطَانِهَا تَعِيشَ فِي شَرْقِ الدُّنْيَا فَسَادًا حَيْثُ النَّارُ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَاحْبَارِ الْيَهُودِ وَقَدْ حَرَفُوا التَّوْرَةَ فَضَلَّ عَنْ دَوْلَةِ الرُّومِ تَسُومُ النَّاسَ سُوءَ الْعَذَابِ فِي الْعَرَبِ حَيْثُ شَرِيعَةُ الْغَابِ تَسِيطرُ عَلَى السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ. وَفِي هَذِهِ الْأَجْوَاءِ الْمَلْبَدَةُ بِظُلَامِ الضِّيَاعِ الدَّامِسِ، سَطَعَ ضِيَاءُ أَعْظَمِ مَخْلُوقٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ رَسُولُ الْإِنْسَانِيَّةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَرْكَزِ الْجَهْلِ وَالتَّخَلُّفِ وَالْفَقْرِ وَالْبُؤْسِ وَالْإِضْطِهَادِ وَالنَّهْبِ وَالسُّلْبِ، وَقَدْ أَجْمَلَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فِي حَدِيثِهِ مَعَ النَّجَاشِيِّ فِي شَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ بِقَوْلِهِ:

(إِيهَا الْمَلِكُ كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْإِرْحَامَ وَنَسِيءُ الْجَوَارِ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مَنَا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا لِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِن لَّا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَنَخْلَعُ مَا كُنَّا نَعْبُدُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَأَمَرْنَا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصَلَّةِ الرَّحْمِ وَحَسَنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدَّمَاءِ وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَمَرْنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ).

وَلَقَدْ تَمَيَّزَ ﷺ بِمَيَّزَاتٍ أَهْمَهَا الْقَلْبُ الْعَطُوفُ وَالرُّوحُ الْكَبِيرَةُ وَسَخَاءُ النَّفْسِ حَتَّى وَصَفَهُ اللَّهُ بِصِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَظِيمَةَ وَلَمْ يُوصَفْ بِهَا أَى نَبِيٍّ إِذْ قَالَ تَعَالَى (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنَّتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

لَقَدْ اسْتَطَاعَ الرَّسُولُ الْأَكْرَمُ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ الضَّالَّةِ وَالْمَتَخَبِّطِ فِي غِيَاهِبِ الظُّلُمَاتِ وَالْمَتَشَرِّذِ وَالْمَتَنَاحِرِ مَعَ بَعْضِهَا إِلَى أُمَّةٍ تَقُودُ الْعَالَمَ بِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ الْحَنِيفِ وَالْمَتَمَيِّزِ عَنِ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ بِأَطْرُوحَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ الْخَاتِمَةِ لِلشَّرَائِعِ

السابقة والمهيمنة عليها والمتمشية مع كل زمان ومكان الى قيام الساعة وكما قال تعالى: (وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه).

بشارة الأنبياء ببعثته ورسالته:

لقد بشر إبراهيم الخليل عليه السلام بالرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم وكما قال تعالى على لسانه: (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) ، وقال النبي عيسى عليه وعلى نبينا السلام، وكما ورد في القرآن المجيد: (واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول ياتي من بعدى اسمه أحمد).

ولقد ورد ذكره صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية، قال تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) ، وكذلك أخذ الله الميثاق من النبيين كما ورد في قوله تعالى: (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم واخذتم على ذلكم أصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين).

وقد ورد في الاخبار بأن بعض اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم سميت أحمد ومحمدا وبشيرا ومبشرا؟

فقال صلى الله عليه وسلم: (أما محمد، فإني في الأرض محمود، وأما أحمد فإني في السماء أحمد مني في الأرض، وأما البشير فأبشّر من أطاع الله بالجنة، وأما النذير فأنذر من عصى الله بالنار).

وفي الدرالمثور أخرج ابن مردويه عن بن سارية قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إني عبدالله في أم الكتاب وخاتم النبيين وأن آدم لمنجدل في طينته وسوف أنينكم بتأويل ذلك، أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام).

لقد كان بدء الوحي في غار حراء وهو جبل على ثلاثة أميال من مكة، ويقال: هو جبل فاران، الذي ورد ذكره في التوراة إلا أن الظاهر هو أن فاران اسم لجبال مكة، كما صرح به ياقوت الحموي، حسبما تقدم، لا لخصوص جبل حراء.

وكان صلى الله عليه وسلم يتعبد في غار حراء هذا، على النحو الذي ثبتت له مشروعيته، وكان قبل ذلك يتعبد فيه عبدالمطلب صلى الله عليه وسلم.

وأول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق) وهذا هو المروي عن أهل البيت عليهم السلام، وروي أيضاً عن غيرهم بكثرة، كما

ورد عن المسعودي، قال: فإنزل عليه بمكة من القرآن اثنان وثمانون سورة ونزل تمام بعضها في المدينة، واول ما نزل عليه من القرآن: (اقرأ باسم ربك الذي خلق).

اختيار مكة لبداية الدعوة:

كانت مكة موطننا لمبعث خاتم الأنبياء والمرسلين المصطفى الأكرم محمد ﷺ وكانت مهذا للأنبياء، ومبعثا لرسالات دينية سبقت الإسلام، وهي مركز الوثنية العربية، وليست في ظاهر الحال أقل من بلاد، ولو نظرنا لواقع الحياة قبل المبعث وموضع منزل الوحي في عالم كان حينذاك يريد أن ينقض، وتاريخنا الديني يمكن أن يعطينا ما ندرك منه الحكمة في اصطفاء مكة لمبعث خاتم المرسلين.

وقد كانت من قديم العصور والاباد حرما مقدسا، وعلى أرضها قام اول بيت عبد فيه الله سبحانه على الأرض. ولا نعلم تماما، الظروف التي تداعى فيها بنيان ذلك البيت العتيق، ونفذت إليه ظلال وثنية دنست حرمة، حتى تلقى إبراهيم الخليل أمر ربه بأن يرفع قواعد البيت الحرام، هو وولده إسماعيل، والقواعد من البيت ويظهره للطائفين والعاكفين والركع السجود.

وبأمر الله تعالى أذن إبراهيم في الناس بالحج الى البيت العتيق، فأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ومن ذلك الزمن الموهل في الماضي السحيق، رسخت مكانة مكة في تاريخنا الديني، ولكن الوثنية عادت فتسللت الى حرمتها، مع اوثنان وأصنام كانت في اول الأمر رموزا للخالق المعبود، ثم فقدت رمزيتها وصارت معبودات.

وظل لمكة مع ذلك مركزها الديني لا تنازعها فيه بلدة أخرى، وبقيت مثابة حج العرب في الجاهلية الوثنية على مر الحقب والدهور. وكأنما كان البيت العتيق فيها، ذكرى شاخصة من عهد إيمانها القديم، يحمي بقية من الوعي كامنة في العمق الغائر من ضمير الجاهليين، عبدة الاوثان والكواكب كما قال تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله).

ومع رسوخ الوثنية العربية في مكة إبان الجاهلية، لم تستطع قط أن تطوي تماما ذكريات ماضيها الديني وتلقي به في متاهة النسيان. وكان الزمن كلما تقدم بها هزتها رجفة الوعي فخامرها ريب في تلك الاوثان التي تكدست في حرم بيتها العتيق، لم

تنس بها خالقها، وإن أشركتها معه سبحانه في التعبد. وكانت القبائل العربية تحج إلى الكعبة في الموسم، وتطوف كل قبيلة بوثنها ضارعة ملبية، فتذكر الله من حيث تدري أو لا تدري، وترفع إليه الضراعة والنجوى، إما بمنطق الشرك كتلبية أهل فدك وفيها أصنام:

لييك إن الحمد لك، والملك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، أبو بنات بفدك..

أوعلى وجه الملاذ إليه وحده في الحج، وترك أصنامهم، في منازل القبيلة، ابتغاء رضوانه، كتلبية (همدان) في الجاهلية: لبيك رب همدان، من شاحط ومن دان، جنناك نبغي الإحسان، بكل حرف مذعان، نطوي إليك الغيطان، نأمل فضل الغفران.

وفيها أيضا: لبيك مع كل قبيل لبوك، همدان أبناء الملوك تدعوك، قد تركوا أصنامهم وانتابوك، فاسمع دعاء في جميع الأملاك.

إن مؤرخي الإسلام يذكرون ما راج في المنطقة قبل المبعث، من إرهافات عن نبي أن مبعثه، ولا نجادل من يستريب من أبناء عصرنا في هذه المرويات ويحملها على منحولات الرواة وإضافات السمار، غير أن الواقع التاريخي يؤكد أنها، على أي وجه رضيناها لها وحملناه عليها، تكشف عن تطلع الحياة قبيل الإسلام إلى تحول جديد وحاسم.

كما أنّ تاريخ الأديان العام يمكن أن يضيف إضاءة أخرى إلى ما قدمه مؤرخونا عن أن أرض المبعث: الجزيرة العربية عرفت بصورة أو بأخرى، كل الأديان والعقائد التي كانت البشرية تعتنقها قبل الإسلام. عرفت المسيحية في نجران والحيرة وغسان وتخوم الحبشة وبلاد الروم واليهودية في يثرب وما حولها من مستعمرات يهود شمال الحجاز. وعرفت الصابئة عبدة النجوم والكواكب.

وسمعت عن المجوسية بحكم اتصال إمارة المناذرة العربية بالفرس، وتلاقت هذه الأديان الوافدة مع الوثنية العربية، ومع البقية من دين إبراهيم قاومت الضياع قرونا وأدهارا، فتمثلت في قلة من الحنفاء رفضوا عبادة الأوثان في أخريات الجاهلية، وتجد أخبارهم بتفصيل، في الجزء الأول من السيرة النبوية لابن هشام. والتقاء هذه

الأديان والعبادات في المنطقة الواحدة، يمنحها فرصة التنبيه الى ما بينها من مظاهر التفاوت والخلاف، ومثار الخصومة والتنازع.

كما أن توزع أهل الجزيرة العربية بين هاتيك الأديان، في فترة من حياتهم كانت تقتضي التجمع والترابط لمواجهة التهديد الخارجي من فرس وروم وحيشة، أرهف حسهم لما داخل تدين كل طائفة من شوانب الانحراف والتعصب. فإن لم يصل بهم الى مستوى التمييز، فأدنى أثره أن يجعل المنطقة في حيرة وتردد، لا تدري أي تلك الطوائف على حق وأيها على باطل.

ولم تكن الفطرة العربية قد أفسدها ما تسلط على الفرس والروم من ترف باذخ وانشلال منهك، ولا قهرها ما تسلط على شعوب المناطق حولها في الشام ومصر وما وراءها من أقطار الشمال الإفريقي من باهظ الاحتلال الذي جثم عليها قرابة ألف عام، لم تتج منه سوى الجزيرة العربية التي اعتصمت بمنعتها الطبيعية، وحمتها بواديهما الجرداء من مطامع الغزاة.

وإنما ألفت الوثنية غشاوة على بصيرة العربي، فتابع آباءه على دينهم تعصبا وتوقيرا، لا يريد أن يتصور أن أسلافه الكرام كانوا جميعا على سفه وضلال. وتراث الشعر الجاهلي لقرنين قبل الإسلام، يؤكد مع ذلك، ما كان يجتاح الوجدان العربي من قلق وحيرة، وتطلع الى نور جديد يمزق الغشاوة ويسقط أقنعة الزيف عن عقم الوثنية ومهانة الشرك وخلل الاوضاع. لا في ديوان المتحنفين فحسب، ولكن في ديوان تلك الفترة بوجه عام.

وفيها كان قس بن ساعدة يقف في سوق عكاظ بالموسم، فيهز الضمير العربي بحكمته ومواعظه. وفيها كانت آفاق الجزيرة ترجع ما يأتيها من أسواق أم القرى في مواسم الحج مثل قول زهير بن أبي سلمى:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب او يعجل فينقم

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه الى مطمئن البر لا يتجمجم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وأیضا:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر او يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي أن الله حق فراندي الى الحق تقوى الله ما كان باديا
وأني متى أهبط من الأرض تلعة أجد أثرا قبلي، جديدا وباليا
أراني إذا ما بت بت على هوى وأني إذا أصبحت أصبحت غاديا
الى حفرة أهدى إليها مقيمة يحث إليها سائق من ورائيا
كأني وقد خلفت تسعين حجة خلعت بها عن منكبي ردائيا
أراني إذا ما شئت لأقبت آية تذكرني بعد الذي كنت ناسيا
ألم تر أن الله أهلك تبعا وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى وفرعون جبارا طغى والنجاشيا
الا لا أرى ذا إمة أصبحت به ففتركه الأيام وهي كما هيا
ألم تر للنعمان كان بنجوة من الشر لو أن امرءا كان ناجيا
فغير منه ملك عشرين حجة من الدهر يوم واحد كان غاويا
فلم أر مسلوبا له مثل ملكه أقل صديقا باذلا او مواسيا

وقول النابغة الذبياني في اعتذاره للنعمان بن المنذر:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني وشاية لمبلغك الواشي أغش وأكذب

وقول لبيد بن ربيعة :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع

وما المرء إلا كالشهاب وضونه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

وكانت حرمة البيت العتيق تفرض على العرب جميعا حرمة حماه في أم القرى ورسخ في اعتقادهم (أن مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا، ولا يبغى فيها أحد على أحد إلا أخرجته ولا يريد لها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه. فيقال إنها ما سميت بيكة، إلا لأنها كانت تيك - تكسر - أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا). وبلغ من حرمة مكة عند القوم، أن تناقلت الأجيال الى عصر المبعث ما ورد عن بعضهم: (ما زلنا نسمع أن أسافا ونائلة - من أصنام العرب في الجاهلية - كانا رجلا وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين).

وكانت لمكة أشهر حرم لا يحل فيها قتال وشهدت قبيل المبعث (حلف الفضول) في دار ابن جدعان، حيث تحالفت عشائر قريش وفيها الوظائف الدينية بالحرم - ألا يوجد بمكة مظلوم من أهلها أو غيرهم، إلا كانت معه على ظالمه حتى ترد مظلمته.. في هذه البلدة المرهفة الحس الديني، المضناة بالقلق والحيرة، المتطلعة الى حياة جديدة، كان مولد الرسول محمد ومبعث نبي الإسلام ﷺ.

كانت ولادته ﷺ في مكة وقد وضعته أمه بشرا سويا في دار أبيه عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمي بجوار البيت العتيق. ونور الفجر يبشر بصبح جديد، والدنيا تتفتح لموكب الشروق، وتستقبل مع أنفاس الصبح أنفاس ألوف وألوف من بني البشر، ولدتهم أمهاتهم من مختلف الأجناس وشتى البقاع، في تلك الليلة القمرء من ربيع الاول.

منهم من ولدوا في قصور مصر والشام وفارس والروم. ومنهم من ولدوا في مجاهل الفقر ونجوع البوادي وأدغال الغابات وكهوف الجبال، تباعدت بهم الأصول والأنساب، وتفاوتت الألوان والأجناس، وتناعت الطبقات وجمعتهم بنوتهم للبشر، وتمائلت فيهم أية الخلق، وتشابهت مخاطر الحمل وآلام المخاض ولم تر فيهم الفطرة

الإنسانية إلا انتصاراً لإرادة البقاء وامتداداً للحياة، على ما بينهم من تفاوت بعيد. وما كان أحد ليلتفت الى وليد منهم وضعت أمه يتيماً في حي بني هاشم بجوار الحرم المكي، في تلك الليلة التي بوركت به، لولا أن حفت بمولده ظروف غير مألوفة، جعلت أم القرى تتلقى البشر.

تاريخ البعثة وكيفية نزول القرآن الكريم:

ورد عن أهل بيت المصطفى ﷺ وأهل البيت هم أدري بما فيه وأقرب الى معرفة شؤون النبي الأكرم ﷺ حيث ورد بأن البعثة النبوية الشريفة كانت في السابع والعشرين من شهر رجب المرجب وهذا هو المشهور عند العلامة المجلسي وكذلك عند غيرهم أيضاً.

وقد وردت روايات عند بعض مفسري العامة أنه ﷺ بعث في شهر رمضان المبارك، واختلفوا في أي يوم منه، وقيل في شهر ربيع الاول واختلف أيضاً في أي يوم منه، ولقد اتفق علماء الشيعة على القول بأن رسول الله ﷺ بعث بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب، وأن نزول الوحي عليه قد بدأ من ذلك اليوم نفسه.

وخلاصة القول: أنه لا مانع من أن يكون ﷺ قد بعث وصار نبياً في شهر رجب، كما أخبر به أهل البيت ﷺ وهى ليتلقى الوحي القرآني: (إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً)، ثم بدأ نزول القرآن عليه تدريجياً في شهر رمضان المبارك.

بدء الوحي واول ما انزل:

لقد كان بدء نزول الوحي في غار حراء، وهو جبل على ثلاثة أميال من مكة، ويقال: هو جبل فاران، الذي ورد ذكره في التوراة إلا أن الظاهر هو أن فاران اسم لجبال مكة، كما صرح به ياقوت الحموي، حسبما تقدم، لا لخصوص جبل حراء.. وكان ﷺ يتعبد في غار حراء هذا، على النحو الذي ثبتت له مشروعيته، وكان قبل ذلك يتعبد فيه جده عبدالمطلب ﷺ .

وأول ما نزل عليه ﷺ هو قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق)، وهذا هو المروي عن أهل البيت ﷺ، وروي أيضاً عن غيرهم بكثرة، كما ورد عن المسعودي، قال: فانزل عليه بمكة من القرآن اثنان وثمانون سورة

ونزل تمام بعضها في المدينة واول ما نزل عليه من القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، ويذكر أمير المؤمنين عليه السلام البيهقي بقوله: (بعثه بالنور المضيء والبرهان الجلي والمنهاج البيادي والكتاب الهادي، أسرته خير أسرة وشجرته خير شجرة أغصانها معتدلة وثمارها متهدلة).

قال المسعودي: بعث الله نبيه عليه السلام رحمة للعالمين ومبشراً للناس أجمعين، وقربه بالآيات والبراهين النيرات، وأتى بالقرآن المعجز، فتحدى به قوماً وهم الغاية في الفصاحة والنهائية في البلاغة، واولوا العلم باللغة والمعرفة بأنواع الكلام من الرسائل والخطب... والسجع والمقفى والمنثور والمنظوم والأشعار في المكارم وفي الحب والرمز والتحضيض والإغراء والوعد والوعيد والمدح والتهجين، فقرع به أسماعهم وأعجم به أذهانهم وقبح به أفعالهم ونم به آراءهم وسقاه به أحلامهم وأزال به دياناتهم وأبطل به سنتهم، ثم أخبر عن عجزهم مع تظاهرهم (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) مع كونه عربياً مبيناً.

أبعاد مبعث الرسول الأكرم عليه السلام:

ومن كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: أن الله بعث محمداً عليه السلام نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل وانتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار منيخون بين حجارة خشن وحيات صم تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم.. الاصنام فيكم منصوبة والاثام بكم معصوبة..

في هذه الكلمات يصف أمير المؤمنين عليه السلام شرذمة من أحوال العرب يعني أعراب الحجاز وأهل الجاهلية، قبل مبعث رسول الله عليه السلام وهم في ذلك الزمان على أسوأ حال وأرذل أفعال؛ لأن دينهم عبادة الأصنام ومسكنهم في البوادي والجبال ونزعتهم في الأحجار التي لم تكن فيها نبات ولا مياه، بل وفيها العقارب والحيات ومغارة للمؤذيات والحشرات وماؤهم الأمطار التي تجمع في الغدران والآبار وتكدرها الارياح والايوساخ، ومآكلهم الطعام الغليظ، وهو كلما يدب في الأرض من الحشرات وشغلن ليس إلا الحرب والنهب والغارة وسفك الدماء وقس على هذا مما لا يوصف.. حتى بعث الله محمداً عليه السلام بالرسالة، فطابت مآكلهم ومشاربهم وأحوالهم، فأبدلهم الله بذلك البراري والجبال الريف ولين المهاد من أراضي العراق والشامات ومصر التي جعل الله فيها الزروع والأشجار والثمار والنبات والرياحين والاوراد ما لا تحصى وأبدلهم بعبادة الأصنام عبادة من يستحق العبادة وهو رب البيت الحرام ثم

كسر منهم الأصنام وطهر منهم الأجساد وأزال الكفر والنفاق عن قلوبهم والاساخ والأرجاس عن وجوههم، فأنجاهم من النار ومن غضب الجبار، والله در القائل وهو عبد الباقي العمري:

وقد ضاء بنورك لما أضاء رأيت ظلما العدم الأنجلاء

فمن فضل ضونك كان الضياء لقد رمقت بك عين العماء

وفي غير نورك لم ترمق

أضاء سناك لها مبرقاً وقابل مراتها مشرقاً

الى أن أشاع لها رونقاً فكنت لمراتها زيبقاً

وصفو المرايا من الزيبق

بك الأرض مدت ليوم الورود وأضحت عليها الرواسي الركود

وسقف السماء شيد لا في عمود فلولاك لا انضم هذا الوجود

من العدم المحض في مطبق

ولولاك ما كان خلق يعود لذات النعيم وذات الخلود

ولا بهما ذاق طعم الوجود ولا شم رائحة للوجود

وجود بعننين مستنشق

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام في مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(بعثه بالنور المضيء والبرهان الجلي والمنهاج البادي والكتاب الهادي أسرته خير

أسرة وشجرته خير شجرة أغصانها معتدلة وثمارها متهدلة، مولده بمكة، وهجرته

بطيبة، علا بها ذكره، وامتد بها صوته، أرسله بحجة كافية وموعظة شافية ودعوة

متلاقية، أظهر به الشرايع المجهولة، وقمع به البدع المدخولة، وبين به الأحكام

المفضولة، فمن يبتغ غير الإسلام ديناً تتحقق شقوته وتتفصم عروته وتعظم كبوته،

ويكن ما به الى الحزن الطويل والعذاب الوويل).

الم تر أن الله أرسل عبده ببرهانه والله أعلى وأمجد

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والاثوان في الأرض تعبد
تعاليت رب العرش من كل فاحش فإياك نستهدي وإياك نعبد

بعث الرسول الأكرم ﷺ نبياً في يوم الإثنين السابع والعشرين من شهر رجب
عام ١٣ قبل الهجرة، واقترنت بعثته بنزول خمس آيات من القرآن، وهي الآيات
الاولى من سورة العلق، أي: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فهذه الآيات هي اول ما
أنزله الله عزَّ و جَلَّ على نبيه المصطفى ﷺ من القرآن الكريم.

وجاء في تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام: إِنْ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَرَكَ التَّجَارَةَ إِلَى الشَّامِ وَتَصَدَّقَ بِكُلِّ مَا رَزَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تِلْكَ التَّجَارَاتِ
كَانَ يُعْذُو كُلَّ يَوْمٍ إِلَى حِرَاءٍ، يَصْعَدُهُ وَيَنْظُرُ مِنْ قَلْبِهِ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَ إِلَى أَنْوَاعِ
عَجَائِبِ رَحْمَتِهِ وَبِدَائِعِ حِكْمَتِهِ، وَيَنْظُرُ إِلَى أَكْنَافِ السَّمَاءِ وَأَقْطَارِ الْأَرْضِ
وَ الْبِحَارِ وَ الْمَعَاوِزِ وَ الْغِيَاظِ فَيَعْتَبِرُ بِتِلْكَ الْآثَارِ وَيَتَذَكَّرُ تِلْكَ الْآيَاتِ وَيَعْبُدُ اللَّهَ حَقَّ عِبَادَتِهِ.
فَلَمَّا اسْتَكْمَلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَنَظَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى قَلْبِهِ فَوَجَدَهُ أَفْضَلَ الْقُلُوبِ وَأَجْلَهَا
وَ أَطْوَعَهَا وَأَخْشَعَهَا وَأَخْضَعَهَا، إِذْ لِأَبْوَابِ السَّمَاءِ فَفُتِحَتْ وَ مُحَمَّدٌ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَإِنْ
لِلْمَلَائِكَةِ فَنَزَلُوا وَ مُحَمَّدٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَ أَمَرَ بِالرَّحْمَةِ فَاِنزَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَدُنْ سَاقِ الْعَرْشِ
إِلَى رَأْسِ مُحَمَّدٍ وَغُرَّتِهِ، وَنَظَرَ إِلَى جِبْرِئِيلِ الرُّوحِ الْأَمِينِ الْمُطَوَّقِ بِالنُّورِ طَاوَسِ
الْمَلَائِكَةِ هَبِطَ إِلَيْهِ وَ أَخَذَ بِصَبْعِهِ وَهَزَّهُ، وَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اقْرَأْ. قَالَ: وَ مَا أَقْرَأُ ؟
قَالَ: يَا مُحَمَّدُ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).. ثُمَّ أَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ،
ثُمَّ صَعِدَ إِلَى الْعُلُوِّ، وَ نَزَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْجَبَلِ وَ قَدْ غَشِيَتْهُ مِنْ تَعْظِيمِ جَلَالِ اللَّهِ، وَ
وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ كِبِيرِ شَانِهِ مَا رَكِبَهُ الْحُمَى.

وَرَوَى عَنْ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: (أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ:
(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).

فأول من آمن به وبنبوته هو أمير المؤمنين علي عليه السلام ثم جاء حتى دخل الدار
فصارت الدار منورة، فقالت خديجة: يا محمد وما هذا النور، قال: هذا نور النبوة،
قولي: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ فقالت خديجة: طالما عرفت ذلك ثم أسلمت.

رحلة العلم والمعرفة:

إن المبعث النبويّ هو يوم ولادة الإسلام، وهو عيد للمسلمين، ففي مثل هذا اليوم ولد الخير، وقد أراد الله سبحانه وتعالى للناس أن ينفثوا عليه لتنتفح عليهم بركات السماء والأرض وأن يهتدوا به في الخط العام للهداية والايمان بالله ورسوله والرسالات السماوية والكتب المنزلة والايمان باليوم الآخر، وفي الخط العملي في حركة التشريع الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يأخذوا به على أساس أنه هو الذي يمثل الحياة الحقيقية والتي عبر الله تعالى عنها في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ).

فالدعوة الإسلامية هي دعوة للحياة، هي الحياة الثقافية التي تنتفح بالأنسان على المعرفة، وهكذا كان مبعث رسول الإنسانية للبشرية جمعاء. ولعلّ السيرة النبويّة تتحدث بأن اول كلمة نزلت من الله سبحانه وتعالى في اول لحظة من لحظات الرسالة هي كلمة (اقرأ): فقال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

ولذلك، فإن الإسلام انطلق من أجل أن يخرج الناس من أمية الفكر والحرف والإحساس والشعور، ليكون كلّ مسلم مثقفاً بكل ما تتحرّك به مسؤوليته في الحياة، سواء من حيث مسؤولية الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر، او من خلال الخطّ الأخلاقي والروحي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والأمني، الذي يريد الله تعالى للناس أن يسيروا فيه.

لذا فإن مسألة الإسلام هي مسألة وعي وعلم ومعرفة لا بدّ للناس من أن يأخذوا بها، وليس للأنسان المسلم الحرّيّة في أن يكون جاهلاً او يكون متخلفاً، لأن الإسلام يؤكّد العلم كأساس لتقويم الأفعال. إننا نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) وقال تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) وقال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ).

تطبيق العلوم الحياتية:

لابد لكلّ من ينتمي الى الإسلام أن يشغل وقته بالعلم، وكلّ بحسب الوسائل المتاحة له، فقد لا يستطيع بعض الناس أن يدخل جامعة، ولكن يبقى بإمكانه أن يستفيد من جامعة الحياة، بالانفتاح على تجاربها، ليأخذ من كل تجربة فكرة ودرسا، فإن ذلك يمثل علماً متحرّكاً يبني له فكره وروحه. كما يمكنه أن يجعل من علاقته

بالناس الذين يعيش معهم ويعيشون معه، حركة حوار في كل ما تتصل به مسؤوليته، وكل ما ينبغي للإنسان معرفته.

فليكن من بالمبعث النبوي الشريف بدايةً لحركة علمية يحاول كل إنسان فيها أن يدرس مقدار ما يملكه من معرفة، ليستزيد منها بحسب طبيعة الوسائل التي يملكها. وعلينا أن نعرف أن مسألة المعرفة لا تتصل فقط بالجانب الثقافي، بل بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أيضاً، لأن كل هذه العناوين في حركة الإنسان في الحياة ترتبط بحجم المعرفة التي يملكها.

فمثلاً عندما نمارس المسألة السياسية على المستوى المحلي أو الأقليمي أو العالمي نجد أنها تخضع لخطوط فكرية وكثير من الأوضاع والعلاقات والتخطيطات التي يخطط لها الآخرون، أو التي يجب أن نخطط لها نحن، فإذا لم تكن لنا المعرفة السياسية والثقافية، فسوف نتخبط في العمل السياسي، وسوف يبقى العمل السياسي الإسلامي مجرد هتافات وانفعالات وحماس.

فالثقافة السياسية العميقة المنفتحة، هي التي يمكن أن تثبت أقدامنا في كل مواقع الزلزال السياسي الذي يراد له أن يهز الأرض تحت أقدامنا. لذلك نقول إنه لا سياسة بدون ثقافة أو علم، أو بدون انفتاح على كل الواقع الذي نتحرك فيه لذلك كان الرسول المصطفى هو الرسول من عند الله وهو القائد العام للمسلمين في حروبه وهو القائد السياسي والموجه للامة وهو القائد لقيادة الأمة في الحياة الاجتماعية وغيرها.

وكذلك الأمر عندما ندخل الى الواقع الاجتماعي، في داخل العائلة، أو في داخل التجمعات المتنوعة هنا وهناك، في المدينة أو في القرية أو في الوطن كله، إذ لا بد لنا لكي نركز الخطوط الاجتماعية التي يمكن أن تجعل من هذا التجمع الإنساني المختلف في كثير من خصوصيات أفرادها، واقعاً متوازناً قوياً يمكن أن يواجه كل التباينات والتناقضات والأوضاع القلقة التي تحيط به، لا بد من التخطيط المنطلق من وعي الأوضاع والخلفيات والعلاقات الاجتماعية، حتى نستطيع التخطيط لمجتمع يمكن أن يلتقي على القواسم المشتركة التي تمثل المصالح العامة للجميع، ويتحرك في خط الحوار الموضوعي العقلاني بكل ما يختلف فيه الناس وهو ما يمثل ضمانته لسلامة أي مجتمع ويمنع الذين يتحركون بداخله من أن يهزوه بالإشاعات والأنفعالات والعصبية.

إن مشكلة التخبط الاجتماعي الذي نعانيه، والفوضى الاجتماعية لدينا، هي مشكلة جهل يحاول أن يغطي نفسه بالعصبية، وتخلف يحاول أن يحمي نفسه بالكثير من الأنفعالات، لهذا عندما نريد مجتمعاً مستقراً ثابتاً متوازناً هادفاً موحداً، فلا بد لتحقيق ذلك من ثقافة اجتماعية، ولا سيما الثقافة المستمدة من التشريع الإسلامي الذي يضع برنامجاً ومنهجاً للعلاقات بين الناس، ولكل حركة الناس فيما بينهم أو في مواجهتهم للقوى المضادة.

لذلك لا تقتصر في معرفتنا الإسلامية على بالعبادات، فالعبادات إنما تمثل القاعدة الروحية التي تفتح عقل الإنسان وقلبه على الله تعالى، ومن خلال ذلك تفتح عقله وقلبه على الناس في خط المسؤولية، لكن علينا أن تكون لنا ثقافة الخطة الإسلامية في الجانب الأخلاقي الذي يدخل في العائلة لينظمها، ويدخل في المجتمعات الصغيرة والكبيرة ليضع لها البرنامج ويدخل في مجتمع الأمة كلها من أجل أن يشير إلى جوانب الوحدة، وإلى جوانب التحديات التي نواجهها من الآخرين.

وعليه فلا بد أن نكون متقنين إسلامياً بالجانب الاجتماعي للإسلام، فذلك هو الذي يحفظ لنا الصلاة والصيام والحج، وهو الذي يوصل بإنسانيتنا للانفتاح بالإنسان على الإنسان الآخر.

وإذا انطلقنا إلى الجانب الاقتصادي، نرى أن الاقتصاد اليوم لم يعد كما كان عليه في السابق مجرد عملية تتدخل فيها الشطارة الذاتية للتاجر هنا، أو للعامل هناك، أو لصاحب المعمل هنالك، بل أصبح علماً معقداً يحتاج إلى الكثير من الثقافة الاقتصادية التي يعرف الإنسان من خلالها كيف يخطط لكل المشاكل الاقتصادية ليحلها بطريقة واقعية، وكيف يواجه كل الأخطار الاقتصادية التي يحاول من خلالها الاستكبار العالمي أن يصادر كل ثرواتنا لحساب رخائه، وكل طاقاتنا لتكون مجرد طاقات استهلاكية تستهلك منتجاته، أو لنكون اليد الرخيصة التي يسخرها لحساب رخائه واقتصاده .

لقد خاطب الله سبحانه وتعالى رسوله بقوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) ، وقال سبحانه: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

فلقد جاء الرسول المصطفى ﷺ من أجل أن يعلمنا الكتاب والحكمة، وعلينا أن نكون الأمناء على الكتاب، والحكماء في إدارة أمورنا، كما وجاء ﷺ من أجل أن يزيكينا ويطهر نفوسنا ويؤهل إنسانيتنا، وعلينا أن نحفظ بهذه الروح التي زكّاهها، وقد انفتح ﷺ علينا سراجاً منيراً يضيء للناس كل الطرقات المظلمة، فعلى كل واحد منا أن يكون نوراً في عقله، ونوراً في قلبه، ونوراً في روحه، ونوراً في حركته، وأن نبعد الظلام من عقولنا ومن قلوبنا ومن كل حياتنا، لأننا عندما نعيش في النور، وننفتح على النور، فإننا يمكن أن ننير لأنفسنا وللآخرين الدرب.

وهكذا كان رسول الله ﷺ الشاهد على الناس، يشهد عليهم فيما يستقيمون فيه وفيما ينحرفون عنه، وهو ﷺ سوف يشهد على أمته غداً، لأن الله تعالى يطلع على أعمال أمته، سواء كان ذلك في زمانه أو بعده، وهو ﷺ يراقبنا، وكما ورد في القرآن الكريم: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ).

الفصل الرابع زواج الرسول ﷺ وفلسفة تعدد الزوجات

خديجة بنت خويلد

وهي بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصَيّ القرشية الأسيديّة، أول زوجة للرسول ﷺ وهي أم المؤمنين، والسابقة إلى الإسلام والمحاميّة عن دين الله والمضحية في سبيل الرسالة الإسلاميّة وفي سبيل الله، إنها أم فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام.

أبوها: خويلد، وهو الرجل الذي لا ينسى له التاريخ ذلك الموقف النبيل حينما وقف في وجه تُبّع، ذلك الملك الطاغية الذي جاء من اليمن حاجا لبيت الله الحرام، ثمّ سوّلت له نفسه أن ينتزع الحجر الأسود ويأخذه معه إلى اليمن، فتصدّى له خويلد وجماعة من أفراد عشيرته حتى امتلأت نفسه بالرهبة والخوف من المغامرة بهذا الفعل المشين، وقد ذكر أصحاب السير تلك القصة بتفاصيلها.

جدّها: أسد بن عبد العزى وقد كان واحدا من أعضاء حلف الفضول ومن مؤسسيه والدعاة إليه والجدير ذكره أن حلف الفضول قد مدحه رسول الله ﷺ حيث قال: (لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلقا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت).

أمّها: فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص ابن عامر بن لؤي.

جدّتها: هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقذ بن عمرو ابن معيص بن عامر بن لؤي، وعلى هذا فإن السيدة خديجة نشأت وترعرعت في بيت من بيوتات قريش الكريمة الحسب والنسب، فكان من أعرق وأعظم تلك البيوت نسبا وأعلاها حسبا، لقد نبتت السيدة خديجة في بيت واسع الثراء ملتزم بالأخلاق العالية، ومعروفا بالندى، والعفة، والبعد عن الأنغماس في الملهي والموبقات التي كانت بعض بيوتات قريش غارقة فيها.

لقد أعجبت خديجة بشخصية الحبيب مصطفى عليه السلام بعد سفرته التجارية التي سافر إلى الشام ليتجرّ بمال خديجة وكانت سفرة موفقة، حيث أخبرها خادمها (ميسرة) عن حسن معاشرته الرسول المصطفى عليه السلام وما شاهده في رحلته من مكارم الأخلاق، وبشائر النبوغ وعظمة شخصيته فرغبت بالزواج منه عليه السلام.

خديجة قبل الإسلام

كانت خديجة رضوان الله عليها قبل الإسلام وقبل لقاء رسول الله ﷺ قد تميزت بصفات حميدة وطيبة تميزها عن غيرها من نساء زمانها ويمكن إيجازها بما يلي:

١- لقد كانت خديجة رضوان الله عليها قد عرفت بالكرم، ولم يحفظ التاريخ في اوراقه أن امرأة من فضليات النساء في دنيا النساء، وقد فاحت سيرتها بالعطاء كما كانت أم المؤمنين خديجة الطاهرة.

لقد تناول التاريخ سيرة نساء كثيرات، اشتهرن بجانب او أكثر من العبقريات ولكنه لم يحدثنا كما حدثنا عن السيدة خديجة من بلوغ قمم المكارم في كل الفضائل، ولم يستطع أن يحصر تلك الفضائل بين دفتيه فقد ولدت السيدة خديجة في بيت مجد وسؤدد.

٢- أن دين خديجة بنت خويلد هو من الأديان السائدة في الجزيرة العربية حينذاك وخاصة في مكة التي عرفت بعبادة الاوثان ويقال لعبدتها المشركون، ويليهم في الكثرة الأحناف الذين بقوا على دين أبيهم إبراهيم الخليل ويدرنون الله سبحانه وتعالى به، ويليهم النصارى، واليهود، والصابئة وقليل منهم يدينون بالركوسية، وهي خليط من عقائد الصابئة والنصرانية، كما كانت تدين بها قبيلة طي. هذا ما كان من الأديان السائدة حينذاك.

ومن الذين يدينون لله بملة إبراهيم الخليل من قريش هم بنو هاشم بن عبد مناف إلا ما شذ منهم مثل (أبي لهب) عبد العزى بن عبدالمطلب، حيث صاهر بني أمية ودان بدينهم. وكثير من بني زهرة، وبني أسد، كانوا من الأحناف يدينون لله بدين إبراهيم الخليل، ومنهم خديجة بنت خويلد كانت تدين لله بالحنيفية، وكذلك السيدة أمينة بنت وهب وأهلها من بني زهرة والدة النبي الأكرم ﷺ والسيدة فاطمة بنت أسد الهاشمية وأهلها والدة الإمام علي أمير المؤمنين وغيرهم رضي الله عنهم.

وكما يؤيد ذلك الزيارات الواردة عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وقد جاء في قولهم: (أشهد أنك كنت نورا في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تتجسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها)، ولا يمكن عقلا، وشرعية، وسليقة، أن يولد حماة الدين من أصلاب المشركين، او الأرحام المدنسة بأنجاس الجاهلية، وقد قال الله سبحانه وتعالى: (لا ينال عهدي الظالمين).

والشرك هو الظلم بعينه، وشاء الله الحكيم أن يحفظ رحم السيدة الطاهرة خديجة الكبرى ليكون وعاء طاهرا لصلب رسول الله ﷺ، ويحتوي النطف الطاهرة فاطمة الزهراء، وأشقائها القاسم وعبدالله المكنى بالطيب والظاهر، وقد توفاهما الله لحكمته

وهم أطفال، وما أنجبت خديجة غيرهم، ولم يأذن الله سبحانه وتعالى أبداً أن تولد السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين وولداها الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة وذريتها الأئمة الطاهرون المعصومون أن يولدوا من نطف أو أرحام كافرة أو مشركة نجسة حاشا لله.

إن أم المؤمنين خديجة لم تكن يوماً من الأيام مشركة ولا انحنت لصنم بل كانت هي وأبؤها موحدتين أحناف مسلمين يدينون الله تعالى على ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وكان قبل بعث الإسلام هو الدين الحق، والمقبول من قبل السماء.

ولو أن سنة النكاح الجارية عند المشركين في الجاهلية مشروعة وليست سفاحاً إلا ما شذ منها مثل نكاح زوجة الأب بعد موته، غير أنها لا توازي طهارة وشرعية نكاح الأحناف الموحدين قبل البعثة، وأين نسبة نكاح الإيمان من نكاح الكفر.

٣- ولقد كانت خديجة هي واسطة العقد من بين نساء الرسول ﷺ وأفضلهن، حتى عُرفت في الجاهلية بين أترابها وبين نساء قريش بالطاهرة وسيدة نساء قريش وسيدة نساء مكة وخير النساء والشريفة في قومها وناهيك بهذه الصفة التي حلقت بها فجعلتها في سماء السبق إلى ساحة المعالي عند الله تعالى.

٤- لقد كانت خديجة باكراً، وأن عذرية خديجة هي حقيقة ليس عليها غبار، وقد أثبتتها المؤرخون، ومنهم:

أ- القاضي الشيخ عبد الواحد الأنصاري الذي أثبت بأدلة قاطعة من مصادر موثوقة في سلسلته التاريخية بأن السيدة خديجة حينما اقترنت بالنبي كانت عذراء باكر لم يمسهما بشر.

ب- قال ابن شهر آشوب: (روى البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والسيد المرتضى في كتابه الشافي وأبو جعفر في التلخيص: أن النبي ﷺ تزوج بها وكانت عذراء) وأن ما ادعاه المؤرخون من أهل العامة من زواجها بائنين من المشركين هو أقوال لا يركن إليها المنطق ولا تصمد أمام الواقع، ولا تستند على أساس متين، إنما هي تكهنات وفرضيات أموية يراد منها التوهين بمقام السيدة خديجة عليها السلام ولإعلاء شأن عثمان بن عفان ليجعلوه صهراً لرسول الله ﷺ وأطلقوا عليه لقب ذي النورين. ثم نعود إلى المزاعم القائلة بزواج السيدة خديجة عليها السلام من رجلين جاهليين قبل اقترانها بالمصطفى ﷺ فنقول:

١- إن ذلك لا يناسب هذه المرأة الجليلة، الموحدة والحنيفية الدين أن يطأها مشركان، والتي عُرفت بمكانتها الشامخة المرموقة في وسطها من قريش، وكانت تدعى بالطاهرة، وقد دون لها التاريخ سيرتها العطرة، حتى امتازت بين سيدات مجتمعها، فكيف تقترن برجلين نكرتين، أمثال أبي هالة زرارة التميمي، أو عتيق بن عائد

المخزومي، في الوقت الذي هجرتها نساء قريش حينما اقترنت بالمصطفى ﷺ و غضبن عليها، فقلن لها: خطبك أشراف قريش وأمرأؤهم فلم تتزوجي أحدا منهم، وتزوجت محمدا بنم أبي طالب فقيرا لا مال له؟ مع أن النبي ﷺ في نظر قريش ذو نسب شريف ومعروف بالصادق الأمين، وحفيد عبدالمطلب سيد البطحاء وشيخ قريش، وابن أخ أبي طالب الذي انتهت إليه زعامة البطحاء، فكيف يجوز عقلا أن تتزوج السيدة خديجة من مشركين؟

٢- لقد اتخذت السيدة خديجة الحنيفة ديننا وتركت سادات قريش وامتنعت من أشرافهم، ألا يعلم أهل البصائر وذوو النهي أنه من أوضح المصاديق وأصح المقال هو سيرتها الطيبة، ولكن المؤرخين من أهل العامة يقولون بأن السيدة خديجة متزوجة برجلين قبل اقترانها برسول الله ﷺ ولكنهم اختلفوا في زينب ورقية وأم كلثوم هل هن بنات رسول الله ﷺ من خديجة ﷺ أم أنهن بنات زوجها السابقين؟

والمؤرخون ينقلون الأخبار على مسترسلاتها ويرددونها دون تحقيق أو تمحيص، وكذلك قولهم أن زينب ورقية كانتا ابنتي هالة أخت خديجة، وألحق نسبهما ونسب أخيهما هند برسول الله ﷺ وخديجة كما في سنة العرب الجاهلية، لأن اسم خديجة كان شائعا ومعروفا، واسم أختها هالة خاملا مغمورا.

٥- لقد اختلف المؤرخون من أهل العامة، وتضاربت آراؤهم فيمن تزوج بالسيدة خديجة قبل اقترانها برسول الله ﷺ، فمنهم من قدم عتيق بن عابد المخزومي، ومنهم من قدم مالك بن زرارة التميمي، فولدت له هند، ومنهم من يقول غير ذلك، كل ذلك للخط من السيدة الطاهرة خديجة ﷺ.

لقد تحدث المؤرخون والمؤلفون في السيرة عن النبي محمد ﷺ قبل زواجه من خديجة، يوم كان يسافر في تجارتها، وأضاف أكثر المؤلفين في سيرة الرسول المصطفى ﷺ إلى أن خديجة بنت خويلد التي جمعت إلى جانب ثروتها المادية، الشرف والعفة، والذكاء والصون، والكرم، وأصبحت تعد السيدة الأولى في مكة وقد فضلت الصادق الأمين ﷺ على غيره من التجار. وعليه فإن خديجة حينما اقترنت بالنبي كانت عذراء بكر لم يمسهما بشر.

٦- لقد كانت خديجة امرأة ذات مال وتجارة رابحة وكان عصب التجارة بيدها، فكانت تستأجر الرجال لتجارتها وتبعثهم بمالها إلى الشام، ولقد كانت المرأة التاجرة مع أن التاريخ لم يتعرض للجزيئات المتعلقة بحياة السيدة خديجة، إلا أن ما وصل إلينا يمكن أن يرسم بعض معالم شخصيتها المتميزة والبارزة.

وهنا ينبغي الالتفات إلى نكتة مهمة تكشف عن روح هذه المرأة الشريفة الكبيرة، وهمتها العالية، وحريتها واستقلالها وهي: أن خديجة التي ورثت أموالا طائلة، من

أبيها الذي قتل في حرب الفجار او قبلها بقليل، لم تترك هذه الأموال راکدة، ولم تراب بها في زمن كان الربا رانجا، وإنما استثمرت هذه الأموال في التجارة، واستخدمت رجالا صالحين لهذا الغرض، واستطاعت أن تكسب عن طريق التجارة ثروة ضخمة حتى قيل: إن لها أكثر من ثمانين ألف جمل متفرقة في كل مكان، وكان لها في كل ناحية تجارة، وفي كل بلد مال، مثل مصر والحبشة وغيرها من البلدان.

ما نقله المؤرخون في فضلها وكرامتها:

كانت خديجة صديقة هذه الأمة، واولها إيماناً بالله، وتصديقا بكتابه، ومواساة لرسوله ﷺ، انفردت برسول الله ﷺ مدة خمس وعشرين سنة لم تشاركها فيه امرأة ثانية، ولو بقيت ما شاركها فيه أخرى، وكانت شريكته في محنته طيلة أيامها معه، تقويه بمالها، وتدافع عنه بكل ما لديها من قول وفعل، وتعزيه بما يفاجئه به الكفار في سبيل الله.

ومن العوامل الأساسية التي ثبتت دعائم الإسلام هي أموال السيدة خديجة، فمنذ اليوم الاول لزواجها المبارك من النبي ﷺ وقفت السيدة خديجة بجنب زوجها العظيم ﷺ موقف المدافع والمحامي، ووضعت كل أموالها في تصرفه لنصرة الرسالة المحمدية، كما كانت توفر له الملجأ والماوى والقلب الحنون، ولذلك او عزت الى ابن عمها حين زواجها من النبي ﷺ بأن يعلن أمام الملا: أن جميع ما تحت يدي خديجة من مال وعبيد، قد وهبته لمحمد ﷺ يتصرف به كيف يشاء.

ولذا وقف ورقة بن نوفل بين زمزم والمقام ونادى بأعلى صوته قائلاً: يا معشر العرب، إن خديجة وهبت لمحمد ﷺ نفسها ومالها وعبيدها وجميع ما تملكه بيمينها إجلالاً له وإعظاماً لمقامه ورغبة فيه.

ومنها: رأت السيدة خديجة ميله الى غلامها (زيد بن حارثة) قبل بعثته المباركة فوهبته له، فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد في السبق الى الإسلام.

ومنها: وكما نقله الزهري: أن خديجة أنفقت على رسول الله ﷺ أربعين ألفاً وأربعين ألفاً / تذكرة الخواص: سبط ابن الجوزي ، وذكر الزرقاني في شرح كلام القسطلاني: قال ابن إسحاق: كانت خديجة اول امرأة أمنت بالله ورسوله وصدقت بما جاء من الله عز وجل، ووازرته على أمره، فخفف الله بذلك عن رسوله ﷺ وكان لا يسمع شيئاً يكرهه ولا تكذيب له فيحزنه إلا فرج الله ذلك عن رسوله بها إذا رجع إليها تتبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت سلام الله عليها / شرح الزرقاني على المواهب اللدنية.

تلقتني عن طريق جدّها (عبد العزى) مع جد النبي الأكرم ﷺ (عبد مناف) في الجد الرابع (قصي بن كلاب) وبهذا النسب تكون أقرب أزواج النبي ﷺ إليه نسبا، باستثناء ابنة عمته أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

اتفقت الروايات على أن السيدة خديجة هي أول زوجات النبي ﷺ، وهي في زمانها أفضل نساء قريش ومكة في خلقها وخلقها وجميع مواهبها، كما كانت أفضل أزواج النبي ﷺ قاطبة، وقد كانت سيدة حازمة، شريفة، لبيبة، جليلة، دينة، كريمة، وصديقة هذه الأمة في شرف النسب، وكرم المحتد، وسؤدد القبيلة، وعز العشيرة، والغنى الاوفر، وكانت مثلاً للزوجة المخلصة الصالحة، والمرأة الرزينة العاقلة، ولا توجد شبيهة لها في نساء النبي على الإطلاق حيث عقلها الكبير، وشخصيتها العظيمة .

وقد أدركت الجاهلية والإسلام، وكان لها في كليهما مركزاً ممتازاً، ولشدة عفافها وصيانتها سميت بالطاهرة، فجمعت بين المال والجمال والكمال، وهذه الصفات إذا اجتمعت - ولقماً تجتمع - فإنها تصفي على المرأة ألوانا من السمو والرفعة، وعندما كان رسول الله ﷺ يبشّر قومها بالإسلام، فلا ينال منهم إلا التكذيب، فيرجع الى بيته حزينا يانسا، تتلقاه السيدة خديجة ﷺ فتزيل حزنه، وتهوّن عليه الأمر.

وكان رسول الله ﷺ يودّها، ويحترمها، ويثني عليها، ويفضلها على سائر نساءه بل على سائر النساء المؤمنات ويعظمها، ويشاورها في أموره وقد صدّفته في دعوته وأمنت به، وكانت تستقبل الأم الجهاد الذي خاضه وخاضته معه صابرة محتسبة، لا ينبض لها عرق بلين أو تخوّف، بل تقطع قناطر الدموع والخطوب المشغولة في بسمة كبرياء، لم يُعهد مثلها في نساء النبي ﷺ، لقد كانت ﷺ تستقبل العاصفة وشظاياها المشتعلة وتحولها الى بردٍ وسلامٍ على قلب زوجها الحبيب محمد ﷺ.

وهي أول امرأة صدّقت الرسول الأعظم ﷺ ودخلت الإسلام، وقامت بخدمات جليلة حتى آخر لحظة من حياتها المباركة، وكان الحبّ والاحترام والعمل والتضحية لهذا الدين القويم ملئ حياتها.

عمر خديجة رضوان الله عليها عند الزواج:

لقد اختلفت كلمة الباحثين والمؤرخين في سن خديجة ﷺ حينما تزوجها الرسول ﷺ حيث تردد بين الخامسة والعشرين والأربعين سنة ومنهم من حدد ذلك بالخامسة والعشرين ومنهم من قال عمرها ثمانية وعشرين عاما. ويلاحظ هنا: مدى الاختلاف والتفاوت في عمر خديجة ﷺ حين اقترانها بالرسول الأكرم ﷺ، ولو أخذنا بنظر الاعتبار مدة حياتها مع الرسول الأكرم ﷺ والتي بلغت خمسا وعشرين سنة

والعشرة الأخرى بعد المبعث هذا من جهة ومن جهة أخرى أن سن خديجة حين وفاتها بلغ ٥٠ سنة أو أكثر بقليل على بعض الروايات فإن المرجح أن يكون عمرها حين الزواج ٢٥ - ٢٨ سنة وهذا ما رجحه الباحثون، وبدلالة القرينة وهي زواجها وهي باكر و وفاة القاسم بعد البعثة (أي أن عمرها يتجاوز الخمسين عاما إذا افترضنا أن عمرها عند الزواج أربعين عاما وهذا مستبعد لصعوبة الولادة في سن الخمسين عام) واستبعاد بقاءها بلا زواج الى سن الأربعين وبضم هذه القرائن نخرج بنتيجة مؤداها أن عمرها الشريف عند زواجها هو بين ٢٥- ٢٨ عاما.

بعض مناقبها رضوان الله عليها:

في تراجم أعلام النساء أخرج ابن السني بسنده عن خديجة: أنها خرجت تلتمس النبي ﷺ بأعلى مكة ومعها غداؤه، فلقبهما جبرئيل ﷺ في صورة رجل، فسألها عن رسول الله ﷺ فهابته وخشيت أن يكون بعض من يريد أن يغتاله، فلما ذكرت ذلك للنبي، قال لها: هو جبرئيل وقد أمرني أن اقرأ عليك السلام، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب/ مستدرك الحاكم.

١- وذكر أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري، عن عفيف بن عمرو قال: كنت امرء تاجرا، وكنت صديقا للعباس بن عبدالمطلب في الجاهلية فقدمت لتجارة فنزلت على العباس بن عبدالمطلب بمنى، فجاء رجل فنظر الى الشمس حين مالت فقام يصلي، ثم جاءت امرأة فقامت تصلي، ثم جاء غلام حين راهق اللحم فقام يصلي، فقلت للعباس: من هذا؟ فقال هذا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب وهذه المرأة زوجته خديجة وهذا الغلام هو علي بن ابي طالب.

٢- هي أم المؤمنين الكبرى (خديجة بنت خويلد)، وقد فضلها الرسول الأكرم على نساء الأمة، قال ﷺ: (لقد فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين)، وقالت عائشة بأن النبي ﷺ كان إذا ذكر خديجة أتى عليها بأحسن الثناء. قالت فغرت يوما فقلت ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيرا منها، فقال ﷺ: (ما أبدلني الله خيرا منها وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقني إذ كذبتني الناس وأستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله ولدها إذ حرمني اولاد النساء أيضا).

٣- ورد في الأخبار المتواترة بأن جبريل جاء الى الرسول ﷺ فقال: إن الله يقرأ على خديجة السلام، فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك السلام ورحمة الله.

٤- كانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها حتى توفيت سلام الله عليها، وعاشت معه خمسا وعشرين سنة، وهي أطول فترة أمضاها الرسول الأكرم ﷺ مع هذه الزوجة الطاهرة من بين زوجاته جميعاً.

٥- كانت أول من آمن بالله وبرسوله، وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، الا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس، وقال الرسول ﷺ: (أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب- اللؤلؤ المنحوت-، لا صخب فيه ولا نصب).

٦- لقد حصر الله نزية رسوله الكريم محمد المصطفى ﷺ في بضعة الزهراء سيدة نساء العالمين من خديجة الكبرى لتكون وعاء للنبوة والإمامة وأم الأئمة النجباء الاوصياء وخاتمهم خاتم الأئمة الأطهار المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه ليملا الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، ليحقق حلم الأنبياء والمرسلين في آخر الدنيا فيعم الخير والاستقرار والعيش السعيد على ربوع المعمورة.

٧- أن السيدة خديجة بنت الخويلد هي التي عرضت نفسها على النبي ﷺ ولم يتقدم هو ﷺ لطلب يدها، ليقال: إنما فعل ذلك طمعا في مالها. وهذا مما لفق أعداء الإسلام، وإنما تفعل الحرة العاقلة اللببية ذلك، فلا تغرها زيارج الدنيا وبهارجها، ولا تبحث عن اللذة لأجل اللذة، وعن المال للشهرة، إنما تبحث عنم يخدم هدفها الأسمى في الحياة، وعن الأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة، والواقعية في التعامل والسمو في الهدف، لأن كل ذلك هو الذي يسخر المال والجاه والقوة وكل شئ لخدمة الإنسان والإنسانية، وتكاملها في الدرجات العليا.

ففي رواية أن ميسرة لما أخبر السيدة خديجة بما كان من أمر محمد ﷺ فبعثت الى رسول الله ﷺ وقالت له: (يا ابن عمّ إني قد رَغِبْتُ فيكَ لقرابتك، وشرفك في قومك وأمانتك، وحُسنِ خُلُقِك، وصدِّق حديثك). ثم عرضت عليه نفسها، فذكر الرسول ﷺ ذلك لعمّه الحبيب الذي سُرَّ وقال له: (إن هذا رزقٌ ساقه الله تعالى إليك) وصيتها لرسول الله ﷺ:

ولما أشتد مرضها قالت: يا رسول الله أسمع وصاياي:

الوصية الاولى: فاني قاصرة في حقك فاعفني يا رسول الله قال رسول الله ﷺ: حاشا وكلا ما رأيت منك تقصيرا فقد بلغت جهدك وتعبت في داري غاية التعب ولقد بذلت أموالك وصرفت في سبيل الله جميع مالك..

قالت: يا رسول الله الوصية الثانية: اوصيك بهذه وأشار الى فاطمة فإنها غريبة من بعدي فلا يؤذيها أحد من نساء قريش، ولا يلطمن خدنها ولا يصحن في وجهها ولا يرينها مكروها.

وأما الوصية الثالثة: فإني أقولها لابنتي فاطمة وهي تقول لمن يجهزني وأنا مستحية منك يا رسول الله، فقام النبي وخرج من الحجرة فدعت بفاطمة وقالت يا حبيبتي وقرّة عيني قولي لأبيك إن أمي تقول: أنا خائفة من القبر أريد منك ردائك الذي تلبسه حين نزول الوحي تكفني فيه، فخرجت فاطمة وقالت لأبيها: ما قالت أمها خديجة، فقام النبي ﷺ وأعطى الرداء الى فاطمة وجانت به الى أمها فسرت به سرورا عظيما.

فلما توفيت خديجة أخذ رسول الله في تجهيزها وغسلها وحنطها فلما أراد أن يكفنها هبط الأمين جبرئيل وقال: يا رسول الله إن الله يقرأك السلام ويخصك بالتحية والاکرام ويقول لك: يا محمد إن كفن خديجة وهو من أكفان الجنة أهدى الله إليها فكفنها رسول الله ﷺ بردانه الشريف اولا وبما جاء به جبرئيل ثانيا، فكان لها كفنان: كفن من الله وكفن من رسول الله.

ودفنت رضوان الله عليها بالحجون ونزل رسول الله ﷺ في قبرها، ولم يكن يومئذ سنة الجنائز والصلاة عليها. ولما توفيت خديجة جعلت فاطمة تلوذ بأبيها وتقول: أين أمي حتى قالت يوما يا أبة ما أتغذى ولا أتعشى حتى أعلم أين أمي فجعل لا يجيبها لأنه ما يدري ما يجيبها فنزل جبرئيل وقال: إن تقرأ على فاطمة السلام وتقول لها أمك في بيت من قصب كعابه من ذهب وعمده من ياقوت أحمر بين أسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران فقالت فاطمة: إن الله هو السلام ومنه السلام واليه السلام وعزاها جبرئيل بأمرها).

وتشاء الأقدار أن يتزامن وقت وفاتها والعام الذي تُوفِّي فيه أبو طالب عم رسول الله ﷺ والذي كان أيضا يدافع عنه ويحميه بجانب السيدة خديجة رضوان الله عنها، ومن ثمّ فقد حزن الرسول ﷺ ذلك العام حزنا شديدا حتى سُمي عام الحزن، وحتى خُشي عليه ﷺ ومكث فترة بعدها بلا زواج.

خديجة ونساء الرسول ﷺ

اجمعت الأخبار أن السيدة خديجة رضوان الله عليها كانت اول امرأة تزوجها الرسول ﷺ، وكانت أحب زوجاته إليه، ومن كرامتها انها لم يتزوج عليها غيرها حتى توفيت ولا بد من ذكر تصرفات وسلوك باقي نساءه ﷺ وتحزب البعض منهم ضد رسول الإنسانية والرحمة المهداة من خلال آيات القرآن الكريم.

قصة ريح المغافير

ورد عن عائشة أنها قالت: إن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة إن دخل علينا النبي فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على أحدهما فقالت: له ذلك، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس فغرت، فقلت لسودة، فقولي أكلت المغافير، فقولي له: جرست نحلة العرفط، وقولي أنت يا صفية ذاك، فلما دار إلي قلت له نحو ذلك، فلما دار إلي صفية قالت له مثل ذلك.

ويظهر من الروایتين أن عائشة تكذب ولا ترى حتى في كذبها على النبي حرجاً، وتخدع حفصة وسودة وصفية وتشوقهن إلى الكذب، فيكذبن والكذب من المحرمات، على أن الكاذب لا تقبل رواياته، وقد مُلئت الصحاح من رواياتها، وإذا كانت عائشة تكذب فكيف إذن تؤخذ منها الأحاديث؟ وهل يصح أن يؤخذ منها ثلثي ديننا.

دروس وعبر:

١- يمكن أن نلاحظ بشكل واضح ومن خلال حياة الرسول الأكرم ﷺ أن بعض زوجاته لم يدركن مقام النبوة فحسب، بل كن يتعاملن معه كإنسان عادي، وأحياناً يتعرضن له بالتقليل من شأنه ﷺ.

وبناء على هذا فإنه لا معنى للإصرار على أن جميع زوجات الرسول الأكرم ﷺ كن على قدر عال من الوعي والكمال واللياقة، خصوصاً مع الأخذ بالإعتبار صراحة الآيات السابقة.

٢- إن حفظ السر والمحافظة عليه وعدم إفشائه، ليس فقط من صفات المؤمنين، بل هي صفة ينبغي توفرها بكل إنسان ذو شخصية قوية محترمة، وتتجلى أهمية هذه الصفة أكثر من الأصدقاء والأقرباء، وبالأخص بين الزوج والزوجة.

ويلاحظ من آيات القرآن الكريم يؤنب بعض أزواج النبي بشدة ويوبخهن على إفشائهن للسر وعدم محافظتهن عليه، وكما ورد: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير).

٣- يتضح من مجموع هذه الآيات أن بعض زوجات الرسول لم يكتفين بإيذاء النبي بكلامهن، بل كن لا يحفظن سره، وحفظ السر من أهم صفات الزوجة الصالحة الوافية لزوجها، وكان تعامل الرسول معهن على العكس من ذلك تماماً إلى الحد الذي لم

يذكر لها السر الذي أفشته كاملا لكي لا يجرحها أكثر واكتفى بالإشارة الى جزء منه كما ورد في قوله تعالى: (وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثا فلما نبات به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير).

٤- لقد احتجت بعض أمهات المؤمنين على النبي، بعد أن عمت كلمة الإسلام جميع البقاع وطالبن بزيادة النفقة وتوسيع المعيشة عليهن، ولم تتنيهن نصائح النبي عن ذلك، حتى ورد في الروايات أن أبا بكر دخل على النبي ﷺ ومعه نسأوه فوجده حزينا وعرف السبب في ذلك، فقام على أبنته يريد أن يجأ عنقها لأنها آلمت الرسول واعترضت طريق دعوته بمطاليبيها المادية حتى نزلت الآية الكريمة التي خيرت نساء النبي بين متاع الحياة الدنيا وبين رسول الله ﷺ، فاخترن صحبة الرسول الأعظم بعد أن قطعت أمامهن السبل.

بينما كانت خديجة صلوات الله عليها لا تألو جهدا في بذل يد العون للدعوة الإسلامية بكل ما يسعها ذلك، وكانت خديجة اول مصدقة بالرسول الأكرم ﷺ وأقوى ساعد لديه، وكانت خديجة رضوان الله عليها جديرة بهذا الأندفاع الإسلامي، وهي التي اصطفت محمدا لنفسها منذ زمن بعيد، وبعد أن عرفت أنه صاحب رسالة مقدسة، ولذلك فهي لم تفاجئ ولم تستغرب عند سماعها بخبر الوحي الذي نزل على زوجها في غار حراء.

وقد قنعت من زوجها بكلمات قلائل سرعان ما صدقته بعدها وأزرتة وهي أقوى ما تكون فكرة راسخة مركزة، وإحساسا فياضا صادقا.

واستمرت خديجة أم المؤمنين تحيا بحياة الرسالة المحمدية وتستهن في سبيلها بكل المصاعب والمحن، وقد بذلت في هذا الطريق كل ما تملك من مال حتى أصبحت وهي الغنية الواسعة الثراء فقيرة لا تملك شيئا، وقد استنفدت بدعوته رصيدها الضخم من المال، ولم يبق منه حتى النزر القليل. فهي تطوي جوعا إذا طوى النبي وتشبع إذ يشبع بالذي يشبع فيه، وهذا يبين مدى التفاوت بينها وبين باقي أمهات المؤمنين.

هذا هو الفارق الذي جعل رسول الله ﷺ يحن إليها الى آخر يوم من حياته الشريفة، فهي قد بذلت للإسلام كل ما تملك يوم كان الإسلام وحيدا، وصلت مع رسول الله يوم لا مصلحة غيرها.

٥- من المؤكد أن الله لم يحلل او يحرم شيئا إلا طبقا لحسابات ومصالح دقيقة، وبناءا على هذا فلا مجال لأن يقوم الإنسان بتحليل الحرام او تحريم الحلال حتى مع القسم فإن الحنث جائز في مثل هذه الموارد.

٦ - أشار الله سبحانه وتعالى إلى أنه في حالة عدم استجابتهن للرسول الأكرم ﷺ فإن الله سيبدله أزواجا خيرا منهن (عسى ربه إن طلقك أن يبدله أزواجا خيرا منهن مسلمات مؤمنات قانتات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا).

٧- في ظلال الاوامر الإلهية لنساء النبي ﷺ: سار النبي بالدعوة في طريق الزهد وترك الزينة وندب نساءه الى ذلك، قال تعالى: (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعدنا لها رزقاً كريماً يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله). قال صاحب تفسير الميزان: هذه آيات راجعة الى نساء النبي ﷺ تأمره بما يلي:

اولاً: أن يبينهن أن ليس لهن من الدنيا وزينتها إلا العفاف والكفاف إن اخترن زوجية النبي ﷺ.

ثانياً: أنهن واقفات في موقف صعب على ما فيه من العلو والشرف، فإن اتقين الله يوتين أجرهن مرتين. وإن أتين بفاحشة مبينة يضاعف لهن العذاب ضعفين، ويأمرهن بالعفة ولزوم بيوتهن من غير تبرج، والصلاة والزكاة وذكر ما يتلى في بيوتهن من الآيات والحكمة. ثم يعد مطلق الصالحين من الرجال والنساء وعدا بالمغفرة والأجر العظيم فقوله تعالى: (يا أيها النبي قل لأزواجك) الى تمام الآيتين، أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يخيرهن بين أن يفارقه ولهن ما يردن، وبين أن يبقين عنده ولهن ما هن عليه من الوضع الموجود. وقد ردد أمرهن بين أن يردن الحياة الدنيا وزينتها، وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة. وهذا التردد يدل على أن الجمع بين سعة العيش وصفانها بالتمتع مع الحياة وزينتها وزوجية النبي ﷺ والعيشة في بيته مما لا يجتمعان.

ثالثاً: ونتبين من الآيات أن ليس لزوجة النبي ﷺ من حيث هي زوجة كرامة عند الله تعالى فقد تدخل النار بخيانتها، قال تعالى: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين).

وإنما الكرامة المقارنة لزوجيته المقارنة للإحسان والتقوى، ولذلك لما ذكر سبحانه ثانياً علو منزلتهن، قيده أيضاً بالتقوى فقال تعالى: (لستن كأحد من النساء إن اتقين)، وهذا كقوله في النبي ﷺ وأصحابه: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً). إلى أن قال عز وجل: (وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أجراً عظيماً)، حيث مدحهم عامة بظاهر أعمالهم أولاً، ثم قيد وعدهم الأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال ابن كثير لدى تفسيره الآية: هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال. ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل.

وقال في الميزان في تفسير قوله تعالى: (فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً)، التمتع إعطاؤهن عند التطليق ما لا يتمتعن به، والتسريح هو التطليق، والسراح الجميل: هو الطلاق من غير خصومة ومشاجرة بين الزوجين.

وقوله تعالى: (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) الآية، عدل سبحانه عن مخاطبة النبي ﷺ فيهن، إلى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف وزيادة التوكيد. وقوله (من يأت منكن بفاحشة مبينة) الفاحشة: الفعل المبالغة في الشناعة والقبح وهي الكبيرة كإيذاء النبي ﷺ، والافتراء والغيبة وغير ذلك، والمبينة: هي الظاهرة.

وقوله تعالى: (ومن يقنت منكن لله ورسوله ويعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين) الآية: القنوت: الخضوع، وقيل: الطاعة، وقيل: لزوم الطاعة مع الخضوع، والاعتداد، التهينة، والرزق الكريم مصداقه الجنة. والمعنى: ومن يخضع منكن لله ورسوله أو لزم طاعة الله ورسوله مع الخضوع، ويعمل عملاً صالحاً نعطها أجرها مرتين. وهياناً لها رزقاً كريماً، وهي الجنة. وقوله تعالى: (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) الآية. فالآية تنفي مساواتهن لسائر النساء إن اتقين، وترفع منزلتهن على غيرهن.

ثم تذكر أشياء من النهي والأمر، متفرعة على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله تعالى: (فلا تخضعن بالقول)، وقوله: (وقرن)، وقوله: (ولا تبرجن)

الخ، وهي خصال مشتركة بين نساء النبي ﷺ وسائر النساء، فتصدير الكلام بقوله: (لستن كأحد من النساء إن اتقيتن).

ثم تفريع هذه التكاليف المشتركة عليه، يفيد ويؤكد هذه التكاليف عليهن، كأنه قيل: لستن كغيركن، فيجب عليكن أن تبالغن في امتثال هذه التكاليف، وتحتطن في دين الله أكثر من سائر النساء، وتؤيد بل تدل على تأكيد تكاليفهن مضاعفة جزائهن خيراً وشرأ، كما دلت عليها الآية السابقة، فإن مضاعفة الجزاء لا تنفك عن تأكيد التكاليف.

وقوله تعالى: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض)، بعد ما بين علو منزلتهن ورفعة قدرهن لمكانهن من النبي ﷺ، وشرط في ذلك التقوى فيبين أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبي ﷺ، ونهاهن عن الخضوع في القول، وهو ترقيق الكلام وتليينه مع الرجال، بحيث يدعو الى الريبة ويثير الشهوة، فيطمع الذي في قلبه مرض. وهو فقدانه قوة الإيمان التي تردعه عن الميل الى الفحشاء.

وقوله تعالى: (وقلن قولاً معروفاً)، أي كلاماً مستقيماً يعرفه الشرع والعرف الإسلامي. وهو القول الذي لا يشير بلحنه الى أكثر من مدلوله. وقوله تعالى: (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى): وقوله: (وأطعن الله ورسوله). قال المفسرون: أي الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة. لأن المرأة أقرب ما تكون لربها وهي في قعر بيتها، وقيل: (قرن) من قر يقر. إذا أثبت. وأصله: أقرن، حذف إحدى الرانين، أو من قار. يقار: فإذا اجتمع، كناية عن ثباتهن في بيوتهن ولزومهن لها، والتبرج: الظهور للناس كظهور البروج لناظرها.

وقوله (الجاهلية الاولى)، قيل: الجاهلية الاولى قبل البعثة، فالمراد الجاهلية القديمة. وقوله تعالى: (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله)، أمر بامتثال الاوامر الدينية، وقد أفرد الصلاة والزكاة بالذكر من بينها، لكونهما ركنين في العبادات والمعاملات، ثم جمع الجميع في قوله تعالى: (وأطعن الله ورسوله)، وطاعة الله هي امتثال تكاليفه الشرعية، وطاعة رسوله فيما يأمر به وينهى بالولاية المجعولة له عند الله، قال تعالى: (النبي اولى بالمؤمنين من أنفسهم).

الألقاب والمعاني:

وضعت الشريعة نساء النبي ﷺ في دائرة الأمومة، بمعنى: أن كل امرأة تزوجها النبي ﷺ تحمل لقب (أم المؤمنين)، فيقال: أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين أم سلمة وأم المؤمنين حفصة وأم المؤمنين صفية وأم المؤمنين مارية.. الخ. قال تعالى: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم).

قال صاحب الميزان: فمعنى كون النبي أولى بهم من أنفسهم، أنه أولى بهم منهم. ومعنى الأولوية هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أولى منه، فالمحصل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والمحبة والكرامة واستجابة الدعوة، فالنبي أولى بذلك من نفسه، ولو دار الأمر بين النبي وبين نفسه في شئ من ذلك، كان جانب النبي أرجح من جانب نفسه، ففيما إذا توجه شئ من المخاطر إلى نفس النبي، فليقه المؤمن بنفسه ويفده نفسه وليكن النبي أحب إليه من نفسه، وأكرم عنده من نفسه، ولو دعت نفسه إلى شئ والنبي إلى خلافة، أو أرادت نفسه منه شيئاً، وأراد النبي خلافة، كان المتعين استجابة النبي ﷺ، وطاعته وتقديمه على نفسه.

وقال ابن كثير: في الصحيح: قال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله ووالده والناس أجمعين.

وقال صاحب الميزان: وقوله تعالى: (وأزواجه أمهاتهم) جعل تشريعي. أي: أنهن منهم بمنزلة أمهاتهم في وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن بعد النبي ﷺ، والتنزيل إنما هو في بعض آثار الأمومة، لا في جميع الآثار كالتوارث بينهن وبين المؤمنين والنظر في وجوههن كالأمهات وحرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهم أخوات لهم. وكصيرورة آبائهن وأمهاتهن أجدادا وجدات وإخوتهن وأخواتهن أخوالا وخالات للمؤمنين.

وقال ابن كثير في تفسير الآية: (وأزواجه أمهاتهم) أي في الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وعلى خلفية ولاية رسول الله ﷺ للمؤمنين ووجوب تعظيم أمهات المؤمنين وحرمة نكاحهم بعد النبي ﷺ لذا حذر تعالى من التعدي بإيذاء النبي ﷺ.

ومن خلال ماتقدم يتبين إيذاء بعض نساء الرسول ﷺ له ونزول سورة التحريم ومنها هجرته لنساءه شهرا وسكنه في بيت المؤمنة الطاهرة مارية والتي يدين الله

تعالى فيها عائشة وحفصة بأنهما قد انحرفتا، ويهددهما بقوله: (وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير) ، وهو تهديد من رب العالمين، بجيش جرار وقوة كبرى، ثم يضرب لهما مثلا بخيانة امرأتي نوح ولوط لزوجيهما ودخولهما النار.

وهكذا تتضح التصرفات والسلوك والأعمال المشينة لبعض نساء الرسول المصطفى ﷺ، ولا يمكن أن ترقى أي من نساءه لمستوى خديجة بنت خويلد وحسب الاحاديث الشريفة الواردة، ومنها: (أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم) ومنها قوله ﷺ في خديجة: (ما أبدلني الله خيرا منها وقد رزقت حبها وقد أمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبنى الناس وواستنتي بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني اولاد النساء) الى آخر الاحاديث المباركة في تكرمها ﷺ.

ما ورد في حق عائشة:

ذكر البعض بأن عائشة هي أفضل نساء الرسول المصطفى ﷺ؛ وذلك للتقليل من منزلة خديجة ﷺ، والتي فضلها الله ورسوله وكذا التقليل من شأن ابنتها الزهراء البتول ﷺ وهذا تدليس واضح على الله ورسوله، ولتوضيح ذلك لابد من التعرف على شخصية عائشة من خلال الأحاديث والسيرة لها ومن كتب العامة. وأهمها عندهم صحيح البخاري ومسنند أحمد وغيرها وقد جاء في سيرتها أنها كانت كثيرة الغيرة حتى ورد عن الرسول المصطفى ﷺ في ذلك: (الغيرة للرجل إيمان وللمرأة كفر).

وسنحاول هنا أن نذكر اليسير مما كانت عليه غيرة عائشة وسلوكها وطبيعة تعاملها مع الرسول ﷺ، ومنها:

- 1- ما ورد في صحيح البخاري في باب الغيرة: أن أحد أمهات المؤمنين بعثت للنبي ﷺ (وكان في بيت عائشة) بطعام، وكان ﷺ يشتهيها، فكسرت عائشة الاواني أمامه بطعامها.
- 2- لقد بلغت الغيرة عند عائشة أن تكذب على أسماء بنت النعمان لما زفت عروسا للنبي ﷺ، فقالت لها عائشة: إن النبي ليعجب من امرأة إذا دخل عليها أن تقول له أعوذ بالله منك (والغرض منها حتى يطلقها) وقد طلقها فعلا الرسول/ تاريخ اليعقوبي.

- ٣- لقد تأمرت عائشة وحفصة على الرسول ﷺ حتى اعتزل نساءه لمدة شهر كامل ينام على الحصير فيما ذكرناه أنفا في قضية ريح المغابير / صحيح البخاري.
- ٤- ورد بأن عائشة كانت إذا غضبت تهجر الرسول المصطفى ﷺ فلا تذكر اسمه وإنما تقول ورب إبراهيم / صحيح البخاري.
- ٥- كما ورد عن عائشة أنها قالت للرسول المصطفى ﷺ في حق صفية: حسبك من صفية كذا وكذا، فقال النبي ﷺ: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته/ صحيح الترمذي.
- ٦- روى ابن سعد في طبقاته وابن كثير في تاريخه: بأن النبي ﷺ لما تزوج مليكة بنت كعب وكانت بارعة بالجمال، فدخلت عليها عائشة وقالت لها: أما تستحين أن تنكحي قاتل أبيك، فاستعادت من رسول الله ﷺ فطلقها.
- ٧- أخرج البخاري في باب ما جاء في بيوت أزواج النبي جاء فيه: أن النبي ﷺ قام خطيبا على منبره فأشار نحو مسكن عائشة قائلا: ها هنا الفتنة، ها هنا الفتنة، ها هنا الفتنة، حتى يطلع قرن الشيطان، كما وأخرج مسلم في صحيحه بأن رسول الله ﷺ خرج من بيت عائشة فقال: رأس الكفر من ها هنا حيث يطلع قرن الشيطان.
- ٨- لقد بلغت عائشة في أخلاقها وأدبها مع سيد المرسلين بأنها تمد رجلها في قبلته ﷺ وهو يصلي ثم ترفعها عن كل سجود حتى يغمزها فإذا غمزها رفعتها حتى يقوم فتمدها ثانية فإذا غمزها رفعتها.
- ٩- ذكر في تاريخ ابن جرير وابن الأثير بأن عائشة نبزت عثمان بأنه نعتل، وقالت: اقتلوا نعتلا فقد كفر، عندما منعها إرثها من الرسول الأكرم ﷺ بعدما شهدت على الزهراء (عليها السلام) بأنها لا تستحق الإرث وأنها ادّعت بأن رسول الله ﷺ قال: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) ، فمنعها عثمان من الإرث بذلك، فكيف تستحق الميراث؟ لذا ألبيت عليه الناس وأنكرت عليه أفعاله.
- ١٠- لقد خرجت يوم الجمل من بيت رسول الله وقد أمرها الله أن تقر في دارها، قال تعالى: (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ، وركبت الجمل وقد حذر الرسول الأكرم ﷺ من الخروج لمنطقة الحوآب فتنبجها كلاب الحوآب، وذلك عندما أخبر عن واقعة الجمل وخروج عائشة، فقال لنساءه: ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأديب تخرج فتنبجها كلاب الجوآب، يُقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرة، وتنجو بعدها.
- ١١- وروى سبط ابن الجوزي بسنده الى ابن سعد عن الواقدي: أنه لما احتضر الحسن بن علي بن ابي طالب قال: ادفنوني عند أبي- يعني رسول الله ﷺ - فقامت بنو أمية ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص، وكان واليا على المدينة

فمنعوا دفنه عند جده عليه السلام. قال ابن سعد: ومنهم عائشة، وقالت: لا يُدفن مع رسول الله أحد (وهذا هو الكيل بمكيالين فقد سمحت بدفن أبيها ودفن عمر بن الخطاب بقرب الرسول الأكرم ولم تسمح بدفن جسد ريحانة الرسول، الامام الحسن عند جده، واتخذت القرار وهي لا تملك حق التصرف بالميراث الا بالتسع من الثمن).

وروى أبو الفرج الأموي الأصفهاني عن يحيى بن الحسن أنه قال: سمعت علي بن طاهر بن زيد يقول: لما أرادوا دفنه - يعني الحسن بن علي - ركبت عائشة بغلا واستعونت بني أمية ومروان ومن كان هناك منهم ومن حشمتهم، وهو قول القائل: فيوم على بغل ويوم على جمل. . وقال فيها عبدالله بن عباس: تجملت تبغلت ولو شئت تغيلت لك التسع من الثمن وبالكل تصرفت

وهكذا منعت دفن جسد سيد شباب أهل الجنة مع جده المصطفى عليه السلام ولها حصة من اثنين وسبعين حصة لغيرها، وقد تصرفت بالكل ومنعت الزهراء من حصتها، كما وأنها سمحت بدفن أبيها وكذلك عمر في بيت الرسول المصطفى عليه السلام، ومنعت من دفن سبط الرسول الامام الحسن المجتبي عند جده الرسول الأكرم عليه السلام. هذا هو الشيء اليسير من سيرة عائشة مع الرسول المصطفى عليه السلام، ونترك تحليل ذلك للقارئ في معرفة حقيقة شخصية عائشة وتعاملها مع أشرف الخلق، وهل يصح القول بأنها أفضل نساءه؟

أبعاد وفلسفة تعدد الزوجات:

كثيرا ما يطعن بعض المتصدين بالماء العكر من المستشرقين وأشباههم في مسألة تعدد زوجات الرسول المصطفى عليه السلام، ويتهمونه بأنه رجل ميال الى النساء، وأنه لم يقنع بما شرّعه الله لأتمته من أربع حتى تعدى التسع من النساء، وأن من يقرأ او ينظر الى حياة الرسول المصطفى عليه السلام بسطحية من خلال موضوع الزواج بهذا العدد من النساء ومع عدم معرفته بالوقائع والحقائق فقد يحكم شططاً، فضلاً عن البعض الذي يعمل بمنطلق الدس والتشويه.

لذا فالمسألة بعيدة كل البعد عن حقيقة تصوراتهم والواقع الموضوعي، ولا بد من توضيحها وفق آيات كثيرة ومتعددة من القرآن الكريم، وقد كان أكثرها هو أمر من الله سبحانه وتعالى، كما سنرى من خلال البحث، ولا بد للتعرض لكل حالة على حدة، ونستعرض ما يجب فهمه لتتم معرفة هذا الموضوع من خلال الآيات المرتبطة بكل حالة.

ومن الواجب أن نستعرض موضوع تعدد زوجات الرسول الأكرم ﷺ لمعرفة حقيقتها وأبعادها وفلسفتها، ويمكن إيجازها بما يلي:

١ - لقد كان اختيار الرسول المصطفى ﷺ من النساء للزواج الأول على نهج خاص في مدى حياته فهو ﷺ كان قد تزوج أول ما تزوج بخديجة رضوان الله عليها وعاش معها مقتصرًا عليها، خمساً وعشرين سنة ولم يتزوج عليها في حياتها امرأة قط مع أن تعدد الزوجات كان مألوفاً لدى الناس يومذاك، كما أنه بقي فترة بعد وفاتها دون زوجة وفاء لها.

وهذا وحده يكفي للرد على تلك الافتراءات الباطلة والتخرصات المشينة، حيث عاش فترة شبابه وحتى وفاة خديجة وقد بلغ عمره الشريف ما يقرب من الخمسين سنة مع زوجة واحدة ولم يفكر في غيرها حتى تزوج لأول مرة بعد وفاة خديجة بفترة لا تقل عن السنتين بسودة بنت زمعة وقد توفي عنها زوجها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية، وكانت سودة هذه مؤمنة مهاجرة، ولو رجعت إلى أهلها وهم يومئذ كفار لفتنوها كما فتنوا غيرها من المؤمنين بالزجر والاكراه على الكفر أو القتل.

٢- أن انساناً بمستوى رسول الله ﷺ وهو رسول الإنسانية والرحمة المهداة للبشرية جمعاء لا يمكن أن يكون وجود الله تعالى في بعض جوانب حياته ضعيفاً، بل أن وجود الله ملئ قلبه الشريف وعقله ووجدانه، فكانت حركاته وسكناته، يملؤها هذا الوجود المقدس، ولذلك فإن فرض تصرفات غريزية صرفة للرسول المصطفى ﷺ غير متصور، فضلاً عن تكذيب الواقع لهذا الفرض، وهكذا كانت تصرفاته الأخرى ﷺ هي مستقيمة وموافقة لما يريد الله تعالى.

٣- هنالك كرامة لخديجة والزهراء عليهما السلام كما قال ﷺ: (يا فاطمة ما بعث الله نبياً الا جعل له ذرية من صلبه وجعل ذريتي من صلب علي، ولولا علي ما كانت لي ذرية/ بحار الأنوار).

لقد تزوج ﷺ بأكثر من تسعة زوجات لأجل التأليف بين القبائل وإستمالتهم إلى جانبه ليقوى على نشر الإسلام وكذلك لأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية بالإضافة لأمر السماء كما سنستعرض ذلك، ولم تلد منهن امرأة سوى السيدة خديجة ومارية القبطية، ولكن توفي إبراهيم في صغره، في حين أن أكثر نساءه كان لهن اولاد ولكن عمّ صلبهن منه ﷺ.

٤- تزوج ﷺ بزَيْنَب بنت خزيمة بعد مقتل زوجها عبدالله بن جحش في معركة أحد وكانت من السيدات الفاضلات في الجاهلية، وتدعى أم المساكين لكثرة برّها للفقراء والمساكين وعطفها بهم فصانها ﷺ بالزواج للحفاظ عليها.

٥- وتزوج بأم سلمة واسمها هند، وكانت من قبل زوجة عبدالله أبي سلمة ابن عمه النبي وأخيه من الرضاعة وأول من هاجر الى الحبشة، وكانت زاهدة فاضلة ذات دين ورأي، فلما توفي عنها زوجها كانت مسنة وذات أيتام فتزوج بها الرسول ﷺ .

٦- وتزوج بصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير، بعد مقتل زوجها يوم خيبر وقتل أبيها مع بني قريضة، وكانت في سبي خيبر فاصطفاها وأعتقها وتزوج بها فوقها بذلك من الذل، ووصل سببه ببني إسرائيل، ويمكن القول لتقوية الاواصر بين المسلمين واليهود وأمن شرهم ونفاقهم .

٧- وتزوج بجويرية واسمها برة بنت الحارث سيد بني المصطلق بعد وقعة بني المصطلق، وقد كان المسلمون قد أسروا منهم مائتي بنت بالنساء والذراري، فتزوج ﷺ بها فقال المسلمون: هؤلاء أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم واعتقوهم جميعا فأسلم بنو المصطلق بذلك، ولحقوا عن آخرهم بالمسلمين.

٨ - وتزوج بميمونة الهلالية وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ بعد وفاة زوجها الثاني أبي رهم بن عبد العزى فاستنكحها النبي وتزوج بها، وقد نزل فيها القرآن: (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها).

٩ - وتزوج بأم حبيبة واسمها رملة بنت أبي سفيان، وكانت زوجة عبيد الله بن جحش وهاجر معها الى الحبشة الهجرة الثانية فتنصر عبيد الله هناك وثبتت هي على الإسلام وأبوها أبو سفيان يجمع الجموع على الإسلام يومئذ فتزوج بها النبي ﷺ وأحصنها. ١٠- وتزوج بحفصة بنت عمر وقد قتل زوجها خنيس بن حذافة وبقيت أرملة، وتزوج بعائشة بنت أبي بكر وهي بكر.

إن المتأمل لهذه الخصوصيات والمنتبج لأسبابها يجد أنها تختلف عما هو متعارف عند عامة الناس، أضف الى ذلك جميل صنائعه ﷺ في النساء.

إن هدف ومهمة الرسول ﷺ هو توحيد كلمة الناس، وهذا ليس بالأمر الهين من تحطيم عقائدهم والخروج عن عبادة آباءهم للاصنام وتقاليدهم وما ورثوه من أجدادهم لذا حاول توحيدهم اجتماعيا وسياسيا باستخدام الزواج من نساتهم.

١١- لقد خص الله الرسول المصطفى ﷺ بخصائص عن بقية البشر، ومنها بإجلال النساء لسبعة أصناف من النساء، وهي كما يلي:

الصف الأول: ما ورد في قوله تعالى: (يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) ، والمراد بالأجور هو المهور.

الصف الثاني: ما ورد في قوله تعالى: (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) ، أي من يملكه من الإماء الراجعة اليه من الغنائم والأنفال، وتقديد ملك اليمين بكونه

مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله: (اللاتي أتيت أجورهن)، للتوضيح لا للاحتراز.

الصف الثالث والرابع: وكما ورد في قوله تعالى: (وبنات عمك وبنات عماتك)، وقيل يعني نساء قريش.

والصف الخامس والسادس: كما ورد في قوله تعالى: (وبنات خالك وبنات خالاتك)، وقيل: يعني نساء بني زهرة، وقوله: (اللاتي هاجرن معك) ، ورد بأن هذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل.

الصف السابع: ما ورد في قوله تعالى: (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها) ، وهي المرأة المسلمة التي بذلت نفسها للنبي ﷺ، بمعنى أن ترضى أن يتزوج بها من غير صداق ومهر، فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها.

وقوله: (خالصة لك من دون المؤمنين) ، إيدان بأن هذا الحكم - أي حلية المرأة للرجل ببذل النفس- هو من خصائصه ﷺ ولا يجري في المؤمنين.

١٢ - يمكن التوصل للقول بأن الرسول المصطفى ﷺ أراد أن يعبر للأمة عن مدى عدله للنساء وإن كان صعباً وشاقاً على الأمة.

١٣ - أن معظم تلك النساء هن صاحبات عيال مثل أم حبيبة أو مطلقه بسبب المشاجرة مثل زينب بنت جحش، ولرفع موضوع كان متعارفاً بالجاهلية أو من وقعت بالأسر في السبي مثل جويرية وصفية بنت حيي.

١٤ - أن بعض أسباب ذلك الزواج كانت دوافعه إنسانية بحتة، انطلاقاً من مصلحة الإسلام وليس من منطلقات فردية كبقية الناس، وإن كانت منطلقاته ﷺ كلها تصب في خانة الإسلام والقربة لله تعالى، فقد تزوج من بعضهن الكبيرات في السن، فمنهن ممن أسلمت وهاجرت ثم توفي أو قتل عنها زوجها ولا سبيل لها إلى الرجوع إلى أهلها المشركين؛ لأنها لا تستطيع أن تقاوم ضغوطهم النفسية والمادية عليها.

بالإضافة إلى إمكانية تعرضها للتعذيب الجسدي الوحشي فيما لو أرادت أن تحتفظ بدينها وعقيدها ولا معيل ولا كفيل لها في المجتمع الجديد، كما هو حال سودة بنت زمعة التي كانت مسنة ويزيد عمرها على الخمسين عاماً، وكذا الحال بالنسبة لزينب بنت خزيمة التي ماتت بعد شهور من اقترانها بالنبي الأكرم، بالإضافة إلى أن ترميها ووحدها سيطلق الألسن والأهواء في حقها وفي اتهامها، ويجعلها تتعرض لضغوط وحتى إلى إغراءات، ربما لا تناسبها ولا تناسب موقعها ومصيرها في مجتمع غريب عنها.

كل هذه العناصر السلبية أدت الى أن تستعين بالكافل والمعين، وخير كافل وحافظ وولي لها هو النبي الأعظم ﷺ او من يريده النبي ﷺ من بعض المؤمنين الخيرين، ومن هذا القبيل أيضاً كان زواجه بالطاهرة أم سلمة رضي الله عنها.

١٥- لقد تزوج النبي الأكرم ﷺ ببعض النسوة تأليفاً وترغيباً للناس في الإسلام، فقد روى المؤرخون أن زواج النبي الأعظم ﷺ بجويرية بنت الحارث بعد أن اعتقها، نشأ عنه ترغيب المسلمين في عتق أسراهم، فقد اعتق المسلمون يوم ذاك مائتين من أسرى قومها تكريماً لها، وأسلم بعد هذه المصاهرة خلق كثير من قومها.

كما أن رملة بنت أبي سفيان التي أسلمت هي وزوجها في مكة بالرغم من عداوة أبيها للإسلام وهاجرت مع زوجها الى الحبشة وتوفي فيها ولم يعد لها ملجأ غير أن ترجع الى أبيها عدو النبي الأكرم، وإذا رجعت وأصرت على الإسلام فلا بد وأن تتعرض لأشد أنواع الأذى والتعذيب من أبيها وأتباعه.

وفي بعض المرويات أن زوجها تنصر في الحبشة وتركها غريبة ليس لها معيل، فأرسل النبي الأعظم ﷺ الى النجاشي ملك الحبشة طالباً منه أن يزوجه منها لينقذها من الغربة وضياح القرين.

ومن الجدير جداً أن يقصد النبي الأكرم ﷺ من زواجه منها التأليف لأبيها أبي سفيان كما تألف غيره بالاتصال بهم بالمصاهرة، فكان زواجه من رملة عطفاً عليها وفي الوقت نفسه تأليفاً لأبيها وقومه.

١٦- لقد تزوج النبي الأكرم ﷺ بزَيْنَب بنت جحش لضرورة إقتضتها مصلحة التشريع، حيث كان النبي ﷺ قد تبني زوجها زيد بن حارثة، حيث عاش في كنفه وتحت رعايته مذ كان صغيراً، وكان العرب يحرمون نكاح زوجة الإبن بالتبني معتقدين بأن آثار التبني هي نفس آثار البنوة الحقيقية، فما يحل للإبن بالزواج، يحرم على الأب المربي أن ينكح زوجته من بعده، كما أن المربي يرث من المربي ويعامل معاملة الإبن الحقيقي.

ولم يكن ثمة مجال لقلع هذا المفهوم الخاطي إلا بالإقدام على عمل جبار يمحي تلك العادة السيئة والسنة الباطلة التي سنتها الجاهلية يوم ذاك، فكان لا بد من إقامه على الزواج من زوجة ابنه بالتبني حيث أنه الوسيلة الفضلى لقلع هذا المفهوم الباطل من أذهانهم، وهكذا كانت المشيئة الإلهية أن يأمر الله تعالى بأن تتزوج زينب من زيد الكارهة له هي وأخوها عبدالله، ثم بعد الزواج المكره، تطلق منه ويتزوجها النبي لا لرغبة جنسية بل لإزالة العادة الخبيثة التي كانت رانجة في ذلك العصر.

١٧- ثمة إتهام باطل سجّلهُ بعض الكفار المغرضون والحاقدون ضد الرسول ﷺ محاولين بذلك الانتقاص من عظمته ﷺ ليؤدّي بالنتيجة الى تضعيف الملترزمين

بخطه وعقيدته لينحسوا رسالته النورانية وَيَأْتِي اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

ويتلخص الإتهام بأن النبي الأكرم ﷺ تزوج عدة نساء إستجابةً لطموحه الجنسي الجامح الذي كان يعاني منه، فكان شغوفاً بهنّ لا ينفك عن ملازمتهنّ في الليل والنهار، واللوهلة الاولى قد تُصدّق هذه التهمة بسبب عدم التركيز على النواحي العقدية التي يجب أن يتصف بها الأنبياء والاولياء عليهم السلام.

إن التعمق من خلال دراسة هذه التهمة بوحي ومسؤولية وإخلاص لرسول الله ﷺ حيث إن بعضهم تزوج عدة نساء يستلزم الخروج بنتيجة حاسمة نقطع من خلالها بزيغ التهمة واعتبارها محض خيال لا يعتمد على دليل او برهان وذلك بملاحظة الأمور التالية:

الأمر الاول: أن حب الرجال للنساء والعكس هو أمرٌ طبيعي موجود في جيلة الإنسان حيث يهوى المرأة، والمرأة تهوى الرجل، لما فيهما من غرائز تشدّهما الى بعضهما البعض إلا أن هذه الغريزة يمكن ضبطها بإمرأة او إمرأتين او أربعة لا أكثر كما حصل عند رسول الله ﷺ، فلا ملازمة بين الغريزة وكثرة النساء.

هذا بالاضافة إلى أن النبي ﷺ لو كان يهتم بأمور الجنس لكان باستطاعته يتزوج أجمل الفتيات الأباكار، ولوجد اولياءهنّ يفتخرون بمصاهرته لهم، وهو الذي حثّ وحيداً وأثنى على الزواج بالأباكار ورغب فيه بشكلٍ لا نظير له عند نبيٍّ من الأنبياء قبله.

وخلاصة القول: لم يكن زواج النبي الأكرم ﷺ بنساء مطلقاً لأجل رغبة جنسية بل كان لأسباب تشريعية واجتماعية وسياسية، وهي قرينة الى الله تعالى، وهو ليس ببيعيٍّ عن ساحته المقدسة لله تعالى وهو بعين الله .

الأمر الثاني: أن النبي الأكرم ﷺ تزوج مولاتنا أم المؤمنين السيدة خديجة بنت الخويلد المرأة المخلصة التي كانت تكبره سنّاً كما يرويه الباحثون، وبقي معها خمساً وعشرين سنة، ولم يتزوج عليها في حياتها إمرأة قط، مع أن تعدد الزوجات كان مالوفاً لدى الناس يومذاك.

الأمر الثالث: لقد رفض النبي الأكرم ﷺ عرض قريش عليه التزويج بأبي الفتيات الجميلات شاء مقابل أن يترك الديانة التي يدعوهم إليها او يخفف من مواجهته لآلهتهم وعقائدهم، ولو كان يحبُّ الجنس لما رفض هكذا عرض، بل لكان التنافس عليه في مقابل التخفيف من مواجهة آلهتهم المنحوتة بأيديهم.

الأمر الرابع: أن جميع زوجاته عليه السلام باستثناء مولاتنا السيدة خديجة عليها السلام تزوجهن في المدينة بعد أن تجاوز سنّ الخمسين، وهو سنٌ يبدأ فيه الاضمحلال الجنسي عند أغلب الرجال الذين لا يتعاطون العقاقير المنشّطة ولا الأدوية المرغّبة، ولم تكن سيرته العطرة أنه كان يتعاطى شيئاً من هذا القبيل، بل إن بعضهنّ تزوجهنّ عليه السلام قبل وفاته بمدة قليلة بعد أن تجاوز الإثنين وستين عاماً، فأَيّ قدرة جنسيّة تكون له في مثل هذا العمر؟ بل إن بعضهنّ تزوجن تلبيةً لرغبتهنّ في أن يصبحن من أزواجه.

الأمر الخامس: أن تعدّد زوجاته عليه السلام لم يشغله عن عامّة واجباته الدينية والدينيّة، ولا أخرجّه عن اتّزانه الفكري والسلوكي، كما أنه لم يستحوذ على وقته ونشاطه كما تصوّر التهمة، بل إن تاريخ حياته الكريمة يشهد بأنه عليه السلام لم يلوث نفسه بأيّ ممّا كانت الجاهليّة تبيحه وتشيع في مجتمعه ممارسته ولم يستطع أحد من أعدائه أن يصفه بشيءٍ من ذلك أبداً بل كانوا دائماً ينادونه بالصادق الأمين.

الأمر السادس: لقد خيّر النبيّ الأكرم عليه السلام زوجاته بين الرضا بحياة زهيدة ملوّها بالتقشّف وشطف العيش معه، وبين الطلاق والفراق، فلو كان زواجه بهنّ بسبب طغيان الغريزة الجنسيّة لديه، لكان يجب أن يحتفظ بهنّ في جميع أحواله ولا يفرط بهنّ لمجرد حبّه لحياة التقشّف والزهد.

وخلاصة القول: لم يكن زواجه عليه السلام بسبب جموحه الجنسي للأمر المتقدمة النقضيّة، ولكن ثمة أسباب ودوافع حقيقيّة إنسانيّة وسياسيّة وتشريعيّة وتأليفيّة أدّت إلى تعدّد زيجاته.

وهكذا يتّضح عدم صحّة ما أُثير حول قضية زواجه المتعدّد بل كان من أجل دوافع سامية ونبيلة تنمّ عن خُلُقٍ عظيم يعكس عن رفيع ذاته المقدّسة والسامية إلى أوج العظمة والنبيل والأنسانيّة المستقيمة.

الفصل الخامس التهينة لهجرته ﷺ وابعادها وفلسفتها

التهينة للهجرة

لقد عانى الرسول الأكرم ﷺ كثيراً من الصعوبات وهو يحاول إقناع زعماء قريش بدعوته، واتخاذ مكةً منطلقها وسبيلها الى بقية الحواضر والقبائل، الدائرة في فلکها الديني ونفوذها الاجتماعي والاقتصادي، ثم أثبتت محاولاته التالية، سواء مع الطائف أم اليمامة، صلابة هذه الجبهة والتزامها بالموقف القرشي المعبر عن مصالحها الحيوية، ما جعلها ترفض مسبقاً فكرة الحوارم مع النبي الأكرم ﷺ.
فوقع الاختيار على يثرب الخارجة عن الدائرة الجغرافية لمكة، رغم وقوعها في دائرة المواصلات الرئيسية لتجارة قريش مع الشام.

لقد كان للأنصار (الأوس والخزرج) دور كبير في جعل يثرب مقراً لدولة الرسول ﷺ وفي إخراج الإسلام من دار الإضطهاد الى دار الهجرة.
لقد كانت وقفة اولئك النفر من الأوس والخزرج بمستوى التاريخ؛ إذ كانوا انموذجاً في العطاء والتضحية وكران الذات، فاستحقوا لقب "أنصار الله وأنصار رسول الله"؛ ذلك أنهم التزموا بالإسلام، واحتضنوا الرسول ﷺ والمهاجرين، وانخرطوا في الجهاد.

والمتتبع للأحداث قد يجد وراء هذه الوقفة أسباباً اجتماعية واقتصادية، وليست سياسية فحسب، فقد كان لقاء العقبة الذي غير مسار التاريخ الإسلامي، أسباباً دينيةً تمثّلت بمعاناة المسلمين في مكة وإخفاقهم في إقناع قريش وحلفائها بالإسلام، وأسباباً سياسيةً ناتجةً عن مؤامرات اليهود ضد الأوس والخزرج، وأسباباً عسكريةً ناتجةً عن الحروب الداخلية التي انهكت هاتين القبيلتين، وأسباباً اقتصاديةً ناتجةً عن تراجع الإنتاج الزراعي بسبب انعدام الاستقرار السياسي في يثرب. فكان لقاء العقبة محصلةً لهذه المعطيات أكثر مما هو نتاج مصادفة تاريخية.

ولا يعني ذلك أن إسلام الأنصار كان سياسياً ونتاجاً عن الحاجة لإرساء وضع جديد وتكريس سلام ثابت فقط، فتضحية الأنصار في سبيل الإسلام وجهادهم بأموالهم وأنفسهم، ناتج أيضاً عن إيمانهم بالإسلام ديناً، وبقيمه ومبادئه.

لقد عمل الرسول ﷺ على إرساء علاقة اجتماعية متوازنة في المدينة، تقوم على كبح نزعتين لدى المهاجرين:

اولاهما: نزعة التفوق القبلي، بوصفهم ينتمون الى قبيلة قريش.

وثانيهما: نزعة أسبقية الدُخول في الإسلام، كما عمل الرسول ﷺ على كبح النزعة الأقليمية لدى الأنصار ومعها شعور المنقذ للإسلام من محنته الشديدة، فنجح الرسول الأكرم ﷺ في ترسيخ وحدة الأوس والخزرج في إطار الأنصار ووحدة هؤلاء مع المهاجرين في إطار الجماعة الإسلامية، فكان الأنصار شركاء أساسيين في تكوين الدولة الإسلامية في مختلف المجالات العسكرية والإدارية والاقتصادية ما جعل هذه الدولة أكثر قدرة على تجاوز الخطر وقهر التحديات المحيطة بها.

لقد اتّصفت المرحلة الأولى من الهجرة بمهادنة اليهود، فاكتمى النبي ﷺ بمراقبة نشاطهم ورصد تحركاتهم، فكان اهتمامه منصباً على مواجهة الخطر القرشي، فعمل ﷺ على توثيق عرى الوحدة بين المسلمين في المدينة، وتجنب جبهته الداخلية مخاطر التصدّع والانشقاق، الأمر الذي تجلّى في المواجهة الهادئة مع حركة النفاق.

وفي المقابل، كان موقف اليهود من الهجرة فاتراً، يؤكّد ذلك عدم اتّصالهم بالرسول ﷺ قبل حدوثها، فضلاً عن الاستجابة الضعيفة من جانبهم للدعوة إلى الإسلام، وقد بدا أن اليهود يقومون بمحاولة لاحتواء المسلمين والمراهنة على انقسامهم، وذلك تمهيداً لإخراجهم من المدينة.

ويبدو أن القبائل اليهودية التي كانت تعيش هاجس السّيطرة العربية، قد عانت أيضاً من الانقسام، ولم يكن وضعها يتجاوز الموقف الدفاعي، والسعي ما أمكن إلى تأجيج الصراع بين الأوس والخزرج حتّى بعد إسلامهم، فلم تكن هذه القبائل اليهودية قادرة على التدخل الفعلي لمنع الهجرة، أو التصدي لها بصورة جدية، ويبدو أن الرسول ﷺ العارف بأمور يثرب ووضع اليهود فيها لم يرَ في هؤلاء ما يمثّل مصدرًا للخطر على الهجرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن النبي ﷺ انفتح على اليهود وعقد معاهدة معهم، لكنهم لم يكفوا عن المجادلات الدينية وافتعال الأزمات السياسية، وقد لعب المنافقون دوراً في هذا النزاع وكان للنبي ﷺ موقف منهم.

يتضمّن هذا الموقف، عرضاً لبيعتي العقبة الأولى والثانية، وبناء الدولة والمجتمع الإسلامي والأعمال التأسيسية التي قام بها النبي ﷺ من بناء المسجد، والمؤاخاة بين المسلمين، وإعداد القوة العسكرية.

ويتضمّن أيضاً، الحديث عن معاهدة المدينة أو دستور المدينة، أو الصحيفة، لأهميتها على مستوى توثيق الصلات بين المسلمين من جهة، وبينهم وبين اليهود من جهة أخرى، وتحقيق الوحدة بين جميع سكان يثرب، وتجنّب خطر قريش ونشر

الدعوة، وتحقيق الأمن والاستقرار والحرية الدينية، أضف إلى ذلك الكلام على نص الصحيفة وصحته ومضمونها وشموليتها ومبادئها وشرحها والتعليق عليها.

بيعة العقبة

لما وقف كبار المشركين ومتعنتيهم في وجه الدعوة الإسلامية والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وبقيادة خاتم النبياء والمرسلين محمد المصطفى ﷺ، وحالوا أفضال أطروحة السماء ومنع بناء المجتمع المسلم فوق بطحاء مكة، تطلع الرسول الأكرم ﷺ إلى بلد آخر من البلدان، فأرسل عدداً من أصحابه إلى الحبشة، في شهر رجب سنة خمس من البعثة، ولكن الحبشة وإن كانت مناسبة لإيواء المسلمين في ذلك الحين، لم تكن مناسبة لتكون منطلقاً للدعوة إلى الإسلام وبناء المجتمع المسلم، لأسباب عديدة ومنها:

- ١- عدم إسلام أهلها على الرغم من الكلام عن إسلام ملكها النجاشي الحبشي.
 - ٢- بعدها عن جزيرة العرب ووجود البحر بينهما وكونها منطقة لا تتوفر فيها خصائص استراتيجية لنشر الدعوة إلى الآفاق الرحبة.
 - ٣- أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل العرب نواة المجتمع المسلم وحملة الدعوة إلى الناس أجمعين، لذلك اصطفى خاتم الرسل ﷺ من بينهم، وأنزل كتابه بلغتهم، ودعاهم إلى الإيمان به ونصرته وتحمل الأذى في سبيله.
- وقد استمر ذلك إلى أن أتى لمكة في موسم الحج في السنة الحادية عشرة من البعثة ستة من الخزرج، فلقاهم رسول الله ﷺ وجلس معهم، فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.. فقال أحدهم للأخري: يا قوم، تعلمون، والله، أنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه.
- فأجابوه إلى ما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: (إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك).
- ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.
- وقد استهدف النبي ﷺ من هذا الاجتماع حباً هؤلاء الأشخاص على القيام بنشاط في بلادهم لتهيئة الجو وخلق مناخ مؤيد ومتعاطف مع الدعوة ومبادئها الجديدة في المدينة، فلما عادوا إلى يثرب، ذكروا لقومهم عن رسول الله ﷺ ودعاهم إلى

الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

١- بيعة العقبة الاولى:

وفي السنة التالية، التقى الرسول ﷺ وفي المكان نفسه، بوفد ثان من اوس يثرب وخزرجها، اثني عشر رجلاً من بينهم الستة الذين أسلموا من قبل جاءوا لا ليعلنوا إسلامهم هذه المرة، بل ليبايعوا الرسول ﷺ في ما سمي ببيعة العقبة الاولى على الإسلام، على (ان لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا اولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف) وأرسل معهم داعيته الشاب مصعب بن عمير لكي يتولى شؤون الدعوة والتتقيف العقائدي هناك.

قال ابن إسحاق، نقلاً عن عبادة بن الصامت: كنت فيمن حضر البيعة الاولى وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء: على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزن، ولا نقتل اولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف.. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن عشتم من ذلك شيئاً فأمركم الى الله عز وجل: إن شاء عذب، وإن شاء غفر.

ثم بعث الرسول ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره بأن يُقرنهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويُفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ في المدينة، وكان يصلي بهم، وذلك أن الاوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمهم بعض. فقام بمهمته على أكمل وجه، حتى انتشر الإسلام في المدينة.

ومما يجدر بنا ذكره هو إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وهما يومئذ سيّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما كان مشركاً على دين قومه. وقد أتى كلُّ منهما أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير، اللذين كانا قد خرجا سوياً يريدان دار بني عبد الأشهل، فوقف كل منهما يقول: ما جاء بكما تُسفهان ضعفاءنا؟

فقال مصعب لكل منهما في كل مرة: او تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قيلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره، قال: انصفت. فكأمله مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن. فاشترق وجه كل من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير بعد أن تعجبا من حسن هذا الكلام وجماله، وسأل كلُّ منهما أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير: كيف تصنعون إذا أردنا أن ندخل في هذا الدين؟

فأجابا: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي، وهكذا كان. ثم أقبل سعد الى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما راوه مقبلاً قالوا: نحلف

بأنه لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال:
يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيية، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالوا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

٢- بيعة العقبة الثانية:

انطلق في السنة الثانية من يثرب ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان واجتمع بهم الرسول ﷺ في العقبة أيضاً، واتفق معهم سراً أن يوافوه في الثلث الثاني من الليل، حين ينام الناس وتغفل العيون، يتسللون إليه واحداً واحداً واثنين اثنين، وتمت البيعة الثانية، وعرفت بـ(البيعة الكبرى) وكانت هذه المرة على الحرب والسلام، ومدوا إليه أيديهم مصافحين، ومقسمين بالله الواحد الذي آمنوا به أنهم سيحمنون الرسول ﷺ وينصرونه، وأنهم سيرفعون السلاح مدافعين عنه بوجه أي قوة في الأرض، سواء كانت او حمراء، تسعى الى الفتك به وبدعوته وأصحابه.

وقد ورد رجوع مُصْعَب بن عُمَيْر الى مكة، وخرج من خراج من الأنصار، من المسلمين، الى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشُّرك، حتى قَدِموا مكة للحج في العام الثالث عشر من البيعة، وكانوا يكتمون أمرهم على من معهم من قومهم من المشركين، فالتقوا النبي ﷺ ليلة الثاني عشر من شهر ذي الحجة، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا الى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال:

(أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم)، فأخذ البراء بن معرور وهو سيد قومه وكبيرهم، بيده ﷺ ثم قال: (نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك ممّا نمنع منه أُرُونا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب، وأهل الحلقة ورتناها كإبراً عن كابر).. فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: (بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم).

قال ابن إسحاق: فحدثني عبادة بن الوليد بن عباد بن الصامت عن أبيه الوليد عن جدّه عبادة الذي كان أحد النقباء، قال: (بايعنا رسول الله ﷺ ببيعة الحرب، على السمع والطاعة في عُسرنا ويُسرنا ومُنْشَطْنا ومُكْرَهْنا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كُنّا لا نخاف في الله لومة لائم).

فبايعوه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، على النّفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى قول الحق، وعلى أن يحفظوه إذا قدم عليهم يثرب، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم.

لقد تم الاجتماع السري بين الرسول ﷺ ومسلمي يثرب بحضور علي بن أبي طالب والحمة في الدار التي كان ينزل فيها الرسول ﷺ، وهي دار عبدالمطلب، وتلك هي بيعة العقبة الثانية، وكان عدد المبايعين من الاوس والخزرج ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين.

وبذلك أصبحت المدينة مهياً ليهاجر الرسول الأكرم ﷺ وأصحابه إليها، ويجعلها مقراً للدعوة، ويؤسس فيها المجتمع المسلم.

لقد نجح النبي ﷺ في نهاية المطاف، بفعل إصراره على مواصلة الدعوة وعدم يأسه او استسلامه أمام الإخفاق الظاهري في مكة، وبفعل الثقة بوعد الله سبحانه بالنصر في إيجاد القاعدة المناسبة التي يركز عليها الإسلام. فكانت يثرب موضع اختياره الجديد.

وكانت بيعة العقبة هي الخطوة الرئيسية التي مهد فيها النبي ﷺ للهجرة الى المدينة المنورة، حيث تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل الدعوة، وهي مرحلة بناء الدولة، والدفاع عن الإسلام. فإذا ضاق البلد بالمسلمين يوماً، ومُنِعوا من إقامة دينهم فيه وعبادة ربهم، وعجزوا عن مقاومة الطغيان ونشر الإسلام، ولم يستطيعوا أن يقيموا المجتمع المسلم في ذلك البلد، فما عليهم إلا أن يسبحوا في أرض الله الواسعة، وقيموا حيث يأمنون:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَنْ نَبْرَأَ لَكَ مَا أَهَمَّ جَهَنَّمَ وَنَسَاءتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا قَالُوا لَنْ نَبْرَأَ لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا).

ويرى المؤرخون أن هذه البيعة كانت تظاهرة أكثر مما كانت اتفاقاً سبق أن وضعت أسسه العقبة الأولى، وذلك عندما انطلق سبعون من قبيلتي الاوس والخزرج، بينهم امرأتان، للتأكيد على نصره الرسول ﷺ وممهدين لأنقاله الى حاضرتهم، حيث أصبح له مقر ينافح فيه عن دعوته وينشر مبادئها في وضح النهار.

فكانت بيعة العقبة الثانية تكريساً لذلك الحلف في مواجهة قريش والقبائل الدائرة في فلك نفوذها، حيث كان القضاء على الوثنية من اولويات مشروع رسول الله ﷺ، فيما كان خطر اليهود يقلق الاوس والخزرج في يثرب، ولكن الرسول ﷺ طمأن نفوسهم مما يخالجهما من القلق إزاء اليهود، حيث قالوا له: (إن بيننا وبين الرجال حبلاً، وإنا قاطعوها (يعني اليهود)، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن

ترجع الى قومك وتدعنا؟)، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: (بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم).

الهجرة الى مدينة طيبة

الهجرة لغة: هي الاسم من الهجر او الهجران، وهي مأخوذة من مادة (هجر) التي تدل على معنيين:

الاول: القطيعة.

الثاني: شد شيء وربطه.

فمن الاول: أخذ الهجر ضد الوصل وكذلك الهجران، وقولهم: هاجر القوم من دار الى دار: أي تركوا الاولى الى الثانية كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة الى المدينة.

قال ابن منظور: الهجرة والهجرة: الخروج من أرض الى أرض والمهاجرون: الذين ذهبوا مع النبي ﷺ مشتق منهم.

الهجرة في الشرع : هي ترك الوطن الذي بين الكفار، والانتقال الى دار الإسلام.

قال الرَّاغِبُ: الهجرة: الخروج من دار الكفر الى دار الإيمان، كمن هاجر من مكة الى المدينة.

قال الكُفوي: الهجرة هجرتان: الاولى: هجرة المسلمين في صدر الإسلام الى الحبشة فراراً من أذى قريش.

الثانية: هجرة رسول الله ﷺ والمسلمين قبله وبعده ومعه الى المدينة، وقد كانت الهجرة من فرائض الإسلام بعد هجرته ﷺ ثم نسخت بعد فتح مكة، لقوله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح) // صحيح مسلم- كتاب الإمارة.

وبعد بيعة العقبة الثانية، سمح النبي ﷺ للمسلمين، وخصوصاً لأولئك الذين كانوا يتعرَّضون للإيذاء والضغط، بالهجرة الى يثرب، وقال لهم في ما يُروى عنه ﷺ: (إن الله عزَّ وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها) فأخذ المسلمون يتوافدون الى يثرب أفراداً وجماعات سراً وعلانية، مضحين بوطنهم وبعلاقاتهم، وكثير منهم ضحوا بممتلكاتهم ومكانتهم في مجتمعهم الجاهلي، في سبيل عقيدتهم ودينهم.

ورأت قريش في هذه الهجرة خطراً على وجودها ومستقبلها، وذلك خشية من أن يمثل المهاجرون مع أهل يثرب قوة تستطيع أن تقف في وجه قريش ومصالحها، خصوصاً أن تجارتها الى الشام تمر عبر يثرب، فأخذت تمنع المسلمين من الهجرة وتلاحقهم وتُلحق العذاب والإرهاب بكل من كان يقع في قبضتها.

وبرغم كل هذه الإجراءات تمكّن معظم المسلمين من الهجرة، ولم يبق في مكة بعد بيعة العقبة بمدة وجيزة سوى النبي ﷺ، وعلي عليه السلام، وعدد قليل من المسلمين المستضعفين.

بقي النبي ﷺ في مكة ينتظر الإذن الإلهي بالهجرة، وشعرت قريش بحجم الخطر الكبير الذي سيحدث إن التحق النبي ﷺ بأصحابه، خصوصاً بعدما قدّرت أن المدنيين سيحمونه وينصرونه بكلّ طاقتهم بعدما بايعوه على السمع والطاعة والجهاد، فأخذت قراراً حاسماً بالتخلص من النبي ﷺ قبل فوات الاوان، واستطاعت أن تنتزع قراراً بمشاركة كل قبائل قريش في عملية الإغتيال، من أجل أن يتفرّق دمه في القبائل كلها، فلا يعود بإمكان بني هاشم أن يثاروا لدمه.

ولكن الله أخبر رسوله ﷺ بهذه المؤامرة، وأمره بالخروج ليلاً من مكة، فطلب رسول الله ﷺ من علي عليه السلام أن يبني بيتاً في فراشه من أجل التمويه والإيهام، وليفوت عليهم كيدهم قائلاً له: (نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم).

وفي ذلك نزل قوله تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ).

فخرج رسول الله ﷺ الى غار ثور، وبات علي عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ تلك الليلة، فكان اول فدائي في الإسلام. وعندما اقتحم المشركون دار النبي ﷺ وجدوا أنفسهم امام علي عليه السلام، وكان النبي ﷺ قد خرج قبل ذلك من بينهم، وهو يقرأ هذه الآية: (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ).

فتوجّه النبي ﷺ نحو غار ثور، وأقام فيه ثلاثة أيام، ولمّا اطمان الى خلوّ الجبل من المطاردين، غادره وتوجّه الى المدينة المنورة، وتمكّن من الوصول الى قرية قباء القريبة من المدينة المنورة برغم ملاحقة قريش له.

أما علي عليه السلام فقد أمره النبي ﷺ بأن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ مأمّن كل لاجيء، (ليس في مكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ).

وكانت هجرة النبي ﷺ في شهر ربيع الاول بعدما كان أمضى ثلاث عشرة سنة في مكة وكانت هذه الهجرة بداية التاريخ الإسلامي. وكانت للهجرة دوافع عديدة منها: ردّ فعل على اضطهاد قريش التي أدت الرسول ﷺ والمسلمين معه، ونجحت في وضع الحواجز والعراقيل الكثيرة أمام تقدّم هذا الدين وانتشاره ومارست عمليات التعذيب والإرهاب.

لم تعد مكة مكاناً صالحاً للدعوة، وقد حصل النبي ﷺ منها على أقصى ما يمكن الحصول عليه، ولم يبق أي أمل في دخول فئات جديدة في الدين الجديد، في المستقبل القريب على الأقل.

إن الإسلام دين كامل ونظام شامل، يعالج في تشريعاته، جميع جوانب الحياة، وهو للبشرية جمعاء، ولذلك كان لا بد من الانتقال الى مكان آخر ينشط فيه الإسلام بحرية، بعيداً عن ضغوط قريش ومناطق سيطرتها ونفوذها، ويمتثل ساحة جديدة يستطيع النبي ﷺ فيها إقامة الحكومة التي تضمن تطبيق النظام الإسلامي في الحياة وتحقيق أهدافه الكبرى ونشره، ليصل الى كل إنسان في كل مكان.

لقد عاش نبينا ﷺ محبوباً بين قومه وعشيرته، محترماً عندهم غاية الاحترام والتقدير حتى أنهم حكّموه في وضع الحجر الأسود، حينما تنازعا في وضعه، ولقبوه بالصادق الأمين، ولكن سرعان ما انقلب هذا الحب والتقدير الى كره وبغضاء، وحقّد ذميم وذلك حينما صدع ﷺ بالدعوة الى الله والى إفراذه سبحانه بالألوهية والربوبية والطاعة والإتباع، عند ذلك ثارت ثائرة قريش بالتصدي له وتكذيبه فقالوا: وكما ورد في القرآن الكريم: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ).. وقالوا: (أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِي).

وصاروا يقابلون رسول الله ﷺ بأشد أنواع الإيذاء، من سخرية ومحاولة اغتيال، وعروض دنيوية، وغير ذلك، من الوسائل التي يسلكها أعداء الله للقضاء على الإسلام ودعاته في كل زمان ومكان.

ولما كانت الهجرة أمراً مهماً لإعلاء شأن الدين، ولحصول الحرية الكاملة لعبادة الله وطاعته، ولأنها لا تحدث إلا عن حرب ومضايقة من أعداء الله لاوليائه لذلك نوه الله بذكرها فأطلع بعض الأمم على أمرها فكان عندهم العلم اليقين بهجرة سيد المرسلين من البلد الأمين الى المدينة النبوية.

الهجرة الى الحبشة:

لما رأى رسول الله ﷺ ما حل بأصحابه من عذاب شديد وتكليل وجهه من قبل المشركين وأعداء الدعوة الإسلامية، ولغرض الحفاظ على تلك النحلة القليلة والتي هي النواة لبقاء الدعوة الإسلامية ولطالما غلقت بوجههم منافذ انتشارها في مكة، فكان لا بد من مكان آمن لبقائها وانتشارها في بقعة أخرى، فقد أمرهم بالهجرة الى أرض الحبشة، فإن فيها ملكا لا يظلم عنده احد، فإنه يحسن الجوار، حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه فخرجوا متسللين سراً، منهم من هاجر بأهله ومنهم من هاجر بنفسه

وساروا حتى وصلوا الى الشعبية وهي مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، وكان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة وكان من محاسن الصدق أن وجد هؤلاء المهاجرون سفينتين للتجار فحملوهم فيها الى الحبشة.

وبلغ الخبر قريشاً فخرجوا يجنون في طلبهم ليحولوا بينهم وبين الهجرة ولكن وصلوا متأخرين فلم يدركوهم، وعلى كل الأحوال فقد نجا المهاجرون ولم يستطع المشركون ردهم وأقاموا في الحبشة وكانوا يعبدون الله باطمئنان وأقاموا معالم دينهم دون أن ينالهم أذى او مكروه.

إن من المرجح أن الهجرة لم تكن الا واحدة وهي التي كان عليها جعفر بن أبي طالب عليه السلام والذي لم يكن غيره من بني هاشم، فلم يكن ثمة هجرتان؛ وذلك بدليل الرسالة التي وجهها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الى ملك الحبشة والتي جاء فيها: قد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب معه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم..

هذه هي الهجرة التي كان جعفر أميرها، وكان فيها أكثر من ثمانين مسلماً، واستمرت أكثر من عشر سنوات، أما الذين ذهبوا الى الحبشة قبلها فكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، سافروا في شهر رجب وأقاموا شهر شعبان وشهر رمضان ورجعوا في شوال، وهم: عثمان بن عفان وامراته، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامراته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامراته أم سلمة، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة وامراته ليلي بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن أبي رهم، وسهيل بن بيضاء.

والتي ذكرها تاريخ الطبري والطبقات وعيون الأثر وفتح الباري والسيرة الحلبية والكامل وغيرها. فكانت سفرة قصيرة أشبه بسفر للتجارة، ولعلمهم سموها هجرة من أجل عثمان الذي كان فيها ليجعلوه اول المهاجرين، مع أنه لم يتعرض لتعذيب او ضغط ولعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذن لهم بالهجرة وأرسلهم لاستكشاف الوضع لتنجير المضطهدين اليها، فقد كان ابن مظعون من المقربين للنبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فكان هؤلاء العشرة اول من خرج من المسلمين الى أرض الحبشة، وكان عليهم عثمان بن مظعون.

ولم يكن انتداب جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه لهذه المهمة العظيمة أمراً
اعتباطياً ولعل ما روي من إسلام النجاشي وغيره من الأحباش على يد جعفر مما
يؤكد هذا الأمر وجهاده في سبيل الله.

وهذه الهجرة لم تكن كسابقتها حيث ازداد عدد المهاجرين بنسبة ازدياد المسلمين
أولاً وشدة إيذاء قريش لهم ثانياً حتى بلغ عدد المهاجرين هذه المرة ثلاثة وثمانين
رجلاً وثمانين امرأة، وأمر الرسول ﷺ أن يكون جعفر بن أبي طالب أميرهم
ورئيسهم لينظم أحوالهم ويشرف على شؤونهم علماً أنه كان أصغر الرجال
المهاجرين سناً ولكن الرسول اختاره لأنه كان أرجحهم عقلاً وأوسعهم إحاطة بأحكام
الإسلام ومبادئه.

كما كان أعظمهم شجاعة وكانت معه زوجته أسماء بنت عميس وحين أزمع
جعفر على الرحيل مع المهاجرين خرج النبي لتوديعه ودعا له بهذه الكلمات: (اللهم
الطف به في تيسير كل عسير فإن تيسير العسير عليك سهل يسير، أسألك المعافاة في
الدنيا والآخرة).

وعندما رأت قريش أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمانوا بأرض الحبشة
قرر زعماءهم أن يبعثوا في طلبهم رجلين قديرين إلى النجاشي لكي يردوا المهاجرين
فمارسوا معهم من جديد الفتنة والاضطهاد واتجه الوفدان عمرو بن العاص وعبدالله
بن أبي ربيعة إلى الحبشة وهما يحملان الهدايا للنجاشي ولبطارقتة، وحين رأى أبو
طالب ذلك فلم يكن مكتوف الأيدي حتى بعث للنجاشي أبياتا يحثه فيها على حسن
جوارهم والدفاع عنهم قائلاً له:

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر	وعمره وأعداء العدو الأقارب
فهل نال أفعال النجاشي جعفرًا	وأصحابه أو عاق ذلك شاغب
تعلم أبيت اللعن أنك ماجد	كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلم بأن الله زادك بسطة	وأسباب خير كلها بك لازب
وأنتك فيضٌ ذو سجال غزيرة	ينال الاعادي نفعها والأقارب

وحط عمرو بن العاص وصاحبه رحالهما بالحبشة، وقابلا الزعماء من القساوسة
والبطارقة ونثرا بين أيديهم الهدايا التي حملها إليهم. ثم أرسلوا للنجاشي هداياه
ومضيا يوغران صدور القساوسة والأساقفة ضد المسلمين المهاجرين ويستجدان بهم
لحمل النجاشي على إخراجهم من بلاده.

وكان عمرو بن العاص قد أفتق البطارقة (وهم قواد الجيش) بأن هذا الدين الجديد
سيقتضي على نصرانيتهم إذا ما سمحوا له بالانتشار، واتفق معهم على أن يقتنعوا

الملك بتسليم هؤلاء المهاجرين الى قومهم ولا يكلمهم فإن قومهم أعلم بهم وأعلم بما عابوا عليهم.

وتحدد يوم اللقاء مع النجاشي وفي مجلسه الذي يسوده الهدوء والوقار، جلس النجاشي على كرسيه العالي تحف به الأساقفة ورجال الحاشية وجلس أمامه المسلمون المهاجرون تزدانهم السكينة ويطمئنهم الإيمان بوعده سبحانه وتعالى. وعندها اتجه عمرو ورفيقه الى النجاشي وعرضا عليه طلبهما بتسليمهما المهاجرين، وقالت البطارقة من حوله صدقاً أيها الملك، قومهم أعلم بما عابوا عليهم فسلمهم إليهما.

غضب النجاشي وقال: لا والله إذن لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى اوعدهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم فإن كانوا كما يقولون أسلمهم إليهما، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

وما لبث النجاشي أن سأل المهاجرين عن طبيعة الدين الذي دفعهم الى مفارقة قومهم، فتقدم جعفر بن أبي طالب للدفاع عن دين الله ورسوله الكريم ليؤدي المهمة التي كان رسول الله ﷺ قد اختاره لها وبكل هدوء ورباطة جأش، قال:

أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثنان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصللة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات.

وأمرنا ان نعبده وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وأمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله تعالى، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول الأكرم ﷺ عن الله تعالى فقال له: هل معك مما أنزل على رسولكم شيء؟

قال جعفر: نعم، قال أي شيء: فاقراه عليّ، وانبرى جعفر يتلو عليه آيات من سورة مريم بكل خشوع فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى

أخضلت مصاحفهم، ثم أخذ يكفكف دموعه ويقول لمبعوثي قريش: إن هذا والذي جاء به عيسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما.

لكن عمرو بن العاص لم ييأس وعاد الى النجاشي ليجرب حظه العاثر مرة أخرى، قائلاً له: إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فسلمهم عما يقولون فيه فاستدعاهم وسألهم، فأجابه جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا عليه السلام هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول.

فتناول النجاشي عوداً، وقال: والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود، ثم التفت صوب حاشيته وقال وسبابته تشير الى مبعوثي قريش: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها. فغادر عمر ورفيقه أرض الحبشة عائدتين الى مكة خاسنين. وخرج المسلمون بزعامه جعفر ليستأنفوا حياتهم الأمانة في الحبشة لابنتين فيها حتى يأذن الله لهم بالعودة الى رسولهم وإخوانهم وديارهم.

النجاشي يُسلم: أثر محاولة قريش الفاشلة لاسترجاع المهاجرين تعززت مكانة المسلمين المهاجرين ولاسيما جعفر بن عبدالمطلب رضوان الله عليه عند النجاشي، حيث تجلت شخصيته الرصينة ومنطقه الفياض وحسن أدبه وأخلاقه، أخذ النجاشي يلتقي بجعفر بين الحين والآخر فتجلى له في كل يوم ملكاته وخصائصه العالية أكثر فأكثر، فرأى النجاشي فيه صورة مثلى متجسدة للدين الإسلامي، ولا عجب في هذا فشهادة النبي عليه السلام صريحة بحقه لما قال له: (يا جعفر أشبهت خلقي وخلقي).

استطاع جعفر بما أوتي من منطق رصين ورجاحة عقل ان يجذب النجاشي الى الإسلام، وما هي إلا فترة يسيرة حتى أسلم النجاشي، ولكنه كتم إسلامه لئلا يبطش به قومه ويثورون عليه.

ومرت سنين على جعفر رضوان الله عليه وأصحابه في الحبشة وكانت الأخبار تترى عليهم بانتشار الإسلام وتوطيد أركانه بعد أن تجاوز مرحلة الخطر وأصبح له كيان في المدينة وكانوا يتابعون انباء الانتصارات واحدة تلو الأخرى وقد امتلأت نفس جعفر روعة بما سمع من انباء إخوانه المؤمنين الذين خاضوا تلك المعارك المظفرة وكان يتلهف شوقاً الى إخوانه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكان ينتظر الشهادة ليلتحق بذلك الركب المبارك وفعلاً أقبل من الحبشة سنة ٧ للهجرة، بالوقت الذي كان الرسول عليه السلام يعيش فرحة الانتصارات على أعداء الله بعد أن فتح خيبر.

ولما رآه النبي عليه السلام استبشر بقدومه وضمه إليه وقبل ما بين عينيه، وقال: (ما أدري بأيهما أسر بقدوم جعفر أم بفتح خيبر).

ولعل من أصح الروايات الواردة عن الهجرة الى الحبشة ما رواه الخاصة والعامّة عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث قالت:

(لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا إليها أرسالا حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار الى خير جار، أمنا على ديننا ولم نخش منه ظلماً).

فلما رأت قريش أن قد أصبنا داراً وأمناء، أجمعوا على أن يبعثوا إليه فينا ليخرجنا من بلاده وليردنا عليهم، فبعثوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة فجمعوا له هدايا ولبطارقتة، فلم يدعوا منهم رجلاً إلا هيوؤوا له هدية على ذي حدة، وقالوا لهما إدفعا الى كل بطريق هديته قبل أن تكلموه فيهم، ثم ادفعوا إليه هداياه، وإن استطعتم أن يردهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا.

فقدما عليه فلم يبق بطريق من بطارقتة إلا قدموا إليه هديته وكلموه وقالوا له: انا قدما على هذا الملك في سفهاء من سفهائنا فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم فيهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل، فقالوا: نفعل ثم قدما الى النجاشي هداياه، وكان أحب ما يهدى اليه من مكة الأدم. فلما أدخلوا عليه هداياه قالوا له:

أيها الملك إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا الى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم أبأؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً.

فقال بطارقتة: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم كانوا هم أعلى بهم عيناً، فإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم بذلك، فغضب ثم قال: لا لعمر الله لا أردهم عليهم حتى ادعوهم وأكلمهم، وانظر ما أمرهم؟ قوم لجأوا الى بلادي واختاروا جوارى على جوار غيري، فإن كانوا كما يقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم ولم أخلّ بينهم وبينهم ولم انعمهم عيناً.

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم، ولم يكن شيء أبغض الى عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة من أن يسمع كلامهم، فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم فقالوا: ماذا تقولون؟ فقالوا: وماذا نقول؟ نقول والله ما نعرف وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما كان.

فلما دخلوا عليه كان الذي كلمه منهم جعفر بن أبي طالب فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي انتم عليه، فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

فقال جعفر: أيها الملك، كنا قوماً على الشرك نعبد الاوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقته وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم ولا نعبد غيره.

فقال: هل معك شيء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله.

فقال له جعفر: نعم، قال: هلم فأتني علي ما جاء به فقرا عليه صدراً من كهيعص، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين، لا والله لا أردهم عليكم ولأنعمنكم عيناً.

فخرجا من عنده، وكان أتقى الرجلين فيهما عبدالله بن أبي ربيعة، فقال له عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

فقال له عبدالله بن أبي ربيعة: لا تفعل فإنهم وإن كانوا خالفونا، فإن لهم رحماً ولهم حقاً. فقال: والله لأفعلن، فلما كان الغد دخل عليه فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسئلهم عنه، فبعث إليهم ولم ينزل بنا مثلها، فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟ فقالوا: نقول والله الذي قاله فيه والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه.. فدخلوا عليه وعنده بطارقتة، فقال: ما تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال له جعفر: نقول هو عبدالله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فدلى النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عويداً بين أصبعيه فقال: ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود.

فتناخرت بطارقتة فقال: وإن تناخرتم والله، إذهبوا فإنتم سيوم بأرضي- والسيوم الأمنون- ومن سبكم غرّم (ثلاثاً)، ما أحب أن لي دبيراً وأني أذيت رجلاً منكم - والدببير بلسانهم الذهب- فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي، فأخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه. ردوا عليهما هدايها ما فلا حاجة لنا بها، وأخرجنا من بلادنا فخرجنا مقبوحين مردود عليهما ما جاء به.

فأقمنا مع خير جار في خير دار، فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبيشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد منه فرقاً أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرف، فجعلنا ندعو الله ونستنصره للنجاشي، فخرج إليه سائراً، فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض: من رجل يخرج فيحضر الواقعة حتى ينظر على من تكون؟

فقال الزبير: وكان من أحدثهم سناً: أنا، فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، ثم خرج يسبح عليها في النيل حتى خرج من شقه الأخرالى جنب التقاء الناس، فحضر الواقعة فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي عليه، فجاءنا الزبير فجعل يلمح إلينا بردانه ويقول: ألا أبشروا فقد أظهر الله النجاشي.

فوالله ما علمنا فرحنا بشئ قط فرحنا بظهور النجاشي، قالت أم سلمة والكلام لا زال لها: ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوه ومكن له في بلاده واستوسق عليه أمر الحبيشة، فكنا عنده في خير منزل، حتى قدمنا على رسول الله/ دخائر العقبى، وسيرة ابن إسحاق، وابن هشام..

كما رواه في إعلام الوری: وفيه احتجاج جعفر: (فقال: أيها الملك سلهم أنحن عبيد لهم؟ قال عمرو: لا، بل أحرار كرام. قال: فسلمهم ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟

قال: لا، ما لنا عليهم ديون. قال: فلهم في أعناقنا دماء يطالبوننا بذحولها؟ قال عمرو بن العاص: لا، ما لنا في أعناقهم دماء ولا نطالبهم بذحول.

قال: فما تريدون منا؟ قال عمرو: خالفونا في ديننا ودين آبائنا، وسبوا أهنتنا، وأفسدوا شباننا، وفرقوا جماعتنا، فردهم إلينا ليجتمع أمرنا.

فقال جعفر: أيها الملك خالفناهم لنبي بعثه الله فينا، أمرنا بخلع الأنداد، وترك الاستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصلاة والزكاة، وحرّم الظلم والجور وسفك الدماء بغير

حلها، والزنا والربا والميتة والدم، وأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى. فقال النجاشي: بهذا بعث الله عيسى بن مريم).

وأرسلت قريش ابن العاص مرتين الى النجاشي، وكتب الرسول المصطفى ﷺ وأبو طالب ﷺ، وكان كتابه ﷺ الى النجاشي الاول من مكة:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي الأصحم ملك الحبشة: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك الى الله وحده لا شريك له، والموالاتة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي، وبالذي جانني فإني رسول الله، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرأ ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقر ودع التجبر، وإني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا.. والسلام على من اتبع الهدى).

وذكر أن النجاشي إسم لملك الحبشة كقيصر وكسرى، وإسم ذلك النجاشي أصحمة وهي بالحبشية بمعنى عطية، ثم روى كتاب أبي طالب ﷺ الى النجاشي. وقال ابن هشام عن رسالة أبي طالب ﷺ: (قال أبو طالب حين رأى ذلك من رأيهم وما بعثوهما فيه أبياتاً للنجاشي يحضه على حسن جوارهم والدفاع عنهم) والتي جاء فيها:

الا لبيت شعري كيف في النأي جعفر وعمرو وأعداء العدو الأقارب
وهل نال أفعال النجاشي جعفرا وأصحابه أم عاق ذلك شاغب
تعلم أبيت اللعن أنك ماجد كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلم بأن الله زادك بسطة وأسباب خير كلها بك لازب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعداء نفعها والأقارب

ويدعوه في ثانيهما الى الإسلام كما جاء فيه من قوله:

تعلم ملك الحبش أن محمدا نبى كموسى والمسيح ابن مريم
أتى بالهدى مثل الذي أتيا به فكل بأمر الله يهدي لمعصم

وأنكم تتلونونه في كتابكم بصدق حديث لا حديث المرجم

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا فإن طريق الحق ليس بمظلم

وأنك ما يأتيك منا عصابة بفضلك إلا أرجعوا بالتكرم

وروي ان النجاشي أسلم على يد جعفر وكتب الى النبي ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم، الى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر: سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته من الذي لا إله إلا هو الذي هداني للإسلام، بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فو رب السماء والأرض أن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروفاً (عرق التمرة)، أنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادق مصدق، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن أتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله).

وكتب النجاشي إسلامه عن بطارقتة ووزرائه خوفاً من معارضيته ومن هرقل، أما الرسالة التي حملها اليه الضمري من النبي ﷺ فكانت في السنة السادسة عندما راسل ملوك العالم. وهي غير رسالته التي أرسلها اليه بيد جعفر.

وتقدم قول النجاشي في رسالته الى النبي ﷺ: (وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن أتيك فعلت). وهذا يدل على ان وزراءه رؤساء القبائل الذين رسمهم الروم بطارقة، لم يستجيبوا له، وأنه كان يخشى منهم ان أعلن إسلامه.. فعرض على النبي ﷺ أن يترك ملك الحيشة ويأتيه، فأمره أن يبقى وأمر جعفر بن أبي طالب أن يبقى عنده ويساعده. أما ابنه (أرها) الذي أرسله فلعله أبو نيزر وكيل علي عليه السلام في استنباط عيون ينبع، وقد سمي علي عليه السلام أكبرها باسمه: (عين أبي نيزر).

وجاء في مناظرة الإمام الحسن عليه السلام مع ابن العاص (كتاب الإحتجاج) قوله عليه السلام: (وأما انت يا عمرو بن العاص الشاني اللعين الأبتري.. ثم كنت في كل مشهد يشهده رسول الله ﷺ من عدوه أشدهم له عداوة وأشدهم له تكذيباً، ثم كنت في أصحاب السفينة الذين أتوا النجاشي في الإشاطة بدم جعفر بن أبي طالب وسائر المهاجرين، فحاق المكر السيئ بك، وجعل جدك الأسفل، وأبطل أمنيته وخيب سعيتك، وأكذب أحدثتك، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا).

لقد كانت الحبشة او اثيوبيا، قاعدة حكم إفريقيا للروم، وكانت تدار من مصر، وقد نشر الرومان فيها المسيحية، وتعاضمت قوة الحبشة حتى احتلت اليمن وبنى أبرهة الحبشي حاكم اليمن من قبل الروم كنيسة في صنعاء ليصرف اليها العرب بدل الكعبة، وقصد بجيشه مكة ليهدم الكعبة فكانت قصة أصحاب الفيل عام ولادته ﷺ.

وبعدها بسنتين تمكن سيف بن ذي يزن بمساعدة الفرس من تحرير اليمن من الحبشة، فضعفت دولة الحبشة ونشب الصراع الداخلي فيها حتى تولى النجاشي أصحمة حكمها، وكان عاقلاً عادلاً فوقف تدهور الدولة.

وبعد وفاة النجاشي عاد الصراع الداخلي وضاعت الأمور على أهل الحبشة فإرسلوا الى ابن النجاشي، وكان أرسله والده الى النبي ﷺ، يطلبون منه العودة لتتويجه عليهم فلم يقبل، لأنهم أرادوا ان يرجع عن الإسلام.

ففي معجم البلدان: (عين أبي نيزر.. روى يونس عن محمد بن إسحاق بن يسار أن أبا نيزر الذي تنسب إليه العين هو مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان ابناً للنجاشي ملك الحبشة الذي هاجر إليه المسلمون لصلبه، وأن علياً وجده عند تاجر بمكة فاشتراه منه وأعتقه مكافأة بما صنع أبوه مع المسلمين حين هاجروا إليه).

وذكروا أن الحبشة مرج عليها أمرها بعد موت النجاشي وأنهم أرسلوا وقدأ منهم الى أبي نيزر وهو مع علي ليملكوه عليهم ويتوجوه ولا يختلفوا عليه، فأبى وقال: ما كنت لأطلب الملك بعد أن من الله علي بالإسلام، قال: وكان أبو نيزر من أطول الناس قامته وأحسنهم وجهاً، وقال: ولم يكن لونه كألوان الحبشة ولكنه إذا رأيته قلت هذا رجل عربي.

قال المبرد: كان أبو نيزر من أبناء بعض الملوك الأعاجم، قال: وصح عندي بعد أنه من ولد النجاشي فرغب في الإسلام صغيراً فأتى رسول الله ﷺ وكان معه في بيوته، فلما توفي رسول الله ﷺ صار مع فاطمة وولدها رضي الله عنهم// معجم البلدان: ١٧٥/٤.

وفي سيرة ابن إسحاق: (رأيت أبا نيزر بن النجاشي فما رأيت رجلاً قط عربياً ولا عجمياً، أعظم ولا أطول ولا أوسم منه، وجده علي بن أبي طالب مع تاجر بمكة، فإبتاعه منه وأعتقه، مكافأة للنجاشي لما كان ولي من أمر جعفر وأصحابه، فقلت

لأبي: أكان أبا نيزر أسود كسواد الحبشة؟ فقال: لو رأيته لقلت رجل من العرب). ولأنقبل قولهم ان علياً عليه السلام اشتراه كغلام، بل يبدو انه الذي أرسله والده لنصرة النبي صلى الله عليه وآله فكان حليفه، ثم حليف علي عليه السلام سيرة ابن إسحاق: ٢٠٢/٤.

وروت المصادر مراسلات بين النبي صلى الله عليه وآله والنجاشي، وانه كان بينهما هدايا متبادلة فمن ذلك: (أهدى النجاشي الى رسول الله قارورة من غالية، وكان اول من عمل له الغالية) // عمدة القاري: ١٦٨/١٣.

أهدى ملك الروم الى النبي صلى الله عليه وآله جبة سندس فبعث بها الى جعفر وقال: أعطها الى أخيك النجاشي/ لسان العرب: ٣٤٣/١٠، الطبقات: ٤٥٦/١، وأبو داود: ٢٥٨/٢.

أهدى النجاشي الى رسول الله صلى الله عليه وآله بغلة فكان يركبها/ عيون الأثر: ٤١١/٢. أهدى له النجاشي خفين أسودين ساذجين فلبسهما. وأهدى له خاتماً من ذهب فدعا أمانة ابنة ابنته زينب فقال: تحلي بهذا يا بنية/ المناقب: ١٤٧/١، وابن ماجه: ١٨٢/١.

أرسل النجاشي مع جعفر: (بقدر من غالية وقطيفة منسوجة بالذهب هدية الى النبي صلى الله عليه وآله فقدم جعفر والنبي بأرض خيبر، فأناه بالقدح من الغالية والقطيفة فقال النبي صلى الله عليه وآله: لأدفعن هذه القطيفة الى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. فمد أصحاب النبي أعناقهم إليها، فقال النبي: يا علي خذ هذه القطيفة إليك. فأخذها علي وأمهل حتى قدم الى المدينة فانطلق الى البقيع وهو سوق المدينة، فأمر صائغاً ففصل القطيفة سلكاً سلكاً فباع الذهب، وكان ألف مثقال ففرقه علي في فقراء المهاجرين والأنصار، ثم رجع الى منزله، ولم يبق له من الذهب قليل ولا كثير) // دلائل الإمامة/ ١٤٤.

وأهدى له النجاشي حربة: (فكان بلال يحملها بين يديه يوم العيد، ويخرج بها في أسفاره فتركز بين يديه يصلي إليها. ويقولون هي تحمل المؤذنين بين يدي الخلفاء) // المناقب: ١٤٧/١. وصارت الحربة في رواياتهم ثلاثة للزبير وعمر وعلي (فأما حربة علي فهلكت، وأما حربة عمر فصارت الى أهله، وأما الحربة التي أمسك لنفسه، فهي التي يمشي بها مع الامام يوم العيد) // تاريخ المدينة: ١٣٩/١.

وأهدى له النجاشي حلة مثل العباءة فأعطاهما لعلي عليه السلام وكان يصلي فيها فجاءه سائل، فطرح الحلة إليه واومى بيده أن يحملها/ حلية الأبرار: ٢٧٩/٢.

وبعث النبي صلى الله عليه وآله للنجاشي عوذة للصداع يضعها في قنصوته/ مكارم الأخلاق/ ٤٠٣.

وأهدى النجاشي الى النبي ﷺ النجاشي اواقاً من مسك وحلة، وإنى لا أراه إلا قد مات، ولا أرى الهدية التي أهديت إليه إلا سترد فإذا ردت فهي لك، فكان كما قال ﷺ، فلما ردت إليه الهدية أعطى كل امرأة من نسائه اوقية من ذلك المسك، وأعطى سائرهم أم سلمة // الطبراني: ٨١/٢٥.

وروي أن رسول الله ﷺ لما أتاه جبرئيل بنعي النجاشي بكى بكاء حزينا عليه وقال: إن أخاكم أصحمة - وهو اسم النجاشي - مات، ثم خرج الى الجبانة ودعا له.

وفي المناقب: (فقال المنافقون في ذلك، فجاءت الأخبار من كل جانب أنه مات في ذلك اليوم في تلك الساعة، وما علم هرقل بموته إلا من تجار راوا المدينة) // المناقب: ٩٣/١.

دور جعفر بن أبي طالب ﷺ المتميز في الحبشة:

لم يكن جعفر بن أبي طالب ﷺ بحاجة الى الهجرة، لأنه مع شجاعته، محمي من أبيه وعشيرته، بل هو يحمي ويجبر. كما أن إدارة أمور المهاجرين يمكن أن يقوم بها أحدهم، وفيهم شخصيات كخالد بن سعيد بن العاص.

وإنما أرسله النبي ﷺ معهم وأبقاه في الحبشة الى السنة السابعة للهجرة لإدارة جبهة الروم في الدعوة، وقد كانت الحبشة قاعدة الروم في إفريقيا، وهذا يفسر لنا قول النبي ﷺ عن جعفر: إنه في جهاد الله بأرض الحبشة.

ففي تفسير القمي: (نظر رسول الله ﷺ الى عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب وكان له سبعون سنة، فقال عبيدة: أما لو كان عمك حياً لعلم أنني اولى بما قال منه، قال: وأي أعمامي تعني؟ قال: أبو طالب، حيث يقول:

كذبتم وبيت الله نُبزي محمداً ولما نطاعن دونه وناضل

وننصره حتى نُصرع حوله ونذهلَ عن أبنائنا والحلال

فقال رسول الله ﷺ: أما ترى ابنه كالليث العادي بين يدي الله ورسوله، وابنه الآخر في جهاد الله بأرض الحبشة؟ فقال: يا رسول الله أسخطت علي في هذه الحالة؟ فقال: ما سخطت عليك، ولكن ذكرت عمي فإنقبضت لذلك.

وهذا يكشف عن مكانة أبي طالب رضوان الله عليه عند النبي ﷺ فقد تأذى لمجرد تعريض ابن عمه عبدة به وتفضيله نفسه عليه مع أنه جاهد وقطعت رجليه ثم استشهد رضوان الله عليه، ومع ذلك قال له لا تؤذني في عمي فقد نصرني أكثر منك في حياته، وهاهما ولداه ينصراني أكثر منك، هذا علي كالليث بين يدي الله ورسوله، وذاك جعفر في أرض الحبشة كل أوقاته جهاد لله تعالى.

فقد كان جعفر إذن في مهمة جهاد، يرعى شؤون المهاجرين ونشاطهم، ويوجه النجاشي في علاقته مع الروم وسياسته الداخلية مع البطارقة وهم ملوك الحبشة في مناطقهم، وكانت الحبشة تمتد من حدود اليمن الى حدود مصر وتشمل السودان، وكان جعفر يزور البطارقة ويدعوهم الى الإسلام وجاء منهم بوفود الى مكة للقاء النبي ﷺ ومشاهدة معجزاته، ولم تجرؤ قريش على التعرض له ولضيوفه.

ففي تفسير القمي: (ولد للنجاشي ابن فسماه محمداً، وبعثه الى النبي ﷺ بثياب وطيب وفرس، وبعث ثلاثين رجلاً من القسيسين فقال لهم: انظروا الى كلامه والى مقعده ومشربه ومصلاه، فلما وافوا المدينة دعاهم رسول الله ﷺ الى الإسلام وقرأ عليهم القرآن، فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ بكوا وأمنوا ورجعوا الى النجاشي فأخبروه خبر رسول الله، وقرأوا عليه ما قرأ عليهم، فبكى النجاشي وبكى القسيسون).

وفي تفسير الطبري: في قوله تعالى: وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إنا نَصَارَى.. قال: (هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة).

ثم روى الطبري أن النجاشي بعث الى النبي ﷺ: (اثني عشر رجلاً من الحبشة، سبعة قسيسين وخمسة رهباناً ينظرون إليه ويسألونه، فلما لقوه فقرأ عليهم ما أنزل الله بكوا وأمنوا، فأنزل الله عليه فيهم: ذَلِكَ بَانَ مِنْهُمْ قَسِيْسِيْنَ وَرُهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ). فآمنوا ثم رجعوا الى النجاشي فهاجر النجاشي معهم، فمات في الطريق، فصلى عليه رسول الله والمسلمون واستغفروا له).

وفي تفسير القرطبي: (قوله تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ: وهم أربعون رجلاً، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى: منهم بحيراء الراهب

وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع. كذا سماهم الماوردي// تفسير القرطبي: ٢٩٦/١٣.

وقال ابن إسحاق: (ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين ظهر خبره في الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه فكلّموه وساءلوه، ورجال من قريش في انديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ الى الله وتلى عليهم القرآن فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا: خبيكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تظمن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم ركباً أحق منكم، او كما قالوا لهم. فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألو انفسنا خيراً).

ثم روى ابن إسحاق، أن النجاشي بعث الى النبي ﷺ اثني عشر رجلاً يسألونه ويأتونه بخبره، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن فبكوا وكان فيهم سبعة رهبان وخمسة قسيسين او خمسة رهبان وسبعة قسيسين، ففيهم أنزل الله: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) // تفسير القرطبي: ٢٥٥/٦، وتفسير ابن كثير: ٤٠٥/٣، وابن هشام: ٢٦٣/١، والصحيح من السيرة: ٢١٥/٣.

كما تشير هذه الروايات وغيرها الى أن جعفرًا ﷺ ذهب الى النجاشي قبل البعثة وأن النجاشي أرسل عدداً من القسيسين والرهبان ليروا النبي ﷺ وبراهينه، وأن جعفرًا أتى بوفود من علماء النصارى من الحبشة ونجران وبلاد الشام، الى مكة، والتقوا برسول الله ﷺ وأسلم عدد منهم، وعاد جعفر الى الحبشة.

بل ورد أن علياً ﷺ سافر مرة الى الحبشة مع جعفر، فقد كان النبي ﷺ يرسله في مهمات خاصة غير معلنة.

وروي في المناقب عن ابن عباس قال: (وَالسَّابِقُونَ الْاَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: نزلت في أمير المؤمنين (عليه السلام) سبق الناس كلهم بالإيمان، وصلى الى القبلتين، وباع البيعتين بيعة بدر وبيعة الرضوان، وهاجر الهجرتين مع جعفر من

مكة الى الحبشة ومن الحبشة الى المدينة)) مناقب آل أبي طالب: ٢٨٩/١. ومعناه أن هذه السفارة كانت بعد هجرة علي عليه السلام الى المدينة، وأن جعفرأ جاء من الحبشة.

وتدل أحاديث جعفر في الحبشة على حدوث تيار للدخول في الإسلام، في قساوسة الحبشة والجزيرة والشام ومصر، ولا بد أن يكون إسلامهم مؤثراً على أتباعهم، وبه نفس ردة فعل الروم القوية ضد النجاشي وضد النبي صلى الله عليه وسلم، لكنهم كانوا مشغولين بمعاركهم مع الفرس في سوريا وفلسطين ومصر.

كما نلاحظ في الحبشة ثورة خصوم النجاشي من وراء النيل لإسقاط حكمه، وكانت حركتهم قوية وجيشهم كبيراً كما وصفته أم سلمة، وقد طلب المهاجرون من النجاشي أن يقاتلوا معه فلم يقبل.

وفي السيرة الحلبية: أن عمرو بن العاص أخبر جيفر بن الجلندي ملك عُمان بإسلام النجاشي فسأله: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه، قال: والأساقفة أي رؤساء النصرانية والرهبان؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ماتقول، أنه ليس من خصلة في رجل أفصح له أي أكثر فضيحة من كذب، قلت: وما كذبت وما نستحله في ديننا. ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي/ السيرة الحلبية.

والظاهر أن النجاشي لم يعلن إسلامه إلا في نطاق محدود، وأن هرقل عرف بإسلامه لكنه كان مشغولاً بحربه للفرس، وحرك ضد النجاشي من استطاع من الملوك (البطارقة) فقاتلوا النجاشي فنصره الله عليهم.

الحصار وصحيفة المقاطعة وشعب أبي طالب:

لا بد من التعرض للحصار الظالم ولصحيفة المقاطعة التي فرضتها قريش على كل من أسلم وأمن بنبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

لقد رفض الرسول صلى الله عليه وسلم كل ما عرضوه عليه من مقترحات ومساومات واغراءات؛ ليكف عن دعوته الإسلامية وأبى أن يساوموه على عقيدته ودينه، وكذلك فشلت كل المفاوضات مع أبي طالب ليكف عنهم ابن أخيه اويخلي بينهم وبينه.

وأخذ الإسلام ينتشر بين الناس في القبائل العربية وأطرافها، وأخذت زعامة قريش تضعف وتترجع أمام مد الرسالة الإسلامية الخاتمة، وأخذت قريش تفقد مبادرتها وسيطرتها على الموقف العام، وقد اعترز الإسلام بحمزة بن عبدالمطلب

وجعفر وعلي بن ابي طالب عليهما السلام بفتوته مدافعا عن ابن عمه الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعن دعوته الإسلامية، ومناصرة بني هاشم وبني عبدالمطلب.

وهذا النجاشي يفتح بلاده لمن يهاجر من المسلمين، ويؤمن كل من يلجأ إليه منهم، ويأبى أن يسهم أذى في جواره، فأخذ الحقد والحسد يدب في قلوب المشركين وخوفهم من اتساع الدعوة وانتشارها، وأحسوا بالخطر المحقق بهم على زعامتهم ومصالحهم وأن جميع جهودهم وبطشهم ومقاومتهم للإسلام ولرسوله قد باءت بالفشل.

وبدأت قريش تتأهب لجولة حاسمة، ولمح أبو طالب نذر الشر فدعا عشيرته الأقربين للدفاع عن الرسول الأكرم والصادق الأمين صلى الله عليه وسلم والقيام دونه، فأجابوه إلا أبا لهب، عبد العزى ابن عبدالمطلب بن هاشم. لكن قريشا وقد عيل صبرها من صبر المسلمين وكرهت أن تخوض حربا مسلحة مع آل عبدالمطلب وبني هاشم وهم من صميمها، لذا حاولت قريش أن تقوم بعمل جديد غير أسلوب الإرهاب والتعذيب والضغط، فلجأت الى الحصار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ضد أبي طالب والهاشميين، وهذا الحصار لا يخلو نجاحه بوحدة من ثلاث حالات:

- ١- إما أن يستسلم المحاصرون لمطالبها في تسليم الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم لها لتقتله.
- ٢- وإما أن يتراجع الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم عن دعوته.
- ٣- وإما أن يموتوا جميعا جوعا وذلا.. وهذا الإجراء يرفع المسؤولية عن الفرد المحدد، فتكون مسؤوليته جماعية عامة.

لذا قرروا هذا الرأي بعد اجتماع مشيخة قريش في دار الندوة وتداولوا الآراء مع شياطينهم وقلبوا الأمور لمعرفة عواقبها، فاتخذوا قرارا بالإجماع أن يكتبوا صحيفة مقاطعة بني هاشم ويودعوها في الكعبة بشروط قاسية وملزمة لكل من قريش وكنانة ومن تابعهم وهي كالتالي:

(أن لا يبايعوا بني هاشم ولا يشاوروهم، ولا يحدثوهم، ولا يجتمعوا معهم، ولا يناكحوهم ولا يقضوا لهم حاجة ولا يعاملوهم حتى يدفع بنو هاشم إليهم محمدا فيقتلوه، او يخلوا بينهم وبينه او ينتهي من تسفيه أحلامهم).

لقد وقع على هذه الصحيفة أربعون زعيما من وجوه قريش وكنانة، وختموها بأختامهم، وعُلقت هذه الوثيقة في الكعبة، وكان ذلك في سنة سبع من البعثة على أشهر الروايات.

ولما علم أبو طالب بصحيفة المقاطعة لم يأل جهدا فقام إليهم يحذرهم الحرب، وقطيعه الرحم، وينهاهم عن اتباع السفهاء، ويعلمهم استمراره على موازنة رسول

الله ﷻ بكل ما يستطيع من قوة ويذكرهم بفضلهم وشرفه، ويضرب لهم المثل بناقاة صالح، ويذكرهم بإلغاء أمر الصحيفة بقوله:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا لؤيا وخصا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا نبيا كموسى خط في أول الكتب
وأن عليه في العباد محبة ولا حيف فيمن خصه الله بالحب
وأن الذي لفقتم في كتابكم يكون لكم يوما كراغية السقب
أفبقوا أفبقوا قبل أن يحفر الزبي ويصبح من لم يجن ذنبا كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الغواة وتقطعوا اواصرنا بعد المودة والقرب

الى آخر الأبيات المذكورة في ديوان أبي طالب وفي كتاب إيمان أبي طالب للإمام شمس الدين بن معد المتوفى سنة ٦٣٠ هجرية.

ودخل بنو هاشم الشعب (شعب أبي طالب) ومعهم بنو المطلب بن عبد مناف باستثناء عبد العزى (أبي لهب) واستمروا فيه الى السنة العاشرة، وكانوا ينفقون من أموال السيدة خديجة بنت خويلد، وأموال أبي طالب عليه السلام نفدت.

ولقد اضطروا بعدها الى أن يقاتوا بورق الشجر، وكان صبيبتهم يتضورون جوعا، وظل المسلمون في شعب أبي طالب يقاسون الجوع والحرمان لا يخرجون منه إلا في أيام الموسم، موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة، فكانوا يشتررون حينئذ ويبيعون ضمن ظروف صعبة جدا.

وكان علي بن أبي طالب عليه السلام يأتيهم بالطعام سرا من مكة، من حيث تمكن، وقد كان يأتيهم سرا من أناس كانوا مرغمين على مجارة قريش كهشام بن عمرو أحد بني عامر، الذي كان يأتي بالبعير بعد البعير ليلا محملا بأنواع الطعام والتمر الى فم الشعب، فإذا انتهى به الى ذلك المكان نزع عنه خطامه وضربه على جنبه، فيدخل الشعب بما عليه.

ولكن تلك الصلات البسيطة لم تكن لتكفيهم، والسيدة خديجة رضوان الله عليها كانت تشاركهم شطف العيش وفاطمة الزهراء عليها السلام صبية في أول عمرها، واستمرت هذه المحنة ثلاث سنين، من السنة السابعة الى العاشرة من البعثة، عند ذلك تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن قصي وسواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم على هذا الحصار الظالم والمقاطعة الجائرة.

وأول من سعى الى نقض الصحيفة والاتفاق، وفك الحصار عن الهاشميين، هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية المخزومي، والمطعم بن عدي، وزمعة بن المطلب بن أسد، والبخترى بن هشام، واتفقوا ان يفدوا الى أنديتهم، ويعلنوا رفض المقاطعة، وإنهاء الحصار.

وجاء في سيرة ابن هشام: أن رسول الله ﷺ قال لعمه أبي طالب: يا عم إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم يدع اسما إلا (باسمك اللهم). فقال: ربك أخبرك بهذا؟

قال: نعم. فخرج أبو طالب الى أندية قريش قبل أن يثير النفر الخمسة اعتراضهم على الحصار والمقاطعة، وقال: يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلّموا الى صحيفتكم.. وقد وجدوها فعلا وكما أخبر ﷺ، وعندها رفع الحصار وخابت مؤامرة المشركين.

عام الحزن وما تبعه من أحداث:

في عام سمي بعام الحزن، وقد رحل فيه عن هذه الدنيا عم الرسول أبو طالب الذي كان حصنه المنيع وناصره الوحيد أمام قريش وغطرستها وزهوها وكبريائها، والذي أرغم أنوفهم وكسر شوكتهم.

لقد حزن عليه الرسول المصطفى ﷺ حزناً شديداً لأنه كان حصنه وناصره وكان يدافع عنه دائماً، كما وأن زوجته الوفيه السيدة خديجة (عليها السلام) وكانت أقرب الناس إليه، فكانت تواسيه في حزنه وكان يحبها حباً شديداً وأنزل الله جبريل (عليه السلام) قبل وفاة خديجة للرسول يقول له يا محمد: إن الله يُقرأ خديجة السلام ويبشرها بقصر من قصب لؤلؤ في الجنة.

ثم توفيت السيدة خديجة ولذلك سماه الرسول عام الحزن؛ لأن عمه أعطاه الصمود وزوجته خديجة اعطته الحب والوفاء والحنان، وكانت اول من آمنت برسالته وقد فقدهما معا وفي نفس السنة.

وعندها أدرك الرسول الأعظم ﷺ أن أذى قريش أخذ يزداد وأن مخطط المشركين ومساعيهم للقضاء على الرسالة الإسلامية لن يتوقف وقد زال الغطاء الامني بوفاة أبي طالب، ولذا أخبره الله عن طريق جبرئيل (أخرج من مكة فقد مات ناصرك).

ولعل الله تعالى قدّر ذلك ليقول لسيدنا محمد ﷺ بأن من كان يحميك الآن قد توفي وأن من كانت تعطيك الحنان الآن قد توفيت أيضا، وها أنت الآن يا محمد بين حب الله تعالى وبين حمايته، أما عن قريش فقد انتهزت عام الحزن واشتد إيذاؤها للرسول المصطفى ﷺ وأصحابه، فخرج بعد ذلك الى الطائف لقبيلة ثقيف ودعاها الى الهداية ولكن هذه القبيلة جاملت قريش وأمرت سفهائها أن يؤنوا محمداً ﷺ فشكا الى الله تعالى مستغيثاً بدعائه المشهور:

(اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس برحمتك أستغيث، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، الى من تكلى؟ الى بعيد يتجهمنى أم الى عدو ملكته امرى؟ أسألك بنور وجهك الكريم الذى أشرقت به الظلمات وصلاح به أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بى غضبك او أن ينزل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك) ، ثم عاد بعدها الى مكة، وبعدها أرسله ربه سبحانه وتعالى الى رحله السعادة والمتعة (رحلة الإسراء والمعراج) .

وبعد أن أرسل الدفعة الاولى بقيادة جعفر بن أبي طالب الى الحبشة لحفظ النواة الاولى للدعوة الإسلامية، وبعد أن منعت تقيف في الطائف دعوة الرسول ﷺ، وكذبوه ورموه بالحجارة وكان ﷺ، ثابت الايمان وكما قال ﷺ مخاطبا ربه: (أن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي).

وأدركت قريش بوادر الخطر عليهم من انتشار الدعوة الإسلامية، فقرروا الاجتماع في دار الندوة، وكان القرار والرأي قتل الرسول الأكرم ﷺ، وأن يتقدم لقتله أربعين رجلا من القبائل فيضيع دمه الشريف بين القبائل، وجاء الأمر الالهي بخروجه من مكة ونزل قوله تعالى: (واذ يمكرك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

فقال ﷺ لعلي عليه السلام: (يا علي إن قريشا اجتمعت على المكر بي وقتلي، وإنى اوحى اليّ عن ربي أن أهجّر دار قومي، فم على فراشي، والتحف ببردي الحضرمي، لتخفي بمبيتك عليهم أثري).

فقال علي عليه السلام: او تسلمن بمبيني هناك يا نبي الله؟ قال ﷺ: نعم.

فتبسم علي عليه السلام ضاحكا وأهوى للارض ساجدا.

وقال علي عليه السلام: أمضي لما أمرت، فذاك سمعي وبصري وسويداء قلبي.

وهكذا استخلفه ليبقى في مكة ليؤدي عن الرسول المصطفى ﷺ ودائعته التي كانت للناس عنده.

دوافع الهجرة

أصدر الرسول ﷺ أوامره الى أصحابه بالهجرة، مختفين متفرقين قدر الإمكان، وتنادى المسلمون من كلّ مكان هلموا الى يثرب، فلم تكن الهجرة تخلصاً من الفتنة والاستهزاء فحسب، بل كانت من أجل التعاون على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن. وأصبح فرضاً على كلّ مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الموطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة - بعد الهجرة إليها - نكوصاً

عن تكاليف الحق، وعن نصره الله ورسوله، فالحياة بها دين، لأن قيام الدين يعتمد على إزازها.

وفتح القرشيون يوماً أعينهم على مكة التي كانت عامرة بأهلها من المسلمين فإذا هي قد أفقرت، والمحال المؤنسة قد أمحلت، وكعادتهم أنحى القرشيون باللائمة على النبي ﷺ، وقد تجلّى ذلك بقول أبي جهل للعباس: هذا من عمل ابن أخيك، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا وقطع بيننا.

ومن الملاحظ أن المهاجرين قد خلفوا وراءهم أموالاً ونساءً وبيوتاً وأطفالاً وشيوخاً ومتاعاً كثيراً، ذلك لأن الهدف الذي هاجروا لأجله أعلى بكثير من كل متاع الدنيا..

قريش تحيك خيوط المؤامرة:

وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأزر إليها، وحصن يحتمي به، وأصبح ذا منعة وقوة وبأس، فتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة في دعوة رسول الله ﷺ، وهو لا يزال في مكة، ولكنه لا بُدّ مدرك أصحابه اليوم أو غداً، فما عليها إلا أن تعجل به قبل أن يغادرها، فاجتمعت زعامات قريش في دار الندوة، وتداولوا في أمر التخلص منه، وطرحوا آراء باعتقال الرسول ﷺ وتكبيله بالأغلال أو بنفيه بعيداً في منقطع الصحراء.

ولكنّ هذه الآراء جوبهت بالرفض لأنها لم تكن ذات جدوى، وأخيراً أخذ برأي أبي جهل الذي قضى بقتله وتفريق دمه بين القبائل، وإن طالبتهم بنو هاشم بدمه فسيشيرون إلى العشائر جميعاً وإلى سيوف أبنائها، حيث تُقطر دماء الرسول، وعندها تكون بنو هاشم أعجز من أن تطالب بدمه وقتال العشائر كلها.

وقد كشف القرآن الكريم خيوط هذه المؤامرة بقوله: (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) // سورة الأنفال: ٣٠. وعزم الرسول ﷺ على ترك مكة إلى المدينة، فلقى الوحي الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل: (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لُدُنِكَ سلطاناً نصيراً) // سورة الإسراء: ٨٠.

وكان الرسول ﷺ ينتظر من الوحي الإشارة بالتحرك بفارغ الصبر، وبالرغم من يقين الرسول ﷺ بالله عزّ وجلّ وبأن الله يرعاه، لكنّه أحكم خطة الهجرة وأعدّ لكلّ فرضٍ عدته، فاختر الإمام عليّ عليه السلام لكي يؤدي مهمة مزدوجة؛ اولها: المبيت على فراش النبي ﷺ وثانيها: ردّ الأمانات إلى أهلها.

ومن الجدير ذكره أن مبيت عليّ عليه السلام على فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة لم يكن المرة الأولى، فلقد بات من قبل مكانه يوم حاصرتهم قريش في شعب أبي طالب،

وكانت يومذاك تفكر في اغتيال النبي ﷺ وتحاول ان تدسّ بعض سفهائها لتنفيذ تلك الفكرة، وأحسّ أبو طالب بمؤامرتها، فأمر بني هاشم بحراسة الشعب ليلاً ونهاراً لتلا يتسلل إليه أحد، فإذا جاء الليل كان يأمر محمّداً ﷺ أن ينام على فراشه في وقت مبكر من الليل لكي يراه الجميع أين ينام، فإذا نام النَّاسُ وهدأت الأنفاس أجلسه ونقله الى فراش آخر بعيداً عن فراشه الاول واضجع أحد أبنائه في مكانه، كما جاء في رواية ابن كثير.

قريش تلاحق الرسول ﷺ:

وجاء في مروية ابن سعد في طبقاته أن النبي ﷺ بينما هو في طريقه الى يثرب عرض له سراقه بن مالك بن خثعم الذي رسخت قوائم فرسه في الأرض، ولكن فرسه لم ينطلق إلا بعد تدخل من قبل رسول الله، وعندما عاد سراقه وجد النَّاسَ يلتمسون رسول الله ﷺ فقال لهم: ارجعوا فقد استبرأت لكم خبره فلم أجد له أثراً، فرحبوا وتابع ركب النبي ﷺ طريقهم يقطعون السهول والجبال والادوية، ويتحملون حرالهجرة ورمال الصحراء وجهد السير خلال سبعة أيام من رحلتهم قطعوا بها القسم الأكبر من المسافة بين مكة والمدينة وأصبحوا في أمان من خطر قريش. وما يلفت النظر، أن انطلاق الرسول ﷺ من مكة شاع بين القبائل العربية وعرف به البدو والحضر على طول الطريق الى يثرب، وكذلك ترامت أخباره وصاحبه الى المدينة، فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم الى الأفق البعيد، ويتشوقون الى مقدمه بلهفة.

السنة الهجرية وهجرة الرسول المصطفى ﷺ:

أن السنة الهجرية تبدأ في الاول من شهر محرم الحرام، أما الهجرة النبوية الشريفة فكانت في شهر ربيع الاول من السنة الهجرية الاولى باتفاق جميع المسلمين، وفي التعريف التفصيلي للسنة الهجرية فإن السنة مقياس زمني معروف ينقسم الى اثني عشر شهراً، وأما الهجرية فهي إشارة الى الهجرة النبوية المباركة من مكة المكرمة الى يثرب المدينة المنورة، ولقد جعل الرسول المصطفى ﷺ سنة هجرته المباركة مبدأ لحساب التاريخ الإسلامي حيث إعتد المسلمون هذا التاريخ في كتبهم ورسائلهم وعقودهم ومعاهداتهم وتاريخهم للحوادث والوقائع منذ السنة الاولى للهجرة أي سنة ٦٢٢ ميلادية وكان ذلك في شهر ربيع الاول للسنة الاولى من حساب السنوات، ويذهب البعض الى ان الهجرة كانت في يوم ٢ او ٨ او ١٢ او ١٧ من شهر ربيع الاول من السنة الهجرية الاولى غير أن الحساب الفلكي الدقيق للتاريخ

المذكور أثبت أن الهجرة كانت في الثاني عشر من ربيع الاول من السنة الاولى للهجرة، وأن السنة الهجرية هي سنة قمرية (هلالية)، تتألف من ٣٥٤ يوما و ٨ ساعات و ٤٨ دقيقة تقريبا، وهي الفترة الزمنية والوقت الذي يستغرقه دوران القمر حول الأرض اثنتي عشرة مرة، وتتألف السنة القمرية من اثني عشر شهرا، وهذه الأشهر هي: محرم، صفر، ربيع الاول، ربيع الآخر (الثاني)، جمادى الاولى، جمادى الآخرة (الثانية)، رجب، شعبان، شهر رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة وهذه الأشهر معروفة في البلاد الإسلامية والعربية وهي المعتمدة في العبادات والأحكام الشرعية كالصيام والحج وغيرهما، كما وأن السنة القمرية هي المعتمدة في الحساب الفقهي للبلوغ وغيره، قال تعالى: (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا) // سورة الأسراء: ١٢.

وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) // يونس: ٥.

وقال أيضا: (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) // سورة البقرة: ١٨٩ فجعل تعالى معرفة السنين والشهور مستفادة من سير القمر وتنقله في منازلها، وذلك من نعم الله على عباده ورحمته بهم، وللتوضيح أكثر فإن حامل الرسالة الإسلامية الغراء سيدنا محمدا ﷺ قد بارح مكة المكرمة مهاجرا قبيل ختام شهر صفر ببضعة أيام في الليالي التي يخبو فيها نور القمر وذلك بعد أن انتظر قدوم فصل الخريف فلم يشأ أن يهاجر مباشرة بعد بيعة العقبة التي تمت في فصل الصيف الحار، ومكث ثلاث ليال في غار ثور متخفيا ثم خرج منه في غرة شهر ربيع الاول قاصدا يثرب التي سميت بعد الهجرة بالمدينة المنورة، ووصل قباء في يوم الاثنين في النصف الاول من شهر ربيع الاول، واستراح هناك أيام الثلاثاء والاربعاء والخميس، وأسس بها اول مسجد في الإسلام الذي نزلت فيه الآية الكريمة: (لمسجد أسس على التقوى من اول يوم أحق أن نقوم فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) // سورة التوبة: ١٠٨.. ثم شرف الرسول الأعظم محمد ﷺ المدينة المنورة يوم الجمعة فكان عيداً للمسلمين.

ولابد من الإشارة لمحبة الرسول المصطفى ﷺ لبلدته التي ترعرع فيها، فقد ورد في الاخبار عندما حانت ساعة الرحيل من مكة وقف على مرتفع وتوجه للبيت العتيق بنظرة حزينة وقال: (والله إنك لأحب أرض الله الى الله، وإنك لأحب أرض الله لي. ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت).

بدء التاريخ الهجري

حدث أيام حكم عمر بن الخطاب عندما أشار الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بأن يكون ابتداء تاريخ الإسلام هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فجعلوه اول محرم تلك السنة، باعتبار أن محرم اول السنة.

وكان دخول الرسول الى (المدينة) في القسم الثالث من حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، التي انقضى شطر منها قبل البعثة، وكانت مدتها أربعين سنة وانقضى الشطر الثاني، بعد المبعث وكان قدره ثلاث عشرة سنة، وفي العام الهجري يعتبر بدء دخوله صلى الله عليه وآله وسلم في الشطر الثالث الذي شاء الله تعالى أن يدوم عشر سنوات ليكون مجموع عمره المبارك ثلاث وستين سنة.

كان الاستقبال حافلاً يوم قدوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، ولما وصل الرسول الى (المدينة) لم ينزل بها، بل بقى خارجها ينتظر قدوم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد عرض على علي عليه السلام أن يبيت في فراشه في مكة، وأمره بأن يرجع الودائع الى أصحابها بعد خروج الرسول من مكة.

وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة الى علي عليه السلام كما جاء في بعض الأخبار، فلما أتاه كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابتاع ركائب لمن معه من النسوة وتهاياً للخروج، وأمر من بقي في مكة من ضعفاء المؤمنين أن يتسللوا ليلاً الى ذي طوى.

وخرج علي عليه السلام بالفواطم، وهن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأم الامام علي وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب، وفاطمة بنت حمزة، كما نصّ على ذلك بعض المؤرخين، وتبعتهم أم أيمن مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو واقد الليثي، فجعل أبو واقد يسوق الرواحل سوقاً حثيثاً، فطلب منه علي عليه السلام يرفق بهن ثم جعل يسوق بهن.

فلما قارب ضجنان أدركه الطلب، وكانوا ثمانية فرسان ملثمين، ولكن علياً عليه السلام وهو ذلك الفتى المضحى والبطل أمام امتحان صعب وعسير وكانت اول معركة يتصدى لها لوحده في ملاقات ثمانية فرسان من فرسان المشركين استطاع أن يقتل فارسهم جناح بضربة يبقى صداها الى يوم الدين، ومنها انهزم الباقون وولوا على ادبارهم خاسئين الى قادتهم وأسيادهم المشركين، ومضى بالسير حتى وصل الى المدينة.

ولا بد من الإشارة لأبعاد هذه المعركة الاولى في جهاد علي عليه السلام ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - أن الامام علي عليه السلام بالقتال بشكل غير متكافئ من حيث العدد فكان لوحده أمام مجموعة من الفرسان كما وأن ظروف المعركة لا تتناسب حيث كان منهمك بالسير وحسب المقاييس فهو منهمك القوى البدنية ايضا.

٢ - لقد كان علي عليه السلام راجلا بينما أعداؤه فرسانا، والمبادرة بيدهم.

٣- لقد كان علي عليه السلام حسب المقاييس الطبيعية قلقا على النساء من كيد الأعداء، ولم يكن مهينا لقتال، بينما أعداؤه كانوا متحمسين لقتله وإرجاع النسوة الى مكة؛ لأن ذلك عار عليهم أن يتركوه في مسيره الى المدينة.

٤ - لقد استطاع الامام أن ينتزع البطولة والأنتصار على الاعداء فينالها بحق وكسب ما يستحق به الاحترام والاعجاب والبطولة الفريدة وهو في بداية شبابه وكانت اول معركة له.

وهكذا لحق علي بالرسول، بعد ثلاثة أيام بعد مسيرة طويلة وشاقة حتى أكلت الأرض من قدميه وقد أدميت من المشي قدماه واستقبله الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم واعتنقه وقبله ومسح الوجع بكفيه على قدميه وشكره على ما قام به في واحدة من أشد ايام المحنة على المسلمين، وقد كان علي لها وهو صاحب الصولات والجولات حقا. ونزل علي عليه السلام حيث نزل الرسول صلى الله عليه وسلم، فأقام النبي صلى الله عليه وسلم هناك يوم الاثنين، والثلاثاء والأربعاء، وأسس هناك مسجد قبا.

ثم ركب ناقته، وتوجه الى (المدينة). فجاءه جماعة من بني سالم وقالوا: يا رسول الله، أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة.

فقال: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة (يريد صلى الله عليه وسلم بذلك عدم التعرض للناقاة، حتى تبرك هي بنفسها) ثم تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم، في طريقه، جماعة من بني بياضة، وطلبوا نزوله، وأجاب بمثل ذلك الجواب وتلقاه صلى الله عليه وسلم في الطريق جماعة آخرون من بني ساعدة، وطلبوا نزوله، وتلقاه بعدهم اناس من بني الحارث، حتى إذا أتت الناقاة الى ما يقرب من دار بني مالك، بركت على باب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو حينئذ (مربد) لعلامين يتيمين، فلم ينزل رسول الله حتى إذا قامت من مكانها، وبركت مرة ثانية نزل الرسول صلى الله عليه وسلم من عليها. واحتمل أبو أيوب رحل الرسول صلى الله عليه وسلم، ووضعها في بيته، ونزل الرسول هناك.

وبقى في بيت أبي أيوب حتى إذا تم البناء الذي بني له بجوار المسجد، فابتقل إليه.

بناء مسجد المدينة

إن الرسول ﷺ وبطبيعة الحال يحتاج الى مكان لإقامة الصلاة، ووعظ الناس، وبث الاوامر فيهم، والفصل بين الخصومات ومعالجة خطر الاعداء.

وأى مكان أفضل من المسجد، ولذا أمر الرسول ﷺ بذلك، فانتخب له الموضع الذي بركت فيه ناقته، فاشتراه الرسول ﷺ، وسويت أرضه وكانت مساحته (كما يذكره البعض) خمسة وثلاثون ذراعاً في ثلاثين .

فأخذ الرسول يعمل مع سائر أصحابه في هذا الأمر حتى تم البناء وكانت جدرانه قدر ذراع ثم أضيف عليها.

وفي ناحية من المسجد أقيمت ظللة من الجريد على قوائم جذوع النخل، وسميت بـ (الصفقة) يجتمع فيها المسلمون الذين لا ماوى لهم.

وكان ﷺ يصلي في المسجد بأصحابه ويتكأ على جذع نخل إذا أراد الخطابة، ثم صنع له (منبر) فكان يرقبه وقت الخطبة والإرشاد.

وقد كان يجلس في المسجد في حلقة مستديرة لا يميز صدرها من مؤخرتها، فكان الناس إذا جاءوا لم يعرفوا الرسول، فيقولون: أيكم محمد؟ فالتمس منه ﷺ بعض الصحابة أن يبني له شبه دكة ليكون معلوماً لدى الشخص الداخل، فلا يحير في أمره، فقبل ﷺ ذلك.

وكان يصلي بأصحابه الصلوات الخمس، في المسجد في اوقات متفرقة، او يجمع بين الصلاتين الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وضع للمهاجرين الذين هاجروا معه بيوتاً حول المسجد، وكانت تفتح أبوابها في المسجد، حتى أمره الله تعالى بغلق تلك الأبواب، فأغلقها، إلا باب بيت علي (عليه السلام). وقد كان (المسجد) المركز القيادي الإسلامي في جميع الشؤون الدينية والدنيوية. وهذا (المسجد) ليس الآن على مساحته وحجمه الاول، بل وسع مراراً..

هجرة الرسول المصطفى ﷺ واسبابها:

إن الهجرة لم تكن أمراً سهلاً وميسوراً ولم يكن ترك البلد والذهاب الى بلد آخر لا تعلم ظروفه وأن يترك أعماله وذكرياته ومسقط رأسه، وقد ذهب الى بلد مجهول لحياة جديدة وهذا بلا شك هو عمل شاق وصعب جدا.

فالهجرة كانت تعني ما هو أبعد من ذلك وهو الاستعداد لحرب طويلة وشاملة مع العدو المشرك الجاهلي إضافة لمقارعة مؤامرات اليهود والمنافقين وغيرهم، وقد أشار القرآن الكريم لعظيم الأجر من جراء الهجرة والجهاد في سبيل الله: (والذين

هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا او ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وأن الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه وأن الله لعليم حلِيم) // سورة الحج: ٥٨ - ٥٩ .
لقد شنت قريش حربها ضد الرسول المصطفى ﷺ في دعوته بعد أن قطع شوطا في إعداد القاعدة الاولى في دار ابن الأرقم، وتكوين النواة والقاعدة للدعوة الإسلامية، وقد بلغت ثلاث سنين وبعدها كان دور المواجهة الاولى، حيث نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتک الاقربین).

ثم دور الاعلان والمواجهة الشاملة بعدما نزل قوله تعالى بأن يصدع بالدعوة قال تعالى: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين).

فكانت قريش تجعل الموانع امام دعوته وحركته، وتقتل وتعذب من يسلم. فعمل الرسول الى الدعوة خارج مكة، فأرسل مجاميع الى الحبشة بقيادة جعفر بن ابي طالب وحاولت قريش من تأليب الملك النجاشي دون جدوى، كما وأن الرسول ﷺ التقى مع شخصيات من يثرب أيام الحج مما أسهم على إيجاد نواة جديدة للمسلمين قبل هجرته اليها كما أنه أرسل اليهم من يعلمهم أمور دينهم.
لذا فإن المشركين استعملوا أسلوبا آخر وهو أسلوب الحصار الاقتصادي، ففرضت حصارا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا لمدة ثلاث سنوات على الرسول وبنو هاشم، ومنعت الزواج منهم والتعامل معهم اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وقطع كل العلاقات معهم، وجاءت التعليمات السماوية بترك مكة بعد أن استنفد الرسول ﷺ كل امكانياته وطاقاته في سبيل نشر الدعوة الإسلامية في مكة مع ما تعرض له من اذى واضطهاد وآلام ومحن من أجل ذلك.

فلسفة الهجرة الى مدينة طيبة والدروس والعبر المستقاة منها

لقد اختار الرسول ﷺ يثرب لعدة اسباب نذكر أهمها بايجاز: -

١- أن المدينة يثرب لم يكن فيها حكم او دولة وإنما قبائل مختلفه، بينما مكة كان فيها حكم ونظام قبلي ومن الصعوبه تغييره، فهناك مشروع ضخم سيبنى على أرض المدينة طيبة، وهو مشروع يحتاج الى توحيد كل الطاقات المتاحة للمسلمين، فلا بد من إيجاد قاعدة للدولة الفتية لتوحيدها وحل النزاعات بينها، وهو مشروع إقامة الدولة الإسلامية والتي لا تسمح للمسلم بالقعود عن المشاركة في بناء هذا الصرح العظيم.

وقد تعرض القرآن الكريم لموضوع الهجرة (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة

فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيفا// سورة النساء: ٩٧- ١٠٠.

٢- أن الاوس والخزرج في المدينة وهما من أكبر القبائل هناك، وقد ضعفت ولا تريد من أحد أن يتسلط عليها، ووجدت الرسول ﷺ هو المنقذ والقائد لها وهم به مؤمنون.

٣- أن المدينة يثرب هي المنطقة المهيأة دينيا واجتماعيا وسياسيا لتكون فيها دولة اسلامية لحل النزاعات القبلية وتوحيدها. ومن الناحية الاجتماعية: فإن طول النزاع القبلي بين سكانها من الاوس والخزرج واليهود جعلها منطقة مفككة اجتماعياً، تتطلع الى رجل تلتف حوله لينزع عنها الى الأبد هذه العصبية المستعصية.

لقد كان المهاجرون والأنصار واليهود أبرز عناصر هذا المجتمع. أما الاوس والخزرج فهما قبيلتان من أصل واحد، خرجتا من اليمن وأقامتا في المدينة. وبعد وقت من إقامتهما في المدينة تنازعتا، وبلغ النزاع بينهما أن حالف الاوس يهود بني قريظة ضد الخزرج، وحالف الخزرج يهود بني النضير وبني قينقاع ضد الاوس. وكانت وقعة بعثت بين القبيلتين، وهي وقعة عظيمة قتل فيها كثير من أشرفهم وكبرائهم، وذلك قبل الهجرة النبوية بخمس سنين.

وكان اليهود يعملون على بث الفرقة وأسباب الخلاف في ما بينهم لتبقى لهم السيطرة على المدينة، ولكن الرسول ﷺ استأصل أسباب الخلاف وجعلهم أخوة متحابين، وأمرهم بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وبأن يؤمنوا بالرسول ﷺ وبما يوحى إليه.

٤- أن المدينة يثرب لها موقع ستراتيجي وهي تقع على طريق تجارة مكة لتضغط عليها ومكة تقع عند واد غير ذي زرع بينما المدينة أرضها زراعية صالحة للعمل والإنتاج حيث يمكن استغلالها وتطويرها.

ومن الناحية الاقتصادية تعدّ المدينة غنية بإمكانياتها الزراعية، ما يُمكنها من المقاومة والاحتفاظ بنوع من الحياة في حال تعرضت لضغوط اقتصادية من قبل المشركين وغيرهم.

٥- قسوة وشدة مشركي مكة تجاه المسلمين وذلك بايذائهم وتعذيبهم، وأمام تلك المحنة والتي قابلوها بالصبر والثبات وكنتم الايمان بالإسلام وبالرسول ﷺ دفعهم لترك وطنهم وأهلهم واموالهم في سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية .

٦ - المؤمن يحسن التوكل على الله تعالى: وقد كان ﷺ في رحلة الهجرة الشريفة متوكلاً على ربه واثقاً بنصره يعلم أن الله كافيهِ وحسبه، ومع هذا كله لم يكن ﷺ بالمتهاون المتواكل الذي يأتي الأمور على غير وجهها. بل إنه أعد خطة محكمة ثم قام بتنفيذها بكل سرية وإتقان.

٧ - الصبر واليقين طريق النصر والتمكين: أصحاب الرسالات في هذه الحياة لا بد أن تواجههم المصاعب والمتاعب والمحن والابتلاءات، قال تعالى: (أَحْسِبُ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) فبعد سنوات من الاضطهاد والابتلاء قضاهَا النبي ﷺ وأصحابه بمكة يهياً الله تعالى لهم طيبة الطيبة ويقذف الإيمان في قلوب الأنصار، ليبدأ مسلسل النصر والتمكين لأهل الصبر واليقين، قال تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ).

٨- الله تعالى يؤيد رسله بالمعجزات: وقد بينتلى اوليائه وأحبابه من أصحاب الرسالات والدعوات بالمحن والشدائد، ولكن لا يتركهم لتلك المحن والشدائد حتى تعصرهم، بل يحصمهم، ويرفع من قدرهم، ثم يؤيدهم بالمعجزات التي تثبت صدق دعواهم ، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ).

وفي رحلة الهجرة الشريفة تجلت معجزات وآيات وبراهين تؤكد صدق دعوى النبي ﷺ، فهل يحدث أن رجلاً أعزلاً محاصراً يخرج الى المجرمين ويخترق صفوفهم فلا يرونه ويذر التراب على رؤوسهم ويمضي؟

وهل يحدث أن عنكبوتاً تنسج خيوطها على باب الغار في ساعات معدودة؟
وهل يحدث أن فريقاً من المجرمين يصعدون الجبل ويقفون على الباب فلا يطاقاً
أحدهم رأسه لينظر في الغار؟

إن هذه المعجزات لهي من أعظم دلائل قدرة الله تعالى، وإذا أراد الله نصر
المؤمنين خرق القوانين، وقلب الموازين.

٩- دور المرأة المسلمة في الهجرة الشريفة: دور المرأة المؤمنة في تحمل أعباء
الدعوة، دور كبير وعظيم فقد كانت خديجة رضوان الله عنها الملجأ الدافئ الذي
يخفف عن رسول الله ﷺ فحينما نزل عليه الوحي في غار حراء وجاءها وأخبرها
بالموقف قالت له: فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث،
وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وهكذا كانت بضعته الزهراء
عليها السلام تقف الى جنب ابوها حتى قال عنها ﷺ: (أم ابوها).

١٠ - أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ولقد ترك المهاجرون ديارهم،
وأهليهم، وأموالهم والتي هي شيء مهم إليهم، ولكن تركوا ذلك كله لاجل الله ودينه
وطاعة لرسوله ﷺ، لذا فقد عوضهم الله بخير منها ففتح عليهم الدنيا، وملأهم شرفها
وغربها هذا في الدنيا وأما في الآخرة فرضوان من الله اكبر وجنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها ابداً.

الفصل السادس

معوقات الدعوة في المدينة المنورة

شرائح المجتمع اليثربي

بأشر الرسول ﷺ فور وصوله الى المدينة المنورة بالقيام بأعمال تأسيسية ترتبط بإيجاد البيئة الملائمة لتبليغ الإسلام وأحكامه وتشريعاته التي كانت تنزل على الرسول ﷺ تدريجياً، فكان لا بد للاطمئنان على مستقبل الدعوة الإسلامية، من بناء مجتمع إسلامي سياسي، يضم تحت لوائه كافة شرائح المجتمع اليثربي الذي كان يضم ست طوائف من السكان هم:

المهاجرون:

وهم الذين هاجروا من مكة الى المدينة مع النبي ﷺ وقبله وبعده بأمر منه، فضحوا بوطنهم وأموالهم وعلاقاتهم وأقاربهم، وعشائرهم طلباً للحرية وحرصاً على دينهم.

الأنصار:

وهم سكان المدينة الأصليين من قبيلتي الاوس والخزرج الذين أحبوا رسول الله ﷺ ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه واحتضنوا الرسول ﷺ والمهاجرين معه وقاسموهم الأرزاق.

المتهودون:

كانت جماعة من الاوس والخزرج وغيرهما قد تهودوا لمجاورتهم خيبر وبني قريظة والنضير اليهودية وقد تأثروا بهم.

اليهود الأصليون:

وهم الذين أتوا الى الجزيرة العربية وسكنوا المدينة وضواحيها، وهم بنو قينقاع وقريظة والنضير. أن اليهود كانوا موجودين في المدينة يسيطرون عليها قبل مجيء الاوس والخزرج الى يثرب. وأن العرب كانوا أضعف من اليهود في المدينة، بل كانوا تحت حماية اليهود كجيران وحلفاء.

أما من أين جاء يهود المدينة، وهل هم من أصل عبراني، او أن معظمهم كانوا عرباً اعتنقوا الدين اليهودي، او أنهم يتحدرّون من فلسطين، فهذه أمور قد ناقشها العلماء العرب والغربيون ولم يصلوا فيها الى أي اتفاق.

وتقول المصادر التاريخية أن القبائل اليهودية هي ثلاث قبائل: قريظة والنضير وقينقاع.

أما القبيلة اليهودية الرابعة التي كانت في المدينة، في أثناء حياة الرسول ﷺ فهي قبيلة ثعلبة، ولكن يقال: إنها من أصل عربي.

المشركون:

وهم قسم من قبيلتي الاوس والخزرج ومن قبائل عربية أخرى، كانوا كافرين في سنوات الهجرة الاولى، وتأخر إسلام كثير منهم الى السنة الرابعة بعد الهجرة.

المنافقون:

وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وتربّصوا بالرسول ﷺ وبالمؤمنين الدوائر، وكادوا لهم، فشكّلوا خطراً كبيراً على الإسلام والمسلمين في بداية الدعوة وانطلاقها.

الانفتاح على أهل الكتاب:

إن الانفتاح على أهل الكتاب، من أهم الأعمال التي باشر النبي ﷺ بها فور وصوله الى المدينة المنورة؛ ذلك أنه يعدّ من صلب العقيدة الدينية في الإسلام، التي تعترف بالأديان السماوية، وبكل الرسل والأنبياء. والانفتاح على أهل الكتاب لا يعني كما يدعي بعض الباحثين أن يبذل النبي ﷺ شعائر الإسلام حتى ترضى عنه اليهود وكما ورد في القرآن الكريم: (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مَلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ).

المؤامرات والدسائس ضد الدعوة الإسلامية المباركة:

إن المسلمين هم القوة الرئيسية في المدينة ومن بعدهم اليهود، وكانت قبائل بنو قينقاع وبنو قريضة وبنو النضير إضافة الى القبائل الأخرى الصغيره مثل بني ثعلبه وبنو ذريعه وبنو النجار وبنو العضيون في المدينة وخبير تسيطر على العصب المهم وهو الوضع المالي والاقتصادي ويشغلون الصياغة وبيع الذهب ويملكون النخيل والاراضي الزراعية.

وبهذا كانوا يتحكمون في الاقتصاد، وقد نشروا الربا والاحتكار بين المسلمين، إضافة الى أنهم كانوا يثيرون الشكوك والتجسس بين المسلمين وعدم التصديق بدعوة الرسول الأعظم ﷺ، إضافة الى وسائل ومحاولات قتل الرسول المصطفى ﷺ.

أما الفئنة الأخرى فهم المنافقون، وكانوا يُظهرون الإسلام ويخفون حقدهم للقضاء على الإسلام ورسوله المصطفى ﷺ، وكان على رأسهم عبدالله بن أبي سلول .

لقد لعبت هذه الفئنة الدور الفعال بين اليهود وقريش ضد الرسول الأكرم ﷺ وعانقا لنشر دعوته بين الناس وكانت مؤامراتها كثيرة ويمكن ايجاز أهمها بما يلي: -

١- التجسس على ما يقوم به الرسول المصطفى ﷺ بصورة خاصة وكذلك التجسس على المسلمين بصورة عامة ومتابعة تحركاتهم.

٢- إثارة الفتن بين المسلمين وإضعاف الروح الإيمانية وتمزيق وحدتهم.

٣ - الطعن بالمسلمين وبأعمالهم ومتابعة أي عيب بهم.

٤- ولقد مارس المنافقون وسائل كثيرة لمحاربة الإسلام والمسلمين وكان من أهمها الأمور التالية:

أ - الحرب الدعائية :

لقد واجه الإسلام والمسلمون في المدينة حربا دعائية واعلامية وضاره، كان خصومها اليهود والمنافقون في اثاره الشغب والخوف والشكوك بين المسلمين ولقد وصفهم القرآن الكريم وسماهم(المرجفون في المدينة)كانوا يرجفون بالأخبار الكاذبه.

ب - الغدر العسكري:

حيث أراد هؤلاء المنافقون في كل المعارك ومنها بدر وأحد والاحزاب وغيرها استعادة أمجادهم حتى تحرك رأس المنافقين عبدالله بن أبي سلول وشق جيش المسلمين.

يقول الطبري عندما خرج الرسول ﷺ للحرب رجع عبدالله بن أبي سلول بثلاث جيش المسلمين من الحرب بتخويفهم والخوف على عيالهم ولقد وصفهم القرآن بقوله: (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون الا فرارا ولو دخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما لبثوا بها الا يسيرا).

ج - مارس المنافقون بقيادة عبدالله ابن أبي سلول شق الصف الإسلامي وتمزيق وحدته واثارة الاحقاد القبلية وقد اشارت سورة المنافقون الى ذلك.

٥- مؤسسة ضرار والتنسيق مع الروم حيث اتفق المنافقون على بناء مسجد ضرار للثار ضد المسلمين وكانوا ينسقون مع دولة الروم للاغارة على المدينة، قال تعالى: (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين).

وبعد نزول الوحي وانكشاف المؤامرة أمر الرسول ﷺ بحرق المسجد.

المنافقين ومؤامراتهم ومعوقات الدعوة:

قال تعالى: (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون).

استغرقت تلك الاحداث الكبار، ما بين غزوة مؤتة وفتح مكة وغزوة حنين، شهور السنة الثامنة للهجرة، من جمادى الاولى الى ذي القعدة. واعتمر المصطفى ﷺ وعاد الى المدينة كوعده للأنصار، فأقام بها الى آخر صفر من سنة تسع للهجرة، وقد نجم النفاق هناك وكثر الحديث عن (مؤتة) يلوك المنافقون فيه ما كان

من غلبة الروم، ويتندرون بسداجة الآلاف الثلاثة من المسلمين، يطمعون في منازلة الإمبراطور هرقل، في مائة ألف من جنده.

ولقد أن الاوان لتطهير دار الإسلام من جيوب النفاق التي كانت تهدده في الصميم، بعد أن انتصر على المشركين من العرب والأعداء من يهود.

لقد كمن السم في اول الأمر، وإن ظهرت بوادر منه في مثل إصرار (عبدالله بن أبي بن سلول) على أن يحير مواليه من يهود بني قينقاع، وانخذه بمن معه من منافقي المدينة، عن جند المصطفى يوم أحد، ثم نشاطه الخبيث في فرية الإفك الذي تولى كبره.

وتتابعت البوادر مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه في غزوة الأحزاب وغزوة مؤتة ويوم حنين، دون أن يملك أحد أن ينفي المنافقين عن الإسلام وهم يتظاهرون به ويشهدون بالسنتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يحقنون بهذه الشهادة دماءهم ويعتصمون بها من أن يرحمهم مؤمن بلعنة الردة والنوايا لله، هو وحده الذي يعلم سرهم ونجواهم فليس للرسول إلا أن يكلمهم إليه سبحانه وتعالى، يحمي دينه منهم ويكشف المستور من كفرهم..وقد جاءت (غزوة تبوك) فمزقت أقتعتهم، بعد أن توالى النذر منبهة الى أن النفاق قد تمكن من مرضى القلوب حتى صار داء عياء لا يجدي فيه غير البتر والتطهير.

في مستهل رجب من السنة التاسعة للهجرة، أمر المصطفى ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، تهيئة لجند الله في لقاء عدو مرهوب، وليزيل التهيب الذي تركته التجربة الأولى في مؤتة. وأراد الله سبحانه أن تكون هذه الغزوة امتحانا لايمان المؤمنين، وفاضحة لزيغ المنافقين المحسوبين على الإسلام زورا وادعاء.

ولم يكن من عادة الرسول القائد ﷺ، أن يصرح بوجهته في كل مرة يخرج فيها بأصحابه للجهاد، بل يكفي بالتكنية عنها، تدريبا لجند الإسلام على الامتثال لأمر الله والرسول.

لكنه في هذه المرة، صرح بوجهته التي لم يكن يفصح عنها، لبعده المسير وشدة الوقت وكثرة العدو الذي يصمد له، حتى يتأهب المسلمون لذلك أهبتهم. وذلك في

زمان من عسرة الناس وشدة من الحر، وحين طابت الثمار بعد جذب، فطاب للناس المقام في ثمارهم وظلالهم.

وبدأ المنافقون منهم ينتحلون الاعذار للتخلف والعود، حتى أن أحدهم ليقول للمصطفى: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر - الروم - أن لا أصبر، فأعرض عنه عليه السلام وقال: (قد إذنت لك).

ومشى بعضهم الى بعض، يتواصون بالعود قائلين: (لا تنفروا في الحر).. زهدا في الجهاد وشكا في المصير وإرجافا برسول الله عليه السلام وانبت نفر منهم في أحياء المدينة يخذلون قومهم ويقولون: (أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟). ولكن هؤلاء وهؤلاء، لم يبلغوا من التخذيل والارجاف، ما بلغته مكيدة كبيرهم (عبدالله بن أبي): لقد وجد اللعين فرصة العمر التي طال انتظاره لها، فتظاهر بالتأهب للخروج، وجمع إليه حشدا من شيعته أهل النفاق ومن اغتر بهم، ثم ضرب عسكره على حدة وانتظر حتى تمت التعبئة للجهاد وخرج المصطفى بجنده من مكة، وما يشك أحد في أن (ابن أبي بن سلول) ماض وراءه بعسكره، ولم يكن أقل العسكرين، لكن الخبيث تحرك، لا الى الشمال في طريق الجيش المجاهد، وإنما انحاز بعسكره من أسفل مكة الى الطريق المضاد.

ومضى المصطفى عليه السلام بالمؤمنين من جند الإسلام وتخلف كل المنافقين وتخلف معهم نفر قليل من ذوي العذر، ومن استنقلوا العبي، عن غير شك ولا نفاق، وفي الطريق لحق بالمصطفى من لم يطبقوا القعود ولهم عذر فيه. منهم اثنان من البكائين، وهم سبعة من الصحابة التمسوا من رسول الله أن يحملهم وكانوا أهل حاجة، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا أجد ما أحملكم عليه). فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

وحدث أن مر اثنان منهم بابين عمير بن كعب النضري وهما يبكيان، فسألها عن أمرهما فقالا: جننا لرسول الله عليه السلام ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه فأعطاهما بعيرا له، وزودهما شيئا من تمر، فارتحلا بالبعير ولحقا بجند المصطفى، وكذلك لحق بهم من صحا ضميره من غفوته، فكره أن يقعد مع القاعدين وليس من أهل النفاق.

وفي الخبر أن (أبا خيثمة الأنصاري، مالك بن قيس) رجع ذات يوم حار بعد مسير الرسول بأيام. فوجد امرأتين له في عريشين ببستانه، قد رشت كل منهما عريشها وبردت له فيه ماء، وهيات له طعاما، فلما رأى ذلك كله انكره، وقال يحدث نفسه: رسول الله ﷺ في الشدة والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيا وامرأة حسناء، في ماله مقيم؟ ما هذا بالأنصاف. ثم التفت الى امرأته وقال: (والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهينا لي زادا). وركب راحلته، وخرج يغذ السير حتى لحق بجند الإسلام في تبوك.

وفي الطريق أيضا، تخلف الرجل بعد الرجل، ممن خرجوا في اول الأمر مكرهين ثم استنقلوا مشقة السفر وعبي الجهاد. ويقول الصحابة للمصطفى وهو ماض في طريقه الى وجهته: يا رسول الله، تخلف فلان. فيقول ﷺ: (دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه).

حتى قيل له مرة: يا رسول الله، قد تخلف (أبو ذر) وأبطأ به بعيره. فقال المصطفى، مثل ما كان يقوله في الرجل يتخلف. لكن أبا ذر لم يتخلف مختارا، وإنما خذله بعيره بعد أن أبطأ به، فما كان منه رضوان الله عنه إلا أن أخذ متاعه فحملة على ظهره، ومشى يتبع أثر الركب المجاهد.

فبينما رسول الله ﷺ في منزل ببعض مراحل الطريق، نظر ناظر من المسلمين فلمح من بعيد شخصا يمشي، فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده. قال ﷺ وهو ينظر الى الجهة التي يشير إليها صاحبه: (كن أبا ذر). فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، ورد المصطفى: (رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده).

بلغ المصطفى بجنده المؤمنين مدينة (تبوك)، وهناك أتاه (يوحنه) صاحب أيلة، فصالح نبي الإسلام وأعطاه الجزية. وكذلك أتاه أهل جرباء وأذرح، فصالحوه على الجزية. ثم أطلق المصطفى ﷺ صاحب دومة، بمصالحة على الجزية. ورجع المصطفى الى المدينة، بعد أن بنى مسجدا في (تبوك) وأقام بها بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها الى ما وراءها من أرض الروم.

وأما من تخلفوا بالمدينة ولم يخرجوا للجهاد، فقد آتاه المنافقون منهم، يحلفون له ويعتذرون، فلم يملك ﷺ إلا أن يقبل ظاهر عذرهم، مفوضاً أمرهم الى العليم بما يسرون وما يعلنون.

وأما الذين تخلفوا تكاسلاً، عن غير شك ولا نفاق، فلم يجدوا ما يعتذرون به وكرهوا أن يضيفوا الى ذنب القعود عن الجهاد وزر اختلاق عذر يقدمونه الى الرسول ﷺ، كما فعل المنافقون. وانكر ﷺ موقفهم، ونهى أصحابه أن يكلموا أحدا منهم حتى يقضي الله فيهم، وكانوا ثلاثة: (كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية)، صدقوه القول أن لم يكن لهم عذر.

ونبذهم المجتمع الإسلامي نبذا اليماء، وكابدوا من تانيب النفس اللوامة، ما الموت أهون منه وأرحم، ويترك لأحدهم (كعب بن مالك الأنصاري) أن يصف محنته وصاحبيه، فيما روى ابن إسحاق بالسيرة النبوية، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه قال: (ما تخلفت عن رسول الله ﷺ) في غزوة غزاها قط، غير إنني تخلفت عنه في بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدا تخلف عنها. (ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ) العقبة وحين تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها - يعني: من العقبة- (وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ) في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، (وكان رسول الله ﷺ) قلما يريد غزوة يغزوها إلا وري بغيرها. حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها ﷺ) في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا، واستقبل غزو عدو كثير، فجلي للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبتة، والمسلمون كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - أي ديوان مكتوب - فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحي من الله، (فتجهز رسول الله ﷺ) وتجهز المسلمون معه وجعلت أعدو لأتجهز معهم).

الصحابة على اتجاهات شتى:

لقد كان الصحابة على اتجاهات شتى فمنهم المنافقون وما أكثرهم، حتى نزلت سورة سميت بسورة المنافقون وبينت صفاتهم، وقد ابتدأت: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون).

وهؤلاء المنافقون بعضهم من أهل المدينة والبعض الآخر من الأعراب، قال تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم). كما وأن الذين جاؤا بالإفك هم عصابة من الصحابة، قال تعالى: (إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم) وقد وردت آيات كثيرة في المنافقين نكتفي بهذا العرض البسيط لصور المنافقين.

ومن الصحابة من خلط عملا صالحا وآخر سيئا قال تعالى: (وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم). ومن الصحابة من ترك رسول الله ﷺ وتركوا المسجد وتركوا خطبة المصطفى من دون أدب واحترام، وخرجوا ليتفرجوا على قافلة وردت المدينة، وقد أنبئهم الله تعالى، كما ورد في قوله تعالى: (وإذا راوا تجارة أو لهما انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين).

ومن الصحابة من يرفعون اصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، وقد أنبئهم القرآن واحبط الله أعمالهم (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون). ومن الصحابة من وصفهم القرآن بأنهم لا يعقلون، قال تعالى: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون).

ومن الصحابة من هو فاسق، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين). ومن الصحابة وهم من الأعراب من دخل في الإسلام متأخرا ولم يعرف تفاصيل دينه، قال تعالى: (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم).

ومن الصحابة من هم مؤمنون حقا وهم قليلون، قال تعالى: (المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض).

وبهذا يتبين بأن الصحابة ليس كلهم عدول ولا توجد خطوط حمراء لحصانة الصحابة الذين وصفهم الله بالمنافقين والبعض من ذمهم القرآن ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون والذين حبطت أعمالهم برفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ.

إن التاريخ يحدثنا بأن جماعة من أصحاب الرسول الأكرم ﷺ كانوا يتظاهرون بحبه وطاعته، تأمروا عليه عند رجوعه من غزوة تبوك وأرادوا قتله في بطن عقة في الطريق، إلا أن الله تعالى عصم نبيه من ذلك.

وأما الذين فسقوا منهم فلا يعلم عددهم إلا الله تعالى حيث يقول: (وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) وقال: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقَفُونَ). ومنهم الذين هجروا القرآن وتركوا العمل به حتى أن النبي ﷺ شكاهم عند الله كما أخبر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) // سورة الفرقان: ٣٠.

ولا بد من ذكر بعض المخالفات لرسول الله ﷺ كنماذج من مخالفات الصحابة، وهي مخالفة لله ورسوله، وهذا خروج عن الحق، ومنها:

أولاً: بعض الصحابة كذابون

هذا أبو هريرة وقد ثبت بأن عمر بن الخطاب ضربه بالسياط حتى أدماه، لأنه كان يكذب كثيراً على رسول الله ﷺ في نقله الأحاديث المزعومة عنه والكاذبة.

أوليس أبو هريرة مجعول من أصحاب رسول الله ﷺ. وكذلك سمرة بن جندب الكذاب الفاسق وغيره من الذين كانوا يفترون على النبي ﷺ وينقلون عنه أحاديث لم يتفوه بها أبداً، وهم يُعدون من أصحابه.. وهل يعقل أن يسمح النبي ﷺ لأمته أن يتبعوا الكاذبين ويأخذوا دينهم عنهم؟ وهل يصح الحديث عنه: (أصحابي كالنجوم بمن اقتديتم اهتديتم)؟

ثانياً: مؤامرة بعض الصحابة لقتل الرسول ﷺ

ذكر علماء الفريقين: أن جماعة من المنافقين الذين كانوا حول النبي ﷺ قد تأمروا على قتله عند رجوعه من غزوة تبوك. فهبط جبرئيل على رسول الله ﷺ وأخبره بتأمر القوم وأعلمه بمكان اجتماعهم وحذره من كيدهم، فبعث النبي ﷺ حذيفة بن اليمان على المكان ليعرفهم، فرجع حذيفة وذكر للنبي ﷺ أسماء المتآمرين فكانوا أربعة عشر نفراً سبعة من آل أمية. فأمر النبي ﷺ حذيفة بكتمان الأمر وكتمان أسمائهم.

ثالثاً: ارتداد بعض الصحابة:

جاء في القرآن قوله تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) // سورة آل عمران: ١٤٤.

وباجماع الرواة أن هذه الآية نزلت في غزوة أحد، عندما خالف بعض الصحابة أوامر النبي بالبقاء وعدم إخلاء مواضعهم مهما كانت الظروف، ولكن الحصول على الانتصار والفوز بالغنائم جعلهم يتركون مواضعهم، فكانت الكارثة هي انهزام الصحابة واستحکم القتل فيهم من قبل المشركين.

وصاح صائح قتل النبي، ففر الصحابة فمنهم من بلغ فراره أقصى المدينة، والبعض قال: من يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان، والبعض صدمته الحادثه فنام نعاساً، والبعض قال: نموت على ما مات عليه آبائنا، فنزلت الآية: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل).. وورد في صحيح البخاري - الرقاق - في باب الحوض: (أنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري).

حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب عن ابن المسيب أنه كان يحدث عن أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: يرد علي الحوض رجال من أصحابي فيحطنون عنه، فأقول: يا رب أصحابي فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري.

وفي صحيح مسلم - الطهارة - استحباب إطالة الغر: (ليذادن رجال عن حوضي)، حدثنا يحيى بن أيوب وسريج بن يونس وقتيبة بن سعيد وعلي بن حجر جميعاً عن إسماعيل بن جعفر قال ابن أيوب: حدثنا إسماعيل أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا.. قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟

قال: أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد. فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟

فقال: أرايت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم إلا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض، إلا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً.

وفي صحيح مسلم - الفضائل - إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته:

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب يعني ابن عبد الرحمن القاري عن أبي حازم، قال: سمعت سهلاً يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: أنا فرطكم على الحوض، من ورد شرب ومن شرب لم يظماً أبداً، وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم

يحال بيني وبينهم، قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث، فقال: هكذا سمعت سهلاً يقول.

قال: فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي.

وحدثنا هارون بن سعيد الأيلي حدثنا ابن وهب أخبرني أسامة عن أبي حازم عن سهل عن النبي ﷺ وعن النعمان بن أبي عياش عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ بمثل حديث يعقوب.

ورد عن العلامة الكنجي الشافعي في كتابه الطالب عن ابن عباس قول رسول الله: (إنكم تحشرون حفاة عراة وأن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي فيقال إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم). وهذا حديث صحيح وقد رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

رابعاً: بعض الصحابة يشربون الخمر.

ذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري، قال: عقد أبو طلحة زيد بن سهل مجلس خمر في بيته ودعا عشرة أشخاص من المسلمين، فشربوا وسكروا، حتى أن أبا بكر أنشد أشعاراً في رثاء قتلى المشركين في بدر، وذكر أسماء المدعويين الحاضرين في ذلك المجلس؟ وهم:

1- أبو بكر بن أبي قحافة ٢- عمر بن الخطاب ٣- أبو عبيدة الجراح ٤- أبي بن كعب ٥- سهل بن بيضاء ٦- أبو أيوب الأنصاري ٧- أبو طلحة " صاحب البيت " ٨- أبو دجاجة سماك بن خرشة ٩- أبو بكر بن شغوب ١٠- أنس بن مالك، وكان عمره يومذاك ١٨ سنة فكان يدور في المجلس باواني الخمر يسقيهم. كما رواه البيهقي في سننه، عن أنس أنه قال: وكنت أصغرهم سناً وكنت الساقى في ذلك المجلس.

وهنا قد يستغرب البعض من هذا الخبر، ويتبين بأن الموضوع هو متواتر، وقد أورده البخاري في صحيحه، في تفسير الآية الكريمة: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)، وكذلك أورده مسلم في صحيحه كتاب الأطعمة والأشربة، باب تحريم الخمر، وكذلك الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، وابن كثير في تفسيره، وجلال الدين السيوطي في تفسيره الدر المنثور، والطبري في تفسيره، وابن حجر العسقلاني في الإصابة، وفي فتح الباري والبيهقي في سننه، وغير هؤلاء كثير من أعلام العامة الذين ذكروا خبر اجتماع المذكورين في مجلس الخمر.

ورغم أن بعض المسلمين كانوا يتمنون طاعة الرسول لهم في بعض المواقف، وقد قال تعالى: (وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ).

رغم كل ذلك نشاهد رجالاً يقفون أمام النبي في غير واحد من المواقف ويخالفونه بعنف وقوة ويقدمون الاجتهاد والمصالح الشخصية على اوامر الرسول في مواطن كثيرة، ولا بد من ذكر مخالفة عدد من الصحابة لاوامر الرسول المصطفى ﷺ في مسألة الوصاية والقيادة ومنها:

١ - اختلافهم مع النبي في الأنفال والأسرى:

لقد نصر الله المسلمين في غزوة بدر وجمع غير واحد من المسلمين ما في معسكر العدو فاختلف المسلمون في قسمتها، فقال من جمعه: (هو لنا)، وقال الذين يقاتلون العدو ويطلبونه: (والله لولا نحن ما أصبتموه، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم).. وقال الذين يحرسون رسول الله: (ما أنتم بأحق به منا، والله لقد رأينا أن نقتل العدو إن منحنا الله أكتافهم، وقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه فحفنا على رسول الله كرامة العدو فقمنا دونه، فما أنتم بأحق به منا). فنزل قوله سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) // سورة الأنفال: ١-٣.

وأما اختلافهم في الأسرى فيكفي في ذلك قوله سبحانه: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وقال تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

نحن نضرب الصفح عمّا ذكره المفسرون حول الآية من القصص غير أن قوله سبحانه: (لولا كتاب...) يعرب عن أنهم اختلفوا الى حد كانوا مستحقين لنزول العذاب لولا سبق كتاب من الله، ومن الجراءة ما يظهر عن بعض المفسرين من أن العتاب يعم النبي أيضاً مع أن نبي العظمة أجل من أن يشاركهم في العتاب فضلاً عن العقاب، وحاشا ساحة الحق أن يهدد نبيه بعذاب عظيم وقد عصمه من المعاصي، والعذاب العظيم لا ينزل إلا على عمل اجرامي كبير، ونحن لا نفسر الآية ولا نريد أن نخوض في خصوصيات القصة، ويكفيها أنها تكشف عن تباعد المؤمنين عن النبي المصطفى ﷺ في مسألة الأسرى الى حد استحقوا هذا التنديد.

٢ - مخالفتهم لأمر الرسول في أحد:

ورد في معركة احد أن رسول الله ﷺ حين بلغه أن أبا سفيان يريد شنَّ هجوم على المدينة، واستقبل الرسول المدينة وجعل جبل عينين عن يساره، ونصب خمسين رجلاً نبألاً على جبل عينين وأمر عليهم عبدالله بن جبير، وقال له: (انضح الخيل عنَّا بالنبل، لا يأتوننا من خلفنا إن كانت لنا او علينا، فاثبت مكانك لا تؤتئين من قبلك).

ولما صار الانتصار حليف المسلمين وأخذ العدو بالانسحاب عن ساحة القتال مؤبياً نحو مكة، خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ وأخلوا مكانهم طمعاً في الغنائم، فكلمنا نصحبهم أميرهم بالبقاء وعدم ترك العينين خالفوه.

ولما رأى العدو المنهزم أن جبل العينين قد أضحي خالياً من الرماة، وكان جبل العينين يقع على ضفتين يتخللها معبر، فاستغل العدو الفرصة فأدار خالد بن الوليد من معه من وراء المسلمين، فورد المعسكر من هذا المعبر على حين غفلة منهم، فوضع السيوف فيهم فقتل منهم لقيفاً الى أن تحوّل النصر الى هزيمة. وكان ذلك نتيجة مخالفة المسلمين لوصيّة الرسول، وتقديماً للاجتهاد على النص، والرأي الخاطي على الدليل، وكم له من نظير في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته.

٣ - مخالفتهم في صلح الحديبية:

دخلت السنة الثالثة للهجرة واشتاق الرسول ﷺ الى زيارة بيت الله فأعدّ العدة للعمرة ومعه جمع من أصحابه، وليس معهم من السلاح إلا سلاح المسافر، فلما وصلوا الى أرض الحديبية، منعوا من مواصلة السير، فبعد تبادل الرسل بينه وبين رؤساء قريش اصطلحوا على وثيقة ذكرها أصحاب السيرة في كتبهم.

فكانت نتيجة تلك الوثيقة رجوع النبي الى المدينة ومجيبه بالعام القابل للزيارة، وقد ذكر فيها شروط للصلح أثارت حفيظة بعض المسلمين، حتى أن عمر بن الخطاب وثب فأتى أبا بكر فقال: (أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: اولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: اوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا).

فقد زعم الرجل أن البنود الواردة في صلح النبي تعني إعطاء الدنية في الدين، حتى أن النبي أخبرهم حين الشخوص من المدينة أن الله سبحانه أراه في المنام أن المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فلما انصرفوا ولم يدخلوا مكة، قالوا: ما حلقنا ولا قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله سبحانه قوله: (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) // السيرة النبوية: ابن هشام

ولو أراد المتتبع أن يتعمق في السير والتفاسير يجد أن مخالفة القوم للرسول المصطفى ﷺ لم تكن مختصة بموضوع دون موضوع، فكان تقديم الاجتهاد على

النص شيئاً رانجاً عندهم، ولنكتف في المقام بالمخالفتين الأخيرتين أيام مرضه ووفاته.

أ - مخالفتهم في تجهيز جيش أسامة:

اتفق المؤرخون على أن النبي الأكرم ﷺ أمر بتجهيز جيش أسامة فقال: (جهّزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه)، فقال قوم: (يجب علينا امتثال أمره) وأسامة قد برز من المدينة، وقال قوم: (قد اشتد مرض النبي فلا تسع قلوبنا مفارقتة والحال هذه، فنصبر حتى ننظر أي شيء يكون من أمره).

هذا ما يذكره الشهرستاني ملخصاً، وذكره المؤرخون على وجه التفصيل، فقال الطبري في أحداث سنة إحدى عشرة: (وضرب على الناس بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد، وأمره أن يوطئ من أبل الزيت من مشارف الشام الأرض بالأردن، فقال المنافقون في ذلك، ورد عليهم النبي: (أنه لخليق لها أي حقيق بالامارة وإن قلت فيهم لقد قلت في أبيه من قبل، وإن كان لخليقاً لها).

ويقول أيضاً: (لقد ضرب بعث أسامة، فلم يستتب لوجع رسول الله، وقد أكثر المنافقون في تأمير أسامة، فخرج النبي ﷺ على الناس عاصباً رأسه من الصداق لذلك، وقال: (وقد بلغني أن أقواماً يقولون في أمارة أسامة، ولعمري لئن قالوا في أمارته لقد قالوا في أمارة أبيه من قبله، وإن كان أبوه لخليقاً للامارة وإنه لخليق لها بعد أسامة)، فضرب بالجرف وأنشأ الناس في العسكر، ونجم طليحة وتمهل الناس، وثقل رسول الله، فلم يستتم الأمر ينظرون أولهم آخرهم حتى توفى الله نبيه، ذكر القصة ابن سعد في طبقاته، والحلي في سيرته.

ب - مخالفتهم للنبي في احضار القلم والدواة:

عن ابن عباس قال: (لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه، قال: (انتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده) قال عمر: إن النبي غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، قال: (قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع)، فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه/ تاريخ الطبري والطبقات لابن سعد والسيرة الحايية وصحيح البخاري (باب كتابة العلم) والطبقات الكبرى وجاء فيه: فقال بعض من كان عنده إن نبي الله ليهجر..

إن الراوي نقل الرواية بالمعنى كي يخفف من شدة الصدمة التي تحصل فيما لو نقل الرواية بألفاظها، والشاهد على ما نقول أن البخاري نفسه روى الرواية بشكل آخر أيضاً، فروى عن ابن عباس أنه كان يقول: يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم بكى حتى بل دمه الحصى، قلت: يا ابن عباس ما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول

الله وجعه فقال: (انتوني بكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً)، فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما له؟ أهرج، استفهموه، فقال: (ذروني فالذي أنا فيه خير ممّا تدعونني إليه)، فأمرهم بثلاث، قال: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم)، والثالثة خير إمّا إن سكت عنها وإمّا إن قالها ففسيتها).

إن الثالثة التي نسيها الراوي هي التي أراد الرسول ﷺ أن يكتبها حفظاً لهم من الضلال، ولكن ذكره شفاهاً عوض كتابته، لكن السياسة اضطرت المحدثين إلى ادعاء نسيانه والحقيقة والتي لا غبار عليها هي: أن المجموعة التي حضرت والتي لا يروق لها خلافة علي عليه السلام أثارت الضجيج والفوضى لمنع إيصال صوت المصطفى ﷺ للناس وبالتالي يضع حق علي بالخلافة، ومن ثم الالتفاف على أمر السماء لتتويج الامام للخلافة بعد الرسول ﷺ وقد تحققت مآربهم.

ولعلّ النبي ﷺ أراد أن يكتب في مرضه تفصيل ما أوجبه عليهم في حديث الثقلين وتشهد بذلك وحدة لفظهما، حيث جاء في الثاني: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا كتاب الله وعترتي).

لقد فهم عمر بن الخطاب ما يريده رسول الإسلام ﷺ وحدث به بعد فترة من الزمن لابن عباس فقال له يوماً: يا عبدالله إن عليك دماء البدن إن كتمتها، هل بقي في نفس علي شيء من الخلافة؟ قال ابن عباس: قلت: نعم، قال: او يزعم أن رسول الله نصّ عليه؟ قلت: نعم، فقال عمر: لقد كان من رسول الله في أمره ذروة من قول لا تثبت حجة، ولا تقطع عنراً، ولقد كان يربح في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك اشفاقاً وحيطة على الإسلام، فعلم رسول الله أنني علمت ما في نفسه فأمسك/ صحيح البخاري.

لقد أراد رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه أن يعين من يلي الأمر بعده، ففي الصحيحين: البخاري ومسلم أن رسول الله لما اصفر، قال: هلمّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، وكان في البيت رجال منهم عمر بن الخطاب فقال عمر: إن رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله فاختلف القوم واختصموا فمنهم من قال: قرّبوا إليه يكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من قال القول ما قاله عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عنده قال: قوموا فقاموا.

هذه نماذج من مخالفة القوم لصريح النصوص الصادرة عن النبي الأكرم ﷺ وكل ذلك يعرب عن فقدانهم روح التسليم للنبي ولأحكامه، فلم يكونوا ملتزمين بما لا يوافق أهواءهم وأغراضهم من النصوص، نعم، ربّما يوجد بينهم من كان أطوع للنبي من الظل لذي الظل، ولكن المتنفذين لم يكونوا متعبدين بالنصوص فضلاً عن تعبدهم

بالاشارات والرموز، وربما كانوا يقابلون النبي بكلمات عنيفة لا يقابل بها من هو أقل منه شأنًا.

ويا ليت أنهم اكتفوا في مجال المخالفة للنصوص أثناء حياته، ولكنهم خالفوها بعد وفاته أكثر مما خالفوها أيام حياته، وقد غيروا من سير التاريخ وسيرة الحكام في غير واحد من المجالات إضافة لمنع تداول الحديث والسنة. هذا كله يرجع الى مخالفتهم الرسول فيما يأمر وينهى أيام حياته، وأما مخالفتهم لنصوص الرسول بعد رحلته فحدّث عنها ولا حرج.

كل تلك الاعمال والتصرفات كانت من معوقات الدعوة للرسول المصطفى ﷺ وبالتالي هيأت الأرضية لتشتيت الأمة وتمزيقها وعدم الالتزام بتعاليم السماء وعدم طاعة الله ورسوله بتطبيق خلافة الله في أرضه لمن اختارهم الله قادة للامة وساسة للعباد، وأعلاما للورى وكهفا للحجى، والذين نزل الوحي في بيوتهم، وكما قال تعالى فيهم: (في بيوت إذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه).

إن الأنبياء لم يطلبوا من الناس أي أجر على رسالتهم وأعمالهم الا الرسول المصطفى ﷺ اوصى بعترته خيرا فقال القرآن على لسانه: (قل لا اسئلكم عليه اجرا الا المودة في القربى).

وهذه المودة هي لنجاتنا وخلصنا من العذاب لأن مودتهم منجى ومعتصم.

أم سلمة تشهد لعلي عليه السلام بقداسته:

عن علي بن محمد بن المنكر، عن أم سلمة زوجة النبي ﷺ وكانت من أطف نساته، وأشهدن له حبا بعد زوجته خديجة رضي الله عنها، قال: وكان لها مولى يحضنها ورباها، وكان لا يصلي صلاة إلا يسب علياً ويشتمه.

فقالت: يا أبة، ما حملك على سب علي؟! قال: لأنه قتل عثمان وأشرك في دمه. قالت له: لولا أنك مولاي وربيتني، وأنت عندي بمنزلة والدي ما حدثتك بسر رسول الله ﷺ ولكن اجلس حتى أحدثك عن علي وما رأيته في حقه.

قالت: أقبل رسول الله ﷺ وكان يومي، وإنما كان يصيبني في تسعة أيام يوم واحد، فدخل النبي وهو يخلل أصابعه في أصابع علي عليه السلام واضعاً يده عليه، فقال: يا أم سلمة، أخرجني من البيت، وأخليه لنا.

فخرجت وأقبلا يتناجيان، وأسمع الكلام، ولا أدري ما يقولان، حتى إذا قلت: قد انتصف النهار، وأقبلت فقلت: السلام عليك يا رسول الله، ألح؟

فقال النبي ﷺ: لا تلجي، وارجعي مكانك.

ثم تتاجيا طويلاً حتى قام عمود الظهر، فقلت: ذهب يومي، وشغله علي، فأقبلت أمشي حتى وقفت على الباب، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، ألج؟.. فقال النبي ﷺ: لا تلجي.

فرجعت، فجلست مكاني، حتى إذا قلت: قد زالت الشمس، الان يخرج الى الصلاة فيذهب يومي، ولم أر قط يوماً أطول منه، فأقبلت أمشي حتى وقفت، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، ألج؟.. فقال النبي ﷺ: نعم، تلجي.

فدخلت وعلي واضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ قد أدنى فاه من إذن النبي ﷺ، وفم النبي ﷺ على إذن علي يتساران، وعلي يقول: أفأمضي وأفعل؟.. والنبي يقول: نعم.

فدخلت، وعلي معرض وجهه حتى دخلت، وخرج.

فأخذني النبي ﷺ وأقعدني في حجره، فأصاب مني ما يصيب الرجل من أهله من اللطف والإعتذار، ثم قال: يا أم سلمة، لا تلوميني، فإن جبرئيل أتاني من الله بما هو كائن بعدي، وأمرني أن أوصي به علياً من بعدي، وكنت جالساً بين جبرئيل وعلي، وجبرئيل عن يميني وعلي عن شمالي، فأمرني جبرئيل أن أمر علياً بما هو كائن بعدي الى يوم القيامة، فاعذريني ولا تلوميني، إن الله عز وجل اختار من كل أمة نبياً، واختار لكل نبي وصياً، فأنا نبي هذه الأمة، وعلي وصيي في عترتي، وأهل بيتي، وأمتي من بعدي. ولا بد من الإشارة الى الأمور التالية:

١ - أن مكانة علي عليه السلام لدى أم سلمة لا تجعلها مكانة أحد بعد رسول الله ﷺ وإذا كانت رضوان الله تعالى عليها أشد نساء النبي حباً له ﷺ فلا بد أن تكون أشدهن حباً لمن يحبه رسول الله ﷺ، ولا سيما بملاحظة أقوال رسول الله ﷺ فيه، وعظيم ثناء الله تعالى عليه.

وبذلك يتأكد: أن قداسة ومكانة علي عندها، وموقعه في منظومتها الاعتقادية يجعلها في غاية التوتر، والنفور ممن ينحرف عنه ويميل الى غيره، فكيف بمن يناوئه وبعاديه، او يسبه ويشتمه؟

٢ - أنها ﷺ قد مهدت لما تريد بإفهامها إياه أنها لا تتعامل معه بانفعالاتها وتعصبها الذي يريد أن يفرض خياره وقراره على الآخرين، بل تتعامل معه من موقع الحرص عليه، وابتغاء الخير له، والعرفان بالجميل والوفاء لحقه، من حيث إنه هو البادئ بالتفضل عليها بالتربية والرعاية لها. ثم من موقع الإحترام والإكبار، لا من الإستهانة به والإستهتار بمقامه، فأخبرته بأنها تنظر إليه على أنه بمنزلة والدها.

٣ - أنها ﷺ اعتبرته موضعاً لتفتتها، وأهلاً لإيثارها إياه بسر رسول الله ﷺ وميزته بذلك عن غيره وهذا يزيد رضاءً بنصحها، واطمئناناً إلى صدق نيتها ولهجتها تجاهه، وابتغائها المصلحة له.

٤ - أن هذه الرواية بينت: أن علياً ﷺ قد علم بما هو كائن بعد رسول الله ﷺ من الرسول نفسه، الذي كان يتلقى ذلك من جبرئيل ﷺ في نفس اللحظة، وجبرئيل إنما يخبر عن الله سبحانه.

ثم تلقى من النبي ﷺ الأوامر والتوجيهات الإلهية بطريقة تعامله مع تلك الحوادث. وكان جبرئيل هو الذي يأمره بإبلاغ علي ﷺ بتلك التوجيهات.

فدل ذلك على أن علياً ﷺ لا يتعامل مع الأمور بانفعالاته، واجتهاداته الشخصية، وإنما وفق خطة إلهية مرسومة ومبينة. فلا مجال للطعن في أي موقف يتخذه ﷺ، ولا يمكن نسبة التقصير أو الخطأ فيه إليه بأي حال من الأحوال.

٥ - يلاحظ: أن الأمر لم يقتصر على إخبار علي ﷺ بما يكون بعد الرسول ﷺ في خصوص حياة علي ﷺ، بل أخبره ﷺ بما هو كائن بعده إلى يوم القيامة، وأعطاه توجيهاته وأمره فيه.

فدل ذلك: على أن لعلي ﷺ نوعاً من الحضور والتعاطي بنحو من الأنحاء مع تلك الأحداث المستمرة إلى يوم القيامة، وإن لم ندرك نحن بصورة تفصيلية كيفية، وأفاق ومدى هذا الحضور، وذلك التعامل وحدود ذلك التأثير.

الحديقة.. تذكّر بالضعانن:

١ - عن انس وأبي برزة وأبي رافع، وعن ابن بطة من ثلاثة طرق: ان النبي ﷺ خرج يمشي إلى قبا، فمر بحديقة، فقال علي: ما أحسن هذه الحديقة!

فقال النبي ﷺ: حديقتك يا علي في الجنة أحسن منها. حتى مر بسبع حدائق على ذلك.

ثم أهوى إليه فاعتنقه، فبكى ﷺ وبكى علي ﷺ. ثم قال علي ﷺ: ما الذي أبكك يا رسول الله؟

قال: أبكي لضعانن في صدور قوم لن تبدو لك إلا من بعدي.. قال: يا رسول الله، كيف أصنع؟

قال ﷺ: تصبر، فإن لم تصبر تلق جهداً وشدة. قال: يا رسول الله، أتخاف فيها هلاك ديني؟ قال: بل فيها حياة دينك.

٢ - وقال (عليه السلام) في خبر: يا علي، اتق الضغائن التي لك في صدر من لا يظهرها إلا بعد موتي، (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون). ثم بكى النبي (عليه السلام)، فقيل: مم بكائك، يا رسول الله؟

قال: أخبرني جبرئيل (عليه السلام): أنهم يظلمونه ويمنعونه حقه، ويقاتلونه ويقتلون ولده، ويظلمونهم بعده.

٣ - قال الحميري:

وقد كان في يوم الحدايق عبرة وقول رسول الله والعين تدمع
فقال علي مم تبكي؟ فقال: من ضغائن قوم شرهم أتوقع
عليك، وقد يبدوها بعد ميّتي فماذا هدبت الله في ذاك يصنع

حسد قريش للرسول المصطفى (عليه السلام):

قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (إن العرب كرهت أمر محمد (عليه السلام) وحسدته على ما آتاه الله من فضله واستطالت أيامه، حتى قذفت زوجته ونفرت به ناقته، مع عظيم إحسانه إليها وجسيم مننه عندها، وأجمعت مذ كان حياً على صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته) // شرح النهج

ولم يكتف الناشطون من قريش لأخذ الخلافة حتى كتبوا بينهم معاهدة، قال الإمام الباقر (عليه السلام): (كنت دخلت مع أبي الكعبة فصلى على الرخامة الحمراء بين العمودين فقال: في هذا الموضع تعاقد القوم إن مات رسول الله (عليه السلام) أو قتل ألا يردوا هذا الأمر في أحد من أهل بيته أبداً.

قال: قلت: ومن كان؟ قال: كان الأول والثاني وأبو عبيدة بن الجراح وسالم ابن الحبيبة) // الكافي: ٥٤٥/٤.

وفي الإستغاثة: وأما أبو عبيدة الجراح فالرواية عن أهل البيت (عليهم السلام) أنه كان أمين القوم الذين تحالفوا في الكعبة الشريفة أنه إن مات محمد أو قتل لا يصيروا هذا الأمر الى أهل بيته من بعده، وكتبوا بينهم صحيفة بذلك، ثم جعلوا أبا عبيدة بينهم أميناً على تلك الصحيفة، وهي الصحيفة التي روت العامة أن أمير المؤمنين دخل على عمر وهو مسجى، فقال: ما أبالي أن ألقى الله بصحيفة هذا المسجى، وكان عمر كاتب الصحيفة.

فلما أودعه الصحيفة خرجوا من الكعبة الشريفة ودخلوا المسجد ورسول الله (عليه السلام) فيه جالس، فنظر الى أبي عبيدة فقال: هذا أمين هذه الأمة على باطلها، يعني

أمين النفر الذين كتبوا الصحيفة، فروت العامة أن رسول الله قال: أبو عبيدة أمين هذه الأمة.

لقد كان أبي بن كعب يسميهم أصحاب العقدة، ويقول كما في رواية عبد الرزاق/ المصنف: ٦٢/٨. والحاكم: (هلك أهل هذه العقدة ورب الكعبة، هلكوا وأهلكوا كثيراً، أما والله ما عليهم أسى، ولكن على من يهلكون من أمة محمد ﷺ). وعندما أوصى أبو بكر لعمر قال له علي ﷺ: (حلبت حلباً لك شطره، بايعته عام أول وبايع لك العام/ انساب الأشراف للبلاذري: ١/ ٣٧٥).

مشاكل ومعوقات أخرى واجهت المصطفى ﷺ:

لقد كانت في المدينة المنورة مشاكل وعقبات واجهت الرسول المصطفى ﷺ وكان من أهمها:

الاختلاف بين المهاجرين والأنصار، وبين الأنصار أنفسهم -الآوس والخزرج - أي الجبهة الداخلية.

وكذا اليهود في المدينة وخارجها، مع توفر الأموال لديهم وبيدهم عصب الاقتصاد. لقد تمكّن الرسول المصطفى ﷺ من التغلب على تلك المشكلات والقضايا بأساليب حكيمة وسياسية محكمة وأعطت نتاجاً مثمراً وطيباً، ولقد اتبع الأساليب الناجعة ومنها:

١- أن التناقضات الموجودة بين فئات المجتمع، قد عالجها بالمواخاة بين المهاجرين والأنصار، حينما جمعهم الرسول ﷺ وقال لهم:

(تآخوا في الله أخوين أخوين)، فأصبح هذا التآخي والوحدة بين الأطراف المتنازعة طريقاً لحلّ المشكلات الأخرى. كما اختار علياً ﷺ أماً لنفسه، وقال: (يا عليّ أنت أخي في الدنيا والآخرة).

٢- أمّا مشكلة يهود يثرب، فإن النبي المصطفى ﷺ أدرك أنه ما لم تصلح الأوضاع الداخلية في المدينة، ومالم يضم اليهود الى جانبه، أي أن يقيم وحدة سياسية متوسعة، فإن شجرة الإسلام لن تتمكن من النمو، بالإضافة الى أنه لن يتمكن من معالجة القضية الأخرى وهي خطر قريش، ومن هنا رأى النبي ﷺ أن يتقدّم بالتفاهم معهم بعقد معاهدة تعايش سلمي ودفاع مشترك بين الأنصار والمهاجرين، يوقع عليها اليهود أيضاً. وتعتبر هذه المعاهدة من أهم الأعمال، ومسنداً تاريخياً قوي الدلالة، تكشف عن مدى التزام الرسول ﷺ بمبادئ الحرية والعدالة، كما تكشف عن حنكته السياسية حيث استفاد من هذه الوسيلة من أجل إيجاد جبهة متحدة قوية في وجه الحملات الخارجية، فهي في الواقع واحدة من أكبر الانتصارات السياسية التي أحرزتها الحكومة الإسلامية في ذلك الوقت، بل هي أعظم معاهدة تاريخية على الإطلاق.

وهي نموذج كامل لرعاية الإسلام وحرصه على مبدأ حرية الفكر والاعتقاد، وضرورة التعاون، وتوضيح حدود صلاحيات واختيارات القائد ومسؤولية الموقعين عليها، وقد احترم فيها النبي ﷺ دين اليهود وثرواتهم في إطار شرائط معينة.

٣ - وبالإضافة الى التعاهد مع يهود يثرب، فإن النبي ﷺ عقد مع طوائف اليهود الأخرى: بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، معاهدات مماثلة فيما بعد، كان من أهم بنودها: عدم الاعتداء على الرسول ﷺ وأصحابه، فإن فعلوا فإن الرسول ﷺ في حلٍّ من سفك دمائهم وسبي نراريهم ونسائهم والاستيلاء على أموالهم.

إلا أن اليهود تميّزوا بمجادلة النبي ﷺ وطرح الأسئلة العويصة عليه بغية إحراجه وزعزعة إيمان المسلمين به ﷺ، ولكن جميع تلك المخططات باءت بالفشل، وقلَّ تأثيرها في صفوف المسلمين، بل إنها ساعدت في الواقع على إقبال بعضهم على الإسلام، كما حدث لعبدالله بن سلام الذي كان من علماء اليهود وأخبارهم، أعلن إسلامه بعد سلسلة مناظرات مطوّلة، كما التحق بعده عالم آخر منهم هو (المخيريقي).

ولم يكتف اليهود بذلك فإنهم استخدموا أسلوب المؤامرات والفساد مثل: (فَرْق تسد) لإضعاف المسلمين، وذلك باستغلال رواسب الماضي بين الأوس والخزرج، وإثارة العداء بينهم، وإقامة العلاقات السرية مع مشركي الأوس والخزرج والمنافقين، واشتراكهم صراحة في اعتداءات قريش على المسلمين في الحروب التي دارت بين الطرفين.. فقدموا كلّ دعم ومساندة للوثنيين والعمل لصالحهم، كما اشتهروا بنقض العهود والمواثيق، الأمر الذي أدى الى وقوع مصادمات وحروب مستمرة بينهم وبين المسلمين، نتج عنه إنهاء الوجود اليهودي في المدينة.

الدوافع والأهداف: لا بد من معرفة الدوافع والأهداف لأعداء الدين الإسلامي للنيل من المقدسات الإسلامية، وبالأخص من شخصية الرسول الأعظم ﷺ والحط من كرامته، فعمل ذلك يعود الى الأمور التالية:

١- الكيد السياسي الأموي ضد الهاشميين، والذين هم خصومهم قديما وحديثا، بما فيهم النبي المصطفى ﷺ نفسه، والذي أصبح هو مصدر العزة والشرف والمجد لكل أحد، ولا سيما للهاشميين.

٢ - تبرير كل انحرافات وتفاهات الهيئة الحاكمة، والتقليل من بشاعة ما يرتكبونه من موبقات في أعين الناس. على اعتبار: انه ليس ثمة فواصل كبيرة بين مواقف وتصرفات هؤلاء، وبين تصرفات ومواقف الرجل الاول والمثال الا وهو الرسول المصطفى ﷺ بعدما نسبوا اليه كل ما يُشين بالإنسان السوي والامثلة كثيرة يمكن

مراجعة صحيح البخاري وغيره، فهي وإن اختلفت كمية وشكلا، ولكنها لا تختلف مضمونا وهدفا.

٣- إرادة دفن هذا الدين والقضاء عليه نهائيا، ما دام يضر بمصالحهم، ويقف في وجه شهواتهم، وأهوائهم ومآربهم، إلا في الحدود التي لا تضر في ذلك كله، بل تبرره وتقويه وترفعه وتنقيه.

٤- الحصول على بعض ما يرضي غرورهم، ويؤكد شوكتهم وعزتهم، ويظهر قوتهم وجبروتهم.

٥- عدم وجود قناعة كافية لدى الكثيرين منهم بأن محمدا ﷺ نبي مرسل حقا، وقد صرح بذلك أمير المؤمنين عليه السلام وهو أيضا ما عبر عنه يزيد الفجور والخمور صراحة بقوله، حين تمثل بشعر ابن الزبيري:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

وقد تغنى احدثهم بهذه الأبيات أمام الوليد، فقال له: أحسنت والله، إنني لعلى دين ابن الزبيري يوم قال هذا الشعر. وقال الوليد بن يزيد:

تلعب بالخلافة هاشمي بلا وحي آتاه ولا كتاب

فقل لله يمنعي طعامي وقل لله يمنعي شرابي

وقال بعد أن ذكر الخمر: فلقد أيقنت أنني غير مخلوق لنار

هذا كله بالإضافة الى حقد دفين على الرسول ﷺ وبغض حقيقي له، بسبب ما فعله بأبائهم، وإخوانهم، وعشائرتهم، الذين حاربوا الإسلام وكادوه بكل ما قدروا عليه.

وقد ظهر ذلك منهم بصورة واضحة حينما أراد ﷺ أن يصرح بإمامة أخيه، ووصيه، وابن عمه علي عليه السلام، ويأخذ البيعة له منهم، فقال لهم ﷺ حينئذ: ما بال شق الشجرة التي تلي رسول الله أبغض إليكم من الشق الآخر.

الفصل السابع

إنجازات الرسول المصطفى ﷺ في المدينة المنورة

لقد رأى ﷺ أول عمل يقوم به قبل أي عمل آخر، هو أن يبني مكانا للمسلمين ليتسنى لهم أن يعبدوا الله فيه ويذكروه في اوقات الصلوات، مضافاً الى أنه كان هناك حاجة أكيدة لمركز يجتمع فيه المسلمون كل أسبوع في يوم معين، وينظروا في مصالحهم وشؤونهم، بجانب أدائهم صلاة العيد فيه مرتين كل عام.

ولم يكن المسجد في عهد الرسول ﷺ للعبادة فحسب، بل لتلقي فيه العلوم والمعارف الإسلامية والتربوية، إضافة الى الأمور القضائية والفصل بين الخصومات وإصدار الحكم على المجرمين، فكان بمنزلة المحكمة في هذا اليوم.

كما استخدمه الشعراء في إلقاء قصائدهم أمام الرسول ﷺ والذي اتخذ قاعة لإلقاء خطبه الحماسية والجهادية في تعبئة المسلمين ضد الكفار والمشركين. مما يبين أن النبي ﷺ أراد بذلك أن يعلن للجميع أن دينه ليس مجرد أمر معنوي لا يتصل بالأمور الدنيوية، بل هو دين شامل كامل يهتم بالتقوى وشؤون المعيشة والاضاع الاجتماعية .

وقد استمرت أغلبية المساجد على هذا المنوال حتى مطلع القرن الرابع الهجري حيث كانت تتحول في غير اوقات الصلاة الى مراكز لتدريس العلوم المتنوعة، بل إنها حتى بعدما فصلت المراكز العلمية عن المساجد فيما بعد، بقيت المدارس تبنى بجانب المساجد، الأمر الذي جسّد الصلة الوثيقة والارتباط بين العلم والدين وكما ورد في القرآن الكريم: (اقرأ باسم ربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم).

لقد اشترك النبي ﷺ بنفسه في عملية البناء للمسجد الشريف، ينقل الحجارة واللبن، ويردد وهو يعمل: لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة.

وكان عمار بن ياسر ممن عمل بشدة وقوة مع الرسول ﷺ في البناء، إذ كان يحمل اللبن والأحجار بدل النبي ﷺ وبديل الآخرين، حتى شكا إليه ﷺ فعلهم وقال: يا رسول الله قتلوني يحملون علي ما لا يحملون، فقال له النبي ﷺ: ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئنة الباغية.

أصحاب الصفة

بعد قدوم مهاجري مكة الى يثرب، نزلوا في منازل الأنصار، وواساهم الأنصار بالديار والأموال، وأما أصحاب الصفة فهم جماعة من الفقراء والمهاجرين المحرومين الذين لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر.. فكانوا ينامون في المسجد (كسكن مؤقت) حيث بُني لهم عند نهاية المسجد ظل يستظلون فيه وليس لديهم ماوى غيرهِ، فكان رسول الله ﷺ يدعوهم بالليل إذا تعشى فيفترقهم على أصحابه وتتعشى طائفة منهم مع رسول الله ﷺ وكان أيضاً يحث الاغنياء من الأنصار على الاحسان اليهم. وقد عُرفت هذه الجماعة من المسلمين من أهل الايمان بأصحاب الصفة.

وكان الرجل إذا قدم على الرسول الأكرم ﷺ وكان له عريف بالمدينة نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة، وكلف ﷺ عبادة بن الصامت بأن يعلمهم الكتابة وقراءة القرآن.

وكان عدد أصحاب الصفة يختلف حسب اختلاف الاوقات والاحوال، فربما تفرق عنها وانتقص طارقوها من الغرباء والقادمين فيقل عددهم، وربما يجتمع فيها وارادوها من الوراد والوفود فينضم اليهم فيكثرون، ثم بعد ذلك بنيت منازلهم ومنازل أصحابه حول المسجد.

لقد استطاع الرسول الأكرم ﷺ أن يجعل من مدينة يثرب مجتمعاً مثالياً تسوده الأخوة الإسلامية والمحبة والخير وأن ينشر لواء الإسلام من تلك البقعة الطيبة حيث استطاع أن ينجز ما يلي:-

أولاً: لقد هاجر النبي ﷺ وفي ذهنه مشروع إقامة دولة إسلامية لينتصر للمظلومين وإقامة اول منتدى انساني وإسلامي للحوار بين الأديان والثقافات والقوميات والقيادات الإنسانية ففي فهم القائد العظيم للرسالة أن الدعوة للإسلام تستبطن الدعوة للحوار وإبلاغ رسالة الدين الحنيف من كل الشؤون والتكاليف والتفاصيل المتعلقة بالإنسان وحياته وتطلعاته الاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

ولذا كان النبي الأكرم ﷺ أباً حقيقياً للحوار بين الأديان وحكيماً صادقاً في إبداء وجهة نظر الإسلام إزاء مجمل القضايا الإنسانية ذات العلاقة بالدولة الإسلامية الحديثة العهد.

لقد حقّق النبي ﷺ بهجرته المباركة كل أهداف الإنسانية، فلاول مرة تستطيع النبوة أن تقيم دولة الله في الأرض وتبسط أمر العدالة الاجتماعية للبشرية وتتطّلع لأنقاذ الإنسانية المعذبة التي كانت تعيش خارج إطار الدولة الإسلامية.

ومهما قيل عن الهجرة النبوية الشريفة، إلا أنها احتّلت مكانتها في التاريخ، وفي حركة الإنسانية والأديان والثقافات والتيارات الاجتماعية والفكرية، وعدّت في نظر خصومها قبل أصدقائها والمتعاطفين معها بأنها اول رسالة سماوية وهجرة تمكنت من بسط حركتها بعد النكبات والمشاكل والأزمات المعقّدة التي حدثت بتاريخ الأديان والرسول الذين بعثهم الباري تعالى لأنقاذ البشرية من الطغيان الى أمان الحرية.

وهذا الأمر يعود فضله الى الرسالي الاول والقائد الرسولي محمد ﷺ صاحب اوسع وأعرق وأسمى هجرة عرفتها البشرية على امتداد تاريخها وتاريخ علاقتها بالرسالات السماوية.

هذه الهجرة المباركة وضعت المجتمع الإسلامي بعد ذلك في موقع متقدم من حركة الشعوب والأديان والأمم المتقدمة، وصار لهذا المجتمع نفوذ سياسي وحضاري واسع واستطاعت الثقافة الإسلامية أن تبسط سيادتها وقدرتها قروناً مديدة على مساحات واسعة من الأرض.

لقد أقام دولة إسلامية تقوم على أساس الفكر والقانون وقيم الأخلاق والعدل واحترام حقوق الآخرين ومن أبرز مميزاتنا:

أ- أنها الدولة الالهية التي لا ياتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وهي تمثل إقامة العدل الالهي في الأرض يقودها خليفة الله في الأرض وخاتم الأنبياء والمرسلين الحبيب المصطفى ﷺ.

ب - تستمر هذه الدولة الإسلامية بعد وفاته ﷺ بقيادة اثني عشر اماماً معصوماً كزعماء وقادة للأمة وخلفاء لله في الأرض من بعده.

ج - أسس اول مسجد ليكون منطلقاً للقيادة ومركزاً للدولة فهو للعبادة وللفكر وللسياسة وللثقافة والعلاقة الاجتماعية وحل المشاكل التي تحدث بينهم لوحدة المجتمع الإسلامي ولتعزيز روابطه.

ثانياً: قام ﷺ بعمل جبار للقضاء على الخلافات الاجتماعية والمساوات بين افراد المجتمع الإسلامي بالمواخاة بين المهاجرين والأنصار.

قال ابن إسحاق: وأخى رسول الله (ﷺ) بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال: تأخوا في الله أخوين أخوين ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: هذا أخي. فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له نظير في العباد، وعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، أخوين.

وكان حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وأخوين.
وقد حَقَّق الرسول الأكرم ﷺ من هذه الخطوة المباركة أهدافاً وأبعاداً عديدة،
ومنها ما يلي: الأول: البعد الاقتصادي:

أ - التعلُّب على التناقضات الداخلية القائمة بين الأوس والخزرج من جهة وبين
المهاجرين والأنصار، من جهة أخرى، والحد من الاعتبار القبلي والفوارق
الاقتصادية، وذلك بإزالة الفوارق الطبقيّة في محاولة للقضاء على الفقر.

ب - إعالة المهاجرين وتاهيلهم اقتصادياً لممارسة الحياة من قبل الأنصار والتعاون
معهم.. والحد من الاعتبار الطبقي الاقتصادي وعلاج مشكلة التفاوت في المستوى
المعيشي.

ج - قطع أيادي اليهود المرابية وتحريم الاقتصاد الربوي وجعل الاقتصاد العادل
المزدهر والعمل بموجب الاقتصاد الإسلامي وبناء التكافل الاجتماعي والشعور
بالمسؤولية من باب كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، وبناء الأواصر الاجتماعية
المشتركة .

د - انجاز مشاريع اقتصادية مشتركة بين المهاجرين والأنصار وفق المظور
الإسلامي السليم والعادل.

الثاني: البعد الاجتماعي :

التعبير العملي عن مبدأ المواسة والعدالة الاجتماعية، وإزالة الشعور بالوحشة
والغربة في دار الهجرة، وردم الهوة بين طبقات المجتمع التي كانت سائدة في
الجاهلية، فكان في الغالب أحد الأخوين من السادة الأشراف والآخر من المستضعفين
أو الموالي، وكان في الغالب أحد الأخوين من المهاجرين والآخر من الأنصار..
وكان من أهمها:

أ - القضاء على الأمراض الاجتماعية والمخلفات الجاهلية والبعيدة كل البعد عن
الشرع والعقل السليم والمنطق.

ب - تحجيم النظام القبلي وصلحياته ورفع القيم الإسلاميه بديلاً عنه وتوعية الأمة
نحو نظام الإسلام العادل وبناء الأواصر المشتركة وأن أفراد المجتمع الإسلامي
كأسنان المشط.

ج - تهيئة المسلمين نفسياً وتربيتهم على التضحية والفداء والايثار في سبيل إعلاء
كلمة الله لتكون هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى والدفاع عن بيضة الإسلام
وشريعة المقدسة.

د - تحويل المسلمين الأوائل من مجتمع مفكك، يعيش أبناؤه التناقضات والأحقاد
والعداوات الى مجتمع متآلف يعيش المحبة والمودة وتماسك البنیان.

لقد استطاع نبينا محمد ﷺ بما آتاه الله تعالى من النبوة، والكتاب، والحكمة، أن يصنع أمة الإسلام من قبائل وشعوبٍ مشتتة، وجاهليةٍ تعيش في النفوس والعقول، وشركٍ أعمى متأصلٍ في القلوب، فوحد الجميع بعد تفرقٍ وضياح، وجعلهم مضرب الأمثال للأمم قاطبة، وكانت شهادة رب العالمين لهم بقوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر).

الثالث: البعد السياسي: وقد تمثل فيما يلي:

أ- التأكيد على وحدة المسلمين والتمهيد لولادة الأمة الجديدة.

وهكذا لم تكن الأخوة مجرد شعور نفسي وكلام معسول، بل كانت واقعاً عملياً عاشه المسلمون. كانت الأخوة بذلاً وعتاءً من جانب الغني، وعتةً وقناعةً من جانب الفقير. كان الأنصار عارفين بفضل المهاجرين وتضحياتهم وأسبقيتهم إلى الإسلام وتحملهم شتى أنواع العذاب في سبيل هذا الدين، وفي سبيل الإيمان بالله ورسوله، وكان المهاجرون شاكرين للأنصار صنيعهم، معترفين لهم بفضلهم.

لقد كان النبي ﷺ يرغب في نصرة المسلم لأخيه ومعاونته حيث قال: (ما استفاد امرئ مسلم فائدة بعد فائدة الإسلام مثل أخ يستفيده في الله).

لقد كان ﷺ ينهى عن كل ما يؤدي إلى التباغض بين المسلمين، فأمرهم بأن لا يتباغضوا، ولا يتحاسدوا، ولا يتدابروا، وأن لا يهجر المسلم أخاه فوق ثلاث. وقد ورد عنه ﷺ أنه كان (إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده).

ب - تكوين نسيج مترابط بين المسلمين.

ج - تناقل الخبرات ووسائل المقاومة والصمود بين أفراد المجتمع الإسلامي ونشر الوعي والمسؤولية .

د - بناء الفرد كخطوه من خطوات بناء الدولة وهو اللبنة الأولى والمهمة في بناء الدولة القوية الشامخة وإيجاد النواة الطيبة والصالحة في المجتمع الإسلامي .

هـ - إشعار المسلمين بالثورة في الدفاع عن أنفسهم وعن أرضهم ودينهم وهم جزء لا يتجزأ منها.

ثالثاً- معاهدة المدينة:

وهي معاهدة عقدها النبي محمد ﷺ بين المسلمين واليهود، ليكونوا جميعاً مواطنين في وطنهم (المدينة المنورة)، وليأمن المسلمون واليهود في عيشهم المشترك، ولينفرغ النبي الأكرم ﷺ للعدو الأساسي وهو كفار قريش .

كان في المدينة قوى متنافسة كاليهود وغيرهم ولهم عبئ اقتصادي وعددهم لا يستهان به وكذلك المشركون لهم قوة والمنافقون أيضاً، ولا بد من احتوائهم.

وهكذا كانت أول صفحة لمشروع دستوري لبناء دولة اسلامية متحضرة وأن من أهم فقراتها الأمور التالية:

- أ - إبراز وجود المجتمع المسلم واشعار الفرد المسلم بقوته.
- ب - الإبقاء على الوجود القبلي وفق الضوابط الإسلامية مع تحجيم دوره وصلاحياته.
- ج - التأكيد على حرية العقيدة والسماح لليهود بالبقاء على دينهم.
- د- توسيع دائرة المجتمع السياسي باعتبار أن المسلمين واليهود يتعايشون في نظام سياسي واحد.

رابعاً: لقد أقدم النبي ﷺ على خطوة أخرى على طريق بناء الدولة، وهي خطوة الإعداد العسكري، سواء على مستوى القوة البشرية المُدرَّبة، أم على مستوى التجهيز كالسلاح، أو الخيل، أو غير ذلك مما تحتاجه القوة المسلحة، وذلك عملاً بقوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ).

لقد كان لهذه الدقة في التنظيم العسكري في عهد النبي ﷺ دور كبير في تحقيق انجازات عسكرية كبرى وفي مدة زمنية قصيرة:

كان النبي ﷺ يستشير أصحابه ويستمع لأرائهم بعناية ولكن القرار الجهادي النهائي كان له وحده، سواء كان قراراً أمنياً أم عسكرياً، إستراتيجياً أم تكتيكياً.

كان النبي ﷺ يختار للجنديّة الذكور البالغين الذين بلغوا خمس عشرة سنة من العمر، ولم يكن يقبل من هم أصغر سناً، وكان يستعرض الشبان في كل عام، ويسمح لمن تثبت لياقته البدنية بالأنخراط في الجيش والمشاركة في الجهاد.

لقد كان شبان المدينة يتدرَّبون على استعمال السلاح وفنون القتال، وكان في المدينة مكان مخصَّص للتدريب. فقد كانت التبعئة الجهادية من مقومات الثقافة العامة للمجتمع الإسلامي آنذاك، بحيث كان غير الخبير بفنون القتال شاذاً عن المجتمع. أما الأنخراط الفعلي في العمل العسكري فكان يتم حين تدعو الحاجة، أي حين يقرر النبي ﷺ القيام بحملة عسكرية، أو حين يتهدَّد المدينة خطر الغزو.

وهكذا تكوين جيش وقوة مسلحة حيث شرع ﷺ بعد ستة أشهر من دخول المدينة من تشكيل سرايا ووحدات عسكرية مسلحة، وكان أول لواء عقده وأول سرية هي سرية حمزة بن عبدالمطلب، وعلي بن أبي طالب، وجعفر بن أبي طالب.

خامساً: عقد معاهدة سلام وتعاون سياسي وعسكري وعدم الاعتداء مع اليهود وتوسيع دائرة المجتمع السياسي والتأكيد على حرية العقيدة والسماح لليهود بالبقاء على دينهم.

سادساً: بناء الجهاز الاداري وجعل موظفي المال والكتاب للوحي وأصحاب الرسائل للملوك والرؤساء والمبعوثين.

سابعاً: تصنيف الأعداء: أمّا في ما يتعلق بدراسة الأعداء وتصنيفهم الى أصناف معيّنة بحسب شدة عداوتهم وقوة شوكتهم، وعدم إمكان انذارهم، فقسّمهم الرسول الأكرم ﷺ الى الأقسام التالية:
أ- المشركون العرب القرشيون:

وهؤلاء هم العدو الاول للمسلمين وهم أصحاب الشوكة في الجزيرة العربية، وهم اعداء لا يمكن انذارهم بعدما جرى من ايدانهم المباشر للنبي ﷺ) والمسلمين، ولذلك بدأ بالتخطيط لحربهم بدءاً من غزوة بدر الكبرى وانتهاءً بعام الفتح. فقريش هي العدو الاول الذي تتبغى تصفيته، وهذا ليس أمراً سهلاً، نظراً لمكانة قریش في جزيرة العرب، ولقوتها العسكرية والاقتصادية، ولذلك خطط النبي ﷺ) وهو قائد الأمة ومرجعها لعدة أمور:

أن يكون موقف المسلمين، في معركتهم مع قریش، موقف المدافع لا المهاجم، لنلا يتهم المسلمون - وهم قلة - بالعدوان على الآخرين من قبل جماهير العرب في الجزيرة.

أن يكون ميدان المعركة بعيداً عن مكة، وقريباً من المدينة قدر الإمكان، لإضعاف معنويات المشركين البعيدين عن بلدهم ومواطن نجدتهم.

أن لا يحاط المسلمون بهالة قریش وعدتها وعديدها، بادئ ذي بدء، لنلا يقع في قلوب بعض الناس منهم الخوف من قوة قریش وجبروتها.

تحفيز المسلمين معنوياً، سواء على مستوى الآخرة ومغفرة الله وجنته، أم على مستوى الدنيا ومرغباتها المالية، حيث استولت قریش سابقاً على أرزاقهم.

طمانة المسلمين بأن الله تعالى معهم، ناصرهم، ومؤيدهم، طالما هم متّحدون تحت راية النبي ﷺ)، ومطيعين لأوامره ونواهي.

دفع قریش الى معركة حربية عاجلة واستخدام عنصر المفاجأة والسرعة في التخطيط والإنجاز وذلك كي لا يتكاثر الأعداء من حول المسلمين وهم لا يزالون قلة.

أن انتصار المسلمين في بدر كان مصيبة مقدّرة على الكافرين، وخلصاً موعوداً للمؤمنين، فرقاناً يشبه حادثة البحر الأحمر بالنسبة لموسى واليهود.

ب - اليهود:

عدوٌ يمكن انذاره الى يوم قريب، فهم لم يُظهروا للنبي ﷺ) عند مقدّمه الى المدينة إلا البشاشة والفرحة وإن كانت فرحة مزوّرة، وقد هادتهم الرسول ﷺ) وكتب

بينه وبينهم كتاباً يسمى بـ "دستور المدينة أو الصحيفة أو الوثيقة". ومع ذلك، فقد تناول المستشرق واط النضال العسكري للنبي ﷺ ضد اليهود قاتلاً:

(حدثت خلال الأشهر والسنوات التي تلت تغيير القبلة، عدة صدامات مسلحة بين المسلمين واليهود، من السهل جمعها معاً من وجهة النظر التاريخية، ولكن لا يجب الظن، بدون فحص دقيق، إن هذه الحوادث نتجت عن سياسة مقصودة ربما اتبعت في ٦٣٢م. قبل بدر، وكان هدفها طرد اليهود أو التخلص منهم).

ويتابع واط وصف الأحداث، فيرى أن محمداً ﷺ بعد عودته من بدر، كرّر دعوته لليهود إلى الإسلام، مع الإشارة إلى الخسائر الضخمة التي تكبدتها مكة، وأن ذلك مثل على مصير الذين لا يستجيبون لرسالة الله. وكأنه يريد القول: إن محمداً هُدد اليهود بعد أن انتصر في معركة بدر، وأراد ﷺ أن يفرض الإسلام على اليهود بالقوة، بينما يقول القرآن: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}.

والحقيقة أن بني قينقاع لم يتحملوا انتصار المسلمين في بدر، فاتجهوا نحو نقض العهد والميثاق بينهم وبين الرسول ﷺ. ومشهور ما فعلوه مع المرأة المسلمة في سوقهم، حيث كشفوا عورتها، وقتلوا المسلم الذي دافع عنها، وتفاحروا في وجه الرسول ﷺ بقوتهم وخبرتهم القتالية.

ولعل واط نسي عهد المدينة الذي خصّص له فصلاً كاملاً في كتابه، ونسي أن أول ما أعطاه الرسول ﷺ لليهود هو الاستقلال الديني، وأن للمسلمين دينهم، ولليهود دينهم، ولكن يهود المدينة قد سبّوا لأنفسهم مأساةً كبيرة وضيعوا فرصاً جميلةً. ج- المشركون العرب عدا قريش:

وهؤلاء قوم يرجى إسلامهم إذا امتدّت يد الإسلام في الجزيرة العربية، ولذلك فالأفضل انذارهم وانتظار قدومهم مسلمين وهكذا كان فدخلوا في الإسلام عام الوفود. د- المشركون وراء الجزيرة العربية:

كالفرس والروم والغساسنة وغيرهم، وهؤلاء أقوياء وليسوا على تماس مباشر مع المسلمين، أي ليسوا محل ابتلاء، ولذلك انتظر النبي ﷺ إلى أن تقوى شوكة المسلمين، ويستكمل بناء دولتهم وبناء جيشهم، وهكذا كان فقد أرسل لهم الرسول ﷺ الرسل في آخر عهده.

هـ - المنافقون في المدينة:

كان لا بد من أن يتعامل معهم النبي ﷺ بحذر شديد، وأن يكون واعياً لمكرهم ومخططاتهم السرية العداوية.

موقف النبي ﷺ من اليهود والمنافقين

ظنَّ أكثر اليهود يتظاهرون بالسَّلْم للنبي ﷺ ويسرّون الغدر، ويستغلّون المناسبات لإثارة الفتن وانضم إليهم جماعة من المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وأسروا النفاق، كعبدالله بن أبي بن سلول، رأس الشرك والنفاق، وآخرون كزُوي بن الحارث، وجلاس بن سويد بن الصامت، وأخوه الحارث بن سويد، وبجاد بن عثمان بن عامر، ونبئل بن الحارث، وأبو حبيبة بن الأزعر، وثعلبة بن حاطب، ومُعْتَب بن قشير، وعباد بن حنيف، وجارية بن عامر بن العطف وابناه زيد ومُجمَع، ووديعة بن ثابت، وخذام بن خالد، وعمرو بن مالك بن الاوس.

ولكل من هؤلاء المنافقين قصة مع النبي ﷺ لا يتسّع المجال لذكرها، ولكن أذكر قصة اثنين منهم على سبيل المثال لا الحصر، وهما معتب بن قشير الذي قال يوم الأحزاب: كان محمّدٌ يعدنا بأن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن ان يذهب الى الغائط، فأنزل الله فيه: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}.

والآخر هو عبدالله بن أبي بن سلول، الذي انسحب في منتصف الطريق الى أُحُد، ومعه ثلاثمائة من رجاله، ولم يزعج نفسه بإخبار محمّد ﷺ بقراره، بالرغم من أن المرتدّين معه عن المعركة كانوا يمثلون ثلث المقاتلين المسلمين، إذ كان عدد المقاتلين الإجمالي حوالى الألف.

لقد كشفت معركة أحد، من خلال الأفعال والأقوال، العدو الحقيقيّ للمسلمين في المدينة، وهو اليهود والمنافقين. أما اليهود فقد رفضوا الاشتراك في الحرب، بحجة أن ذلك اليوم كان يوم سبت، لكن المسلمين كانوا يعرفون جيّداً أن اليهود كانوا يصلّون من أجل النصر للمكّيين، وهذا ما ظهر منهم بعد انتهاء المعركة، حيث قالوا: إن محمّداً ﷺ كان رجلاً طموحاً، دون مؤهلات نبوية، فتساءلوا مستهزئين: من سمع عن نبي حقّ مني بنكسة كهذه؟

أما المنافقون وعلى رأسهم ابن أبي فقد كانوا سعداء بهزيمة المسلمين في معركة أحد، حيث أكّد هو وأنصاره وبصوت عال، أنه لو تم إتباع رأيه لما تكبّد المسلمون هذه الإصابات.

ويقول الريشهري في ميزان الحكمة: (وقد استفاضت الأخبار وتكاثرت في أن عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين، وهم الذين كانوا يقبلون الأمور على النبي ﷺ ويتربصون به الدوائر، وكانوا معروفين عند المؤمنين، يقربون من ثلث القوم، وهم الذين خذلوا المؤمنين يوم أحد).

وقد سُمِّي ابن أبي وانصاره، بعد معركة أُحُد بالمنافقين، ولكن مونتغمري واط يقترح تسميتهم (بالزواحف او الفئران)، ففي أُحُد تسلَّلوا هاربين الى جحورهم مثل حيوانات صغيرة مذعورة، فقد كانوا جبناء، ولم يكن في تصرفهم أي شهامة.

وفي هذا السياق، يقول المؤرِّخ (د. إبراهيم بيضون): (إن حركة النفاق كانت إحدى محصَّلات الهجرة الى المدينة، ونشأت في ظل التناقضات التي بلغت ذروتها بين المسلمين واليهود، وانعكست بصورة ما على العلاقة بين المهاجرين والأنصار، طامحاً من خلالها ابن أبي الى اتخاذ موقع سياسي له في المدينة. ولا شك في أن حسم المسألة اليهودية قد أضعف كثيراً هذه الحركة، التي اقتصر مجالها على محاولة اختراق الجبهة الإسلامية، وإذكاء العصبية والأقليمية بين الأنصار (أهل المدينة) وبين المهاجرين (أهل مكة).. وأن الدولة الإسلامية نجحت في استيعابها (أي حركة النفاق)، وتهميش دورها في المدينة، مراعية شخصية زعيمها عبدالله بن أبي).

ويشيد (د. بيضون) بالمناخ السياسي والفكري الرَّحِب، الذي تقبَّل - برغم الحذر- مثل هذه الحركة طوال تسع سنوات، ما يؤكد صواب السياسة الموضوعية التي انتهجها الرسول ﷺ في مواجهة الأنقسام الداخلي، الأمر الذي أدى الى إعطاء صورة انموذجية عن مجتمع تسوده الأخوة والعدالة والحرية، ولا يلغي بعضه بعضه الآخر (٧٥)، فيشارك الجميع في الحياة السياسية، سواء الموالات أم المعارضة.

ولا شك في أن الإسلام هو دين الرَّحمة والتسامح والمشورة، ولكنه أيضاً دين الحسم والقرار؛ إذ يقول تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ).

ودين ولاية الأمر والوحدة وإطاعة القيادة؛ إذ يقول الله تعالى في آية أخرى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا).

ولشدة خطورة النفاق والمنافقين على الإسلام والمسلمين، خصَّص الله تعالى لهم، في كتابه العزيز، سورة كاملة تتألف من إحدى عشرة آية، عدا الآيات الأخرى المتفرقة في سور قرآنية أخرى، فوصفهم الله بالكفر قاتلاً: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ).

وهكذا، فقد اهتَمَّ القرآن الكريم بأمر المنافقين اهتماماً بالغاً، وذكر مساوئ أخلاقهم، وأكاذيبهم وخداعهم ودسائسهم، والفتن التي أقاموها على النبي ﷺ وعلى المسلمين، وقد تكرر ذكرهم في السور القرآنية، وقد أوعدهم الله في كلامه أشدَّ الوعيد في الدنيا والآخرة، وليس ذلك إلا لشدة المصائب التي أصابت الإسلام والمسلمين من كيدهم

ومكرهم وأنواع دسائسهم، كانتلالهم من الجند الإسلامي يوم أحد، وهم ثلثهم تقريباً، وعقدهم الحلف مع اليهود واستنهاضهم على المسلمين، وبنائهم مسجد ضرار الذي شارك في بنائه بعض هؤلاء فهى الله نبيه ﷺ عن الصلاة فيه، وإشاعتهم حديث الإفك الذي اتهموا فيه زوجة النبي ﷺ في مارية القبطية بالخيانة الزوجية، وإثارتهم الفتنة.. الى غير ذلك مما تشير إليه الآيات، حتى بلغ أمرهم في الإفساد وتقليب الأمور على النبي ﷺ الى حيث هددهم الله تعالى بمثل قوله:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا).

وربّ متسائل عن صبر النبي ﷺ الكبير على عبدالله بن أبي بن سلول، وأصحابه في المدينة ما داموا منافقين، وجوابنا هو أن النبي ﷺ قد واجه هؤلاء المنافقين، في كل محطة، كانوا يثيرون فيها الفتنة، ويشيعون فيها الأكاذيب، ويقلبون بها الأعداء، لكن مواجهته لهم كانت سياسية ولم تكن عسكرية لأسباب عديدة نذكر منها:

أنهم يشكلون نسبة لا بأس بها من سكان المدينة فهم ليسوا بقلّة.
أن زعيمهم ابن أبي كانت له مكانته في قومه، وكان يطمح الى زعامة العرب في المدينة، وقد انتهى حُلمه بمجيء رسول الله ﷺ وهاجرته الى المدينة.
أن النبي ﷺ كان يواجه التهديد السياسي بالعمل السياسي والتهديد العسكري بالعمل العسكري ولم يكن يُصعدّ موقفه من البداية، وهذا ما يتناسب مع رحمة الإسلام والدعوة إليه.

أن مجتمع المسلمين في المدينة كان لا يزال في بداية تكوينه، ويحتاج الى وقت لتستقرّ أموره ويتماسك ويقوى.

أن النبي محمد ﷺ كان يعمل بحسب ترتيبه للاولويات، فكان يرى أن تفرّغه لمواجهة خطر قریش من جهة، ويهود المدينة الذين نقضوا العهد والميثاق من جهة أخرى، أهم من مواجهة المنافقين عسكرياً.

ثامناً: التشريع: إن من أهم مقومات الدولة، التشريع مع النظام السياسي والمالي والقضائي والإداري والمدني، وقد بين القرآن وشرع كافة المتطلبات، فنزلت آيات التشريع المالي والجهادي والقضائي والسياسي وغيرها، ونزلت آيات الجهاد والعقوبات والخمس والزكاة والمواريث والزواج والعلاقات الاجتماعية كما أغنت السنة النبوية التشريع الاجتماعي بطريقة العقل والممارسة.

تاسعاً: العلاقات الخارجية:

وقد تجسدت بالتحرك السياسي وذلك بمخاطبة الملوك والرؤساء وزعماء النصارى وزعماء المشركين وغيرهم فأصبحت هنالك علاقات خارجيه وكان من أهمها دعوة الملوك للدخول في الدين الإسلامي الحنيف.

لقد انتهز الرسول ﷺ فرصة الهدنة مع قريش وأخذ في إرسال المبعوثين والرسالات الخطية الى الملوك يدعوهم للإسلام والابتعاد عن الوثنية وأهم هذه الرسائل:

١- رسالة الى هرقل إمبراطور الروم وقد تقبلها بقبول حسن.
٢- رسالة الى كسرى إمبراطور الفرس ولكنه ثار وأرسل الى حاكم اليمن الموالي لفارس لقتل رسول الإنسانية محمد ﷺ ثم أخبرهم الرسول ﷺ بمقتل كسرى على يد ابنه شروية ولما عاد الرجلان بخبر كسرى وصدق الرسول، أسلما هما ومن كان معهما من الفرس ببلاد اليمن.

٣- رسالة الى النجاشي ملك الحبشة وقد عاد مبعوث الرسول ﷺ والمسلمين الذين كانوا بالحبشة وجهزهم بسفينتين وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب.

٤- رسالة الى المقوقس عظيم القبط بمصر وعاد مبعوث الرسول ﷺ بجاريتين فتزوج الرسول ﷺ من مارية القبطية وأهدى شقيقتهما سيرين الى شاعره حسان بن ثابت، وهكذا أخذ الرسول ينشر الإسلام في بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية، فمنهم من تقبل الإسلام بقبول حسن ودخل فيه ومنهم من تقبله بانزعاج وقرر أن يقاتل محمداً ﷺ.

عاشراً: ترسيخ دعائم الأمن في المدينة وذلك بجعلها حرماً آمناً لا يجوز القتال فيها.

حادي عشر: إقرار سيادة الدولة في النظام الإسلامي وإرجاع قرار الفصل في الخصومات الى القيادة الإسلامية والمتمثلة بالرسول الأكرم ﷺ.

ثاني عشر: توسيع دائرة المجتمع الإسلامي باعتبار أن المسلمين واليهود يتعايشون في نظام سياسي واحد.

ثلاثة عشر: الحث على إشاعة روح التعاون بين أفراد المجتمع الإسلامي كافة. وهكذا كان عمل الرسول الأكرم ﷺ عملاً دوياً ومتفانياً في سبيل الله وإعلاء كلمته، وأن يجعل من تلك الأمة، أمة تقود العالم، وكما قال تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

لقد تجلت عظمة الرسول ﷺ ومقدرته السياسي من التعامل مع القوى المنحرفة بالنوايا الحسنة ودعاهم الى الإسلام ودفع الخطر، فاليهود لهم عبء اقتصادي وعددهم لا يستهان به، وكذلك المشركون لهم قوة، والمنافقون أيضاً، فلا بد

من احتوائهم، ولقد استطاع الرسول الأكرم ﷺ كتابة معاهدة الصلح معهم، وذلك بالتعاون بين المسلمين واليهود وغيرهم لبناء دولة تعود بمركزيتها للرسول ﷺ، حيث الجميع فيها يتمتع بالحقوق الإنسانية على سواء.
ممارساته اليومية

يعود نسبه الى سادة مكة وأعرق قبائلها، اسمه (محمد) وهو مشتق من المصدر (حَمَدٌ)، والناس منذ زمانه وحتى هذه اللحظة والى أن يرث الله الأرض ومن عليها يصلون عليه مرات عديدة في اليوم والليلة (ﷺ).

لم يمارس أبدا عادات القبيلة في عبادة الأصنام والوثان أو الالهة التي كانوا يصنعونها بأيديهم، كان يؤمن بأن الإله المعبود هو إله واحد ويجب أن يعبد لوحده دون أي شريك .

كان يجل ويوقر اسم الله ولم يتخذة أبدا هزوا أو سخريا، ولم يستخدمه لأغراض أو مصالح لا جدوى منها، كان يحتقر العبادات الخاطئة وكل ما يترتب عليها من سلوكيات ومعاملات منحطة، التزم بتطبيق جميع التعاليم الدينية (تعاليم الله الواحد) كما فعل الأنبياء من قبله.

كان يحرم الربى كما فعل من قبله المسيح عليه السلام بقرون، ولم يقامر قط ولم يسمح بهذا الفعل .

لم يشرب الخمر قط، مع أنها كانت عادة جاهلية منتشرة بين الناس انذاك .
لم يغترب أحدا أبدا وكان يعرض عما يسمعه من غيبة ونميمة، كان دائم الصوم تقرباً الى الله تعالى وإعراضا عن الشهوات من حوله.

قال بأن المسيح عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا السلام هو معجزة الله في خلقه وبأن أمه العذراء من بين أفضل خلق الله تعالى في زمانها.
وأكد ﷺ حتى ليهود المدينة بأن عيسى عليه وعلى نبينا السلام هو المسيح الذي ذكر في التوراة .

وقال بأن المعجزات التي جاء بها عيسى ﷺ (من إبراء الأكمه والابريص وإحياء الموتى) هي من عند الله.

كما أعلن بوضوح بأن عيسى ﷺ لم يمت، بل إن الله رفعه الى السماء.
وقد أوضح ﷺ بوحي من الله بأن المسيح سيعود آخر الأيام ليقود المؤمنين الى النصر على أعداء الحق ويقتل المسيح الدجال تحت راية الامام المنتظر عجل الله تعالى فرجه.

كما أمر ﷺ بدفع الزكاة للفقراء، وكان الحامي والمدافع عن الأرامل واليتامى وأبناء السبيل .

وأمر بلم شمل الأسرة الواحدة وتقديس الروابط الاسرية، كما أعاد بناء العلاقات ما بين أفراد العائلة .

وحث اتباعه على الارتباط بالنساء عن طريق الزواج الشرعي وحرمة الزنى لبناء المجتمع السليم.

وأكد ﷺ على إعطاء النساء حقوقهن من مهر وإرث وأموال ومستحقاتها واحترامها في المجتمع وأنها جزء لا يتجزأ منه كل سلوكياته النبيلة من صبر وتواضع وغيرهما أدت الى إعراف الجميع ممن عرفوه بخلقه الحميد والذي لا مثيل له بين البشر.

ما كُتِبَ عن شخصية الرسول ﷺ عند غير المسلمين:

لم يُكْتَبَ عن شخص على وجه الأرض كما كُتِبَ عن المصطفى ﷺ وكان محط تقدير العديد على مر القرون حتى من مشاهير الكتاب غير المسلمين. ومن أوائل الأمثلة التي نشير إليها هنا مقتبس من الموسوعة البريطانية والتي ورد فيها بأن العديد من الشواهد الأولية تظهر بأن الرسول المصطفى ﷺ كان رجلاً مستقيماً أميناً اكتسب احترام وولاء العديد من الرجال المحترمين الأمناء. كما وأن الكاتب مايكل هارت في تحفته (المائة قائمة بأكثر الرجال تأثيراً في التاريخ) حيث يضع الرسول الأكرم ﷺ في المرتبة الأولى بين أكثر من مائة شخص تأثيراً في التاريخ، ويليه عيسى عليه السلام في المرتبة الثانية.

وبملاحظة النص الفعلي من الكتاب نجد أنه يقول: قد يفاجئ البعض، كما قد يتشكك البعض الآخر من اختياري لشخصية محمد (ﷺ) على قمة قائمة أكثر الشخصيات العالمية تأثيراً، ولكنه كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي أحرز نجاحاً منقطع النظير على المستويين الديني والتعليمي.

وعندما نستعرض أقوال مشاهير الكتاب غير المسلمين، نضع نصب أعيننا الكلمات التالية التي وردت لبعض من الكتاب ونختار منهم:

- 1- الكاتب: لامارتان، حيث يقول: كان محمد (ﷺ) فيلسوفاً، خطيباً، رائداً، مشرعاً، محارباً، مفكراً، محيي العقيدة السليمة ذا دين بلا أصنام، مؤسساً لعشرين امبراطورية أرضية، كلها تابعة لامبراطورية روحية واحدة، وبجميع مقاييس عظمة الرجال يمكننا أن نتساءل، أيوجد رجل أعظم من محمد (ﷺ)؟
- 2- ويقول الكاتب الشهير (غير المسلم) جورج برنارد شو: لا بد ان نطلق عليه لقب منقذ الإنسانية، واعتقد لو وجد رجل مثله وتولى قيادة العالم المعاصر لنجح في حل جميع مشاكله بطريقة تجلب السعادة والسلام المطلوبين.

٣- أطلق أستاذ الفلسفة الهندي (الهندوسي) ك. س. رامكريشنا راو على محمد (ﷺ) في كتابه (محمد رسول الإسلام) لقب (النموذج المثالي للحياة الإنسانية)، ويشرح راو رأيه قائلاً: من الصعب الوصول الى الحقيقة الكاملة لشخصية محمد (ﷺ)، فقط أمكنني إدراك لمحة منها، ويا لها من لقطات فاتنة، فهناك محمد (ﷺ) النبي، محمد (ﷺ) المحارب، محمد (ﷺ) رجل الأعمال، محمد (ﷺ) رجل الدولة محمد (ﷺ) الخطيب، محمد (ﷺ) المصلح، محمد (ﷺ) ملاذ اليتامي، محمد (ﷺ) حامى العبيد والرقيق، محمد (ﷺ) محرر المرأة، محمد (ﷺ) القاضي ومحمد (ﷺ) القديس.

في كل هذه الادوار الرائعة في مختلف اقسام الأنشطة الإنسانية كان محمد بطلاً. ٤- أما المهاتما غاندي في حديثه عن شخصية محمد (ﷺ) في مستعرض كتابه (الهند الشابة) يقول: أردت أن أعرف من هو أفضل من يمكن أن يكون له الحكم المطلق على قلوب ملايين البشر في وقتنا الحالي، فأصبحت مقتنعا بأن ما اكتسب الإسلام مكانه في دائرة الحياة بالسيف، وإنما كانت البساطة الصارمة والتسامح المطلق للنبي محمد (ﷺ)، احترامه الشديد لعهوده، اخلاصه العميق لأصدقائه وأتباعه، جرأته، شجاعته، إيمانه المطلق بالله وبرسالته.

كل ما سبق وليس السيف هو ما قادهم وذلك امامهم كل العوائق. وحين انهيت الجزء الثاني من السيرة الذاتية للنبي محمد (ﷺ) شعرت بالأسف لأنه لا يوجد شيء آخر أقرأه عن حياته العظيمة.

٥- وفي كتاب (الأبطال والبطولة) تعجب مؤلفه توماس كارلايل كيف تمكن رجل واحد بمفرده في ربط شمل القبائل المتحاربة والبدو الهائمة ليصبحوا من اقوي الأمم وأكثرها تحضراً في فترة تقل عن عقدين من الزمن.

٦- كما وأن المقطع التالي من كتاب (أنبياء الشرق) لمؤلفه ديوان شاند شار جاء فيه: كان محمد (ﷺ) روح العطف، كما كان تأثيره لا ينسى على كل المحيطين به. لم يكن محمد (ﷺ) أكثر أو أقل من مجرد إنسان، ولكنه كان رجلاً ذا رسالة نبيلة، ألا وهي توحيد البشرية على عبادة رب واحد أحد، وتعليمهم الطريق لحياة شريفة مستقيمة أساسها اوامر الله. كان وصفه (ﷺ) لنفسه أنه (عبدالله ورسوله)، وكان ذلك خير وصف لكل أعماله.

٧- عند الحديث عن مبدأ المساواة أمام الله في الإسلام، تقول شاعرة الهند الشهيرة ساروجيني نياو:

كان الإسلام أول ديانة تحت على الديمقراطية وتمارسها، فعندما يؤذن للصلاة في المسجد ويتجمع المصلين، تتجسد ديمقراطية الإسلام خمس مرات يومياً، عندما

يركع العامة والملك معا ويقولون (سبحان ربي العظيم)، لقد دهشت بقوة من وحدة الإسلام التي لا تجزأ، والتي تجعل جميع الرجال أخوة.

٨- ويقول الأسناد هورجرنونج: وضعت عصابة الأمم التي أسسها رسول الإسلام مبدأ الوحدة العالمية والأخوة الإنسانية على أسس شاملة، لتكون شمعة تنير الطريق للأمم الأخرى، ويكمل الحقيقة أنه لا توجد أمة في العالم أظهرت مثلما فعل الإسلام لتحقيق فكرة وحدة الأمم.

٩- جاء في كتاب (تاريخ الامبراطوريات العربية) يقول أدوارد جيون وسيون أوكلي: لا اله الا الله محمد رسول الله، تصريح بسيط ثابت لإعلان المرء عن إسلامه، حيث لم تتأثر الصورة العقلانية لله بأي من صور الأصنام، كما أن شرف النبي محمد (ﷺ) لم يتعد حدود الفضيلة الإنسانية، وحددت تعاليمه مقدار عرفان حواريه بالجميل في حدود المعقول والدين.

١٠- وأما ولفجانج جوئي، الشاعر الأوروبي فقد قال عن النبي محمد (ﷺ):
(إنه نبي وليس بشاعر، وعلى ذلك فيعتبر قرآنه قانونا مقدسا وليس كتابا بشريا تعليميا أو ترفيهيا، لا يتردد الناس في تمجيد وتأليه بعض الأشخاص ممن تاهت حياتهم أو رسالتهم وسط الاساطير تاريخيا، ولم ينجز أي من هذه الاساطير جزء ولو يسير مما أتم محمد (ﷺ)، وكان نضاله من أجل توحيد البشرية وعبادة الله الواحد الأحد وتحقيق مكارم الأخلاق.

لم يدع محمد (ﷺ) أو اتباعه في أي زمن انه ابن الله او انه تجسيد لله، او انه رجل ذو قدسية، بل كان وما زال يعتبر رسول الله.

واليوم، وبعد مرور ١٤ قرناً من الزمان بقيت حياة وتعاليم محمد (ﷺ) كما هي بدون أدنى نقصان، تعديل، أو تحريف.

وتمثل الأمل الحي لمعالجة الكثير من أمراض الإنسانية، كما كان الحال أثناء حياته. هذه ليست افتراضات لأتباع محمد (ﷺ)، وانما هي الحقيقة التي لا مفر منها والتي يفرضها علينا التاريخ العادل.

إفرازات الهجرة المباركة ونتائجها في وحدة الأمة وتسهيل الإنجازات النبوية:

يمكن استثمار نتائج الهجرة النبوية الشريفة واعتبارها أساسا لتسهيل إنجازات ونشاطات الرسول المصطفى (ﷺ) في المدينة المنورة ويمكن ايجاز أهمها بما يلي:

١- أن الإسلام وجد في المدينة المنورة مكانا هادئا وأرضا خصبة وجوا صالحا للمسلمين ولاستمرار الدعوة الإسلامية وانتشارها حتى تصل الى أمم الأرض المختلفة، ما كان يستطيع أن يصل إليها وهو في مكة، والسبب في ذلك أن مكة بلد

معارضة الإسلام ومحاربة الرسول المصطفى ﷺ، وأن أهلها أعداء للإسلام يقاومون الرسول ودعوته، ويؤذون من يدخل فيه ويعتقه بخلاف المدينة وأهلها. ولأن المدينة متوسطة بين الأمم المعروفة كالشام ومصر والفرس وأقطار من بلاد العرب، مما سهل على النبي ﷺ الاتصال بأفرادها ونشر الدين الإسلامي فيهم، وإرسال الوفود إليهم التي تشرح أحكامه وقواعده لهم، ولأنها كانت محطة للتجارة ومرور القوافل الذاهبة إلى الشام والراجعة منها، وهذا يساعد النبي ﷺ على مقابلة المسافرين وعرض الإسلام عليهم ولأن بها قبيلتين: من أقوى القبائل العربية وهي الأوس والخزرج، ومنهم الذين عاهدوا الرسول الأكرم ﷺ على نصره ونشر دينه وقد صدقوا ما عاهدوه عليه.

٢- أن المسلمين اتخذوا هذا الحدث العظيم، حدث الهجرة مبدأ لتأريخهم العربي الذي سمي بالتاريخ الهجري والذي أصبح فيما بعد بداية محرم الحرام هو رأس السنة الهجرية في تحديد السنة، وبهذا العمل عدلوا عن الطريق القديمة التي كانوا يلجأون إليها في تاريخ الحوادث حيث يختارون لذلك ميلاد ملك أو أمير أو موت عظيم أو اشتعال حرب أو وقوع حادث كبير مثل عام الفيل.

٣- أن المدينة نالت الزعامة بين سائر البلاد العربية، وأشاد الناس بذكرها، وقصدها الراغبون في الإسلام كما قصدها الراغبون في السلم والاطمئنان، فأضحت محطة للتجارة، ومقراً للتجار وانتشرت فيها الأسواق والصناعات وراجت فيها مدارس العلم وكان لها شأن وأي شأن.

٤- كتابة وثيقة المعاهدة بين المهاجرين والأنصار واليهود وباقي الأجناس، وواعد فيها الرسول ﷺ اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وتضمنت الوثيقة المبادئ التي قامت عليها أول دولة في الإسلام وفيها من أسس الإنسانية والعدالة الاجتماعية والتسامح الديني، والتعاون على المصلحة العامة للمجتمع الجديد المتطلع للعدالة السماوية، ما يجدر بكل إنسان الرجوع إليه فهي تتضمن أهم الأسس لإصلاح البشرية.

أهم الغزوات والحروب:

بلغت الغزوات التي اشترك فيها الرسول ﷺ حوالي (٢٧) غزوة، وكان الهدف منها إزالة العوائق التي تعرقل سير الدعوة إلى الله وتثبيت ثوابت الشريعة الإسلامية. ففي السنة الثانية للهجرة وقعت معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً حيث قُتل في هذه المعركة رؤوس الشرك والضلال، ودخل المسلمون بذلك مرحلة جديدة من الصراع مع المشركين.

وفي السنة الثالثة للهجرة حصلت معركة أحد التي ابتلى الله بها المؤمنين حيث فاتهم النصر.

وفي السنة الخامسة حصلت معركة الأحزاب المعروفة بوقعة الخندق فحقق المسلمون نصراً عزيزاً على قريش ومن معها من القبائل العربية وكفى الله المؤمنين القتال بسيف الامام علي بن أبي طالب عليه السلام.

وفي السنة السادسة للهجرة عقد الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم مع قريش (صلح الحديبية) بهدف إزاحتها من طريقه، ففسح له المجال لنشر الدعوة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية حتى قويت شوكة المسلمين وانتصروا على اليهود في غزوة خيبر.

فتح مكة: ولم يُكتب لصلح الحديبية أن يصمد بعد أن نقضته قريش، فتوجه النبي صلى الله عليه وسلم بجيش بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل الى مكة ودخلها فاتحاً من دون إراقة دماء تُذكر، وذلك في السنة الثامنة للهجرة.

في السنة التاسعة للهجرة انشغل النبي صلى الله عليه وسلم بحرب الروم وانتصر عليهم في معركة تبوك.

حجة الوداع : وفي السنة العاشرة للهجرة وبعد أداء مناسك الحج وقف رسول الإنسانية صلى الله عليه وسلم في غدير خم مستجيباً لنداء السماء وما جاء بالكتاب الكريم: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) ، معلناً على الملئ إكمال الدين وإتمام النعمة والرضى بدين الإسلام شريعة ومنهاجا.. فقال صلى الله عليه وسلم في خطبته:

(من كنت مولاه فهذا علي مولاه). وبهذه المناسبة نزل قوله تعالى:

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً).
ارتحال النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم:

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة وأثناء تجهيز جيش بقيادة أسامة بن زيد لغزو الروم فجع المسلمون بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم. ففاضت روحه الطاهرة في حجر الامام علي بن أبي طالب عليه السلام.

بعض وصايا النبي الأكرم بخصوص الأخلاق:

وهنا نستعرض بعض الوصايا للامة في الأخلاق لسيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم :-

- ١- ورد عن النبي المصطفى ﷺ قوله: (أفاضلكم أحسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافهم الذين يألفون ويؤلفون، وتوطأ رجالهم) والاكناف: جمع كنف وهو الناحية والجانب ويقال رجل موطأ الاكناف: اي كريم مضياف.
- ٢- كما ورد عنه ﷺ قوله: (إن صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم).
- ٣- وورد عنه ﷺ قوله: (إن صاحب الخلق الحسن يميث الخطيئة كما تميث الشمس الجليد).
- ٤- كما ورد عنه ﷺ قوله: (إنكم لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم).
- ٥- وورد عنه ﷺ أنه جاء اليه رجل فقال: يا رسول الله أوصني؟ فقال له: احفظ لسانك.
- فقال يارسول الله أوصني؟ فقال ﷺ: احفظ لسانك، ثم قال الرجل ثالثة: يا رسول الله أوصني، فرد عليه الرسول الأكرم ﷺ: احفظ لسانك ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار الا حصائد السنتهم).
- ٦- جاء في الروايات: أن رسول الله ﷺ جاءه أعرابي خشن الطبع وهو جالس في مسجده وحوله جماعة من أصحابه، فطلب من النبي ﷺ حاجته.
- ٧- فلم يتمكن النبي ﷺ من قضائها في ذلك الوقت، فأرجأه الى وقت آخر.
- لكن الأعرابي كان سيئ الأدب، فتكلم بما لا يليق أن يقال عند النبي ﷺ فنارت حمية الأصحاب، وأرادوا تأديبه، إلا أن النبي ﷺ أمرهم بالكف عنه، ثم توجه الى الأعرابي وقال له: تعال معي الى الدار.
- فاصطحبه الى الدار وأعطاه ما يرضيه وقال له: هل رضيت عني؟
- قال الأعرابي: نعم، رضي الله عنك يا رسول الله، ومدحه.
- فقال له النبي ﷺ: اذهب وقل لأصحابي اني أرضيتك وإنك راض عني.
- فجاء اليهم في المسجد وأظهر رضاه عنه ﷺ.

الرسول الأكرم شهيد على الأمم يوم القيامة

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ).

الشهيد الاول على أمم الأرض يوم القيامة هو رسول الإنسانية الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ بعد أن أكمل الله على يديه رسالته الإسلامية السمحاء ونشرها بين البشر لتكون أعظم مدرسة أخلاقية وأرقى رسالة هدى وهداية وعدل ومحبة وسلام للبشرية عبر العصور.

وبما أن رسول الله محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء ورسالته أكمل الرسالات وأعظمها ثراء بالقيم الإنسانية المثلى فمن البيهبي أن تكون أبلغها أثرا في النفوس الواعية والعقول السليمة التي رفضت غوايات الغاوين وافتراءات المقترين وتحريفات المنحرفين. وتخرصات الحاقدين على هذا الدين ومحتواه الإنساني النابض بالطهر والرفعة والأصالة والسمو. وليس من شك في أن يكون رسول الإنسانية الأعظم محمد ﷺ هو الشهيد الاوّل على الشهداء من الأنبياء والأوصياء والصالحين جميعا مع أمهم من أول يوم خلق الله فيه آدم والى يوم القيامة وهو الثابت في كتاب الله الذي هو عصي على الباطل ودعاته وأتباعه.

قال تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جُنْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجُنْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا).
 وحين يخاطب الله سبحانه أمته الإسلامية التي أمنت بتلك الرسالة السمحاء (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).

فإن هاتين الآيتين البيّنيتين لكل ذي عقل ولمن ألقى السمع وهو شهيد تثبتان بالدليل الإلهي القاطع بأن من آمن إيمانا مطلقا بتلك الرسالة الإسلامية ورسولها العظيم محمد ﷺ في بدايات الدعوة الإسلامية وهم الصادقون المتقون وهم: علي وفاطمة (عليهما السلام) ومن ذريتهما الذين ساروا على الصراط المستقيم المتفانون من أجل دين الحق الذين أرسوا دعائم أمة الوسط والإعتدال الذين عاملوا الناس كما طلب منه ربهم العظيم في كتابه الجليل القرآن ونبيه الأكرم ﷺ في أحاديثه المتواترة الثابتة، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ:

(أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم الثقلين أولهما فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به - فحث على كتاب الله ورغب فيه- وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي).
 وهو القائل ﷺ وقوله الحق والصدق (لاتصلوا علي الصلاة البتراء) قالوا وما الصلاة البتراء يا رسول الله؟ قال: ﷺ: (تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون، بل قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد).

الفصل الثامن فلسفة الإسراء والمعراج وأبعادها

(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) // الإسراء: ١

لقد كانت رحلة الإسراء قبل الهجرة، وقد اقترب أوان التحرك إلى الملكوت الأعلى، إلى سدرة المنهى، عندها جنة المأوى، ليرى من آيات ربه الكبرى، بعد أن بلغت الجولة المكية ذروتها في التعقيد والعداء السافر لرسول الإنسانية جمعاء الرسول الأكرم ﷺ ولدعوته الإنسانية والإسلامية، ولينتشلهم من الظلام والضلال.

واحتاج مثل ذلك التحول الخطير إلى عملية امتحان قبله، تستخلص الصفة المؤمنة التي تصلح لاجتياز معبر التحول، وتقدر على حمل تكاليف الجهاد في الجولة الصعبة التي كانت تنتظر وفي الواقع التاريخي، أن السنوات العشر الأولى من المبعث كانت سنين صعبة وسنين عجاف حيث تمتحن المسلمين الأولين بالفتنة والأذى والاضطهاد.. وقد تأخر الإذن لهم في القتال، ريثما تتم عملية الإمتحان والتمحيص، فكان الثبات لوطة الفتنة وجهد الحصار، يستصفي للاسلام جنده المخلصين، ثم جاءت آية الاسراء، تنمة حاسمة لهذا الاستصفاء.

لم تكد الليلة في أولها، تختلف عن ليال سابقات تتابعت على مدى سنين، من ليلة المبعث: لقد كانت طواغيت المشركين من قريش مجتمعين في دار الندوة، يتحاورون ويدورون في حلقة مفرغة، التماسا لوسيلة أو ثغرة ينفذون منها عبر الطريق المسدود.

والرسول ﷺ قد أقام صلاة العشاء فيمن كان معه من آله وصحبه، وأوى إلى خلوته يتعبد ويتهدج كعادته في كل ليلة مع حبيبه وخالقه والمنعم عليه وما من أحد يتوقع أن يأتي الفجر القريب بجديد غير المعهود المألوف بأم القرى وبزغ نور الفجر.

بعد أن انفرد المصطفى حيث تركه آله وأصحابه بعد صلاة العشاء، وقام ﷺ صلى بمن معه لصلاة الفجر، ثم جلس فيهم بعد الصلاة يحدثهم أنه قد أسرى به في ليلته تلك، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأشرأبت إليه قلوبهم، وشدت أسماعهم إلى حديث الإسراء، ولو استطاعوا لأمسكوا أنفاسهم المبهورة، لكي يخلص إليهم صوت نبيهم في أنقى صفائه وصدقته المعروف في شخصيته.

وانتهى الحديث واران عليهم صمت خاشع، أخذهم فيه العجب كل مأخذ وهم يستعيدون فيما بينهم وبين أنفسهم حديث الاسراء، ويحاولون أن يستوعبوا أبعاد رؤياه الباهرة، ويتمثلوا مشاهدته المثيرة.

ولعلمهم ما كانوا ليجرحوا هذا الصمت، لولا أن رأوا النبي ﷺ يقوم من مصلاه، أخذاً طريقه الى حيث كان أهل مكة قد بدأوا حركتهم اليومية مع مشرق الصبح، عندئذ قامت أم هانئ بنت أبي طالب فتشبثت بابين عمها المصطفى ﷺ، تتضرع إليه ألا يحدث الناس بما رأى، لنلا يكذبه، وهو ﷺ يستمع اليها ولما تقول ابنة عمه، وقد أدرك ما يساورها من قلق وخوف. ثم استأنف سيره ليلقى القوم، مسلمين ومشركين، بحديث الإسراء. ماذا قال ﷺ عن مسراه في تلك الليلة؟

وما الذي نزل في الاسراء من آيات القرآن؟

لقد جاء بالحديث تفصيل لرحلة الإسراء من بدنها في المسجد الحرام الى نهايتها، ومنها: جاء (جبريل) أمين الوحي، والمصطفى في بيت أم هانئ وحمله على البراق - دابة بين البغل والحمار - وانطلق يسري به حتى وصل الى بيت المقدس ثم عرج الى السماء.. حيث وجد فيه الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى، في نفر من الأنبياء عليهم السلام، فأمهم المصطفى ﷺ وقيل صلى بهم في السماء.

ومن الصحابة من يقتصر - فيما نقل ابن هشام عن ابن إسحاق في السيرة النبوية - على هذه الرحلة من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، ذهاباً وإياباً.

ومنهم الكثير يروون معها قصة المعراج من بيت المقدس صعوداً في السماء الى سدرة المنتهى، ثم العودة اليه حيث ينطلق البراق سارياً بالمصطفى الى موضعه الاول، بالمسجد الحرام.. وهذا الحديث مروى عن عدة من المؤرخين واصحاب السير، وقد يختلفون في بعض التفاصيل، لكن الحديث في جملته ليس موضع خلاف حيث أسرى بجسده وروحه الطاهرة معا:

ففي المكان الذي بدأ منه الإسراء هناك رواية تقول إن المصطفى ﷺ كان عند الحجر حين أتاه جبريل. وتؤيدها آية الإسراء بصريح قوله تعالى: (من المسجد الحرام).

وهناك رواية أخرى من بيت (أم هانئ بنت أبي طالب)، حيث قالت: (ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي: فنام عندي تلك الليلة فصلى العشاء الآخرة، ثم نام

ونمنا. فلما كان قبيل الفجر أهبنا ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه. ثم قد صليت صلاة الغداة معكم كما ترين).

ومع نص أية الاسراء: (من المسجد الحرام) حمل المفسرون رواية أم هانئ، على أن المسجد الحرام يمكن أن يتناول في معنى الحرم، والحرم كله مسجد، ولم يذكر القرآن الكريم تفصيلا لمشاهد الإسراء، فليس في سورته إلا آيتها الأولى التي تحدد مجال الإسراء وغايته في قوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير)..

وكان ما أراد الله للإسراء برسوله ﷺ من راحة لنفسه ورفع الكاهل عن صدره الشريف من معوقات في دعوته الشريفة وليريه من آياته الكبرى، كما وأنها كانت (فتنة للناس) وابتلاء لمن آمنوا منهم، وللذين أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم.

وقد يكفي لبيان ما كان من فتنة الإسراء، أن نقرأ ما نقل ابن هشام رواية عن ابن إسحاق جاء فيها: (فلما أصبح ﷺ، غدا على قريش فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس: (هذا والله العجب اللين، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة الى الشام مدبرة، وشهرا مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة، ويرجع الى مكة؟).

وما نقله الطبري في تفسيره حيث يقول: (قال المشركون من قريش: تعشى فينا بمكة وأصبح فينا، ثم زعم أنه جاء الشام في ليلة ثم رجع، وأيم الله إن الحدأة لتجئها في شهرين: شهرا مقبلة وشهرا مدبرة، وما كان محمد لينتهي حتى يأتي بكذبة تخرج من أقطارها).. لقد حقق الإسراء آيته: فتنة وابتلاء وتمحيصا لمن رابهم أمر الإسراء بالمصطفى، وليس أعجب من الوحي يأتيه من الله سبحانه وتعالى، كما وأنه استصفى للإسلام جنده المخلصين، ممن صح إيمانهم وصدق عقيدتهم.

لقد نزلت سورة الاسراء في مكة، فهي سورة مكية، وقيل نزلت قبل الهجرة بسنة او سنتين وقد اتفقت كلمة المفسرين واجمعت على أن الإسراء كان بمكة قبل الهجرة كما يُستفاد من قوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام..) الآية المباركة مدار البحث.. فعن الامام الباقر عليه السلام أنه كان جالسا في المسجد الحرام فنظر

الى السماء مرة والى الكعبة مرة ثم قال: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، وكرر ذلك ثلاث مرات، ثم التفت الى إسماعيل الجعفي فقال: أي شيء يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي؟

قال: يقولون أسرى به من المسجد الحرام الى بيت المقدس، فقال: ليس كما يقولون، ولكنه أسرى به من هذه الى هذه وأشار بيده الى السماء، وقال: ما بينهما حرم.

وكذلك دلت الاخبار والروايات على ذلك، ومن تلك الروايات إخباره عليه السلام قريشاً بذلك في صبيحة ليلته التي أسرى به الى السماء في رحلته المباركة. لقد كانت رحلته من مكة المكرمة، ومن المسجد الحرام الى بيت المقدس وقد حمله جبرئيل على البراق وعرض عليه محاريب الأنبياء وصلى بها ثم رده فمر الرسول المصطفى عليه السلام في رجوعه بغير لقريش.

فلما أصبح بعد رجوعه من الإسراء والمعراج قال لقريش: إن الله جل جلاله قد أسرى بي الى البيت المقدس وأراني آثار الأنبياء ومنازلهم، وأني مررت بغير لقريش في موضع كذا وكذا وقد أضلوا بغيرا لهم فشربت من مائهم واهرقت باقي ذلك، فقال أبو جهل: قد أمكنتكم الفرصة منه، فسألوه كم الأساطين في مسجد المقدس وما فيها والقناديل؟.. فقالوا: يا محمد إن كنت قد دخلت بيت المقدس فصف لنا كم أساطينه وقناديله ومحاربيه؟

فجاء جبرئيل فعلق صورة بيت المقدس تجاه وجهه فجعل يخبرهم بما يسألونه عنه. فلما اخبرهم، قالوا: حتى تجيئ العير ونسألهم عما قلت، فقال لهم: رسول الله عليه السلام تصديق ذلك أن العير يطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق. فلما كان الغد أقبلوا ينظرون الى العقبه ويقولون هذه الشمس تطلع الساعة، فبينما هم كذلك، إذ طلعت عليهم العير حين طلع القرص يقدمها جمل أورق، فسألوه عما قال الرسول المصطفى عليه السلام، فقالوا لقد كان هذا فعلاً. لقد ضل جمل لنا في موضع كذا وكذا، ووضعنا ماء فأصبحنا وقد أهرق الماء، وقد صح ما قال الرسول الامين.

وقد اختلفت الأقوال عن وقت حدوث الإسراء والمعراج، فادعى ابن هشام وابن إسحاق أنه وقع في السنة العاشرة من البعثة الشريفة، وذهب المورخ البيهقي الى أنه حدث في السنة الثانية عشرة منها، بينما قال آخرون: إنه وقع في أوائل البعثة، في حين أن فريقاً رابعاً أكد وقوعه في أواسطها وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال إنه كان لرسول الله معارج متعددة أكثر من مرة.

وهناك اعتقاد أن المعراج الذي فرضت فيه الصلاة وقع بعد وفاة أبي طالب ﷺ في السنة العاشرة من البعثة، والذين تصوّروا أن المعراج وقع قبل هذه السنة مخطئون، لأن النبي ﷺ كان محصوراً في شعب أبي طالب منذ عام ٨ وحتى ١٠، فلم يكن المسلمون مستعدين لوضع التكاليف عليهم.

وأما سنوات ما قبل الحصار، فعلاوة على ضغوط قريش على المسلمين، والتي كانت مانعاً من فرض الصلاة عليهم، فإن المسلمين كانوا قلّة، ولم يكن نور الإيمان وأصول الإسلام قد ترسخت بعد في قلوب ذلك العدد القليل، ولذا يستبعد أن يكونوا قد كلفوا بأمر زائد مثل الصلاة في مثل تلك الظروف.

أما ما ورد في بعض الأخبار والروايات، بأن الإمام علياً ﷺ صلّى مع الرسول ﷺ قبل البعثة بثلاث سنوات، فليس المراد منها الصلاة المكتوبة، بل كانت عبارة عن عبادة خاصة غير محدّدة، أو كان المراد منها الصلوات المندوبة والعبادات غير الواجبة/ بحار الأنوار

وأما بالنسبة لما قيل وذكر عن معراج النبي ﷺ جسمانياً أو روحانياً، فقد قيل فيه الكثير، بالرغم من أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية تؤكد أن ذلك حدث جسمانياً، إلا أن بعض الآراء ترى أنه وقع روحانياً، أي أن روح النبي ﷺ طافت في تلك العوالم ثمّ عادت إلى جسده ﷺ مرّة أخرى.

وإذا كان المراد من المعراج الروحاني هو التفكير في عظمة الحقّ وسعة الخلق والتدبير في مخلوقات الله ومصنوعاته ومشاهدته وجماله وجلاله، فلا شك أن ذلك ليس من خصائص رسولنا الأكرم ﷺ بل إن كثيراً من الأنبياء والأولياء امتلكوا هذه المرتبة وعلى سبيل المثال ما حدث إلى إبراهيم في قوله تعالى: (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين).

بينما أعتبر القرآن الكريم الإسراء للرسول ﷺ من خصائصه ونوع من الامتياز الخاصّ به ﷺ، كما أن حالة التفكير في عظمة الخالق والاستغراق في التوجه إليه، كانت تتكرر للرسول ﷺ في كلّ ليلة، وليس ليلة بعينها كما جرى وحدث في الإسراء والمعراج.

أما في العلم الحديث، فإن القوانين الطبيعية والعلمية الحالية لا تتلاءم من الحالة الظاهرية مع معراج النبي ﷺ ؛ وذلك للأسباب التالية:

١- أن الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلُّص من جاذبيتها، أي إبطال مفعولها، والنبي ﷺ كان قد خرج عن محيط الجاذبية وأصبح في حالة انعدام الوزن، فكيف تمكن أن يطوى هذه المسافات بدون الوسائل والأدوات اللازمة، مع وعدم توافر الغطاء الواقى، الذي يصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة الهائلة؟

٢- كيف تمكن من العيش والحياة في أعالي الجو بدون وجود أوكسجين؟

٣- وكيف تمكن أن يصون نفسه من الأشعة الفضائية والأحجار السماوية؟

٤ - وإذا كان الإنسان يعيش تحت ضغط معين من الهواء لا يوجد في الطبقات العليا من الجو، فكيف حافظ على حياته هناك؟

٥ - لا يستطيع أي جسم أن يتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء، التي هي حوالي ٣٠ ألف كم في الثانية، فكيف استطاع النبي السير بتلك السرعة الهائلة ويرجع الى الأرض سالم الجسم؟

والجواب على ذلك سهل ويسير، فإن البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية الحديثة أن يعالج مشكلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء، مثل مشكلة الأشعة الفضائية وانعدام الغاز اللازم للتنفس، كما أن العلماء يخططون للعيش على سطح الكواكب كالقمر والمريخ، وبذا فإن العلم يؤكد سهولة ارتياد الفضاء وعدم استحالتة.. وإذا كان البشر بإمكانه أن يقوم بذلك عن طريق الأدوات والآلات العلمية، فإن الأنبياء يمكنهم فعلها بواسطة قدرة الله سبحانه وتعالى وفعله. فالنبي ﷺ عرج بعناية وقدرة الله الذي خلق الوجود كله، وأقام هذا النظام البديع. فجميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخرة لله تعالى وخاضعة لإرادته.

وهذا ما حدث فعلا عندما أمر النمرود إلقاء النبي إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في النار فجاء الأمر الرباني بتوقف النظام الطبيعي للنار بقوله: (يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) ، ومطبعة لأمره.

وكان النبي ﷺ يخبر البشرية وحتى الذين يعيشون في هذا القرن: أنني فعلت هذا بدون آية وسيلة، وإن ربي قد من عليّ وعرفني على نظام السماوات والأرض، وأطلعني بقدرته وعنايته على أسرار الوجود ورموز الكون.

وقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام في ذلك: إن الله لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان، ولكنه عزّ وجلّ أراد أن يشرف به ملائكته وسكان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون، سبحانه الله تعالى عما يصفون.

لقد وردت روايات كثيرة في قصة المعراج، في عروج النبي المصطفى ﷺ الى السماء وقد رواها كثير من الصحابة مثل ابن عباس وابن مسعود وأنس وجابر ابن عبدالله وحذيفة وعائشة وأم هاني وغيرهم، وقد زاد بعضهم ونقص بعض، ولكنها كانت في جملتها كالتالي :

- ١- عندما نستعرض الإسراء والمعراج فإننا نستوحي من ذلك قدرة الله والمعجزة التي حصلت للنبي ﷺ، حيث أسرى الله تعالى به من مكة الى بيت المقدس، من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، وفي وقت قصير لا يتجاوز الثلث من الليل، مما لا يمكن اجتيازه في ذلك الوقت إلا بأيام كثيرة، وكان ذلك الإسراء مظهراً لقدرة الله تعالى، وكرامة منه لرسوله الأكرم وحبيبه ﷺ ..
- ٢- الإسراء: هو السير بالليل وقد سار النبي ﷺ ليلاً من المسجد الحرام في مكة المكرمة الى المسجد الأقصى في فلسطين، وإنما سمي بالأقصى؛ لكونه أبعد مسجد عن مكة.
- ٣- ان تواتر الاخبار يقطع بما لاشك فيه بعروج الرسول المصطفى ﷺ الى السماء وفي أكثر من مرة.
- ٤- كان الاسراء بروحه وجسده جميعاً ﷺ وهذا بطبيعة الحال هو معجزة لرسول الله ﷺ، وأن المتأمل في آية الإسراء الكريمة ينكشف له أن الله سبحانه أسرى بشخص الرسول الأكرم (ﷺ) وليس بروحه مجردة عن الجسد، فالآية صريحة في دلالتها أن الله أسرى بعبده وليس بروحه، كما أنه إسراء وليست رؤيا صادقة كما يدعي البعض وكانت له ﷺ ميزة وصفة خاصة به.
- ٥- كان عروجه ﷺ الى ما وراء العالم المادي الى العلم الملكوتي مما يسكنه الملائكة المكرمون وينتهي اليه الاعمال، وقد رأى عند ذلك من آيات ربه الكبرى، وتمثلت

له الأشياء ونتائج الاعمال، وشاهد أرواح الأنبياء العظام ورأى ما لا يوصف كالعرش والحجب والسرادات وغيرها من الأمور الغيبية وغير المحسوسة.

٦- لقد بلغ الرسول المصطفى ﷺ الى سدرة المنتهى فقال له جبرئيل ﷺ: تقدم يا رسول الله وليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحتزقت، فتقدم الحبيب المصطفى ﷺ ماشاء الله أن يتقدم حتى سمع نداء: أنا المحمود وأنت محمد وشفتت اسمك من اسمي فمن وصلك وصلته ومن قطعك بكتته، أنزل الى عبادي فأخبرهم بكرامتي إياك وإني لم أبعث نبيا الا جعلت له وزيرا وأنتك رسولي وأن عليا وزيرك.

لقد ورد في سورة النجم بعض أحداث ووقائع العروج الى السماء، فقد ورد قوله تعالى: (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاع البصرو ما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى).

٧- لقد اختلف العلماء والمفسرون في السنة التي أسرى بها ﷺ وهذا لا يهم في البحث ولكن المهم ما ورد من الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت عليه السلام بوقوع الإسراء مرتين، وهو المستفاد من سورة النجم في قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى)، وقد كان الاسراء من مكة وقيل من المسجد الحرام والأخرى من بيت أم هانئ.

ورد في تفسير القمي، عن أبيه عن ابن محبوب عن ابن رناب عن أبي عبيدة عن الصادق عليه السلام، قال: كان رسول الله ﷺ يتقبيل فاطمة فأنكرت ذلك عائشة، فقال: ﷺ لها: يا عائشة إنني لما أسري بي الى السماء دخلت الجنة فادناني جبرئيل من شجرة طوبى وناولني من ثمارها فاكلته فحوّل الله ذلك ماء في ظهري، فلما هبطت الى الأرض واقعت خديجة، فحملت بفاطمة، فما قبلتها قط الا وجدت رائحة شجرة طوبى منها.

وإذا كان نبي الله إبراهيم عليه السلام قد أراه الله ملكوت السماوات والأرض وهو في الأرض، فلقد عرج الله برسوله الكريم محمد ﷺ بروحه وجسده للملا الأعلى فكان قاب قوسين أو أدنى من العرش، قال تعالى: (وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى).

إن الاسراء للرسول ﷺ كان في الأرض، حيث جاء جبرئيل عليه السلام مع البراق وألبسه قميص إبراهيم عليه السلام ضد النار وأسرى به من بيت الله الحرام الى المقدس،

فكانت جوله في الأرض فهي من بيت الله الحرام مكة الى طيبة مدينة الرسول ﷺ المستقبلية ثم الى الكوفة ثم طور سيناء ثم المسجد الأقصى، وكان بعدها المعراج نحو الملكوت الأعلى الى سدره المنتهى فرأى من آيات ربه الكبرى، وكانت مدة الإسراء والمعراج ثلث الليل، فقد أسري به في ليلته ورجع، فصلى الصبح في المسجد الحرام.

وأما فلسفة الإسراء والمعراج وأبعادها فكانت لها عدة أسباب نذكر أهمها ونوجزها بما يلي:-

١- أن حادثة الإسراء والمعراج تعتبر معجزة كبرى خالدة، ولسوف يبقى البشر الى الأبد عاجزين عن مجاراتها وإدراك أسرارها، ولعلّ إعجازها هذا أصبح أكثر وضوحاً في هذا القرن، بعد أن تعرّف هذا الإنسان على بعض أسرار الكون وعجائبه وغرائبه.

وأراد الله لرسوله، كما جاء في كتب السيرة، في روايات الخاصة والعامّة، أن يصعد به الى السماء صعوداً حسياً لا صعوداً روحياً، ليطلع على السماء وما فيها.

٢- أن الإسراء والمعراج كانت تمثل الارتباط الوثيق بين الشرائع السابقة والشريعة الإسلامية الخاتمة، وهي تمثل حلقات ومراحل نحو المرحلة الخاتمة والمهيمنة على جميع الشرائع وهي مرحلة الاعداد للرسول المصطفى ﷺ لقيادة العالم بأسره بالشريعة الإسلامية الخاتمة للشرائع السابقة وألهيمنة عليها جميعاً، وكما قال تعالى: (وأنزّلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه).

لقد أراد الله تعالى لرسوله ﷺ في هذا الإسراء، أن يفتح على آياته في الأرض وعلى كل النبوات والرسالات، حيث جاء في السيرة، بأن الله جمع له الأنبياء وصلى بهم في بيت المقدس، ومن ذلك انطلقت قداسة بيت المقدس إسلامياً، كما انطلقت في خط الرسالات.

وقد أراد الله تعالى للمسجدين الحرام والأقصى الذين انطلقا من موقع النبوة، أن يتواصلوا في خط كل الرسالات، وأن يتعاونوا في رعاية الرسالة والانفتاح على الله، وأن يعيشت فيهما المؤمنون الدعاة إليه والعاملون في سبيله، لا الذين يعادون الله ورسوله والناس كافة ويقتلون النبيين بغير حق.

٣- يلاحظ من قصة الإسراء والمعراج مشاهدة الرسول الأعظم ﷺ بعض آثار عظمة الله تعالى في عملية تربوية رائعة، وتعميق وترسيخ للطاقة الإيمانية فيه، وليعدّه لمواجهة التحديات الكبرى التي تنتظره، وتحمل المشاق والمصاعب والاذى والالام التي لم يواجهها أحد قبله ولا بعده، وكما ورد عنه ﷺ: (ما أؤذي نبي مثلاً أؤذيت).

٤- لقد كان الإنسان ولاسيما الإنسان العربي في تلك الفترة يعيش في نطاق ضيق، وذهنية محدودة، ولا يستطيع أن يتصور أكثر من الأمور الحسية، أو القريبة من الحس التي كانت تحيط به، أو يلتمس أثارها عن قرب فكان الإسراء والمعراج طرفة لفتح آفاق التفكير والتدبر في عظمة الله ومنزلة الرسول الأكرم ﷺ عند الله سبحانه وتعالى، فكانت هذه الحالة لفتح عيني هذا الإنسان على الكون الرحب، الذي استخلفه الله فيه؛ لي طرح على نفسه الكثير من التساؤلات عنه، ويبعث الطموح فيه للتعرف عليه، واستكشاف أسرارهِ، وبعد ذلك إحياء الأمل وبت روح جديدة فيه، ليبدل المحاولة للخروج من هذا الجوّ الضيق الذي يرى نفسه فيه، ومن ذلك الواقع المزري الذي يُعاني منه، وهذا بالطبع ينطبق على كلّ أمة وكلّ جيل والى الأبد.

٥- والأهم من ذلك: أن يلمس هذا الإنسان عظمة الله سبحانه وتعالى، ويدرك بديع صنعه وعظيم قدرته، من أجل أن يثق بنفسه ودينه ويطمئن الى أنه بإيمانه بالله، إنما يكون قد التجأ الى حصن حصين وركن وثيق لا يختار له إلا الأصلح، ولا يريد له إلا الخير، قادر على كلّ شيء، ومحيط بكلّ الموجودات.

٦- أن الاسراء والمعراج يريد أن يتحدّى الأجيال الآتية، ويخبر عمّا سيؤول إليه البحث العلمي من التغلّب على المصاعب الكونية، وغزو الفضاء، فكان هذا الغزو بما له من طابع إعجازي خالد هو الأسبق والأكثر غرابة وإبداعاً، وليطمئن المؤمنون وليربط الله على قلوبهم ويزيدهم إيماناً.

٧- يبين الاسراء والمعراج الارتباط الوثيق بين مساجد الله حيث بيت الله الحرام الذي بناه إبراهيم الخليل عليه السلام وولده اسماعيل عليه السلام وبين البيت المقدس الذي بناه نبي الله سليمان عليه السلام، حيث عبادة حق عباده والترابط مع مسجد الكوفة والذي كان محل عبادة الأنبياء وآخرها مسجد الرسول بالمدينة الذي بناه الرسول ﷺ، وهي تبين مدى الوحدة والتلاحم في مجال العبادة الحقّة لله سبحانه وتعالى، حيث جعل الرسول ﷺ مسجده محلاً للعبادة والسياسة والفكر الإسلامي الاصيل ومركزاً عسكرياً للجهاد في سبيل الله وموقعا لحل المشاكل الاجتماعية وغيرها.

٨- لقد فُرِضت في الاسراء والمعراج أهم شعيرة في الإسلام الا وهي الصلاة وهي التي تمثل القرب لله والتعلق به والسمو بالروح نحو الملكوت السمائي وكانت هدية للرسول المصطفى ﷺ وهي تمثل الصلة بين العبد وربّه.

٩- لقد كان الاسراء والمعراج تثبيتاً لقلب الرسول ﷺ وتكريماً له حيث رفعه الله الى قلب السماوات ليريه أسرار الكون ومصير الإنسان وكانت معجزة له، وليطلع على الملكوت السمائي وليصل الى ما لا يصله أي مخلوق سواه عند سدرة المنتهى.

١٠- حدثت الإسراء والمعراج في فترة عصيبة فكانت قريش تؤذي الرسول ﷺ والمسلمين حيث تقوم قريش بالتعذيب واستخدام مختلف الوسائل القمعية ضد المؤمنين الأوائل، أمثال ياسر وزوجته سميه رضوان الله عليهما وقد استشهدا تحت التعذيب وكانت سميه أول امرأة استشهدت في الإسلام وقد مر الرسول ﷺ عليهما وهما يعذبان مع ولدهما عمار، فقال ﷺ: (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة). وقد استشهد آخرون من أصحابه فضاقت صدور الرسول ﷺ فكانت رحلة الإسراء والمعراج متنفسا ورفعا لضيق صدره.

١١- لقد رأى الرسول ﷺ عوالم كثيرة وأطلع على علوم الدنيا والآخرة، فقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام بعدما رجع الرسول الأكرم ﷺ كان عنده العلوم كلها.

١٢- لقد كانت رحلة الإسراء والمعراج لتوسيع الآفاق للحركة والفكر نحو السماء وذلك باستعمال الإنسان آفاق السماء باستخدام الممكن المتاح واستعمال عقله للانفتاح على هذا الكون العجيب، وكما قال تعالى: (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فإنفذوا لا تنفذون الا بسلطان).

١٣- كانت رحلة الإسراء والمعراج لقاء الأحبه، لقاء الأنبياء، فلقد التقى الرسول المصطفى ﷺ مع الأنبياء السابقين مع أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام والذي دعا الله أن يبعث لتلك الأمة الجاهلية والمتشرذمة ولأنقاذها بأن يبعث الله لهم رسولا منهم لهدايتهم كما ورد في القرآن المجيد: (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم).

١٤- هناك رواية عن الإمام الكاظم عليه السلام في جوابه على سبب المعراج حيث قال ﷺ: (إن الله لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، ولكنه عز وجل أراد أن يشرف به ملائكته وسكان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويأريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون، سبحان الله وتعالى عما يصفون).

معنى المعراج

المَعْرَج: المَصْعَد، والطريق الذي تصعد فيه الملائكة، وقد حدث المعراج في نفس الليلة التي حدث فيها الإسراء، من المسجد الأقصى الى السماوات العلى، وهي معجزة كبيرة للنبي محمد ﷺ، فقد سخر الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ البراق، فارتفع به ومعه جبرئيل؛ ليأريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه تعالى، وقد تحدثت سورة النجم عن هذه المعجزة الكبرى، قال تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
 أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُكْفَرُونَ عَلَىٰ مَا يَبْزَى
 وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ
 مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى).

وكان من نتائج الاسراء والمعراج ان أصبح الإيمان بالغيب مشهودا وحاضرا
 لرسول الله ﷺ، وعرف مكانه ومقامه الرفيع عند الله، وكان الإمام الصادق عليه السلام إذا
 ذكر الرسول ﷺ يحمر وجهه ويخشع.

وهكذا كانت رحلته ﷺ الى السماء العلى الى سدرة المنتهى ليأكل من شجرة طوبى
 وهي من أرقى أنواع الثمار، وليكون منها النسلة الطاهرة فتولد الحوراء الإنسية
 فاطمة الزهراء عليها السلام وليكون منها الزرية الطاهرة للرسول الخاتم ﷺ أحد عشر
 معصوما ويكون آخرهم الحجة ابن الحسن فيملا الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت
 ظلما وجورا.. (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض
 كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد
 خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولنكهم هم الفاسقون).

بعض معجزات الرسول ﷺ في الاسراء والمعراج

ومعجزاته كثيرة لا تعد ولا تحصى منها عروجه ﷺ من مكة الى بيت المقدس
 ومن بيت المقدس الى السموات كما صرح به القرآن: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا
 من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو
 السميع البصير).

إن الله تبارك وتعالى عرج بنبيه محمد ﷺ من الأرض الى السماء في ليلة
 السبت أو الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول أو شهر رمضان أو
 شهر رجب وذلك في السنة الثانية من البعثة.

قال المجلسي المجلسي رضوان الله عليه: اعلم أن خروجه الى بيت المقدس ثم
 الى السماء في ليلة واحدة بجسده الشريف مما دلت عليه الآيات والأخبار المتواترة من
 طرق الخاصة والعامة وانكار أمثال ذلك وتأويلها بالعروج الروحاني أو بكونه في
 المنام ناشئ إما من قلة التتبع في آثار الأئمة الطاهرين أو من قلة التدين وضعف
 اليقين أو الانخداع بتسويلات المتفلسفين.

وقال الصادق عليه السلام ليس من شيعتنا من أنكر أربعة أشياء المسائلة في القبر وخلق
 الجنة والنار والشفاعاة والمعراج.

وقال الرضا عليه السلام من أقر بتوحيد الله وأمن بالمعراج فهو من شعيتنا أهل البيت حقا، ومن كذب بالمعراج فقد كذب رسول الله صلى الله عليه وآله.
وقد ورد في الاخبار بأن المعراج مركب لفظة من خمسة أحرف أولها ميم وهي كناية عن مقام الرسول عند الملك الأعلى والعين عزه عند شاهد كل نجوى والراء رفعة عند خالق الورى والألف انبساطه مع علم السر وأخفى والجيم جاهه في ملكوت السماء.. قال عبد الباقي:

وسيع السموات أجرامها لغير عروجك لم تخرق
وعن غرض القرب منك السهم لدى قاب قوسين لم تمرق
وأسرى بك الله حتى طرقت طرائق بالوهم لم تطرق
ورقاك مولاك بعد النزول على رفراف حف بالتمرق

من عجائب الإسراء والمعراج:

قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).
ان معجزة الإسراء ثابتة بنص القرآن والحديث الصحيح، فيجب الإيمان بأن الله أسرى بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ليلاً من مكة المكرمة الى المسجد الأقصى، وقد أجمع أهل الحق من سلف وخلف من المؤلف والمخالف ومحدثين ومتكلمين ومفسرين وعلماء وفقهاء على أن الإسراء كان بالجسد والروح.

من عجائب ما رأى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في إسرانه:

- ١- الدنيا رآها بصورة عجوز.
- ٢- إبليس رآه متحياً عن الطريق.
- ٣- قبر ماشطة بنت فرعون وشم منه رائحة طيبة.
- ٤- المجاهدون في سبيل الله: رآهم بصورة قوم يزرعون ويحصدون في يومين.
- ٥- خطباء الفتنة: رآهم بصورة أناس تُفرضُ السننهم وشفاهم بمقاريض من نار.
- ٦- الذي يتكلم بالكلمة الفاسدة: رآه بصورة ثور يخرج من منفذ ضيق ثم يريد أن يعود فلا يستطيع.
- ٧- الذين لا يؤتون الزكاة: رآهم بصورة أناس يُسرحون كالأنعام على عوراتهم رفاع.
- ٨- تاركوا الصلاة: رأى قوماً ترضخ رؤوسهم ثم تعود كما كانت.
- ٩- الزناة: رآهم بصورة أناس يتناقسون على اللحم المنتن ويتركون الجيد.

- ١٠- شاربو الخمر: رأهم بصورة أناس يشربون من الصديد الخارج من الزناة.
- ١١- الذين يمشون بالغيبية: رأهم بصورة قوم يخمشون وجوههم وصدورهم بأظفار نحاسية.
- ١٢- سدرة المنتهى: وهي شجرة عظيمة بها من الحسن ما لا يصفه أحد من خلق الله يغشاها فرائش من ذهب، وأصلها في السماء السادسة وتصل الى السابعة، ورأها رسول الله ﷺ في السماء السابعة.
- ١٣- الجنة: وهي فوق السموات السبع فيها ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما أعده الله للمسلمين الأتقياء خاصة ولغيرهم ممن يدخل الجنة نعيم يشتركون فيه معه.
- ١٤- العرش: وهو أعظم المخلوقات، وحوله ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله وله قوائم كقوائم السرير يحمله أربعة من أعظم الملائكة ويوم القيامة يكونون ثمانية.
- ١٥- وصوله الى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام: انفرد رسول الله عن جبريل بعد سدرة المنتهى حتى وصل الى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام التي تنسخ بها الملائكة في صفحاتها من اللوح المحفوظ.
- ١٦- رؤيته لله بفؤاده لا بعينه: مما أكرم الله به نبيه في المعراج أن أزال عن قلبه الحجاب المعنوي فرأى الله بفؤاده، أي جعل الله له قوة الرؤية في قلبه لا بعينه لأن الله لا يرى بالعين الفانية، وكما قال تعالى: (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) وقال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

الفصل التاسع

واجبات الرسول ﷺ ومعالم الرسالة الإسلامية

لا بد من ذكر أهم الواجبات والوظائف للرسول المصطفى ﷺ ونوجز أهمها بما يلي :

١- تلقي الوحي بشكل كامل واستيعاب الرسالة الالهية وهذا يتطلب استعدادا تاما لتلقي الرسالة والصبر والتحمل وكما قال تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته).
٢- إبلاغ تلك الرسالة الالهية للبشرية جمعاء ولا بد له من كفاءة عالية وتامة واستيعاب وإحاطة بتفاصيل الرسالة وأهدافها ومتطلباتها ولا بد لها من العصمة ليكون القدوة.

٣- تكوين النواة الأولى وهي الثلة المؤمنة بالرسالة الإسلامية واعدادها لدعم القيادة الهداية والتي تستمر لرفع راية الإسلام بعد وفاته ﷺ وأن تتحمل المسؤولية الى قيام الساعة، وتحت إشراف أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

٤- الصيانة للرسالة من الزيغ والتحريف والضياع بقيادة أئمة أهل البيت عليهم السلام ومتابعتهم للدين الى قيام يوم الدين حيث لا تخلو الأرض من حجة لله في أرضه.
٥- العمل على تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية وتثبيت القيم الأخلاقية في نفوس الأفراد، وتنفيذ الأطروحة الربانية وتطبيق قوانين الدين الإسلامي الحنيف.
٦- لقد توج الله رسالة الخاتم محمد ﷺ لحمل الأمانة الكبرى ومسؤولية الهداية بجميع مراتبها، حيث مكانته الخاتمة والمهيمنة على كل الرسالات السابقة.
٧- واجبات ومسؤوليات أخرى:

أن وظيفة الأنبياء والمرسلين لا تتوقف عند هذا الحد، وإنما هنالك مهام وأمور أخرى في مجال سير البشرية نحو التكامل، ويمكن توضيح أهمها بما يلي:
اولا: هنالك الكثير من المعلومات التي يمكن للعقل الأنساني إدراكها، ولكن ربما يغفل عنها او عن بعضها، إما لاحتياجها الى زمان طويل، وتجارب كثيرة، وإما نتيجة انشغال البشر وانهماكهم في الأمور المادية، وسيطرة الميول والاهواء عليهم، او ربما تغيب عنهم نتيجة للتربية المنحرفة، او الإعلام السيء.

إن مثل هذه المعلومات يبينها الأنبياء والمرسلون للناس ويجعلون منها أسسا وقواعد للسلوك والبناء المجتمعي الصالح.

ومن هنا نعرف السبب في إطلاق صفتي (المذكر والنذير) على الأنبياء

والمرسلين وإطلاق أسماء (الذكر، والذكرى، والتذكرة) على القرآن الكريم.

إن أمير المؤمنين عليه السلام حينما يستعرض الفوائد والحكم من بعثة الأنبياء عليهم السلام

يقول: (ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسّي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ).

ثانياً: أن من أهم العوامل التي لها التأثير الفاعل في التربية وفي هدي الإنسان

وتكامله هو وجود القدوة في العمل وقد ثبتت أهمية ذلك في بحوث علم النفس

فالأنبياء هم مرسلون من الله تعالى، وهم الذين يمثلون الإنسانية الكاملة والقدوة لبقية

الناس، فهم الذين نشأوا في ظلال التربية الألهية فيقومون بمهمة تربية الناس

وتزكيتهم، ونحن نعلم بأن القرآن الكريم قد قرن بين التعليم والتزكية في الذكر،

وحتى في بعض الآيات قدم التزكية على التعليم.

فالأنبياء يمثلون الإنسان الكامل على الأرض فهم قدوة للناس ومثال يحتذى،

ليسير الناس على هديهم طلباً لتزكية النفوس وتعلماً لأحكام الله ودينه القويم، قال

تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم

الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).

ثالثاً: من معطيات وفوائد وجود الأنبياء بين الناس هو تولى القيادة في المجالات

الفكرية والاجتماعية والسياسية والقضائية، حينما تتوفر الظروف اللازمة لذلك.

رابعاً: أن وجود النبي أو الرسول هو لإيجاد الوحدة بين الناس على أساس الحب

القلبي، حيث خاطب القلب قبل أن يخاطب العقل بالعقيدة، وهذا ما أشار إليه القرآن

الكريم في وصف رسول الإنسانية محمد عليه السلام بقوله: (ولو كنت فضاءً غليظ القلب

لأنفضوا من حولك).

ومن البديهي أن وجود القائد المعصوم من أعظم النعم السماوية للمجتمع، فهو

يضمن حق الناس بالعدل والإنصاف ويعالج المعضلات والاضطرابات والمشاكل

الاجتماعية والفكرية والسياسية وغيرها من الأمور التي تهّم الأمة بأجمعها لأنقادها من تلك الاختلافات والنزاعات والفوضى والانحرافات بكل أشكالها وألوانها، حيث تعيش البشرية اليوم أنظمة الأرض وهي أنظمة الجور والظلم، أنظمة الغاب، فالقوي يأكل حق الضعيف ويستغله أبشع استغلال، وذلك عندما تترك الأمم دستور السماء وتلتجئ الى قوانين الأرض الوضعية والمادية، والمليئة بالمغالطات والمصالح الفئوية والفردية.

لقد استطاع الأنبياء أن يغيّروا الأمم تغييرا يختلف عن الثورات الاجتماعية في تاريخ الإنسانية، فلقد حرروا الإنسان من المحتوى الداخلي قبل تحرير الواقع الخارجي، وأطلقت دعوة الأنبياء في مجال التحرير الاول لفظة الجهاد الأكبر، وفي المجال الثاني لفظة الجهاد الأصغر ولأن الثاني لا يحقق هدفه العظيم إلا في إطار الجهاد الاكبر، وينجم عن ذلك:

اولا: تحرر الإنسان من نفسه الأمانة بالسوء وتغيير نظرته للكون والحياة.. (ونريد أن نمّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين). ولن تكون عملية الاستبدال على يد الأنبياء كاستبدال الاقطاع بالراسمالية او الرأسمالية بالبروليتاريا، وقد وصفهم الله تعالى بقوله: (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة..).

ثانيا: أن صراع الأنبياء مع الظلم والاستغلال لم يتخذ طابعا طبقيًا كما هو حال الكثير من الثورات الاجتماعية؛ لأنه ثورة إنسانية لتحرير الإنسان، فيبدأ من الداخل كما عبر عنها الرسول الأكرم ﷺ بالجهاد الأكبر، فكان الغني يقف الى جانب الفقير على خط المواجهة للظلم والطغيان، فالإنسان يستمد قيمته وسعيه من قيم السماء ويرجو مرضات الله كما قال تعالى: (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وقال تعالى: (وأتوهم من مال الله الذي آتاكم)..

معالم وسمات الرسالة الإسلامية

إن الرسالة التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هي الإسلام وتمثل دين الله الحنيف، حيث يستهدف قبل كل شيء ربط الإنسان بخالقه ومعاده في الآخرة. فمن الناحية الأولى ربط الإنسان بربه الخالق الحق، والذي تشير إليه الفطرة، والتأكيد على وحدة الإله الحق والتشديد عليها، لكي يقضي على ألوان التآله المصطنع، حتى جعل من كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) شعاره الرئيسي. ولما كانت النبوة هي الوسط الوحيد المؤثر بين الخلق والخالق، فشهادة هذه النبوة بوحدة الإله والخالق، وارتباطها بالإله الواحد الحق، تعتبر أساسا كافيا لإثبات التوحيد.

ومن الناحية الثانية ربط الإنسان بالمعاد، لكي تستكمل بذلك الصيغة الوحيدة القادرة على علاج التناقض، والتي تحقق العدل الإلهي في نفس الوقت. إن للرسالة الإسلامية خصائصها التي تميزها عن سائر رسالات السماء وسماتها التي جعلت منها حدثا فريدا في التاريخ وتواكب متطلبات البشرية إلى قيام يوم الدين.

ويمكن أن نستعرض عددا من الخصائص والسمات للرسالة الإسلامية بإيجاز: أولا: أن هذه الرسالة ظلت سليمة، ضمن النص القرآني، دون أن تتعرض لأي تحريف، بينما مُنبت الكتب السماوية بالتحريف، وأفرغت من كثير من محتواها، قال الله سبحانه وتعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

واحتفاظ الرسالة بمحتواها العقائدي والتشريعي هو الذي يمكّنها من مواصلة دورها التربوي، وكل رسالة تفرّغ من محتواها بالتحريف، والضياح لا تُصلح أداة ربط بين الإنسان وربه؛ لأن هذا الرابط لا يتحقق بمجرد الإنتماء الإسمي، بل بالتفاعل مع محتوى الرسالة وثقتها بسلامة النص المنزل، وهو الشرط الضروري لقدرة هذه الرسالة على مواصلة أهدافها.

ثانيا: أن بقاء القرآن الكريم نصا وروحا، يعني أن نبوة محمد ﷺ لم تفقد أهم وسيلة من وسائل اثباتها، لأن القرآن وما يعبر عنه من مبادئ الرسالة والشريعة، كان هو الدليل الاستقرائي وفقا لما تقدم على نبوة محمد ﷺ، كونه رسولا، وهذا الدليل يستمر مادام القرآن باقيا.

وخلافا لتلك النبوات السابقة التي يرتبط اثباتها بوقائع معينة، تحدث في لحظة وتنتهي، كإبراء الأكمه والأبرص لعيسى عليه وعلى نبينا السلام، وكذلك عصا موسى عليه وعلى نبينا السلام، فإن هذه الوقائع لا يشهدها عادة إلا المعاصرون لها وبمرور الزمن وبتراكم القرون.

فتفقد الواقعة شهودها الأوائل، ويعجز الإنسان غالبا عن الحصول على التأكيد الحاسم لها عن طريق البحث والتنقيب، وكل نبوة لا يمكن التأكد من دليلها، لا يمكن أن يكلف الله سبحانه بالاعتقاد بها، أو البحث عن وسيلة لإثباتها، إذ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها. ونحن اليوم نعتمد في إيماننا بالأنبياء السابقين صلوات الله عليهم وبمعاجزهم على إخبار القرآن الكريم والذي صرح بذلك.

ثالثا: أن مرور الزمن كما عرفنا لا ينقص من قيمة الدليل الأساس على الرسالة الإسلامية، ولكن ليس هذا فقط، بل إنه أيضا يمنح هذا الدليل أبعادا جديدة من خلال تطور المعرفة البشرية، واتجاه الإنسان الى دراسة الكون بأساليب العلم والتجربة. وليس ذلك فقط؛ لأن القرآن الكريم سبق الى الاتجاه نفسه، وربط الأدلة على الصانع الحكيم بدراسة الكون والتعمق في ظواهره، وتنبية الإنسان الى ما في هذه الدراسة من أسرار ومكاسب، بل لأن الإنسان الحديث يجد اليوم في ذلك الكتاب، الذي بشر به رجل أمي، في بيئة جاهلية قبل مئات السنين، أشارات بإشارات واضحة الى ما كشف عنه العلم الحديث، حتى لقد قال المستشرق الأنكليزي (أجنيري) أستاذ اللغة العربية في جامعة اكسفورد عندما اكتشف العلم دور الرياح في التلقيح فقال: إن أصحاب الابل (أي المسلمين) قد عرفوا أن الريح تلقيح الأشجار والثمار، قبل أن يتوصل العلم في أوربا الى ذلك بعدة قرون.

رابعا: أن هذه الرسالة جاءت شاملة لكل جوانب الحياة، وعلى هذا الأساس استطاعت أن توازن بين تلك الجوانب المختلفة، وتوحد أسسها، وتجمع في اطار صيغة كاملة بين الجامع والجامعة والمعمل والحقل، ولم يعد الإنسان يعيش حالة الانشطار بين حياته الروحية وحياته الدنيوية. كما وأن الرسالة الإسلامية تشتمل على سمو التعاليم الإسلامية ففيها مساواة الحقوق حيث تتكافى دماؤهم والضمآن الاجتماعي والتكافل الاجتماعي، قال: ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

خامسا: أن هذه الرسالة هي الرسالة السماوية الوحيدة التي طبقت على يد الرسول الأكرم ﷺ، حيث جاء بها وسجلت في مجال التطبيق نجاحا باهرا، واستطاعت أن تحول الشعارات التي أعلنتها الرسالة الإسلامية الى حقائق في الحياة اليومية للناس ومتماشية مع الفطرة الإنسانية السليمة وتتماشا مع متطلبات العصر والى قيام يوم الدين، وهي آخر الشرائع السماوية.

سادسا: أن هذه الرسالة بنزولها الى مرحلة التطبيق دخلت التاريخ، وساهمت في صنعه، إذ كانت هي حجر الزاوية في عملية بناء أمة حملت تلك الرسالة، واستنارت بهداها، ولما كانت هذه الرسالة ربانية، وتمثل عطاء سماويا للأرض، وفوق منطق

العوامل والمؤثرات المحسوسة، لينتج عن ذلك ارتباط تاريخ هذه الأمة بعامل غيبي وأساس غير منظور، لا يخضع للحسابات المادية للتاريخ.

ومن هنا كان من الخطأ أن نفهم تاريخنا ضمن إطار العوامل والوثرات الحسية فقط، أو أن نعتبره حصيلة ظروف مادية، أو تطور في قوى الإنتاج، فإن هذا الفهم المادي للتاريخ لا ينطبق على أمة بني وجودها على أساس رسالة السماء، وما لم تُدخل هذه الرسالة في الحساب كحقيقة ربانية تتدخل يد الغيب في نصرتها وبقاءها فلا يمكن أن نفهم تاريخها بدونها.

سابعاً: أن هذه الرسالة لم يقتصر أثرها على بناء هذه الأمة، بل امتد من خلالها لتكون قوة مؤثرة وفاعلة في العالم كله على مسار التاريخ، ولا يزال المنصفون من الباحثين الأوروبيين يعترفون، بأن الدفعة الحضارية للإسلام هي التي حرّكت شعوب أوروبا النائمة من نومها، ونبهتها إلى الطريق المستقيم .

ثامناً: أن النبي المصطفى ﷺ وهو الذي جاء بهذه الرسالة العالمية، يتميز عن جميع الأنبياء الذين سبقوه، بتقديم رسالته بوصفها آخر أطروحة ربانية، وبهذا أعلن أن نبوته هي النبوة الخاتمة.

وفكرة النبوة الخاتمة لها مدلولان:

أحدهما: سلبي، وهو المدلول الذي يفي ظهور نبوة أخرى على المسرح الإنساني.

والآخر: إيجابي، وهو المدلول الذي يؤكد استمرار النبوة الخاتمة وامتدادها مع العصور والدهور.

وحيثما نلاحظ المدلول السلبي للنبوة الخاتمة، نجد أن هذا المدلول قد انطبق على الواقع تماماً خلال الأربعة عشر قرناً التي تلت الإسلام، وسيضل منطبقاً على الواقع مهما امتد الزمن.

غير أن عدم ظهور نبوة أخرى على مسرح التاريخ، ليس لأن النبوة تخلّت عن دورها كأساس من أسس الحضارة الإنسانية، بل لأن النبوة الخاتمة جاءت بالرسالة الوريثة، لكل ما يعبر عنه تاريخ النبوات من الرسائل، والمشملة على كل ما في النبوات والرسالات من قيم ثابتة، دون ما لايسها من قيم مرحلية، وبهذا كانت هي الرسالة المهيمنة والخاتمة، والقادرة على الاستمرار مع الزمن وكل ما يحمل من عوامل التطور والتجديد، قال تعالى: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه).

تاسعاً: لقد اقتضت الحكمة الربانية التي ختمت النبوة بمحمد ﷺ، أن تعد له أوصياء يقومون بأعباء الإمامة والخلافة بعد اختتام النبوة، وهم اثنا عشر إماماً

ووصيا، فقد جاء النص على عددهم من قبل الرسول المصطفى ﷺ في أحاديث صحيحة ومتواترة اتفق المسلمون على روايتها ومن طرق متعددة.

أولهم: أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، وبعده ولده الحسن، ثم الحسين، وبعده الحسين تسعة من صلبه على الترتيب التالي: علي ابن الحسين السجاد، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضا، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم الحسن بن علي العسكري، ثم محمد بن الحسن المهدي.

عاشرا: في حالة غيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام أرجع الإسلام الناس للفقهاء والى الأعلام، وفتح باب الاجتهاد بمعنى بذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة النبوية الشريفة.

من خصائص دين الإسلام:

الإسلام دين الفطرة، ودين السلام والأمان، والبشرية لن تجد الراحة، ولن تحقق السعادة إلا بالأخذ بالإسلام، وتطبيقه في شتى الشؤون. ومما يؤكد عظمة دين الإسلام، ما يتميز به من خصائص لا توجد في غيره من المذاهب والأديان.

ومن تلك الخصائص التي تثبت تميز الإسلام، ومدى حاجة الناس إليه ما يلي:

١- أنه جاء من عند الله: والله - عز وجل - أعلم بما يصلح عباده، قال تعالى: {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}.

٢- أنه يبين بداية الإنسان، ونهايته، والغاية التي خلق من أجلها.

قال تعالى: {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا ونساء}.

وقال: {منها خلقناكم ومنها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى}.

وقال: {وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون}.

٣- أنه دين الفطرة: فلا يتناقى معها قال تعالى: {فطرة الله التي فطر الناس عليها}.

٤- أنه يعتني بالعقل ويأمر بالتفكير ويذم الجهل، والتقليد الأعمى، والغفلة عن التفكير السليم، قال تعالى: {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب}.

وقال: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض}.

٥- الإسلام عقيدة وشريعة: فهو كامل في عقيدته وشرائعه ؛ فليس ديناً فكرياً فحسب، أو خاطرة تمر بالذهن، بل هو كامل في كل شيء، مشتمل على العقائد الصحيحة، والمعاملات الحكيمة، والأخلاق الجميلة، والسلوك المنضبط ؛ فهو دين فرد وجماعة، ودين آخرة وأولى.

٦- أنه يعتني بالعواطف الإنسانية: ويوجهها الوجهة الصحيحة التي تجعلها أداة خير وتعمير.

٧- أنه دين العدل: سواء مع العدو، أو الصديق، أو القريب، أو البعيد.

قال تعالى: {إن الله يأمر بالعدل}، وقال: {وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قرى}، وقال: {ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى}.

٨- الإسلام دين الأخوة الصادقة: فالمسلمون إخوة في الدين، لا تفرقهم البلاد، ولا الجنس، ولا اللون، فلا طبقية في الإسلام، ولا عنصرية، ولا عصبية لجنس أو لون أو عرق، ومعيار التفاضل في الإسلام إنما يكون بالتقوى.

٩- الإسلام دين العلم: فالعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والعلم يرفع صاحبه الى أعلى الدرجات، قال تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}.

١٠- أن الله تكفل لمن أخذ بالإسلام وطبقه بالسعادة، والعزة، والنصرة فرداً كان أم جماعة: قال تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ولبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً}.

وقال: {من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}.

١١- في الإسلام حل لجميع المشكلات: لاشتمال شريعته وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع.

١٢- أن شريعته أحكم ما تساس به الأمم: وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح، أو التنازع في الحقوق.

١٣- الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان، وأمة وحال، بل لا تصلح الدنيا بغيره: ولهذا كلما تقدمت العصور، وترقت الأمم ظهر برهان جديد على صحة الإسلام، ورفعة شأنه.

١٤- الإسلام دين المحبة والاجتماع والألفة والرحمة: قال النبي ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر).

وقال: (الراحمون يرحمهم الرحمن؛ إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).

١٥- الإسلام دين الحزم والجد والعمل: قال النبي ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، واحرص على ما ينفعك ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو إني فعلت كذا وكذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل).

١٦- الإسلام أبعد ما يكون عن التناقض: قال تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا}.

١٧- أنه يحمي معتنقيه من الفوضى والضياع والتخبط، ويكفل لهم الراحة النفسية والفكرية.

١٨- الإسلام واضح ميسور، وسهل الفهم لكل أحد.

١٩- الإسلام دين مفتوح لا يغلق في وجه من يريد الدخول فيه.

٢٠- الإسلام يرتقي بالعقول، والعلوم، والنفوس، والأخلاق: فأهله المتمسكون به حق التمسك هم خير الناس، وأعدل الناس، وأزكى الناس.

٢١- الإسلام يدعو إلى حسن الأخلاق والأعمال: قال تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}.

وقال: {ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم}.

٢٢- الإسلام يحفظ العقول: ولهذا حرم الخمر، والمخدرات، وكل ما يؤدي إلى فساد العقل.

٢٣- الإسلام يحفظ الأموال: ولهذا حث على الأمانة، وأثنى على أهلها، ووعدهم بطيب العيش، ودخول الجنة، وحرم السرقة، وتوعد فاعلها بالعقوبة، وشرع حد السرقة وهو قطع يد السارق؛ حتى لا يتجرأ أحد على سرقة الأموال؛ فإذا لم يرتدع خوفاً من عقاب الآخرة ارتدع خوفاً من قطع اليد.

ولهذا يعيش أهل البلاد التي تطبق حدود الشرع أمنين على أموالهم، بل إن قطع اليد قليل جداً ؛ لقلة من يسرق.

ثم إن قطع يد السارق فيه حكمة الزجر للسارق من معاودة السرقة، وردع أمثاله عن الإقدام عليها، وهكذا تحفظ الأموال في الإسلام.

٢٤- الإسلام يحفظ الأنفس: ولهذا حرم قتل النفس بغير الحق، وعاقب قاتل النفس بغير الحق بأن يقتل.

ولأجل ذلك يقل القتل في بلاد المسلمين التي تطبق شرع الله ؛ فإذا علم الإنسان أنه إذا قتل شخصاً سيقتل به كف عن القتل، وارتاح الناس من شر المقاتلات.

٢٥- الإسلام يحفظ الصحة: فالإشارات الى هذا المعنى كثيرة جداً سواء في القرآن أو السنة النبوية.

قال تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا). قال العلماء: إن هذه الآية جمعت الطب كله؛ ذلك أن الاعتدال في الأكل والشرب من أعظم أسباب حفظ الصحة.

ومن الإشارات لحفظ الصحة أن الإسلام حرم الخمر، ولا يخفى ما في الخمر من أضرار صحية كثيرة، فهي تضعف القلب، وتغري الكلى، وتمزق الكبد الى غير ذلك من أضرارها المتنوعة.

ومن ذلك فالإسلام حرم الفواحش من زناً ولواط، ولا يخفى ما فيهما من الأضرار الكثيرة ومنها الأضرار الصحية التي عرفت أكثر ما عُرِفَتْ في هذا العصر من زهري، وسيلان، وهريس، وإيدز ونحوها.

ومن حفظ الإسلام للصحة أنه حرم لحم الخنزير، الذي عرف الآن أنه يولد في الجسم أدواءً كثيرة، ومن أخصها الدورة الوحيدة، والشعرة الحلزونية، وعملهما في الإنسان شديد، وكثيراً ما يكونان السبب في موته.

ومن الإشارات في هذا الصدد ما عرف من أسرار الوضوء، وأنه يمنع من أمراض الأسنان، والأنف، بل هو من أهم الموانع للسل الرنوي ؛ إذ قال بعض الأطباء: إن أهم طريق لهذا المرض الفتاك هو الأنف، وأن أنوفاً تغسل خمس عشرة مرة لجديرة بأن لا تبقى فيها جراثيم هذا الداء الوبيل، ولذا كان هذا المرض في المسلمين قليلاً وفي الإفرنج كثيراً.

والسبب أن المسلمين يتوضؤون للصلاة خمس مرات في اليوم، وفي كل وضوء يغسل المسلم أنفه مرة أو مرتين أو ثلاثاً.

٢٦- يتفق مع الحقائق العلمية: ولهذا لا يمكن أن تتعارض الحقائق العلمية الصحيحة مع النصوص الشرعية الصحيحة الصريحة.

وإذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا حقيقة لها، وإما أن يكون النص غير صريح في معارضته ؛ لأن النص وحقائق العلم كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيين.

ولقد قرر هذه القاعدة كثير من علماء المسلمين، بل لقد قررها كثير من الكتاب الغربيين المنصفين، ومنهم الكاتب الفرنسي المشهور (موريس بوكاي) في كتابه: (التوراة والإنجيل والقرآن) حيث بين في هذا الكتاب أن التوراة المحرفة، والإنجيل المحرف الموجودين اليوم يتعارضان مع الحقائق العلمية، في الوقت الذي سجل فيه هذا الكتاب شهادات تفوق للقران الكريم سبق بها القران العلم الحديث.

وأثبت الكاتب من خلال ذلك أن القران لا يتعارض أبداً مع الحقائق العلمية، بل إنه يتفق معها تمام الاتفاق.

ولقد تضافرت البراهين الحسية، والعلمية، والتجريبية على صدق ما جاء به الإسلام حتى في أشد المسائل بعدا عن المحسوس وأعظمها إنكاراً بالعصور السابقة.

خذ على سبيل قول النبي ﷺ: (إذا شرب الكلب في اناء أحدكم فليغسله سبعا أو لاهنً بالتراب).

ولقد جاء الطب باكتشافاته ومكبراته فأثبت أن في لعاب الكلب مكروبات وأمراضاً فتاكة لا يزيلها الماء وحده، وأظهرت البحوث العلمية الحديثة أنه يحصل من انقاء التراب لهذه النجاسة ما لا يحصل بغيره.

وجاء- أيضاً- أن شرب الكلب في الأناء يسبب أمراضاً خطيرة، فالكلب كثيراً ما تكون فيه ديدان مختلفة الأنواع، ومنها دودة شريطية صغيرة جداً، فإذا شرب في اناء، أو لمس إنسان جسد الكلب بيده أو بلباسه انتقلت بويضات هذه الديدان إليه، ووصلت الى معدته في أكله أو شربه، فتثقب جدرانها وتصل الى أوعية الدم وتصل الى الأعضاء الرئيسية، فتصيب الكبد، وتصيب المخ، فينشأ عنه صداع شديد، وقيء متوال، وفقد للشعور وتشنجات، وشلل في بعض الأعضاء وتصيب القلب، فربما مزقته، فيموت الشخص في الحال.

ثم إن العلوم الطبيعية تؤيد الإسلام، وتؤكد صحته على غير علم من ذويها.

مثال ذلك تلقيح الأشجار الذي لم يكتشف إلا منذ عهد قريب وقد نص عليه القران الذي أنزل على النبي الأمي منذ أربعة عشر قرناً في قوله- تعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ

لَوَاقِحِ) وكذلك قوله تعالى: (وَإِنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) وقوله: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وقوله: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا).

فهذا كلام رب العالمين في القرآن قبل أن تبين لنا العلوم الطبيعية أن في كل نبات ذكراً وأنثى.

ولقد اعتنق بعض الأوربيين الإسلام لما وجد وصف القرآن للبحر وصفاً شافياً مع كون النبي ﷺ لم يركب البحر طول عمره، وذلك مثل قوله تعالى: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَاهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا).

٢٧- الإسلام يكفل الحريات ويضبطها: فحرية التفكير في الإسلام مكفولة، وقد منح الله الإنسان الحواس من السمع والبصر، والفؤاد، ليفكر ويعقل ويصل الى الحق وهو مأمور بالتفكير الجاد السليم ومسؤول عن أهمال حواسه وتعطيلها كما أنه مسؤول عن استخدامها فيما يضر.

والإنسان في الإسلام حر في بيعه، وشرائه، وتجارته، وتنقلاته، ونحو ذلك ما لم يتعد حدود الله في غش، أو خداع، أو إفساد.

والإنسان في الإسلام حر في الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا من مأكول، أو مشروب أو مشموم أو ملبوس ما لم يرتكب محرماً يعود عليه أو على غيره بالضرر. وبالجملة فالإسلام دين الكمال والرفعة، ودين الهداية والسمو.

وإذا رأينا من بعض المنتمين إليه وهناً في العزم أو بعداً عن الهدى فالتبعة تعود على أولئك، لا على الدين، فالدين براء والتبعة تقع على من جهل الإسلام، أو نبذ هدايته وراء ظهره.

الفصل العاشر فتح مكة وما بعدها

أهمية مكة في التاريخ

تعود أهمية مكة وزعامتها، الى أهميتها من الناحية الدينية، والمعنوية والاقتصادية، وكذا من الناحية التاريخية، فقد اختلف في تأريخ مكة، هل كانت قائمة قبل إبراهيم عليه السلام ثم عرض عليها الخراب بعد ذلك فجدها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أم أن تاريخ بناءها وانشاءها يعود الى إبراهيم عليه السلام؟ وقد ذهب معظم أهل التفسير وكتاب التاريخ من المسلمين الى أنها أسبق من إبراهيم عليه السلام حيث يعود تاريخها الى آدم عليه السلام، مستدلين على ذلك بمجموعة من الروايات والأقوال والأقاصيص.

في حين ذهب الرأي الآخر الى أن هذه الروايات أخبار آحاد، والأقوال والأقاصيص خرافات وإسرائيليات، وبدحضها يعتمد على الكتب المقدسة التوراة والأنجيل فلا يحال للاعتماد عليها.

وإنما المتيقن أن إبراهيم هو أول من بناها، كتابا وسنة صحيحة. وبعضهم توقف عن الحكم وقالوا الله أعلم؛ لأن العقل لا مجال له للحكم في هذا الباب سلبا أو إيجابا. لقد دافع العلامة السيد الطباطبائي عن الرأي القائل بقدم مكة، فقال في معرض تعليقه على هذه الأخبار: (ونظائر هذه المعاني كثيرة واردة في أخبار العامة والخاصة، وهي وإن كانت آحاد غير بالغة حد التواتر لفظا أو معنى، لكنها ليست معادمة النظر في أبواب المعارض الدينية ولا موجب لطرحتها من رأس).

وفي موضع آخر أثناء رده على الرأي الآخر، قال: (ما ذكره لا يخلو من وجه في الجملة إلا أنه أفرط في المناقشة فإن التناقض أو التعارض إنما يضر لواحد بكل واحد منها، أما الأخذ بمجموعها من حيث هي المجموع - بمعنى لا يطرح الجميع لعدم اشتغالها على ما يستحيل عقلا أو يمنع عقلا - فلا يضره التعارض الموجود فيها، هذا بالنسبة لأخبار المعصومين الأنبياء والأئمة عليهم السلام، أما غيرهم من المفسرين فحالهم حال غيرهم من الناس وحال ما ورد من كلامهم الخالي عن التناقض حال كلامهم المشتمل على التناقض، وبالجملة لا موجب ل طرح رواية أو روايات إلا إذا خالفت الكتاب والسنة القطعية أو لاحت منها لوائح الكذب والجعل).

ويمكن إضافة بعض المرجحات التي تدعم هذا الرأي بقدم مكة في التاريخ ومنذ آدم، وهي كالتالي :

المرجح الاول:

ما جاء في الكتاب العزيز عند قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك الحرام) ، فقول إبراهيم عليه السلام عند بيتك الحرام يدل على أن البيت كان قبل ذلك إلا أنه دخل عليه الخراب.

نعم هناك توجيهات أخرى للآية كأن يقال إن كلام إبراهيم عليه السلام هذا كان آخر عمره بعد بناءه للبيت الحرام، وبعد ما سكنته جرهم. وهذا يمنع أن يكون دليلاً ولا يمنع أن يكون مرجحاً.

وكذلك الكلام في قوله تعالى: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) ، فيمكن حمل الاول على أن أقدم بيت وضع للعبادة في عصر آدم عليه السلام لكونه أقدم من بيت المقدس كما في بعض التفاسير الواردة حول الموضوع.

المرجح الثاني:

وهو ما ورد في إحدى خطب أمير المؤمنين في نهج البلاغة، قال عليه السلام: (ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الاولين من لدن آدم عليه السلام) الى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرو ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً) ، وفيه صراحة أن البيت وضع من لدن آدم عليه السلام.

المرجح الثالث:

وهناك مرجح عقلي كذلك، وهو أن الله سبحانه وتعالى بعد إخراج آدم من الجنة لا يعقل أن يتركه من غير أن يعلمه مراسم عبادية تتناسب وموقعه الجديد حتى يأنس بها ويروي غريزة العبودية لله تعالى.

وعلى قول الشهيد الصدر رضوان الله عليه أن العبادة حاجة إنسانية ثابتة في نفس الإنسان في جانبها الحسي المعنوي، والقبلة والحج من أبرز المظاهر العبادية الحسية والمعنوية.

فما المانع أن يكون البيت الحرام ولد مع آدم عليه السلام ليؤدي تلك الحاجة. ونحن نعلم ما للحج من فضيلة وأثر في هذا المجال.

فقد ورد عن الباقر عليه السلام: (لا زال الدين قائماً ما قامت الكعبة) وأن القرآن الكريم قرن ترك الحج بالكفر إذ قال تعالى: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) ، وغير هذا كثير.

وإذا ثبت هذا عند ذلك نقول إن زعامة مكة بدأت بآدم عليه السلام وبأوصيائه من بعده الى أن دب الفساد في بني آدم، عند ذلك هجروا الكعبة، وبقيت مهجورة من زمن نوح عليه السلام بعد الطوفان من غير زعامة ولا سكن الى ان جاء إبراهيم عليه السلام فإعاد

بناءها وجدد مناسكها، وظهر ماء زمزم فيها. ثم بقيت قائمة شامخة تهوي إليها أفئدة من الناس الى يومنا هذا.

الأهمية المعنوية:

إن الأهمية المعنوية هي الدافع الاول للتنافس على زعامتها ولأنها غالبا ما تمتد الزعامة المعنوية الى أبعد من مكة والجزيرة لتشمل العالم كله. ولأهمية زعامتها هذه نجد كثير من الأحيان أن يتقاسم هذه الزعامة مجموعة من الوجوه أو القبائل كل له جانب من جوانب تلك الزعامة وسميت بأسماء بقيت موضع فخر لمن حاز طرفا من تلك الزعامة.

وأحيانا يزداد عدد الزعماء والمهام فيتألف بذلك نظام حكومي أشبه ما يكون بالجمهوريات المعاصرة. وتعود أهمية مكة المعنوية كونها المنطلق الاول للبناء التكويني للحضارة الإنسانية. وكذلك البناء التشريعي حيث عرف الإنسان اول الشرائع على يد آدم عليه السلام في مكة المكرمة.

وأضيفت إليها تشريعات جديدة كلما تجددت الحياة، وعندما تحرك الإنسان من هذه الأرض حمل معه ميراثه من هذه الشرائع، إلا أنه للأسف الشديد عمل على تغييرها وتحريفها بسبب المصالح الشخصية والأهواء النفسية.

ومع ذلك بقيت مكة محط انظار العالم تنطلق منها بين الفينة والأخرى أنوار هدى يستضي بها العالم وبقيت معظمة ومكرمة من قبل جميع الأديان والقوميات، يقدمون لها الهدايا والقرابين والنذور ويزورونها للدعاء حتى قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها.

فكانت اليهود يعظمونها ويقولون (أن روحاً سيناً) وهو الألقوم الثالث عندهم حلت في الحجر الأسود وكانت الصابنة من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة.

وربما قيل إنه بيت زحل تقدم عهده وطول بقاءه، وكان الفرس يحترمون الكعبة أيضا زاعمين أن روح هرmez حلت فيها وكان أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً له ولجدها إبراهيم عليه السلام.

وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك. وقد أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوف وذهب كثير، فدفن في زمزم. وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام وقال:

وما زلنا نحج البيت جمعا ونلقى بالأباطح أمينا

وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا

وكان اليهود يعظمونها ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم عليه السلام وكان بها صور وتمثيل فيها تمثل إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام، وكان بها صور العذراء والمسيح

ﷺ .. كما ويدعو عنده المكروب فكل من دعا هنالك استجيب له. وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم ﷺ لما أراد عمارة بيته وإظهار دينه وشريعته.

ولم يزل منذ أهبط الله آدم ﷺ الى الأرض محرما بيته تتناسخه الأمم والملل أمة بعد أمة وملة بعد ملة، وكان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة يتعبد فيها ومن معه حتى يموت وقد ورد في الاخبار بين زمزم والركن قبر سبعين نبيا، ومن هذا نعلم مدى أهمية زعامة مكة عالميا وليس فقط بالنسبة للجزيرة والعرب.

الأهمية الاقتصادية:

يمكن إيجاز الأهمية الاقتصادية لمكة كونها الممر التجاري للقوافل التي تنقل البضائع من مختلف بقاع العالم وتكون حلقة وصل بين الحضارات المختلفة لذلك انشئت في مكة مجموعة من القنصليات لمختلف الدول والممالك المحيطة بالجزيرة العربية كالأحباش، والروم، والفرس وكذلك ممثلين لبعض الممالك العربية التي أسست على أطراف الجزيرة العربية.

وأنشأت مجموعة من الأسواق للتبادل التجاري بين هذه الأمم. كسوق عكاظ وذات المجاز وغيرها وأنشأت أحلاف وإيلافات للحفاظ على هذه التجارة وحركة القوافل بين القبائل والممالك المختلفة.

والشيء الآخر الذي أعطى مكة أهمية اقتصادية هي الهدايا والندور والقرابين التي تقدم للكعبة والحرم وقد خصص مكان لجمع هذه الهدايا والندور.

زعامة آدم ﷺ:

عندما انزل الله سبحانه وتعالى آدم الى الأرض حملة الأمانة على هذه الأرض قال تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا).

ثم أخذ منه ومن ذريته ميثاق الربوبية (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين).

وعندما أحس آدم وحواء ﷺ بالوحدة والوحشة طلبا من الله سبحانه وتعالى أن يأتيهما صالحا يأنسا به، فأوصى الله تعالى الى آدم (سأخرج من صلبك من يسبحني ويحمدني وسأجعل فيها بيتا ترفع لذكري واجعل فيها بيتا أخصه بكرامتي وأسميه بيتي واجعله حرما أمنا تعمره أنت يا آدم ما كنت حيا، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك).

ولما حقق الله له ذلك وأصبحت له ذرية وأصبحوا له رعية واجه آدم في زعامته المشكلة الأولى، وهي الصراع بين قابيل وهابيل وبدا حسد قابيل على أخيه هابيل، فحكم عليهما أن يقربا قربانا تأكل النار من تقبل منهما، كما ورد في القرآن الكريم: (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر). فاستشاط قابيل غيضا عندما جاء الحكم ليس بصالحه ورفض الحكم وقتل أخاه هابيل بعد أن قال له هابيل: (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا باسط يدي إليك لأقتلك)، لكن قابيل (طوعت له نفسه قتل أخيه) فقتله.

ومن هذا الحدث الخطير انقسمت الإنسانية ومنذ عصر آدم ﷺ إلى قسمين، أهل الخير وأهل الشر، احتفظ أبناء آدم الخيرون من ذرية آدم بموقعهم قرب الكعبة في جبال مكة وضواحيها، بينما ذهب قابيل وبنوه إلى سهول الجزيرة واليمن اندفعوا في أرض الله الواسعة بعيدا عن نور النبوة ومشعل الهدى فراحوا في ظلام الجهل يتخبطهم الشيطان يفعلون المنكر ويأتون الشهوات ويعثون في الأرض فسادا، وتعلموا الطرب والغناء وما شابه ذلك من الموبقات.

زعامة شيث

وعندما مرض آدم ﷺ مرضه الأخير جعل الوصية لابنه شيث وأمره أن يكتم علمه عن قابيل حتى لا يفعل به ما فعله مع هابيل، ومنع بنيه من الاختلاط بأبناء قابيل، حتى يحصنهم من الأمراض التي انتشرت بين أبناء قابيل من اللهو واللعب والفساد والافساد.

ومن نشاطات شيث: أنه بنى الكعبة من الحجارة والطين بعد ما كانت من الخيام، واستطاع شيث أن يضبط من كان تحت ولايته على المنهج الإلهي الصحيح فترة حياته وينجح في عزلهم عن أبناء قابيل، ليحافظوا على الفطرة التي فطرهم الله تعالى والأمانة التي أودعها سبحانه وتعالى ويلتزموا بالميثاق الذي أخذه الله على الإنسان.

وعندما حضرته الوفاة أوصى لابنه أنوش ما أوصاه آدم ﷺ إليه، وما زال أبناء آدم الذين سكنوا الحرم محافظين على إلتزامهم ما لم يختلطوا بأبناء قابيل وذريته، ويتوارد زعامتهم صالح بعد صالح إلى أن جاء (برد)، فنزل بعض ذرية شيث من الجبل واختلطوا بذرية قابيل التي عمها الفساد.

وبعد (برد) (أخنوخ)، وقيل إنه إدريس النبي ﷺ، فزاد الاختلاط وكثر الفساد حتى بين أبناء شيث ولم يبق من الصالحين إلا نفر قليل، فنقضوا الميثاق وعبدوا الأوثان وبدأت مرحلة العمل الإصلاحية التي تزعمها نوح ﷺ.

زعامة نوح

وفي زمان النبي نوح عليه وعلى نبينا السلام إستشرى الفساد وعبدوا الاوثان، كما ذكر القرآن الكريم: (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا..).

ولما طالبت دعوته دون أن يستجيب له أحد، بل وجد الأبناء أشد من الآباء، وقد اعتذر نوح الى ربه كما ورد في كتابه الكريم: (قال ربي إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا) وقد استجاب ربه دعوته (ربي لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا).

فاقتضت الحكمة الإلهية أن تطهر الأرض من الكافرين لتبدأ دورة حياة جديدة للإنسان، فأمر الله تعالى نوحا أن يصنع الفلك كما ورد في القرآن المجيد: (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا أنهم مغرقون).

وفعلا تحقق أمر الله فيهم وعلمو ما كانوا يجهلون (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) وحتى لا تنقرض الحياة على هذا الكوكب ولا بد من استمرار للحياة: (قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن) ، واستثنى من أهله ابنه (لأنه عمل غير صالح).

ثم جاء أمر الله الى السماء والأرض: (ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر) ، ولم ينفع ابن نوح الذي اعتصم بأحد الجبال الشاهقة حيث (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) ، وعندما طهرت الأرض من الظالمين (قيل بعدا للقوم الظالمين) ، عند ذلك جاء الأمر الإلهي الآخر..

(قيل يا أرض ابلي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء) وبهذا بدأت دورة حياة جديدة للإنسانية، وزرع عناصرها نوح عليه السلام مما بقي معه في السفينة على الكرة الأرضية، وكان سام الابن الأكبر لنوح ووصيه كذلك، جعله في القسم الذي فيه مكة. وفي الفترة بين نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام لم يحدثنا التاريخ أن مكة بنيت في هذه الفترة أو مصرت، إلا أنها بقيت مقدسة وكان يأتيها المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويدعوا عنده المكروب، فكل من دعا هنالك استجيب له.

وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام، كما ورد في قوله تعالى: (واذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وإذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق).

زعامة إبراهيم

وقد استمر الصراع البشري بين الحق والباطل والكفر والإيمان، وانتصر إبراهيم ﷺ على رسالة الحقد بعد أن ادخره الله وحفظه بالإعجاز من طاغوت عصره النمرود؛ ليكلفه تبليغ رسالة السماء وتكلفه هذه الرسالة الشئ الكثير وتضطره للهجرة هنا وهناك والتنقل من بلاد الى أخرى ويبتليه كما ابتلي سائر الأنبياء والرسل ويمتحنه عدة امتحانات ومما امتحن به إبراهيم ﷺ خلوة من الولد بعد ان بلغ من العمر عتياً ليكون وصيه يحمل هم الرسالة واعبائها من بعده.

فمد يد الضراعة الى الله والسؤال (ربي هب لي من الصالحين) ، ويأتي الجواب من رب العالمين: (وبشرناه بغلام حليم) ، لكن لا من زوجته ساره، وإنما من أمتها هاجر والتي وهبتها لإبراهيم ﷺ، بعد أن دفعتها مشاعر الحنو الى صوت الطفولة ليبيد سكن البيت الممل.

ولكن لما تلد هاجر إسماعيل تنقلب المشاعر الى مشاعر الغيرة الكامنة في النفس، فتطلب سارة من إبراهيم أن لا يساكنها مع هاجر في مكان واحد، فيأتي الأمر الإلهي لإبراهيم ﷺ أن يهاجر بهاجر وابنها الى حرم الله.

ولما انتهت الرحلة بأرض مكة وهي القاحلة، توجه إبراهيم الى ربه بقوله: (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) ، فاستجاب له ربه أن هيا أسباب الحياة في ذلك الوادي فنبع الماء من تحت قدم إسماعيل.

ثم جاء الأمر المهم الذي ترجوه هاجر بعد ما دلت الطيور النازلة في ذلك الوادي على الماء فاجتذبت تلك الطيور إحدى القبائل الا وهي قبيلة جرهم الى ذلك الوادي فوجدوا هاجر وابنها تحت عريشها. فاستأذنها بالهبوط معها في ذلك الوادي، فأذنت لهم مستبشرة بذلك.

ولما علموا أنها حرم إبراهيم وهذا ابنه إسماعيل زادوها احتراماً وأهدوا لولدها مجموعة من الماعز ولما بلغ إسماعيل ﷺ مبلغ الرجال تزوج.

وكان إبراهيم ﷺ يعود عليه وعلى هاجر بين فترة وأخرى، حتى جاء بأمر عظيم ألا وهو الأمر الإلهي ببناء الكعبة لتكون مثابة للناس وأمناً قال تعالى: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم).

ولما فرغ إبراهيم وإسماعيل من البناء أتاه جبرائيل ﷺ وأقاما مراسم الحج معا لتكون سنة للأجيال القادمة وعندها دعا إبراهيم الناس للحج كما ورد في القرآن الكريم: (وإذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق).

إسماعيل عليه السلام والذبح:

عندما تقترن الزعامة بالنبوة، تصبح لها نكهة خاصة تجذب إليها النفوس الكريمة وتهوى إليها الأفئدة الطاهرة. ويقترّب منها الصالحون من الناس.

وعندما يختار الله سبحانه وتعالى عبداً لحمل رسالته، يدخله في دورة من الابتلاءات والامتحانات حتى تستكمل شخصيته ويكون مؤهلاً لحمل الرسالة، وإسماعيل عليه السلام كان واحداً من أولئك العبيد الصالحين الذين اختارهم الله لرسالته وأدخله دورة تأهيلية لحمل النبوة.

ومن مفردات تلك الدورة قصة الذبح. حيث يرى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل: (يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك) ، ورؤيا الأنبياء صادقة كالقنطرة، فيلبي إبراهيم أمر ربه وفي رحلة الحج أو غيرها يقف إبراهيم على إسماعيل وهو يصلح النبل للصيد ليبلغ إسماعيل عليه السلام بالأمر الصعب. فهل يستجب له كما استجاب في المرات السابقة من بناء البيت والحج وغيرها؟

لقد كان الرد: نعم (يا أبتى افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) ويحاول إبراهيم أن ينفذ في ابنه الأمر الإلهي: (ولما أسلما وتله للجبين) تنفيذاً لأمر الله. وعندما وضع السكين على رقبة أدرسته الرحمة الإلهية فجاءه النداء الإلهي: (أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين وإن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم).

وانطلق إسماعيل يبدأ خطى الحياة من جديد بعد أن أصبح مؤهلاً للزعامة الدينية والدنيوية، ويحسن إدارة مكة مستعيناً بأبناءه الاثني عشر وعلى رأسهم نابت وقيدار الذين يرتبط نسب العرب المستعربة بهم والذين نزل القرآن بلغتهم.

ولذلك كان الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يقول: أنا ابن الذبيحين يعني إسماعيل وعبدالله، وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم كذلك: (إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم نعمة ورحماً) ، وكان يقصد هاجر أم إسماعيل المصرية ومارية أم إبراهيم زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم القبطية المصرية.

ولما حسنت إدارة مكة على عهد إسماعيل وبنه كثرة الهجرة إلى مكة وتمصرت وخاصة بعد خراب سد مأرب حيث انتشرت الأقوام المحيطة في السد وقسم منها هاجر إلى مكة.

ويستدل من بعض الأخبار أن مكة قد عمرت بالسكان في عهد إسماعيل حتى كان لها نظام حكم وسلطة وإدارة خصوصاً أن مكة كبرت واتسعت وتشابكت مصالح سكانها وأصبحت لها مواسم تختلف مهماتها من طقوس دينية وعروض تجارية وغير ذلك.

وبقيت هكذا تزدهر الى أن توفي إسماعيل وجاء من بعده ابنه نابت وكان الرئيس بعده والقائم بالأمر والحاكم المطلق في مكة والناظر في أم البيت وزمزم. ثم جاء بعد نابت قيذار ابن إسماعيل وسار بالطريقة التي سار بها أخوه نابت وأبوه إسماعيل عليه السلام.

زعامة جرهم

اختلف المؤرخون في إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل نابت وقيذار فمن قائل إن إدارتها كانت لجرهم بعد أبناء إسماعيل وآخر ينسب ذلك الى العماليق وثالث يقول إنها كانت مشتركة بين جرهم والعماليق، ثم حدث صراع بينهم أدى الى نفي العماليق عن مكة وسيطرت جرهم عليها، وآخر يوصي ذلك الحدث من الصراع مع " طسم " أو أبناء قنطورا إلا أن أشهر الأخبار تشير الى أن الذين تولوا إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل هم جرهم.

وهم الذين تزوج إسماعيل منهم زوجته، إلا انه كذلك اختلف في كيفية استيلائهم على الإدارة هل كانت بالحرب والقوة أم بالسلم.

واختلف كذلك هل إن جرهم كانت تسكن مكة أو قريب منها قبل إبراهيم وزوجته هاجر وابنها، أم أنها كانت غير مسكونة، وإنما اتفق مجئ قافلة من جرهم، وفي أثناء مرورهم علموا من نزول الطير وجود ماء في وادي مكة وعثروا على هاجر وابنها في تلك الحال.

وفي أيام إدارة جرهم لم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة غير ولد إسماعيل تعظيما منهم لهم، فقام بأمر الكعبة بعد ثابت أمين ومن بعده يشجب ابن أمين ثم الهميع وبعده أدر الذي عظم شأنه في قومه وجل قدره وأنكر على جرهم أفعالهم.

وهلكت جرهم في عصره على أحد الروايات، وفي رواية المسعودي في المروج: أن اول ملوك جرهم بمكة مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هيتي بن نبت بن جرهم بن قطحان، ثم بعده عمرو بن مضاض، ثم الحارث بن عمر ثم عمر بن الحارث ثم مضاض بن عمر الأصغر.

وفي رواية أخرى لليعقوبي، أن اول ملوك جرهم مضاض بن عمر ثم الحارث بن مضاض ثم عمر ابن الحارث ثم المفسم بن ظليم ثم الحواس بن جحش بن مضاض ثم عداد بن ضداد بن جندل ثم محص بن عداد، ثم الحارث بن مضاض بن عمر، وكان آخر من ملك من جرهم.

دفاع جرهم عن مكة:

وقد دخلت جرهم بحروب متعددة دفاعا عن موقعها: فمن ذلك أن الحارث بن مضاض أول من ولي البيت وكان كل من دخل مكة بتجارة عشرين عليه .

وملك العماليق السميدع بن هوبز بن لاوي بن قيطور بن كركر. وكان يعشر من دخل مكة من ناحيته، وكانت بينهما حروب فتارة تكون على الجرهميين وأخرى لهم، واستقام الأمر لجرهم آخر المطاف.

وينقل حسين أمين في موسوعة العتبات المقدسة، أن في أيام الحارث بن مضاض الجرهمي نشطت حركة بني إسرائيل وزحفوا يريدون مكة من الشمال، فقاتلهم الحارث بن مضاض فهزمهم واستولى على تابوت من الكتب يحملونه وفيه ما انتحلوه من الزبور.

ووردت أخبار متباينة في كيفية سقوط جرهم، فمن ذلك ما ذكره ابن هشام من أن جرهما بغوا بمكة واستحلوا خلافا من الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها ففرق أمرهم، فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة من كنانة وغيشان من خزاعة ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة.

وكانت مكة في الجاهلية لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه، فيقال إنها ما سميت بكة إلا لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة.

فلما أحس: عمرو بن الحارث الجرهمي خرج بغزالي الكعبة وبحجر الركن فقذفها في زمزم، وانطلق هو ومن معه إلى اليمن، فخرجوا على ما فارقوا عن أمر مكة وملكها حزنا شديدا، فقال عمر بن الحارث بن عمرو بن مضاض في ذلك شعرا:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما يلجلجه بين الجناحين طائر
بل نحن كنا أهلها فأز الننا صروف الليلي والجدود الغوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

ولهذا الشعر قصة لطيفة وهي: أن عمرو بن الحارث كان قد نزل بقنونا من أرض الحجاز، فضلت له إبل فبغاتها حتى أتى الحرم، فأراد دخوله ليأخذ إبله، فنادى عمرو بن لحي: من وجد جرهميا فلم يقتله قطعت يده.

فسمع بذلك عمرو بن الحارث وأشرف على جبل من جبال مكة، فرأى إبله تنحر ويتوزع لحمها، فأنصرف بانئا خائفا ذليلا وأبعد في الأرض وبغربته يضرب المثل، ثم قال هذا الشعر.

وفي رواية البيهقي: أن جرهم لما طغت وظلمت ووقفت في الحرم وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها سلط عليهم الذر فأهلكوا عن آخرهم.

ورواية المسعودي تقول: لما بغت جرهم في الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم في الحرم بامرأة بعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات فهلك كثير منهم، وكثر ولد إسماعيل وصاروا ذوي قوة ومنعة فغلبوا على أخوالهم جرهم، وأخرجوهم من مكة فلقوا بجهينة، فاتاهم في بعض الليالي سيل فذهب بهم.

فعاليات جرهم: حلف الفضول

ومن فعاليات جرهم حلف الفضول الأول، وذلك أن نفرا من جرهم وقطورا يقال لهم الفضيل بن الحارث الجرهمي والفضيل بن وداعة القطوري والمفضل بن فضالة الجرهمي اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقروا ببطن مكة ظالما، ولا يبغي إلا ذلك لما عظم الله من حقها.

ثم درس ذلك فلم يبق إلا ذكره في قریش، الى أن أعيد في حياة النبي الأكرم ﷺ في دار عبدالله بن جدعان، وقيل البعثة النبوية الشريفة. والحدث الآخر بناء الكعبة بعد أن أخذها السيل وزادوا في بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام، والشئ الآخر إطعام الطعام للوافدين الى مكة، وطبخوا فسمي المكان بطابخ.

بعد سقوط جرهم عادت مكة لأبناء إسماعيل، وكان أول من تولى الزعامة من ذرية إسماعيل عليه السلام أياد بن نزار بن معد: لكن لم يستتب الأمر الى أياد حتى نشب نزاع بين أياد ومضر فكانت بينهم حروب كثيرة حتى ظهرت مضر على أياد، فأنجلوا من مكة الى العراق قرب الكوفة وأجلاهم كسرى أنوشيروان الى تكريت والجزيرة والموصل، ثم نزحوا منها الى بلاد الرومان والشام.

وذكر اليعقوبي أن أياد لما أرادوا الرحيل من مكة حملوا الركن على جمل فلم ينهض به، فدفنوه وخرجوا، وبصرت بهم امرأة من خزاعة حين دفنوه فلما بعدت أياد اشتد على مضر وأعظمته قریش وسائر مضر، فقالت الخزاعية لقومها اشربوا على قریش وسائر مضر أن يصير إليكم حجابة البيت حتى أدلكم على الركن ففعلوا ذلك فلما أظهروا الركن صيروا إليهم الحجابة.

وتضاربت الأخبار في كيفية وصول خزاعة الى زعامة مكة، وكذلك اختلفوا فيهم هل من قحطان أو من عدنان، فهناك رأي يذهب الى أن قبيلة خزاعة كانت تنزل حول الحرم في أيام جرهم، وأن أصلها من اليمن كالجرهميين وقد هاجرت بسبب ما كان ينتظر من الدمار الذي يخلفه سيل الحرم وأقامت في مكة، فقامت خزاعة في وجه جرهم ووقع القتال بينهما، واعتزل بنو إسماعيل القتال فتغلبت خزاعة على جرهم وانتزعت منهم الإمارة وأجلتهم عن مكة.

قصي وزعامة قريش

لقد تولى قصي الزعامة بعد أن حكم له عمرو بن عوف بالأحقية في ولاية البيت، وهو أول رئيس، ووردت الأخبار أنه لم شعث قومه وجمعهم من الاودية والشعاب والجبال الى مكة.

وابتنى مقر رئاسته وسمي دار الندوة، حيث يجتمع فيه أعيان قريش ويقرون ما شأؤوا من الأحكام في أمور السلم والحرب، فكان يشيد المجلس النبائي أو مجلس الشورى، وسن تشريعات جديدة يقتضي بعدم أحقية من لم يبلغ الأربعين من السنين أن يدخل هذه الدار.

وكلما توسعت مكة وكثر سكانها وروادها والمهاجرين إليها كلما تعددت الأغراض وتوسعت المهام فاحتيج الى نظام إداري أفضل. وخاصة بعد أن أصبحت مكة وأسواقها المركز التجاري الاول في العالم للاختلال الذي وقع في النقل البحري بسبب الصراع القائم بين الدول العظمى والروم والفرس والأحباش. فأصبح الممر التجاري البري أكثر أمانا فاندفعت آلاف الإبل تنقل البضائع وتحط الرحال في مكة المحطة العالمية الآمنة، خاصة بعد انهدام الممالك العربية في أطراف الجزيرة ودخول الأحباش لها.

عند ذلك عمد قصي أن يؤسس نظاما إداريا أشبه ما يكون بالنظام الجمهوري فكان هذا النظام قائم على أساس تقسيم المهام وتوزيعها على مجموعة أفراد.

المهام وتوزيعها على من يستحقها وهي:

- ١ - السدانة: وهي الحجابة وباستطاعة المتولي فتح الباب وغلقها لأن المفتاح بيده.
- ٢ - دار الندوة: ويمكن أن نعبر عنها بمجلس الشورى والقضاء.
- ٣ - اللواء: وهي الراية فكان لقريش راية اسمها العقاب وكانوا إذا أرادوا الحرب أخرجوها، فإذا اجتمع رأيهم على واحد سلموه إياها وإلا فإنهم يسلموها الى صاحبها.
- ٤ - السقاية: وهي عبارة عن حياض من آدم (جلود كانت على عهد قصي توضع في فناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب من الأبار على الإبل ويسفاه الحجاج).
- ٥ - الرفادة: وهو خرج من المال كانت قريش تخرجه من أموالها في كل قومهم فتدفعه الى قصي يصنع به طعاما للحجاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد.
- ٦ - القيادة: هي إمارة الركب ويقودهم الى القتال في الحرب ويزعمهم في قيادته في الخروج للتجارة وغيرها.

ولقد تفرعت عن هذه المناصب مناصب أخرى أهمها:

(الإشناق) وهي تنظر في الديات والغرم.

(القية) وهي تجهيزات الجيش في الحرب.
 (الأعنة): وهي تدبير شؤون الخيل عند قريش في الحرب.
 (المشورة): وهي منصب مهمته إسداء النصيحة والمشورة.
 (السفارة): وهي القيام بالاتصال بين قريش وغيرهم من القبائل إذا وقعت حرب أو تطلب الأمر مذاكرة وصلاح.
 (الأيصار): وهي الأزام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة مما يشبه سحب القرعة.
 (الحكومة): وهي التي تحكم بين الناس إذا اختلفوا أشبه بالقضاء.
 (الأموال المحجرة): وهي الأموال التي كانت تخص الهتهم من النقد والحلي والسلاح وهي تشبه بيت المال في الإسلام، وكانت ولايتها في بني سهم.
 (العمارة): ويراد بها أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام يهجر ولا رمث ولا يرفع صوته ويمكن أن يوصف صاحبها المسؤول والمحافظ على حرمة البيت، وهذا النظام جعل مكة عامرة ذات أمجاد وشهره انفردت بها بين جميع المدن العربية قبل الإسلام. وتعطى هذه المناصب وتوزع على وجهاء بطون قريش لاسترضاءهم للمشاركة في فعاليات مكة وضمأن وحدتها.

لما كبر قصي وعلم قرب وفاته أجمع على أن يقسم أمور مكة بين بنيه، فأعطي عبد الدار السدانة ودار الندوة واللواء وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة .
 في حين يرى اليعقوبي أن قصي جعل السقاية والرئاسة لعبد مناف والدار لعبد الدار والرفادة لعبد العزى وحافتا الوادي لعبد قصي.

ولما مات قصي حدث صراع بين عبد مناف وعبد الدار في الاستئثار بالمناصب وانقسمت لذلك قريش فطائفة مع بني عبد الدار وأخرى مع بني عبد مناف، فكان صاحب أمر بني عبد مناف عبد شمس ومعه من قريش بنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة بن كلاب وبنو تميم بن مرة وبنو الحارث بن فهر.

وكان صاحب أمر بني عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وكان بنو مخزوم بن مرة، وبنو السهم بن عمرو بن هصيص بن كعب وبنو جمح بن عمر بن هصيص وبنو عدي بن كعب مع بني عبد الدار.

وخرجت عامر بن لؤي ومحارب بن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين، فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا. فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ووضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتحالفوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم. فسموا المطيبين.

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفا مؤكدا فسموا الأحلاف، (ويقال إنهم وضعوا أيديهم في دم جزور ذبحوها) ولعق أحدهم من ذلك الدم فسموا الأحلاف ولعقة الدم.

ثم تداعوا بعد ذلك للصالح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت، وتحاجز الناس عن الحرب فقام عبد مناف بن قصي على أمر أبيه بعده وأقر قریش إليه واحتفظ بمكة رباعا بعد الذي كان قصي قطع لقومه.

ولما جل قدره وعظم شأنه وشرفه وكبر أمره جاءت خزاعة وبنو الحارث بن مناة بن كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به معقد بينهم الحلف الذي يقال له حلف الأحابيش.

لقد تضاربت الأخبار في كيفية وصول خزاعة الى زعامة مكة، وكذلك اختلفوا فيهم هل من قحطان أو من عدنان، هناك رأي يذهب الى أن قبيلة خزاعة كانت تنزل حول الحرم في أيام جرهم وأن أصلها من اليمن كالجرهميين وقد هاجرت بسبب ما كان ينتظر من الدمار الذي يخلفه سيل الحرم وأقامت في مكة. فقامت خزاعة في وجه جرهم ووقع القتال بينهما، واعتزل بنو إسماعيل القتال فتغلبت خزاعة على جرهم وانتزعت منهم الإمارة وأجلتهم عن مكة.

في حين كتب الدكتور حسين أمين في نفس الموسوع: ان خزاعة خزع من قبيلة الأزدي العربية الكبيرة، ويضيف أن معظم النسابة ينسبون هذه القبيلة الى عمر بن لحي بن حارثة.

ويذكر المسعودي أن سبب تسميتهم خزاعة لما خرج عمر بن عامر وولده من مأرب انخزع بنو ربيعة فنزلوا بتهامة، فسموا خزاعة لأنخزاعهم. أما صاحب الميزان فيسميهم الإسماعيليين ثم نسبهم الى عمر بن لحي، وهو أول زعيم لخزاعة على مكة.

ويعتقد الأخباريون أن أول من نصب الأوثان على الكعبة هو عمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة بن عمر بن عامر الأزدي أبو خزاعة، ويعتبر أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وسبب السائبة، وبحر البحيرة وحمى الحمى.

ويذهب ابن الأثير بأن أول من ولي البيت بعد جرهم عمر بن ربيعة وقيل وليه عمر بن الحارث الغساني ثم خزاعة بعده. وقال إن خزاعة أبقت لمضر ثلاث خصال الإجازة بالحج من عرفة وذلك الى الغوث بن حر ابن أد، وهو صوفه، والثانية الإضافة من جمع الى منى وكانت الى بني زيد بن عدوان، والثالثة: النسب للشهور الحرام فكان ذلك الى القلمس.

ويذكر أن أول من أدخل الأصنام الى مكة هو عمر بن لحي. وقصة ذلك عندما مرض عمر بن لحي وصفوا له أحد العيون في البلقاء من ربوع الشام أن من يغتسل بها يشفى، ولما استحتم بها وبرئ من مرضه رأى أهل ذلك البلد يعبدون الأصنام، ولما سألهم عنها أجابوه هذه أرباب نتخذها لنا نستنصر بها ونستشفى بها.

عند ذلك طلب صنما منها فاعطوه (هبل) فوضعه بعد عودته فوق الكعبة ومن ذلك اليوم بدأت تنتشر الأصنام بين العرب، وأصبح لكل قبيلة صنم، ومع ذلك بقيت ثلة مؤمنة على دين الحنيفة دين إبراهيم عليه السلام.

كانت نهاية خزاعة على يد قصي بن كلاب، والذي اسمه الحقيقي زيد بن كلاب، مات أبوه وهو صغير فتزوجت أمه من ربيعة بن حزام كبير بني عذرة، فنقلها الى بلد عذرة من مشارق الشام، وحملت معها قصيا لصغره فشب زيد في حجر ربيعة فسمي قصيا لبعده عن دار قومه.

ولما عيره أخوه لأمه القضاعي بالغربة رجع الى أمه وسألها عما قال، فقالت له يا بني أنت أكرم منه نسبا ونفسا، أنت بن كلاب بن مرة وقومك في مكة عند البيت الحرام.

وعندها شد الرحال الى مكة وأقام مع أخيه زهرة، ثم خطب الى حليل بن حبشة ابنته فزوجه وحليل يومئذ يلي الكعبة وهو شيخ كبير، فولدت لقصي اولاده عبد مناف وعبد العزى وعبد قصي. وكثر ماله وعظم شرفه.

ولما هلك حليل أوصى بولاية البيت لابنته حبي، فقالت: إني لا أقدر على فتح الباب وإغلاقه فجعل فتح الباب الى ابنه المحترش. فاشترى قصي منه ولاية. وقيل: إحليل من حبشة أوصى قصيا بذلك وقال انت أحق بولاية البيت من خزامة.

عندها جمع قومه وأرسل الى أخيه من قضاة يستنصره، فحضر في قضاة في الموسم. وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفات وتجزهم إذا تفرقوا من منى، فأتاهم قصي ومن معه من قومه ومن قضاة فمنعهم وقال نحن أولى بهذا منكم، فقاتلوه وقتلهم قتالا شديدا فانهزمت صوفة، وغلبهم قصي.

فإنحازت خزاعة بعد أن عرفت أنه سيمنعهم كما منع صوفة، وكثر القتال بين خزاعة وبني بكر من طرف وقصي وقضاة من طرف آخر، ثم تداعوا الى الصلح على أن يحكموا بينهم عمرو بن عوف بن كعب بن ليث من كنانة، فقضى بينهم بأن قصيا أولى بالبيت من خزاعة وأن كل دم أصابه من خزاعة وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه وأن كل دم أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة ففي ذلك الدية مؤداة/ مروج الذهب للمسعودي، علل الشرائع للشيخ الصدوق.

مكة قبل المبعث

لقد كانت ولادة الرسول المصطفى ﷺ نقطة تحول في تاريخ البشرية والتي كانت قبل بعثته تعيش عصرا من الظلام تسوده كل صنوف الزيف وتخبط في كل انواع الضلالات، وكان الناس في الجاهلية يتقاتلون لأتفه الأسباب، ويتخذون من الغارات مصدراً للارتزاق ويندون البنات مخافة الإملاق ويعبدون الأصنام، فاستطاع ﷺ أن يولف القلوب وينير الأبصار وينقي العقول ويشحذ العزائم ويرفع الهمم، وصدق الله تعالى إذ قال: (وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيَّكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَغْدَاءَ فَآلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) // سورة آل عمران: ١٠٣.

وكما قالت الزهراء (عليها السلام) في بعثة ابيها ﷺ للجزيرة العربية: (وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الاقدام تشربون الطرق، وتقتاتون القد، أدلة خاسنين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فإنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد ﷺ).

وعبر عن ذلك الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضوان الله عنه حين قال: (لقد كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير).

ولقد كان يوم ميلاد محمد ﷺ، يوم سعادة دائمة للبشر وكل كائنات الوجود، وكان ﷺ يحب يوم الإثنين، فقد روى مسلم في صحيحه في كتاب الصيام عن أبي قتادة الأنصاري انه قال: سئل رسول الله ﷺ عن فضل صوم يوم الإثنين، فقال: هذا يومٌ وُلِدْتُ فيه وانزل عليَّ فيه .

وأخرج أحمد بن حنبل وغيره عن ابن عباس رضوان الله عنه أنه قال: (ولد النبي ﷺ يوم الإثنين واستنبت يوم الإثنين وخرج مهاجرا يوم الإثنين وقدم المدينة يوم الإثنين وتوفي يوم الإثنين).

إن ذكرى المولد النبوي الشريف هي مناسبة وفرصة لكل مؤمن كي يتنكر اصطفاة الله عز وجل للنبي المصطفى ﷺ من بين كل الخلائق، وإصطفاءه لنا من بين كثير من الخلق لتكون من أمة المصطفى ﷺ ومن أتباعه.

ولا شك أن الفرح بهذا الأنتساب يجب أن يتناسب مع ما يستحقه من محبة واتباع لنهج المصطفى، والتزام بهديه، كما يجب أن تكون هذه الذكرى موعظة لكل منا يرى فيها حال المسلمين والعرب اليوم الذين تداعى عليهم الأعداء والكارهون، كما تتداعى الأكلة على قصعتها؛ لأن بعض المسلمين والعرب اليوم غثاء كغثاء السيل، لا تغني عنهم كثرتهم العددية ولا ثرواتهم الطائلة، ماداموا بعيدين عن منهج الحق الذي جاء به صاحب الذكرى العطرة.

كما يجب أن تكون ذكرى لكل مؤمن يتذكر فيها حاله مع الله عز وجل وموقعه عن ما أمره الله عز وجل به (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) // سورة التوبة: ١١٩ .

إنها ذكرى ولادة أعز من في الوجود، سيد ولد آدم، الرحمة المهداة، الشفيع لنا يوم القيامة، نسأل الله أن يرزقنا العافية وحياة القلوب المتشوقة لحب الله ورسوله والالتزام بنهجه وشرعه والتوحد تحت كلمته وتحت راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله).
وحزبي بالعرب والمسلمين أن يرجعوا للنبي المصطفى الصافي ويغادروا كل عوامل التفرقة والتشردم والخلاف التي يُغذيها أعداؤهم، من طائفية وعرقية.. وعصبية جاهلية مقبته، وليستلهموا من هذه الذكرى العطرة، ومن صاحب الذكرى، المعاني والعبر التي تعينهم على تجاوز محنهم وإخفاقاتهم، ويعودوا إخواناً متحابين كما أمرهم الله ورسوله .

كما أن العراقيين مطالبون بأن يجعلوا من ذكرى المولد النبوي الشريف مناسبة لجمع الشمل والتوحد من أجل مصلحة العراق تحت خيمة الوطن الواحد والهوية الوطنية الجامعة وأن ينبذوا الخلافات والتشققات، وأن يعملوا لأنقاذ بلدهم وإعادته حراً كريماً موحداً ينعم أهله جميعاً بالرخاء والحياة الطيبة.

لقد كتب الله تعالى النصر المبين لعبده ورسوله وحببيه محمد ﷺ، حيث أذل القوى المعادية من القرشيين المشركين والمنافقين واليهود، وامتدت دولته على كثير من مناطق الجزيرة العربية، فقد سادت فيها كلمة الإسلام ورفعت عليها راية التوحيد. وقد رأى النبي ﷺ أنه لا يتحقق له النصر الحاسم والفتح المبين الا بفتح مكة، والتي هي قلعة الشرك وعبودية غير الله والتي حاربته حينما كان فيها وحينما نزع عنها وأرادت القضاء عليه وعلى دعوته الحقّة.

لقد تحققت رؤيا الرسول المصطفى ﷺ بقوله تعالى: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا).

فلقد أقسم الله وصدقت الرؤيا بدخول المؤمنين الى المسجد الحرام بعد فتح الحديبية حيث انتصر الرسول ﷺ والمؤمنون نصرا عظيما بإذن الله وأصبح الطريق سهلا لدخول المسجد الحرام آمنين وقد ويسر لهم ذلك.

ولولا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه الا بالقتال وسفك الدماء، ولا عمرة بعد ذلك، ولكن صلح الحديبية وما اشترط من شروط امكن المسلمين من دخول المسجد الحرام معتمرين في العام القابل.

وفي العام الثامن للهجرة جاء الرسول الأكرم ﷺ ومعه عشرة الاف مقاتل الى مكة وهو منتصر والمشركون يجررون وراءهم أذيال الخيبة، وضنت قريش أنها ستعاقب بسبب ما قدمته من تعذيب وتشريد وقتل لمن كان مع الرسول المصطفى ﷺ، ولكن بماذا قابلهم الرسول الأكرم ﷺ صاحب القلب الطيب والروؤف الرحيم بالناس جميعا؟ هذا ما سيتم توضيحه فيما يلي:

صلح الحديبية

إن صلح الحديبية يُعد بحق صفحة مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية، وحجة داحضة للافتراءات التي دأب المستشرقون على الترويج لها والزعم بأن الجماعة المسلمة الاولى سلكت سبيل القهر والتسلط في حمل القبائل والدول المجاورة على اعتناق الإسلام.

انقضت ست سنوات من الجهاد العسكري مخلفة وراءها حالة من الأندساد والعداء السافر ست سنوات لم يتقابل خلالها المسلمون والقريشون إلا في ساحة المعركة طرف يسعى لردم العقائد الفاسدة، والعودة بالناس الى منبع التوحيد الصافي وطرف آخر يدافع عن صيته وتجارته ويتواطأ مع الجبهة اليهودية للفنك بأبناء عمومته .

في هذا المناخ المتوتر يعلن النبي ﷺ عزمه التوجه الى مكة لأداء العمرة، فيصحبه أكثر من ألف وأربعماتة من المؤمنين الواثقين، بينما يتلأأ الأعراب ومن شاكلهم من المنافقين.

إنها في رأيهم عمرة المغرم لا المغنم، وقريش لن تتوانى عن صد المسلمين بل واستنصال شأفتهم ذبا عن مهابتها.

يبلغ الموكب(تنية المرار) على بعد أميال قليلة من مكة، فتنبرك (القصواء) إيذانا ببدء التدبير الإلهي الصرف لمحطة فاصلة في مسار الدعوة الإسلامية.

لقد رأى الرسول الأكرم ﷺ مرة في منامه أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين، ففي السنة السادسة بعد الهجرة فرض الحج والعمرة، واستبشر الرسول ﷺ والسلام خيرا، وذلك لأنه كان يعلم أن رؤيا الأنبياء حق إن شاء الله، وصمم الهادي الكريم على زيارة البيت الحرام وأداء مناسك العمرة.

غير أن الرسول ﷺ قد توقع معارضة من قريش لزيارته مكة وخشي أن يظن المشركون أنهم قادمون للحرب، وخرج معه صحابته متجهين الى مكة.

وما هي إلا مسافة ستة أميال عن المدينة حتى أحرم الرسول ﷺ وأصحابه لتأدية مناسك العمرة، وأسننتهم تلهج بالدعاء:(لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد و النعمة لك و الملك، لا شريك لك لبيك).

أما قريش فقد علمت بمقدم المسلمين الى مكة، فأرسلت مائتي رجل يفودهم
عكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد ليترصدوا المسلمين من على قمم الجبال.

أنبئ الرسول ﷺ بقرار قريش غير المقبول، فغضب الرسول الكريم لأنه لم
يأت من أجل الحرب، وإنما أتى مسالماً، فأمر النبي ﷺ في هذا المكان.

غير أن البعض من المسلمين استاءوا كثيراً، لأنهم تصوروا أن الاتفاقية كانت
نصراً للمشركين وغيباً للمسلمين، وخاصة أن الرسول ﷺ لم يشاور كبار الصحابة
في الأمر، ولكن الرسول ﷺ أمرهم بالصبر، لأن الصبر مفتاح الفرج.

أقام الرسول ﷺ في الحديبية عشرين يوماً، ثم عاد الى المدينة، وبينما هو في
الطريق، أنزل الله سبحانه سورة الفتح يبشرهم بفتح قريب، فعاد المسلمون وقد
اطمأن قلوبهم بنصر الله، وأيقنوا أن الله أراد لهم الخير حين أراد لهم الصلح.

فتح مكة: من مظاهر شخصية الرسول المصطفى ﷺ هو الرحمة للعالمين وهي
من صفات الله عزوجل، فإن الرحمة الواسعة والمطلقة هي من صفات المولى عز
وجل، وهذا ما نلاحظه في قوله تعالى: (ورحمتي وسعت كل شيء).

ونفس هذه الرحمة الواسعة والمطلقة يعطيها الله لنبيه محمد ﷺ، فيقول: (وما
أرسلناك الى رحمة للعالمين)، وهذه من مقامات رسول الله في القرآن التي لا يدانيه
فيها أحد من الخلق لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان،
فهو مظهر رحمة الله الواسعة.

ومن الأمثلة على رحمته لما كان فتح مكة، دخل صناديد قريش الكعبة وهم
يظنون أن السيف لا يرفع عنهم، لأنهم قتلوا أصحابه، وأنصاره، وأقرباءه في
عشرات الحروب، ولأنهم أخرجوه من مسقط رأسه، وبلد الله، وبلد آبائه.

وهم الذين تأمروا على قتله عدة مرات وكلها باءت بالفشل، هؤلاء جاءهم النبي
ﷺ فاتحاً منتصراً عليهم.

أترى ماذا كان يفعل إنسان آخر لو كان في موقع النبي ﷺ؟

إنه بلا إشكال كان يقيم مجزرة رهيبة، فالموجودون هم الظالمون أنفسهم لا
أبناؤهم.

ولكن النبي لما سمع حامل الراية وهو سعد بن عبادة وهو ينادي:

اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة

وهو يقصد بذلك: اننا سنكثر من القتل في أهل مكة حتى تتراكم جثث ولحوم القتلى بعضها فوق بعض، والى جنب بعض، وسنسبى نساء مكة سبي الكفار المحاربين .

لكن رسول الله ﷺ هو رسول الرحمة، رسول الإنسانية، رسول الإسلام، أبى ذلك أشد الإباء، وسجل أبعادا مشرقة في التاريخ الإنساني، فأمر الصحابي المنادي بالسكوت، وأعطى الراية الى الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ، وأمره أن يدخل مكة برفق وهدهوء، وأن ينادي في أهل مكة بلين ولطف، ونادى علي ؑ في طرقات مكة: اليوم يوم الرحمة اليوم تصان الحرمة

ودخل رسول الله ﷺ مكة، وهو يقول: لا إله إلا الله أنجز وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده، ثم جمع أهل مكة الذين بالأمس حاربوه، قائلاً لهم: ما تظنون أني فاعل بكم وما أنتم قائلون؟

فقال سهيل بن عمر: نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن عم.

قال ﷺ: فإني أقول لكم: كما قال أخي يوسف: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) ، فاذهبوا فإنتم الطلقاء.

فخرج القوم كأنما انشروا من القبور.. ثم قال: أيها الناس من قال لا إله إلا الله فهو آمن.. ومن دخل الكعبة فهو آمن.. ومن أغلق بابيه وكف يده فهو آمن.. ومن ألقى سلاحه فهو آمن.. و من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.. ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن..

وأبو سفيان بالنسبة للمسلمين في تلك الفترة كهتلر بالنسبة الى الحلفاء، فلو ظفروا بهتلر فهل سيعاملونه كما عامل الرسول أبا سفيان، الرجل الدموي، والسفاك، وهو مجرم الحرب؟ لكن مع ذلك شملته رحمة الرسول الكريم، فأطلقه.

أي ملك، أو رئيس يعفو عن شخص أقدم على مثل ما أقدم عليه أبو سفيان، مجرم الحرب وقاتل النفس المحترمة، وصاحب الفتن الكبرى، والمجازر الرهيبة؟.. هل تجد لهذه القصة في غير نبي الإسلام مثيلاً؟

كلا، ثم كلا، إنه الإسلام، إسلام الرحمة والرفقة جامع كل الفضائل، والخصال الحميدة، وفي أبعد مراتبها.

فأين أولئك الذين قالوا عن نبي الإسلام إنه رجل حرب عن هذه السيرة العطرة
والمواقف الإنسانية المشرقة؟

لماذا لا يقولون عن البريطانيين الذين قتلوا في الهند ثمانمائة ألف إنسان في
صورة مجاعة اصطناعية أيام المطالبة بالحرية والخروج من نير الاستعمار، إنهم
رجال حرب وسفاكون للدماء؟

لماذا لا يقولون عن الأمريكيين الذين قتلوا في الحرب الفيتنامية أكثر من نصف
مليون إنسان إنهم مجرموا حرب وسفاكوا دماء؟

لماذا لا يقال عن الفرنسيين الذين قتلوا في الجزائر - في حرب التحرير - أكثر
من مليون من البشر، إنهم مجرموا حرب ولا يملكون من الإنسانية شيئاً؟

أين هذه الغلظة والخسونة والإجرام من رحمة النبي ووفوه وعطفة على البشرية،
وكما قال تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ).

وقد ورد في سيرة ابن هشام: لقد أرسل الرسول سعد بن عبادته قبله وهو
يرتجز ويقول ويهتف:

اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة

فسمعها عمر ابن الخطاب، فسارع الى النبي ﷺ قائلاً: يا رسول الله اسمع ما
قال سعد؟

فأمر الرسول ﷺ بأخذ اللواء من سعد وأعطاهما الى علي بن أبي طالب، فأخذه، وأدخله
إدخالاً رقيقاً ورفع صوته قائلاً: اليوم يوم الرحمة اليوم تُصان الحرمة
وعمت الفرحة الكبرى جميع أوساط القرشيين، وأيقنوا أن النبي لا يؤاخذهم بما
اقترفوه تجاههم من التنكيل والاعتداء.

نداء أبي سفيان

وانطلق أبو سفيان مسرعاً وهو رافع عقيرته ينادي بأعلى صوته:

يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو
أمن..

فهبت قريش قائلة: وما تُعني عنا دارك؟ وهتف فيهم ثانياً: (من أغلق عليه بابه فهو
أمن، ومن دخل المسجد فهو أمن).

وراح أبو سفيان يحذر قريشاً من مغبة عصيانه، وحذرهم من بطش المسلمين.

وانبرت هند زوج أبي سفيان وهي مذعورة قد ملأت نفسها بالألم والحزن، فجعلت تثير عواطف القرشيين ولكن دون جدوى.

عام الوفود:

أن الدعوة الى الإسلام كانت في مبدئها سرّاً وخفية، وأن الذين دخلوا في الإسلام إذ ذاك أفراد قليلون، وبعد الجهر بالدعوة أخذ عددهم يزداد قليلاً قليلاً، الى أن أذن له ﷺ بالهجرة الى المدينة.

فازداد عددهم بدخول عرب المدينة ومن حولها في الدين وحدانا وجماعات، ولكن الدعوة لم تصل الى الدرجة المطلوبة من الانتشار والعموم حتى تم صلح الحديبية بين قريش والمسلمين، فكان ذلك الصلح سبباً كبيراً من أسباب انتشار الدعوة وعمومها حيث أمنت الطرق وتمكن الرسول ﷺ من إرسال الرسل والكتب الى الملوك والأمم والقبائل، ثم تم الأمر بفتح مكة ودخول أعظم قريش في الإسلام، وانتشار القرآن بأسلوبه البديع وحكمه البالغة المؤثرين في عقول العرب ذلك التأثير الذي لانت به شكيمتهم وشرعوا يقدون على رسول الله ﷺ أفواجاً، وقد كان أكثر ذلك في السنة التاسعة للهجرة.

ومن تلك النتائج وفد (ثقيف) جاؤا للنبي ﷺ عقب مقدمه من تبوك يريدون الإسلام، وطلبوا أشياء أباهما عليهم وأشياء أعطاهم لهم.

ووفد (نصارى نجران) وهؤلاء لم يسلموا بل رضوا بدفع الجزية.. ووفود (بني فزارة) قدموا على رسول الله ﷺ مسلمين.. ووفد (بني تميم) جاء الى النبي ﷺ أشرفهم ونادوه من وراء الحجرات، وبعد تبادل الخطب وانشاد الشعر بين خطبائهم وشعرائهم وخطباء المسلمين وشعرائهم أسلموا وعادوا الى أوطانهم.

ووفد (بني سعد بن بكر) يؤمهم ضمام بن ثعلبة، الذي سأل رسول الله ﷺ أسئلة كثيرة وأجابه عنها، فأسلم وعاد الى قومه فما بقى منهم أحد إلا أسلم من يومه.. ووفد (كندة) في مقدمته الأشعث بن قيس وقد أسلموا بعد أن سمعوا أوائل سورة الصافات ووفد (بني عبد القيس بن ربيعة) وكانوا نصارى فأسلموا جميعاً.. ووفد (بني حنيفة بن ربيعة) فأسلموا، وكان فيهم مسيلمة بن حنيفة، الذي لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد انتقال رسول الله ﷺ الى الدار الآخرة.. ووفد (طيء من قحطان) يقدمهم زيد الخيل، وقد أسلموا جميعاً.. ووفد (بني الحارث بن كعب) فيهم خالد بن الوليد، جاءوا مسلمين.. ووفود آخرون من قبائل شتى من (بني أسد)، و(بني محارب)، و(همدان)، و(غسان)، وغيرهم، منهم من جاء مسلماً، ومنهم من جاء للإسلام وأسلم، وكذلك رسل من ملوك حمير وغيرهم، جاءوا يخبرون بإسلامهم.

وهكذا دخل الناس في دين الله أفواجا، حتى بلغ من كانوا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة أكثر من مائة ألف، والذين لم يحضروا حجة الوداع من المسلمين كانوا أكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة، (وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لَأُولَى الْأَبْصَارِ).

النبي المصطفى ﷺ في الكعبة:

وسارع الرسول المصطفى ﷺ بعد دخوله مكة الى بيت الله الحرام، فأغلق بوجهه عثمان ابن طلحة باب الكعبة، وصعد على سطحها، وأبى أن يدفع اليه مفتاح الكعبة، وبادر اليه الامام علي ﷺ فامتنع من إعطائه مفتاح البيت، فلوى يده وأخذ منه المفتاح، وفتحها للرسول الأكرم ﷺ، فصلى فيها ركعتين، ثم سلم المفتاح له، وقال له: يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء.

تطهير البيت الحرام من الاصنام

ولما دخل الرسول المصطفى ﷺ الى البيت الحرام، كان أول عمل قام به هو تحطيمه وإزالته للأصنام والأوثان التي اتخذها القرشيون آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، والتي تتم عن جهلهم وانحطاطهم الفكري، وقد كانت الاصنام المعلقة على الكعبة ثلثمائة وستين صنما، وكل حي من العرب صنم خاص بهم.

وكان على جهة باب البيت المعظم الصنم الأعلى لقريش وهو هبل، فجعل النبي ﷺ، يطعن بقوسه في عينه، وهو يقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا).

ثم أمر بتحطيمه، وتطهير البيت منه، وقد شق ذلك على ابي سفيان وغيره من عتاة القرشيين.

ثم اعتلى النبي ﷺ على منكب الامام علي ﷺ لتكسير الأصنام بعد ما عجز الامام علي ﷺ بالنهوض بالرسول الأكرم ﷺ فقال له الرسول الأكرم: إنك لاتستطيع حمل ثقل النبوة.

فقال له: اصعد أنت، فاعتلى الامام علي كاهل رسول الله ﷺ، وقال الامام: لو شئت لثلث أفق السماء.

واقبل على الاصنام فجعل يقلعها ويرم بها الى الأرض، ولم يبق الا صنم خزاعة وكان موتدا بأوتاد من حديد، فقال له الرسول المصطفى ﷺ عالجها، فعالجها الامام، وهو يقول:

جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وقذفه حتى تكسر، وبذلك فقد تطهر البيت العتيق من أصنام قريش على يد بطل الإسلام، وقائد مسيرته الظافرة.

إن تحطيم الاصنام وتطهير الكعبة منها أقى ضربة موجعة للقرشيين الذين تغابوا في عبادة الاوثان قرونا عديدة، كما كان أعظم انتصار رائع للإسلام الذي جاء لتحرير العقول، ونشر الوعي بين الناس، فقد باءت بالفشل والخزي جميع المقاومات والاعتداءات على الإسلام، وهاهو يرفع رايته، وينشر مبادئه العملاقة في ديارهم رسول الله ﷺ.

تأمل مع خطاب الرسول المصطفى ﷺ لاهل مكة:

لقد أحاطت جماهير أهالي مكة بالرسول المصطفى ﷺ وهي تنتظر بفارغ الصبر ما يواجهونه منه فهل ينزل بهم العقاب الصارم؟ وهل يقابلهم بالانتقام من جراء ما صبوه عليه وعلى اتباعه المستضعفين من صنوف الخطوب والكوارث؟.. أو أنه سيعفو عنهم ويقابلهم بالصفح الجميل؟

واعتلى الرسول المصطفى ﷺ منصة الخطابة، واستمال الجمع الى إذن صاغية، فعرض ﷺ في خطابه الى توحيد الله والثناء عليه، والى نصره دينه، وهزيمة للمشركين، ثم قال: يامعشر قريش: إن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها بالآباء.. الناس من آدم وأدم من تراب، ثم تلا قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكروا إنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم). يامعشر قريش ماترون اني فاعل بكم..؟.. فهتفوا جميعا بلسان واحد: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم.

فأصدر رسول الرحمة والإنسانية العفو عنهم قائلا: اذهبوا فإنتم الطلقاء.

وتمثلت الرحمة والشرف والكرامة بجميع ما تحمل هذه الالفاض من معنى في هذا العفو، فلم يقابل أولئك الجفاة الجناة بالمثل وأعرض عما لاقاه منهم من صنوف الإساءة والأذى، ولم يؤاخذهم بجرائمهم وأثامهم، التي تقضي أن يعدم رجالهم، ويستصفي أموالهم، ولا يترك لهم أي اثر أو وجود على الأرض.

وبقي أبو سفيان وأعوانه ممن تحجرت نفوسهم على الكفر وران على قلوبهم

النفاق، عندما دعاه العباس الى الايمان بقوله: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار.

فلم يملك أبو سفيان الا إعجابه، وراح يقول للعباس: ما لاحد بهؤلاء قبل ولا طاقة.. لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما..

فرد عليه العباس قائلا: يا أبا سفيان إنها النبوة.. فهز أبو سفيان رأسه العفن، وقال بسخرية: نعم إنن.

وما كان هذا الجاهلي ليفقه الإسلام وإنما يفقه الملك والجاه والسلطان، ويؤكد

على جاهليته بمقولته المعروفة بعد التحاق الرسول ﷺ وحذر الناس من الفرقة، وقال

في بعض كلامه أمام الناس قائلا: أيها الناس إن دماءكم وأعراضكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم محرمة كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، الا هل بلغت اللهم اشهد. وفي يوم الثامن عشر من ذي الحجة من العام نفسه وبعد الأنتهاء من مناسك الحج رجع الرسول الأكرم ﷺ وباقي الحجيج الى أهلهم، وعند الجحفة وفي موضع بين مكة والمدينة كان هنالك غدير يسمى غدير خم، حيث هبط الأمين جبرئيل وبأمر من عند الله بقوله: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس).

وأمره أن يقيم عليا علما وإماما للناس وقرض الولاية على كل أحد، وأن يحبس من تأخر منهم.

وبعد أن جمع الناس ووضعه له منبرا من الرحال، وقال في خطبته: أيها الناس يوشك أن أدعى فاجيب، وإني مسؤول، وإنكم مسؤولون فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك بلغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيرا، قال ﷺ: الستم تشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن جنته حق، وأن الموت حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، قالوا: بلى نشهد بذلك.

ثم أخذ بيد علي عليه السلام، وقال: أيها الناس: إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، ثم قال: أيها الناس إني فرطكم وإنكم واردون علي الحوض الحوض أعرض مما بين بصرى إلى صنعاء فيه عدد النجوم قدحان فضة.

وإني سانلكم حين تردون علي عن الثقلين كيف تخلفوني فيهما؟، الثقل الاكبر كتاب الله عز وجل طرفه بيد الله تعالى وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به، لا تضلوا ولا تعدلوا وعترتي أهل بيتي فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يردا علي الحوض. . ومن خلال هذا الحديث الشريف يمكن التوصل للابعاد التالية:

- ١- وجوب التمسك بالكتاب والعتره المتمثلة بأهل البيت عليهم السلام فهم القرآن الناطق.
- ٢- انحصار سبيل النجاه والعصمة عن الضلالة بالتمسك بالقرآن وبأهل البيت عليهم السلام دون غيرهم، كائنا من كان، لأنه جعلهم عدل الكتاب وغير متفرقين عنه، لأنه لو كان التمسك بغيرهم كافيا من الضلالة لأوجبه النبي ﷺ، ولكنه حدد ذلك بالتمسك بالقرآن وأهل البيت حصرا.

٣- تعليق الأمن من الضلالة بالتمسك بالكتاب وأهل البيت جميعاً، فالتمسك بأحدهما إن لم يفتن بالتمسك بالآخر لا يوجب الأمن من الضلالة، فإنه ﷺ لم يقل ما إن تمسكتم بأحدهما أو بأيهما.

وعليه فمفهوم الحديث يدل على وعيد عظيم وهو أن من لم يتمسك بهما وأن التمسك بأحدهما يوقع في الضلال.

٤- عصمة العترة عن الخطأ والاشتباه وذلك لوجوه أهمها:

أ - عدم افتراقهم عن الكتاب لقوله ﷺ: (لن يفترقا).

ب - لو لم يكونوا معصومين، لجاز أن يكون التمسك بهم ضالاً.

ج - لو لم يكونوا معصومين لما أمكن أن يكونوا منقذين من الضلالة مطلقاً لقوله: (ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا).

٥- أنهم لو لم يكونوا معصومين من الخطأ لم يكن التقدم عليهم والاختلاف عنهم سبباً للتهلكة على سبيل الإطلاق لقوله ﷺ: (فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا).

٦ - أن النبي ﷺ أمر باتباعهم والتمسك بهم على سبيل الإطلاق، ولا يجوز اتباع أحد على الإطلاق إلا إذا كان معصوماً.

٧- كون العترة هم أعلم الناس بعد النبي ﷺ واختصاصهم بالاقتران بالكتاب وعدم افتراقهم عنه، فعندهم من العلوم الدنية ما ليس عند غيرهم، فهم أعلم بالكتاب والسنة من غيرهم والالكان حالهم وحال غيرهم سواء.

٨- بقاء العترة الهادية واستمرارها إلى يوم القيامة لنلا تخلو الأرض من خليفة الله وحجة على الناس وإلى أن تقوم الساعة.

الفصل الحادي عشر ماذا ترك لنا الرسول ﷺ

لقد ترك الرسول المصطفى ﷺ كل ما هو خير للبشرية جمعاء للدنيا والآخرة، لقد ترك لنا ﷺ تراثا زاخرا بكل أبعاد الحياة الا وهي الاحاديث النبوية الشريفة والتي تشمل كل مجالات الحياة من اجماعية وسياسية وفكرية واقتصادية والتي تعكس الأخلاق السامية والنبيل الرفيع في التعامل مع الآخرين حيث سيرته وحركاته وسكناته نتأسى بها وهي حجة علينا ولا بد من ذكر أهم ذلك التراث العتيد للاستفادة والتزود منه في طريقنا الى الله وفي حياتنا الدنيا: معاجزه وأعماله العظيمة:

إن معاجز الرسول المصطفى ﷺ وأعماله العظيمة هي كثيرة ولا يسع المجال لنذكرها وسردها جميعا ولكن نذكر البعض منها:

الاولى: القرآن الكريم الذي عجزت قريش والعرب جميعا عن معارضته والإتيان بمثله مع ما أوتيت العرب من فصاحة وبلاغة، كما وتحدى الله سبحانه وتعالى امكانية الاتيان بمثل هذا القرآن وإن اجتمعت الإنس والجن.

الثانية: لقد ترك الرسول المصطفى ﷺ رسالة عالمية وشاملة لكل ابعاد الحياة على أساس الفكر وقيم الأخلاق واحترام حقوق الآخرين على أساس العدل والحق واحترام الراي الأخر.

الثالثة: لقد أرسى ﷺ أعظم دولة مثالية وعالمية تتماشى وحاجات ومتطلبات الإنسانية وذات كيان سياسي واقتصادي واجتماعي يستمد قوته من السماء. الرابعة: ترك أمة مسلمة تحمل مشعل الرسالة والخير وهي أمة وسط، وهي خير الأمم كما قال تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

الخامسة: جعل خليفة من بعده يملك قيادة معصومة ومختارة من السماء وهي تحمل معظم صفات الرسول من قوة في شخصيته وأعلم الناس وأعرف الناس بالشريعة، وهذه الخلافة تستمر الى يوم القيامة باثني عشر خليفة من ذرية الرسول ﷺ وهم من بضعة فاطمة الزهراء عمة النساء.

السادسة: كل الأنبياء اندثرت وزالت معاجزهم بعد وفاتهم الا الرسول المصطفى ﷺ، حيث بقيت معجزته خالدة مع بقاء الحياة الا وهي كتاب الله الكريم، وهو دستور ونظام ومنهج للحياة الطيبة بكل أبعادها ويتحدى البشرية، والى قيام الساعة بأن يأتيوا بمثله قال تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا

بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين).

السابعة: كان الرسول ﷺ القدوة الحسنة وبقي في سلوكه وقوله الحسن وشخصيته المثاليه وما تركه من جامعة لمختلف العلوم من أحاديث وسيرته العطره والتي تمثل قرآنا يمشي على الأرض، ويذكرنا بأن طريقه موصل الى رضوان الله وطريقا للجنة وسعادة للدنيا والآخرة.

يقول الفيلسوف البريطاني برنادشو في وصف عظمة الرسول ﷺ: (إن العالم أحوج ما يكون لرجل كمحمد ينقذه مما هو فيه).

ولا بأس بذكر بعض من معجزاته الأخرى كنبوع الماء من بين أصابعه، وانسحاق القمر وإشباع الخلق الكثير من قليل الزاد، ومجئ الشجر، وحنين الجذع، وإخباره بالمغيبات .

وأما المغيبات التي أخبر عنها فهي كالتالي :

أخبر النبي ﷺ بحوادث كثيرة وقعت بعد وفاته، منها قوله لعلي ﷺ: أنت تقاتل بعدي الناكثين (وهم أهل الجمل بالبصرة)، والقاسطين (وهم معاوية وأهل الشام في صفين)، والمارقين (وهم الخوارج بالنهروان).. وإن قاتلك ابن ملجم .

وإخباره بسم الإمام الحسن ﷺ وإخباره بقتل الإمام الحسين ﷺ بكر بلاء. وقوله لعمرار تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار، فقتل عمار في معركة صفين.

وقوله ﷺ لفاطمة بنت العباس: (أنت أول أهل بيتي لحاقا بي).

وإخباره بظهور الدولة الأموية وظهور دولة بني العباس، وغيرها من الأمور الغيبية التي أطلعه الله تعالى عليها.

الثامنة: تعاليمه ﷺ حيث جاء بالمساواة بين جمع الخلق، وبالأخوة، والعفو العام عن دخل في الإسلام، ثم سنّ شريعة باهرة وقانوناً عادلاً تلقاه عن الله عز وجل ثم تلقاه المسلمون منه.

التاسعة: مقتطفات من الأحاديث الشريفة للرسول المصطفى ﷺ ولهداية البشرية جمعاء، وهي وتعتبر مدرسة جامعة لكل أبعاد الحياة ولخير الدنيا والآخرة: من أقواله ﷺ في مختلف المجالات:

لا بد من أن تقتطف بعض الرياحين والورود العطرة من الرياض النظرة من الأحاديث الشريفة لأقوال الرسول المصطفى ﷺ ونجمل منها أربعين حديثاً.

فقد ورد في أحاديث كثيرة عن الرسول المصطفى وأهل البيت ﷺ الترغيب بحفظ أربعين حديثاً، ومنها ما عن الرسول المصطفى ﷺ: (من حفظ عني من أمتي

أربعين حديثًا في أمر دينه يريد به وجه الله عز وجل والدار الآخرة بعثه الله يوم القيامة فقيها عالما).

وورد عن الامام الصادق عليه السلام: (من حفظ من شيعتنا أربعين حديثًا بعثه الله عز وجل يوم القيامة عالما فقيها ولم يعذبه).

في فضيلة العلم والعلماء:

١ - قال عليه السلام: (من أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أرادهما معا فعليه بالعلم).

٢ - وقال عليه السلام: (من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله الا بعدا).

٣ - وقال عليه السلام: (علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل).

٤ - وقال عليه السلام: (تفكر ساعة خير من قيام ليلة).

٥ - وقال عليه السلام: (إن طالب العلم لتحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضها بعضا حتى يبلغوا سماء الدنيا من محبتهم لما يطلب).

في وعي القرآن وتدبره:

٦ - قال عليه السلام: (القرآن في القرآن وقرأنته: القرآن مادية الله فتعلموا من مادية الله ما استطعتم، إنه النور المبين والشفاء النافع، تعلموه فإن الله يشرفكم بتعلمه).

٧ - وقال عليه السلام: (القرآن هدى من ضلالة وتبيان من عمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الاحداث، وما عدل أحد من القرآن الا الى النار).

٨ - وقال عليه السلام: (لا يعذب الله قلبا وعى القرآن).

٩ - وقال عليه السلام: (من هداه الله للاسلام وعلمه القرآن ثم شكى الفاقة كتب الله الفاقة بين عينيه الى يوم القيامة).

أساس الإسلام:

١٠ - قال عليه السلام: (أساس الإسلام حبي وحب أهل بيتي).

١١ - وقال عليه السلام: (فلا تقدموهم فتهلكوا ولا تقصروا عنهم فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم).

في قيمة العمل والعمل الصالح:

١٢ - قال عليه السلام: (إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده).

١٣ - وقال عليه السلام: (حرث الآخرة العمل الصالح وحرث الدنيا المال والبنون).

١٤ - وقال عليه السلام: (العبادة سبعون جزءا أفضلها طلب الحلال).

١٥ - وقال عليه السلام: (ملعون من القى كله على الناس).

١٦ - وقال عليه السلام: (الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله).

الجانب الاجتماعي والتكافل الاجتماعي

- ١٧- مسؤولية المسلم: قال ﷺ: (إن الله فرض على الاغنياء من أموالهم بقدر ما يسع فقراءهم).
- ١٨- المساواة: قال ﷺ: (لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولكن ليقل فتاي وفتاتي).
- ١٩- عدم الغش: قال ﷺ: (من غش أخاه المسلم نزع الله بركة رزقه وسد عليه معيشته ووكله الى نفسه).
- ٢٠- وقال في صلة الرحم: (صلة الرحم مثراة للمال ومنسأة للأجال).
- ٢١- الهدية: قال ﷺ: (تهادوا تحابوا).
- ٢٢- اللسان: قال ﷺ: (وهل يكب الناس في النار على وجوههم الا حصائد السنتهم).
- ٢٣- حب الآخرين: قال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).
- ٢٤- بر الوالدين: قال ﷺ: (بر الوالدين وصلة الرحم يهونان الحساب).
- ٢٥- الصدقة: قال ﷺ: (صدقة السر تطفىء غضب الرب).
- ٢٦- القوي: قال ﷺ: (أقوى الناس من ملك نفسه عند الغضب وعند المعصية لله).
- ٢٧- غض البصر: وقال ﷺ: (من عُرضت له فاحشة أو شهوة فاجتنبها من مخافة الله عزوجل حرم الله عليه النار وأمنه من الفرع الأكبر وأنجز له ما وعده في كتابه: ولمن خاف مقام ربه جنتان).
- في الزواج والزوجة:**
- ٢٨- ورد عنه ﷺ: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة).
- ٢٩- وقال ﷺ: (لا تؤدي المرأة حق الله عز وجل حتى تؤدي حق زوجها).
- ٣٠- وورد في الزوج: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي).
- في الأخلاق:**
- ٣١- قال ﷺ: (ثلاث خصال من مكارم الأخلاق تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عن ظلمك).
- ٣٢- قال ﷺ: (الا وإن في الجسد مضغه إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب).
- ٣٣- وقال ﷺ: (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم).
- ٣٤- وقال ﷺ: (ثلاثة من لم تكن فيه لم يجد طعم الايمان، حلم يردّ به جهل الجاهل، وورع يحجزه عن محارم الله، وخلق يداري به الناس).

في الدنيا:

- ٣٥- قال ﷺ: (إن الدنيا مزرعة الآخرة).
- ٣٦- وقال ﷺ: (من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ولم يأتيه من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمه).
- أقواله في علي وأهل البيت هجج:**
- ٣٧- وقال ﷺ في أهل بيته هجج: (نحن سفينة النجاة من تعلق بنا نجا ومن صار عنا هلك فمن كان له الى الله حاجة فليسنل بنا أهل البيت).
- ٣٨- وقال ﷺ: (علي مع الحق والحق مع علي).
- ٣٩- وقال ﷺ: (أهل بيتي أمان من الفرقة).
- ٤٠- وقال ﷺ: (يا علي ما ثبت حبك في قلب مؤمن الا وثبت قدمه على السراط حتى يدخل الجنة).
- عاشرا: أحاديث الرسول ﷺ بحق ابنته الزهراء عليها السلام وهي كثيرة وتبين عظمتها وقربها لله ومنزلتها عند ابيها ﷺ:**
- ١- وقال ﷺ (واما ابنتي فاطمة فانها سيدة نساء العالمين والآخرين وهي بضعة مني وهي نور عيني وهي قرّة فؤادي وهي روعي التي بين جنبي وهي الحوراء الانسية ، متى قامت في محرابها بين يدي ربها جل جلاله زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لاهل الارض).
- ٢- وقال ﷺ في فاطمة : (فاطمة ابنتي خير أهل الارض عنصرا وشرفا وكرما) .
- ٣- وقال ﷺ (ان الله يرضى لرضاها ويغضب لغضبها) .
- ٤- وقال ﷺ (فاطمة روعي التي بين جنبي) وقال: (فاطمة روعي التي بين جسدي).
- ٥- وقال ﷺ (كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم ابنة عمران واسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد) .
- ٦- وقال ﷺ (الا ترضين ان تكوني سيدة نساء العالمين)..
- ٧- وورد بالاخبار بان فاطمة عليها السلام طلبت من اباها خادما يخدمها بالبيت ، فقال لها ﷺ:
- يا فاطمة اعطيك ما هو خير لك من الخادم ومن الدنيا بما فيها ، ونحلها التسبيح ، وقال لها تجرعي مرارة الدنيا .
- وهذا التسبيح هو الآن يسمى بتسبيح الزهراء عليها السلام وما اعظمه من عمل يقوم به المسلمون اليوم.

الحادي عشر: وردت أحاديث كثيرة عن النبي المصطفى ﷺ حول صحّة البدن تذكر منها ما يلي:

ورد عنه ﷺ: (كل وأنت تشتهي، وأمسك وأنت تشتهي) كما ورد عنه ﷺ: (أصل كل داء البرودة).

وورد عنه ﷺ: (المعدة بيت كل داء والحمية رأس كل دواء، فأعط نفسك ما عودتها).

وورد ﷺ: (برد الطعام، فإن الحار لا بركة فيه) وورد عنه ﷺ: (كثرة الطعام شؤم).

وورد عنه ﷺ: (من أكل الملح قبل كل شيء، دفع الله عنه ثلاثمائة وثلاثين نوعاً من البلاء، أهونها الجذام).

وورد عنه ﷺ: (من تعود كثرة الطعام والشراب قسا قلبه).

الثاني عشر: أقواله ﷺ في لقاء الله:

وورد عنه ﷺ: (من كره لقاء الله كره الله لقاءه).

وعنه ﷺ: (اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وورد عنه ﷺ: (إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه).

الثالث عشر: ومن أدعيته ﷺ:

دعائه ﷺ لنفسه: (اللهم أحييني مسكيناً وتوفني مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين).

دعائه ﷺ عند وضع المائدة: (سبحانك اللهم ما أحسن ما تبئلتنا، سبحانك اللهم ما أكثر ما تعطينا، سبحانك اللهم ما أكثر ما تعافينا، اللهم أوسع علينا وعلى الفقراء المؤمنين والمسلمين).

دعائه لقضاء الدين علمه لعلني ﷺ: (اللهم اغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عن سواك).

دعائه لنفي شر العدو: (يا سامع كل صوت يا محي النفوس بعد الموت يا من لا يعجل لأنه لا يخاف القوت يا دائم الثبات يا مخرج النبات يا محي العظام الرميم الدارسات بسم الله اعتصمت بالله وتوكلت على الحي الذي لا يموت).

قالوا في الرسول الأكرم ﷺ:

إن الرسول المصطفى ﷺ هو رسول الإنسانية ومنقذ البشرية من الأهواء الشيطانية والزلل النفسية ليس بحاجة الى شهادة أحد من البشر يشهد له بنبوته وكمال

سماته الجليلة على سائر البشر بعد أن منحه خالق السماوات والأرض تلك الشهادات السماوية النورانية الأزلية في كتابه المبين قران كريم يتلى آناء الليل وأطراف النهار، إنها الآيات البينات الواضحات لكل ذي عقل سليم ولكل باحث أمين منصف، وذلك لأن رب الكون هو الذي جعله ﷺ بشيرا وشفيعا لأمته ومنقذا لها من ظلام الجاهلية الجهلاء والتي ألفت بظلامها الثقيل على المسيرة الإنسانية الطويلة.

فباركت بذلك السماوات السبع وملانكتها والأرض ومن أراد لها هاديا ينفذها بدين سماوي متكامل وبشر به النبي عيسى على نبينا وعليه السلام من خلال الآية الكريمة: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ) // سورة الصف: ٦. ورغم كل الإساءات التي ظهرت في دول الغرب على مدى أربعة عشر قرنا من رهبان وقساوسة بدوافع للتنصب الديني تارة ثم من مستشرقين بدوافع إستعمارية إستعلانية ومن حروب صليبية وغيرها من الحروب التي تبعتها.

لقد كان من أعداء هذا الرسول العظيم ﷺ أيضا هم من ذوي العاهات الخفية والشواذ الذين يسعون الى الإثارة والشهرة والإفساد في الأرض كما رأى العالم في تلك الرسوم الكاريكاتيرية البائسة، ومن عمل أخرق نفس متعصب حاقد على كتاب الله ونبيه الكريم ﷺ.

وأخرين أشهروا عداءهم للحق ونيراسه ﷺ بتحريض من دهاقنة الصهاينة وحاخاماتها من أحفاد يهود خيبر وبني قريضة والقينقاع المسعورين بالحقد التاريخي على الدين الإسلامي العظيم وبشيرته النقي محمد بن عبدالله ﷺ وغيرها من الإساءات والتجنيات المستمرة بحجة (حرية الكلمة) والكلمة الحرة منهم ومن أفعالهم براء.

وهؤلاء جميعا وعلى مرالسنين هدفهم الاول والأخير إطفاء شعلة هذا الدين الإسلامي الحنيف وقلع شجرته الوارفة الظلال التي أصلها ثابت وفرعها في السماء وإساءاتهم لم ولن تتوقف الى يوم الدين مادام هناك حق وباطل في هذه الحياة الدنيا..

ولكن إرادة الله هي الأقوى دوما من كل غدرهم وأحابلهم ونكتهم بالعهود التي هي عنوان لهم من أول يوم أعلنوا فيه الحرب على دين الله القيم ونبيه الأكرم ﷺ ولا بد للحق أن ينتصر في كل معركة خاسرة يفعلها هؤلاء جميعا قال تعالى (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) // سورة الصف: ٨.

ورغم صدور هذا الركام الهائل من الكتابات الضلالية المشوهة للإسلام ولسيرة نبي الرحمة والإنسانية الصادق الأمين ﷺ التي احتوت على تلك التهم الظالمة البعيدة كل البعد عن الحقيقة والمنطق العقلاني السليم والتي تحولت بفضل الله الذي

بعث نبيه بالحق بشيرا ونذيرا الى هباء منثور أمام عظمة أخلاقه ونبل صفاته وظهر سيرته.

إلا أن هنالك إضاءات دَوَّنها كتاب وأدباء وباحثون منصفون في الغرب حكموا عقولهم وانطلقوا لفهم الحقيقة البعيدة كل البعد عن أي زيغ أو هوى أو استعلاء ديني أو عنصري أو تاريخي بعد أن سيروا غور تلك الحقيقة وأجهدوا أنفسهم لسنوات طوال في دراساتهم الموضوعية المعمقة رغم الحرب والمقاطعة والعداء الذي لاقوه من مجتمعاتهم.

وكانت تلك الإضاءات هي الرد البليغ على تلك التجنيات والأكاذيب الساقطة التي ظهرت وما زالت تظهر دون أن تؤثر قيد أنملة على السيرة العطرة والحميدة لسيد البشرية ﷺ والتي لا تبلى مآثرها الكبرى مادامت الأرض والسماء.

فالنبي الأكرم ﷺ هو الأظهر وهو غيث السماء الأبدى والرحمة السماوية وأريج الأرض الفواح محبته وسعت الكون وفضائله دواء شاف للأرواح والقلوب الضالمة وسيرته أعظم من أن تزكيه مقالات أو كتب أو شهادات من مفكرين منصفين متعطفين باحثين عن شمس الحقيقة للرد على الخراصين والمهرجين والخائضين في منحدر الإفلاس الأخلاقي الرخيص من بني قومهم لتشويه الوجه الناصع للنبي ﷺ.

وقد تلاشت كتاباتهم البائسة اليائسة المليئة بالدس والدجل والحقذ والكذب فتحولت الى عهن منفوش ورد كيدهم الى نحورهم تلاحقهم لعنه الله والتاريخ، وكما قال تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) // سورة آل عمران: ١٧٣.

لقد بقيت يا سيدي ومولاي يا رسول الله صلى الله عليك وعلى أهل بيتك نورا يملأ الأفاق جيلا بعد جيل، وأنت القائل وقولك الحق: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، وأنت القائل أيضا وما أصدق قولك: (لقد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها). ولا بد من ذكر بعض تلك الإضاءات التي شهد بها أولئك المفكرون الغربيون المنصفون في نبراس الهدى ونبي الحق والفضيلة محمد ﷺ، النبي الذي غير وجه العالم ونقله من الظلمات الى النور.

ولا عجب أن تحدث المعجزات الربانية في تلك الولادة القدسية الفريدة؛ لأن الله أراد بتلك الولادة أن تكون رسالته الإنسانية الكبرى لهدي البشرية عن طريق رسوله الكريم محمد ﷺ سيد الأنبياء وخاتم الرسالات التي اتخذت من الإنسان وتربيته تربية خلقية صالحة محورا لها.

فاجتازت الزمان والمكان وشقت طريقها الى كل بقعة من أنحاء الأرض؛ لترسم طريق الخلاص للبشرية من كل الأمراض الاجتماعية والخلقية التي حملتها عبر تاريخها لتوصلها الى شاطئ الأمن والمحبة والسلام عبر هذا الفيض الإلهي النوراني الذي انطفت بولادته نيران المجوس وانهد إيوان كسرى وتداعت عروش الظلم والطغيان.

قال الله في كتابه العزيز: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) // سورة الفتح: ٢٨.

لقد تقدم المنصفون بالشهادات الرائعة بحق نبي الإنسانية العظيم محمد ﷺ من ذوي العقول النيرة والأقلام الخيرة الذين لم تجرفهم وتخدعهم تلك الأكاذيب والضلالات الحاقدة ولم يبالوا بالحرب النفسية التي أعلنت عليهم من مجتمعاتهم.

ووصل ببعضهم الأمر الى اعتناق الإسلام وتأليف الكتب القيّمة في محتواها الإنساني وعظمة أخلاق نبيه الكريم محمد ﷺ والذي اصطفاه الله منقداً للبشرية، ولا بد من تدوين البعض منها؛ رداً على تلك التخريصات العمياء التي دونها وتفوه بها أعداء الإسلام ونبيه المصطفى ﷺ.

وعسى أن تكون عبرة لدعاة القتل والذبح والتدمير من المحسوبين على هذا الدين القيم وساهموا مع أولئك الضلالين في الطعن لهذا الدين ومنحهم المبررات المجانية في توجيه سهامهم الحاقدة على أعظم نبي عرفته البشرية. وفيما يلي بعض تلك الشهادات:

١ - العالم البريطاني البروفيسور (أرثر أليسون) الأستاذ بجامعة لندن الذي أعلن عام ١٩٨٥: (إن الإسلام هو دين الفطرة الذي فطر الناس عليه ونطق بالشهادتين في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في تلك الفترة في القاهرة وسمى نفسه (عبدالله أليسون) وأخذ يحكي قصته عن الإسلام قائلاً:

(من خلال إهتماماتي بعلم النفس وعلم ما وراء النفس حيث كنت رئيساً لجمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية لسنوات طويلة.. أردت أن أتعرف على الأديان فدرستها كعقائد، ومن تلك العقائد عقيدة الإسلام الذي وجدته أكثر العقائد تمشياً مع الفطرة التي ينشأ عليها الإنسان.. وأكثر العقائد تمشياً مع العقل من خلال الحقائق العلمية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية خلال أربعة عشر قرناً، قد أثبتتها العلم الحديث الآن، وبالتالي نوكد أن ذلك لم يكن من عند بشر على الإطلاق، وأن النبي محمد ﷺ هو رسول الله) // رجال ونساء أسلموا.

٢- المستشرق الدكتور (إدواردو انيلي) المولود في ٦ حزيران عام ١٩٥٤م في نيويورك، وكان أبوه أحد الرأسماليين الكبار، حيث كان يملك شركة معامل (فيات)، وعائلة انيلي هي إحدى العوائل الرأسمالية القديمة في إيطاليا، والذي غير اسمه إلى (هشام عزيز)، وقد نقل عنه أصدقاؤه أنه كان يأنس بتلاوة القرآن بعد منتصف الليل على ضوء الشمعه. وقد عثر على جثته تحت جسر (فرانكو رومانو) في إيطاليا بتاريخ ١٥ تشرين الثاني عام ٢٠٠٠م، وتم دفنه بمقبرة عائلة (انيلي) في قرية (فيلاربيروزا) // مجلة موعظة المجتمع التي يصدرها مركز الإمام علي عليه السلام في العاصمة السويدية - استوكهولم. العدد: ٧١ جمادي الأولى ١٤٢٩هـ - آيار ٢٠٠٨ ميلادية.

٣- المستشرق الفرنسي (ل.أ. سيديو) صاحب كتاب (تاريخ العرب العام)، الذي أشاد فيه بالدور الحضاري للإسلام وشخصية الرسول الأعظم محمد ﷺ، حيث يقول في إحدى صفحاته: (إن النبي محمد ﷺ استطاع أن يوحد القبائل المتنازعة في عصره وأن يزيل الضغائن فيما بينها لتجتمع على كلمة واحدة، ومن ثم تعمل سويا على صناعة الحضارة الراقية من أجل خير الإنسانية جمعاء).

وقد كتب عن ذلك الكتاب المستشرق (جوستاف دوغا) صديقه الحميم والذي تولى الإشراف على طبعه قائلا: (إنني حين أنني على سيديو فامتدح شجاعته وإخلاصه ونزاهته وصلاحه أثق بأنني أجد صدقاً لذلك في جميع القلوب. أقول الحق وأنتم الشهود: إن أفضل ما يمدح به سيديو أنه كان عالماً صادقاً ورجل خيراً).

٤- الشاعر الفرنسي لامارتنين: وهو أحد أشهر شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر وحامل لواء الشعر الرومانسي والذي لقب بشاعر البحيرة نسبة إلى إحدى قصائده، يكتب نصاً جميلاً ينصح بمحبة وتقدير الرسول الكريم محمد ﷺ وإسهاماً بتجلية الهوة بين القلم الحاقد الرخيص المثير للفتن والأحقاد بين الأديان والقلم الموضوعي المتزن.

فقد نشرت جريدة (الشرق الاوسط) في عددها (٩٩٩١) هذا النص الذي كتبه الشاعر الفرنسي لامارتنين وترجمه الدكتور (محمد ولد أباه) من موريتانيا تحت عنوان: من أعظم منك يا محمد؟:

(لا أحد يستطيع أبداً أن يتطلع عن قصد أو عن غير قصد إلى بلوغ ما هو أسمى من ذلك الهدف إنه هدف يتعدى الطاقة البشرية ألا وهو تفويض الخرافات التي تجعل

حجابا بين الخالق والمخلوق وإعادة صلة القرب المتبادل بين العبد وربّه ورد الإعتبار الى النظرة العقلية لمقام الألوهية المقدس وسط عالم فوضى الألهة المشوهة التي إختلفتها أيدي ملة الإشراك.

لا يمكن لإنسان أن يقدم على مشروع يتعدى حدود قوى البشر بأضعف الوسائل وهو لا يعتمد في تصور مشروعه وإنجازه إلا على نفسه ورجال لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة، يعيشون في منكب من الصحراء.

وما أنجز أحد أبدا في هذا العالم ثورة عارمة دائنة في مدة قياسية كهذه؛ إذ لم يمض قرنان بعد البعثة حتى أخضع الإسلام بقوة حجته أقاليم جزيرة العرب الثلاثة، وفتح بعقيدة التوحيد بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر والهند الغربية وأراضي الحبشة والشام ومصر وشمال القارة الأفريقية ومجموعة من جزر البحر المتوسط وشبه الجزيرة الليبيرية وطرفا من فرنسا القديمة.

وإذا كان سمو المقصد وضعف الوسائل وضخامة النتائج هي السمات الثلاث لعبقرية الرجال فمن ذا يتجاسر أن يقارن محمدا بأي عظيم من عظماء التاريخ؟ ذلك أن أكثر هؤلاء لم ينجح إلا في تحريك العساكر أو تبديل القوانين أو تغيير الممالك، وإذا كانوا قد أسسوا شيئا فلا تذكر لهم سوى صنائع ذات قوة مادية تتهاوى غالبا قبل أن يموتوا، أما هو فقد إستنفر الجيوش وجدد الشرائع وزرع الدول والشعوب وحرك ملايين البشر فوق ثلث المعمورة وزلزل الصوامع والبيع والأرباب والملل والنحل والنظريات والعقائد وهز الأرواح واعتمد على كتاب صار كل حرف منه دستورا.

وأسس دولة القيم الروحية فشملت شعوبا من كل الألسنة والألوان وكتب في قلوب أهلها بحروف لا تقبل الاندثار كراهية عبادة الأصنام، ومحبة الأنابة الى الواحد الأحد المنزه عن التجسيم.

ثم دفع حماسة أبناء ملته لأخذ الثأر من العابثين بالدين السماوي فكان فتح ثلث المعمورة على عقيدة التوحيد انتصارا معجزا ولكنه ليس في الحقيقة معجزة لإنسان وإنما هو معجزة انتصار العقل.

إن كلمة التوحيد التي صدع بها أمام معتقدي نظم سلاطات الأرباب الأسطورية كانت شعلتها حينما تنطلق من شفّتيه تلهب معابد الاوثان البالية وتضيئ الأنوار على العالم.

وإن سيرة حياته وتأملاته الفكرية وجرأته البطولية على تسفيه عبادة آلهة قومه وشجاعته على مواجهة شرور المشركين وصبره على أذاهم طوال خمس عشرة سنة

في مكة، وتقبله لدور الخارج عن نظام الملأ واستعداده لمواجهة مصير الضحية بين عشيرته وهجرته وعمله الدؤوب على تبليغ رسالته، وجهاده مع عدم تكافؤ القوى مع عدوه، ويقينه بالنصر النهائي وثباته الخارق للعادة عند المصائب، وحلمه عندما تكون له الغلبة، والتزامه بالقيم الروحية، وعزوفه التام عن الملك، وابتهالاته التي لا تنقطع ومناجاته لربه، ثم موته وانتصاره وهو في قبره.

كل هذا يشهد أن هناك شيئا يسمو على الإفتراء ألا وهو: الإيمان ذلك الإيمان الذي منحه ﷺ قوة تصحيح العقيدة، تلك العقيدة التي تستند الى أمرين هما: التوحيد ونفي التجسيم: أحدهما يثبت وجود البارئ والثاني يثبت أن ليس كمثلته شيء. وأولهما يحطم الألهة المختلفة بقوة السلاح والثاني يبنى القيم الروحية بقوة الكلمة.

إنه الحكيم خطيب جوامع الكلم الداعي الى الله بإذنه سراج التشريع إنه المجاهد فاتح مغلق أبواب الفكر بانني صرح عقيدة قوامها العقل وطريق عبادة مجردة من الصور والأشكال مؤسس عشرين دولة ثابتة على الأرض ودعائم دولة روحية فرعها في السماء هذا هو محمد ﷺ.

فبكل المقاييس التي تزن بها عظمة الإنسان من ذا الذي يكون أعظم منه) ؟ / هذا مقالته لامارتين نقلا عن جريدة الشرق الاوسط العدد ٩٩٩١.

لاشك ولا ريب أنها شهادات رائعة وإضاءات ذات دلالة عميقة لكل ذي عقل سليم نطق بها هؤلاء المفكرون، ليتها كانت وتكون عبرة لمن سولت له نفسه بنوازع شيطانية أن يتجنى على شخصية الرسول الأعظم محمد ﷺ .. قال تعالى: (إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ لِمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) // المزمّل: ١٩.

وقال: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) // النحل: ٨٩.

الشهيد الأول على الأمم

إن الشهيد الاول على أمم الأرض يوم القيامة هو رسول الإنسانية الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ بعد أن أكمل الله على يديه رسالته الإسلامية السمحاء، ونشرها بين البشر لتكون أعظم مدرسة أخلاقية وأرقى رسالة هدى وهداية وعدل ومحبة وسلام للبشرية عبر العصور.

وبما أن رسول الله محمد ﷺ خاتم الأنبياء ورسالته أكمل الرسالات وأعظمها ثراء بالقيم الإنسانية المثلى فمن البديهي أن تكون أبلغها أثرا في النفوس الواعية

والعقول السليمة التي رفضت غوايات الغاوين واقتراءات المقترين وتحريفات المنحرفين. وتخرصات الحاقدين على هذا الدين ومحتواه الإنساني النابض بالطهر والرفعة والأصالة والسمو.

وليس من شك في أن يكون رسول الإنسانية الأعظم محمد ﷺ هو الشهيد الأول على الشهداء من الأنبياء والأوصياء والصالحين جميعا مع أمهم من أول يوم خلق الله فيه آدم والى يوم القيامة.

وهو الثابت في كتاب الله الذي هو عصي على الباطل ودعائه وأتباعه، وكما قال تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) // النساء: ٤١. وحين يخاطب الله سبحانه وتعالى أمته الإسلامية التي أمنت بتلك الرسالة السمحاء بقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) // البقرة: ١٤٣.

فإن هاتين الآيتين البيئتين لكل ذي عقل ألقى السمع وهو شهيد تثبتان بالدليل الإلهي القاطع بأن من آمن إيمانا مطلقا بتلك الرسالة الإسلامية ورسولها العظيم محمد ﷺ في بدايات الدعوة الإسلامية وهم الصادقون المتقون.

وهم علي وفاطمة ﷺ ومن ذريتهما الذين ساروا على الصراط المستقيم المتفانون من أجل دين الحق الذين أرسوا دعائم أمة الوسط والإعتدال الذين عاملوا الناس كما طلب منهم ربهم العظيم في كتابه الكريم ونبيه ﷺ في أحاديثه المتواترة الثابتة، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ:

(أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم الثقلين: أولهما فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به) - فحدث على كتاب الله ورجب فيه - وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي) // صحيح مسلم.

وهو القائل وقوله الحق ﷺ: (لاتصلوا علي الصلاة البتراء، قالوا وما الصلاة البتراء يا رسول الله؟ قال: ﷺ: تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون بل قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد). وقد قال الشافعي في هذا المضمون:

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن انزله
كفلكم من عظيم الشأن أنكم من لم يصل عليكم لاصلاة له
كذلك قال فيهم الشاعر الفرزدق:
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

إنهم ورب الكعبة شهداء على البشرية مع الشهيد الاول رسول الإنسانية الأعظم محمد ﷺ ومن بعده أهل بيت النبوة الذين طهرهم الله من الرجز تطهيراً. تلك الشجرة النورانية المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء التي سارت على الصراط المستقيم ولم تتحرف قيد أنملة عن الرسالة المحمدية الناصعة الطاهرة، والتي ضحت بأرواحها من أجل العقيدة.

إنهم أهل بيت الرسول العظيم محمد ﷺ الذين تشربت تلك الرسالة السمحاء في قلوبهم وأرواحهم وسرت في دمانهم الطاهرة التي ضحوا بها لأنقاذها من الضلال والانحراف والناكثين والمارقين واللاهثين خلف المال والسلطة والملك العضوض، والذين خالفوا كل مضامين رسالة النبي الأعظم محمد ﷺ لكن أهل البيت عليهم السلام بالضد من أولئك المارقين الذين حللوا ما حرم الله ورسوله.

إنهم بسيرتهم النقية تلك سيكونون الشفعاء لأمتهم ومن سار على هداهم وتمسك بوصاياهم يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها.

وليس باستطاعة مسلم في هذا العالم أن يجحد تضحيات وتفاني وعظمة وطهارة ونقاء أولئك الصحابة الأجلاء الأوائل، ومنهم بلال وسلمان وصهيب وعمار وجابر بن عبدالله الأنصاري وأبو ذر والمقداد وثابت بن قيس وابن مسعود وابن عباس والعباس بن عبدالمطلب والحمزة بن عبدالمطلب وحجر بن عدي وزيد بن أرقم ومصعب بن عمير ومالك الأشتر.

ذلك الرعيل الاول من المؤمنين الذين لم يفارقوا رسول الإنسانية الأعظم محمد ﷺ ولاقوا من الأهوال من عتاة قريش وفجارهم ومن بعدهم تلك الشجرة المروانية الخبيثة التي ناصبت العدا لرسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار.

والذين قال فيهم ﷺ: (والذي نفسي بيده إن من أمتي رجالا الإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي) // الكشاف: ج ٢ ص ٥٠٦.

إن ما حوته هذه الرسالة من كمالات ورفعة وشأن بالغ أمنت بها تلك النفوس الصافية الأبية الصادقة مهتد الطريق بأرواحها الطاهرة وتفانيها الفريد لكل من هفت نفسه الى سلوك طريق الحق لتحذو حذو أولئك الغر الميامين الشهداء على خلقه وحقته في أرضه وبعظمتها وجلالها المتفرد صار القلم عاجزا عن تدوين جزء يسير من مآثرها الناصعة البهية التي لا يحوها الزمن مهما ادلهمت الخطوب والفتن.

لقد رسمت هذه الرسالة العظمى المتمثلة بكتابتها العظيم القرآن والنبي الأكرم محمد ﷺ الطريق المستقيم للبشر واوضحته لهم تمام الوضوح وبشرتهم بالخاتمة الحسنة وحذرت الذين يكفرون بها وينكرونها وينكرون نبوة الرسول الأعظم محمد

عليهم أن يتحملوا وزر كفرهم والله هو الحكم الفصل في ما يدعون من أباطيل لا يقرها عقل ولا منطق سليمين.

قال تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) // الرعد: ٤٣.

إن كل الأباطيل والإفتراءات والحروب الظالمة التي شنها ويشنها الأعداء على كتاب الله ورسوله الكريم يعلمها الله الذي لا تخفى عليه خافية وينشرها في كتاب يلقيه كل انسان أمامه ويطلع عليه يوم القيامة ليعرف ما بدر منه وما جناه في دنياه ضد قيم الحق والعدالة والسلام المتمثلة في جوهر كتاب الله وشخص نبيه سيد الأخلاق الفضلى وقطبها الأكبر محمد بن عبدالله ﷺ.

قال تعالى: (وَكُلُّ إِنسَانٍ أَلزَمَانَهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا إِفْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا).

ومن خلال هذه الكرامة الإلهية العظيمة التي خص الله بها شعوب الأرض الذين خلقهم الله لكي يتعاونوا ويتحابوا ويتألفوا وينشروا قيم العدل والسلام في أي مكان من هذا العالم بغض النظر عن أشكالهم وألوانهم وقومياتهم.

والمقياس الوحيد في عرف الله في المفاضلة بين البشر هو التقوى ولا شيء غير التقوى من خلال هذه الآية العظيمة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) // الحجرات: ١٣.

فبلغها للعالم خير البشرية محمد بن عبدالله ﷺ، سيد المعصومين المنزه عن كل خطأ واتهام شيطاني باطل، حامل مشعل الهداية الربانية الذي وصفه ربه في الآية الكريمة: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ).

بهذه الآيات العظيمة السابقة والآيات التي تلتها خاطب الله خلقه ليلبغها رسوله المعصوم الطاهر ﷺ الذي لا يأتزر إلا بأمر الله الذي أحسن اختياره لتكون دليلا ونورا يهتدي به كل ذي عقل سليم بعيدا عن التعصب للأباء والأجداد الغابرين والترسبات الجاهلية البالية الباطلة الذميمة التي نخرت العقول وأسقامت النفوس وجمدت الأفكار وأجبت الأحقاد بين بني البشر.

فجاء الإسلام ليظهر النفس البشرية من تلك الأرجاس المقيتة، ولا بد أن تكون كل نفس مسؤولة أمام ربها بما تقدمه من خير أو شر لبني جنسها من البشر في كافة أنحاء الأرض.. (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) // الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣.

فما أعظمها من سيرة محمدية عظيمة غيرت وجه التاريخ ووضعت الحد الفاصل بين الظلام والنور والرذيلة والفضيلة والباطل بعد أن سلب الطواغيت كرامة الناس وإنسانيتهم وجعلوا منهم عبيدا أذلاء لهم لخدمة عروشهم وصروحهم التي بنوها على جماجم البشر.

والله جلّت قدرته الذي جعل من الإنسان خليفته في أرضه وخاطب عباده بأن لا يركنوا الى هؤلاء الطواغيت بقوله تعالى: (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) // هود: ١١٣.

كل هذا وغيره من المبادئ العظيمة المثلى نادى بها الإسلام الذي بنى على جملتين هما: (كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة) كما قال أحد العلماء الربانيين، وهو الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء رحمته. وقد عبر الدكتور عون شريف القاسم عن ذلك أيضا في كتابه (الإسلام والثورة الحضارية) قائلا: (لقد كان الجديد الذي أتى به القرآن الكريم من لدن عليم حكيم تعبيراً عن هذا الوضع الجديد وجواباً للحاجات المطروحة، فأكمل رسالة موسى وعيسى عليهما السلام بأن أدخل الدين في حياة المجتمع فأصبح الدين هو الدنيا وأصبحت الدنيا هي الواجهة الأخرى للدين).

ومن هنا جاءت كتابات بعض المفكرين الغربيين الذين أحسوا بجلال الله وجماله ونبل رسوله الكريم وصدق دعوته وصفاته رغم الحصار الفكري والتعتيم الإعلامي والتهميش الاجتماعي الذي لاقوه في مجتمعاتهم التي جهلت عظمة هذا الدين وفحواه ومحتواه.

الفصل الثاني عشر الرسول المصطفى ﷺ يلبي نداء السماء

استشهاده ﷺ:

لقد ذهب كثير من علماء الفريقين الى أن استشهاد سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ في يوم الاثنين، وذهب أغلب علماء الشيعة الى أنه كان في اليوم الثامن والعشرين من صفر، وقال علماء العامة أنه كان في اليوم الثاني والعشرين من ربيع الاول.

روي في كشف الغمة عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال: قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة في سنة عشر من الهجرة، فكان مقامه بمكة أربعين سنة، ثم نزل عليه الوحي في تمام الأربعين وكان بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر الى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسون سنة، فأقام بالمدينة عشر سنين/ كشف الغمة.

فلما دنا اجله ﷺ حجب الناس عنه وثقل في موضعه وكان أمير المؤمنين عليه السلام لا يفارقه الا لضرورة فقام في بعض شؤونه فأفاق رسول الله ﷺ افاقاً، فافتقد علياً عليه السلام فقال وأزواجه حوله: ادعوا لي أخي وصاحبني وعاوده الضعف فصمت.

فقال عائشة: ادعوا له أبا بكر، فدعي، فدخل عليه وقعد عند رأسه، فلما فتح عينه نظر اليه فأعرض عنه بوجهه، فقام أبو بكر فقال: لو كان له الي حاجة لأفسي بها الي، فلما خرج أعاد رسول الله ﷺ القول ثانية، وقال: ادعوا لي أخي وصاحبني، فقالت حفصة ادعوا له عمراً، فدعي فلما حضر وراه رسول الله ﷺ أعرض عنه فانصرف، ثم قال: ادعوا لي أخي وصاحبني، فقالت أم سلمة رضوان الله عليها: ادعوا له علياً فإنه لا يريد غيره فدعي أمير المؤمنين عليه السلام. فلما دنا منه أو ما اليه فأكب عليه فواجه رسول الله ﷺ طويلاً، ثم قام فجلس ناحية حتى اغفى رسول الله ﷺ، فلما اغفى خرج، فقال له الناس: ما الذي أوعز إليك يا أبا الحسن؟ فقال: علمني ألف باب من العلم فتح لي كل باب ألف باب، وأوصاني بما أنا قائم به إن شاء الله تعالى.

ثم ثقل ﷺ وحضره الموت وأمير المؤمنين عليه السلام حاضر عنده فلما قرب خروج روحه الطاهرة قال له: ضع يا علي رأسك في حجرك فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك ثم وجهني الى القبلة وتول أمري وصل علي أول الناس، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي واستعن بالله تعالى.

فأخذ علي عليه السلام رأسه فوضعه في حجره فاغمي عليه، وورد بأن فاطمة عليها السلام أكبت تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وتقول:

وأبيض يُستقى الغمامُ بوجهه شمال اليتامى عصمةً للأرامل

ففتح رسول الله ﷺ عينه وقال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمك أبي طالب لا تقوليه ولكن قولي:
(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ).

محاولات اغتيال الرسول المصطفى ﷺ:

لقد عاصر رسول المصطفى ﷺ ظروفًا صعبة وقاهرة في مكة والمدينة، حيث يصعب على أفراد الأمة تحملها، لكنه نظم نفسه وجهدا لتحمل الصعاب، وعظمت الرزايا وزادت الخطوب وكثرت الآلام مع إعلانه عن البعثة النبوية المباركة، إذ هاجت طغاة قريش عليه، وتكالبت عليه قوى الشر والطغيان.

فحمل عتاة الظلم والجهل أسلحتهم المختلفة ليطفنوا نور الله تعالى، فتعرض خاتم الأنبياء لشتى صنوف الأذى والحرمان والبغي، ولم يكتف رجال الكفر بجهودهم وأعمالهم في سبيل كيد الإسلام والمسلمين بل تحركت نساؤهم وأولادهم في هذا الطريق، فكان منهم حمالة الحطب، قال تعالى: (تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد).

وشرع آخرون في سلب رسول الله ﷺ هدهوه وسكينته فكانوا يهاجمونه بعد منتصف الليل، في ساعات عبادته في بيت الله الحرام، فقد ورد عنه ﷺ لمن هاجمه: يا (فلان) أما تتركني ليلا ولا نهارا.

وشرع الكافرون في إزهاق أرواح المؤمنين فكانت سمية أول شهيدة في الإسلام، واستشهد زوجها ياسر، وتقاترت قوافل الشهداء. فأعطى الكثير من المسلمين أرواحهم ودماءهم في هذا السبيل قربانا في سبيل الله تعالى.

ولم يكتف فراعنة قريش بذلك بل حاصروا الرسول ﷺ وبني هاشم في شعب ضيق وقاطعهم اقتصاديا واجتماعيا، حتى أصبح الخبز عندهم سلعة نادرة.

وبينما كان أفراد بني هاشم يضحون بالغالي والرخيص في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى لتكون هي العليا، كان جهلة قريش يبذلون ما عندهم في سبيل إعلاء راية أصنامهم، وذهب أبو طالب مؤمن قريش وخديجة أم المؤمنين ضحية هذه المقاطعة.

وازداد الاحتكاك بين المؤمنين والكافرين فهاجر المسلمون الى الحبشة فارين بدينهم وجلدهم هربا من عتاة قريش، وأفرج الله سبحانه وتعالى فرجه للمسلمين بإسلام وهداية أهالي يثرب، فعلت راية الإسلام وانتصرت راية التوحيد. واستمر الكفار في جهودهم في إطفاء نور الله تعالى، وكما ورد في القرآن المجيد: (يريدون ليطفنوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون).

مؤامرة الكبرى لقتل الرسول ﷺ يوم الهجرة:

في عام (٦٢٢ ميلادي) علمت قريش بتأييد أهل المدينة لرسول الله ﷺ، فسرعان ما اتفقوا مع القبائل الأخرى بأن ترسل كل قبيلة أحد فتياتها الأقوياء الأشداء لقتل الرسول المصطفى ﷺ لتتحمل كل القبائل دمه، وبذلك يتفرق دم سيدنا محمد ﷺ على القبائل فلا تستطيع بنو هاشم على قتال هذه القبائل.

ولما علم رسول الله بذلك الأمر أمر المسلمين ببيع ممتلكاتهم وترك مكة في أقرب وقت والتوجه الى المدينة، وأتى أمر الله بالرحيل ليلاً فأمر ابن عمه علي بن ابي طالب ﷺ أن ينام في فراشه وأعطاه عبايته وترك المنزل، وفي ذلك الوقت كانت فتيان قريش تنتظر خروج المصطفى ﷺ بالخارج لقتله بضربة سيف واحد، ولكن قدرة الله تعالى كانت فوق كل شيء.

فخرج الرسول أمام هؤلاء الفتية وأخذ حفنة من التراب وألقاها على وجوههم فأعماههم الله تعالى، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ).

وذهلت قريش لفقدائها الرسول في مرقده وأخذت تقتفى أثره ثم وصلت الى غار ثور الذي به الرسول ﷺ، ولكنهم وجدوا يمامة راقدة على بيضها وعنكبوتاً بنسجيه على الباب.

وفشلوا مره أخرى في قتل الرسول ﷺ وأمضى الرسول المصطفى ثلاث ليال في الغار، ثم وصل الى المدينة بعد مسيرة ثمانية أيام ثم لحق به علي بن ابي طالب ﷺ بعد أن أدى عن الرسول ﷺ ما كان للناس عنده من أمانات وودائع.

وهكذا وبعد نجاة الرسول المصطفى ﷺ وعجز مشركي مكة من استئصال الرسالة الإسلامية الخاتمة تحول بعض منهم الى الإسلام كذبا ونفاقا، ومع ازدياد قوة الإسلام ازدادت أعداد المنافقين.

والمنافقون هم الذين يدعون الإسلام زورا ويكتمون الكفر، ولأجل ذلك أنزل الله تعالى سورة قرآنية اسمها سورة المنافقون.

ولما ازدادت أعداد المنافقين بعد فتح مكة كثرت الحركات الداخلية المشبوهة، وعلى رأس تلك الحركات كانت حركتهم في معركة حنين وحركتهم في حملة تبوك. ففي معركة حنين انسحب المنافقون انسحابا خطيرا، بشكل هزيمة غادرة تسببت في هزيمة عامة لجيوش المسلمين، وانتصار ساحق لقوات هوازن الكافرة. وكان أبو سفيان وقادة الشرك القرشيون يقودون ذلك الانهزام ولولا نصر الله تعالى لكانت أعظم هزيمة في سيرة رسول الله ﷺ.

المؤامرة الثانية والمؤامرات الأخرى لقتل الرسول ﷺ:

وأما الحركة الثانية لقوى المنافقين فقد برزت في حملة تبوك: ففي هذه الحركة الخائنة التي اشترك فيها أبو سفيان كان الهدف الأعظم للخطة شخص رسول الله ﷺ، ذلك أن الكفار والمنافقين واليهود قد حاولوا اغتيال رسول الله ﷺ بطرق مختلفة فلم يفلحوا إذ حاولوا قتل رسول الله ﷺ بالسيف مرات عديدة في مكة والمدينة فلم ينجحوا.. وحاولوا قتل رسول الله ﷺ بالقاء صخرة عليه في بني النضير عند اليهود فلم يتوقفوا. وحاولوا اغتيال رسول الله ﷺ بالطعام المسموم في خيبر فبان كيدهم وخابت ظنونهم.

وفي تبوك حاول المنافقون الاستفادة من خطة جديدة قد تسبب لهم النجاح وتتمثل في القاء رسول الله ﷺ من فوق مرتفع العقبة الى الوادي السحيق.

لقد كانت خطة شيطانية قاهرة نسبة النجاح فيها عالية، ولكن الله سبحانه وتعالى خيب ظنهم مرة أخرى، وذلك بإخباره رسوله بما أجمعت عليه قلوب المنافقين.

فأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان بتخويفهم وإفشال مشروعاتهم، فتحرك حذيفة في هذا الطريق فخاف المجرمون وهربوا.

ولم يتوقف أعداء الله سبحانه وتعالى في البحث عن سبل جديدة لإطفاء نور الله تعالى وقتل شخص رسول الله ﷺ. وبعد سنتين من ذلك التاريخ أرشدهم شيطانهم الى طريقة جديدة في قتل رسول الله ﷺ تتمثل في سقيه شرابا ساما في أثناء نومه. وتصوروا نجاح هذه الخطة لاختلافها عن الخطط السابقة، ففي مؤامرة خيبر تكلمت الشاة المسمومة وأبطلت مشروعاتهم. وفي تبوك أخبر الله تعالى رسوله بخطتهم المزعومة فعرف الناس جميعا بمؤامرتهم ضد رسول الله ﷺ.

أما الخطة الجديدة فهي تبعد الشبهة عنهم، لأنه ظاهرها صالح وباطنها طالح، ففي الظاهر يريدون سقي رسول الله ﷺ دواء، وفي الحقيقة يريدون سقيه سما.

لقد كانت الأعمال الخطيرة ضد انبياء الله كثيرة لا تعد ولا تحصى تسببت في شهادة قسم منهم. وتعرض معظم انبياء الله تعالى لعمليات اغتيال أئمة من قبل المعارضين للنصوص الإلهية، والمخالفين للسنن السماوية.

فهذا القرآن الكريم يحدثنا عن بعض تلك القصص، وحدثنا أنبياء الله تعالى عن البعض الآخر، ويدخل هذا كله في الموضوع الخطير الذي تناوله الله تعالى بقوله: (إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا). وقال تعالى: (ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين).

العمل الشيطاني الاخير:

لقد حذر الرسول المصطفى ﷺ الحاضرين من لذه فلقد منع رسول الله ﷺ الحاضرين في منزله من لذه، إذ روت عائشة عنه انه ﷺ قال: لا تلذوني. وكان أمره ﷺ بعدم لذه قبل سقيهم له، ثم قال ﷺ بعد ذلك لهم: ألم انهكم أن لا تلذوني.

فألنهى النبي بعدم سقيه دواء واضح لا لبس فيه، ولأنه ﷺ عالم بأنهم يريدون أن يفعلوا فعلا ظالما وخطيرا، وبعدما سقوه ما أرادوا أن يسقوه، رغما عليه ﷺ وقد نهاهم ﷺ عن فعلهم.

إن مخالفة الجماعة لأوامره ونواهيه ﷺ لا يختلف عليها اثنان، فهم الذين خالفوا أوامره ونواهيه، وخاصة في الأسبوعين الأخيرين من حياته ﷺ في هذه الدنيا.

وتجسدت معارضتهم له في مخالفتهم لأمره بأنضمامهم في حملة أسامة بن زيد، وتجسد أيضا في مخالفتهم لأوامره ﷺ بالمجئ بصحيفة ودواة لكتابة وصيته الشريفة. وثبت أيضا في اتهامهم بأنه ﷺ يهجر.. وكان منها اغتصابهم للسلطة.

ومجموع تلك المخالفات من قبل الحزب القرشي ومن اتبعهم يثبت إصرارهم وتخطيطهم لقتل رسول الله ﷺ والاستحواذ على السلطة، وقد وصل الى هذه النتيجة العلماء والمحققون. . ولكن كيف اغتيل النبي ﷺ ؟

هناك شواهد وأدلة تشير الى أن الحاضرين قد لدوا النبي ﷺ أثناء نومه، إذ قالت عائشة: لدنا رسول الله ﷺ في مرضه، فجعل يشير إلينا أن لا تلدونى. وهناك رواية أخرى من طريق عائشة تشير الى منعه ﷺ إياهم من سقيه بالإشارة، أي أن رسول الله ﷺ منعهم من سقيه شرابا بالقول، ولما سقوه رغما عنه، أعاد عليهم تكرر نهيه بالإشارة (باليد) لعدم تمكنه من النطق، ولكن لم ينفع معهم ذلك.

والظاهر من رواية لدهم رسول الله ﷺ ونهيه عن ذلك بالإشارة، أنهم لدوه أثناء نومه، وبواسطة عصابة من الناس، ولما استيقظ في أثناء ذلك - وكانوا قد سقوه الدواء - لم يتمكن من دفعهم. فالتفتي بالإشارة الى ذلك كما جاء في الرواية. وكان النبي ﷺ قد منع من لده، فسمع الحاضرون ذلك، فامتنعوا من لده في يقظته انتظارا لنومه. ولما نام رسول الله ﷺ سقوه ما أرادوا أثناء نومه رغما عنه. إذ جاء: فلما أفاق ﷺ، وجاء: فلدوه وهو مغمور، فلما أفاق ﷺ قال: لا تلدونى. فهل كان رسول البشرية وخاتم الأنبياء لا يعرف فائدة الدواء، وتلك المجموعة تعرف ذلك؟

وهل كان رسول الله ﷺ لا يتحسس مصلحته والآخرين يتحسسون ذلك؟ طبعا كان رسول الله ﷺ أدرك لمصلحته ومصلحة أمته من غيره، وأكثر علما بفائدة الدواء من غيره، ولكنه عالم بأن تلك العصابة لا تريد حياته، فذكريات حملة أولئك عليه في العقبة ما زالت عالقة في ذهنه.

فهل يعقل أنهم خططوا لاعتياله في سنة ٩ هجرية ويريدون اليوم إطالة عمره، وقد قالوا له في ذلك التاريخ: إنه يهجر.. وحسبنا كتاب الله؟ الأقرب للذهن السليم أن جماعة العقبة لم تكن لتلده وتسقيه إلا سما قاتلا ينهي حياته، وبمكثها من انجاز مخططها في الوصول الى سدة الرئاسة.

وكذلك انحرف النصارى عن عيسى على نبينا وعليه السلام إذ جاء بالخبر: لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى الى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين، فخرج عليهم من عين في البيت يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة، بعد أن أمن بي.

ثم قال: أيكم يلقي عليه شبي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له: اجلس.

ثم أعاد عليهم، فقام ذلك الشاب فقال: أنا. فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال: أنا. فقال: هو أنت ذاك، فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من وقته من البيت الى السماء.

قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق.

لقد اتهمت قريش العباس بلد النبي ﷺ بعدما لدوا رسول الله ﷺ رغما عنه، فقال ﷺ: من فعل هذا؟ فقالوا: عمك العباس، أي أنهم انكروا فعلهم القبيح وألقوا بتبعة عملهم على العباس عم النبي ﷺ إلا أن ذلك لم يخف على رسول الله ﷺ، الذي برأ ساحة العباس من ذلك الفعل واتهمهم بالخطيئة.

واتهامهم للعباس بالفعل يدل على كون فعلهم عدوانيا وشيطانيا وإلا فليس هناك داع للفرار من فعل جيد هدفه المنفعة، ويعضد هذا الرأي ويسنده وصف رسول الله ﷺ لفعلهم بالشيطاني.

وتبرئة رسول الله ﷺ عمه العباس من الذنب كان واضحا وبيننا لا يشوبه شائبة إذ قال ﷺ: لا يبقى أحد في البيت إلا لد إلا عمي، هكذا أخرج ابن إسحاق: لا يبقى أحد منكم إلا لد غير العباس فإنه لم يشهدكم.

فالعباس لم يكن أصلا في منزل رسول الله ﷺ، فكيف يتهم بارتكاب ذلك الفعل القبيح. وجاء بأن الذي اتهم العباس بلد النبي ﷺ هي عائشة.

وفي رواية أنهم جميعا قالوا: عمك العباس. فيتوضح من ذلك بأنهم سقوا الرسول ﷺ سماء، والسم يشترك مع الدواء في طعمهما المر، ثم أنكروا ذلك، وقالوا بأن العباس سقاه فاجتمع في الحديث ما يلي:

- 1- معرفة النبي ﷺ بنية الجماعة في قتله، فحذرهم من سقيه شرابا عدة مرات.
- 2- إقدام الجماعة على سقي النبي ﷺ شرابا قسرا وبالإكراه في أثناء نومه.
- 3- وقيام الجماعة بإلقاء تبعة سقي النبي ﷺ شرابا على العباس. فكانت وفاة رسول الله ﷺ بعد ذلك الحادث.

لماذا لم يشترك أرحام الرسول ﷺ في لده؟

إن الأقرب للصواب والحكمة أن الجماعة لو كانوا يريدون برسول الله ﷺ خيرا لأشركوا أرحامه في سقيه، وأقرب منزل إلى مسكن عائشة هو منزل فاطمة بنت محمد ﷺ وعلي ﷺ لكنهما لم يشتركا.

ولم يشترك في لده العباس وأولاده وبقية ولد أبي طالب وغيرهم من بني هاشم. فهم لم يخبروا رسول الله ﷺ وأرحامه بخطتهم في سقي النبي ﷺ شرابهم المزعوم.

فهل هناك سنة جارية بأن أهل المريض وأرحامه لا يحبون له شرب الدواء، وهل يعقل أن بني هاشم جميعا لا يحبون شرب الدواء ولا يعرفون منفعته.

ومما يثير الشكوك حول خططهم العدوانية أنهم لم يشركوا أرحام رسول الله ﷺ في خطتهم ثم ألقوا بتبعة فعلهم عليهم، فعندما سألهم رسول الله ﷺ من فعل هذا؟ قالوا: عمك العباس.

والصحيح أن الرسول ﷺ رأهم أثناء سقيهم له الدواء بالإكراه ومنعهم من ذلك بالإشارة، ولكنهم تمكنوا من انجاز عملهم والوصول الى هدفهم.

والملاحظ بأن دهاة قريش قد استطاعوا الوصول الى غايتهم في قتل رسول الله ﷺ بعد فشل اليهود في ذلك. وكانت العقبة الرئيسية في ذلك هي اطلاع ومعرفة الرسول ﷺ بالطعام المسموم من خلال نطق الطعام بذلك مثلما حدث في خيبر، إذ نطقت الشاة المسمومة وأخبرته بأنها مسمومة.

فعرف شياطين قريش بأن السم لا يدخل جوف النبي إلا بالإكراه، فخططوا لذلك تخطيطا دقيقا، مثلما خططوا للسقيفة، ونجحوا في أمرهم، إذ سقوا النبي ﷺ سما على أنه دواء في أثناء مرضه وبالإكراه.

ولحكمة الله تعالى فقد أبطل سبحانه محاولات الاغتيال السابقة، وأجاز هذه المحاولة في حق الرسول ﷺ التي جاءت بعد إتمامه لتبليغ الرسالة وقوله سبحانه: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً).

لقد كان الفاعل مجموعة من الناس وعند ملاحظة الروايات المتعلقة بالموضوع نفهم أن القائمين بلد (سقي) رسول الله ﷺ في منامه كانوا مجموعة من الناس، إذ قالت عائشة: لددنا رسول الله ﷺ في مرضه فقال ﷺ: لا تلدوني.

ويدل على كونهم مجموعة أن النبي ﷺ لما أحس بسقيهم له، واستيقظ من منامه لم يتمكن من دفعهم عنه فاكتفى بالإشارة الى نهيه إياهم عن ذلك، ودفع النبي ﷺ لهم لا يجدي أيضا لأنهم كانوا قد سقوه السم فعلا.

وقال ﷺ لهم: (الم انهكم)، وهذا يشير أيضا الى كونهم جماعة.

حمى وآلام السموم:

من المعروف أن دخول السم الى جسم الإنسان يتسبب في رفع درجة حرارة البدن ارتفاعا خطيرا تشكل ألما مبرحة وصداعا عنيفا لا يطاق، وهذه الأعراض المرضية لاحظناها فيمن سم من الناس مثل رسول الله ﷺ.

ذكر ابن سعد: فلما كان يوم الأربعاء بدأ برسول الله ﷺ المرض فحم وصدع. وذكر الطبراني والهيثمي بأن النبي ﷺ احتجم بعدما حم، أي رغب الرسول ﷺ في رفع تلك الحمى العالية بالحجامة.

وكانوا قد سألوا النبي ﷺ: من أشد الناس بلاء؟ قال ﷺ: النبيون ثم الأمثل فالأمثل.

بعدما لدوا رسول الله ﷺ وهو نانم حاول النبي ﷺ الانتقام منهم، فقال رسول الله ﷺ: لا يبقى منكم أحد إلا لد. وقال السندي في شرح البخاري: معنى قوله ﷺ: (لا يبقى في البيت أحد إلا لد)، عقوبة لهم بتركهم امتثال نهيه عن ذلك.

وصور رسول الله ﷺ فعلهم بالشرطاني، وهذه قمة الإشارة الى فعلهم العدوانى قائلًا ﷺ: إنها من الشيطان.

مراسيم التجهيز: وعن عمر في حديث قال فيه رسول الله لعلي: وأنت غاسلي ودافني الحديث.

ولما وضع على السرير وأرادوا الصلاة عليه (ﷺ) قال علي (عليه السلام): لا يؤم علي رسول الله أحد، هو إمامكم حياً وميتاً، فكان الناس يدخلون رسلاً رسلاً، فيصلون صفأ صفأ، ليس لهم إمام ويكبرون، وعلي قائم حيال رسول الله يقول: سلام الله عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما أنزلت إليه، ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله عز وجل دينه، وتمت كلمته، اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل الله إليه، وثبتنا بعده وأجمع بيننا وبينه، فيقول الناس: أمين أمين، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان.

روى هذا كله باللفظ الذي أورده ابن سعد عند ذكره غسل النبي من طبقاته، وأول من دخل على رسول الله يومئذ بنو هاشم، ثم المهاجرون، ثم الأنصار ثم الناس وأول من صلى عليه علي والعباس وقفا صفأ وكبرا عليه خمساً.

ميراث الرسول ﷺ:

عن الإمام الصادق عن أبيه عن جده (عليه السلام) قال: لما حضرت رسول الله (ﷺ) الوفاة دعا العباس بن عبدالمطلب وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال للعباس: يا عم محمد تأخذ تراث محمد وتقضي دينه وتتجز عاداته؟

فرد عليه وقال: يا رسول الله أنا شيخ كبير كثير العيال، قليل المال، من يطيقك وأنت تباري الريح؟

فقال رسول الله (ﷺ): أما اني سأعطيها من يأخذ بحقها.
ثم قال: يا علي يا أبا محمد أنتجز عداة محمد وتقضي دينه وتأخذ تراثه؟..
قال: نعم بأبي أنت وأمي.

فنزح خاتمه من إصبغه فقال: تختم بهذا في حياتي فوضعه علي (عليه السلام) في إصبغه اليمنى فصاح رسول الله (ﷺ): يا بلال علي بالمغفر والدرع والراية وسيفي: ذي الفقار وعمامتي: السحاب والبرد والأبرقة والقضيب.

فقال: يا علي إن جبرائيل أتاني بها.

فقال: يا محمد إجعلها في حلقة الدرع واستوفر بها مكان المنطقة ثم دعا بزوجي نعال عربيين إحداهما مخصوفة والأخرى غير مخصوفة، والقميص الذي اسري به فيه، والقميص الذي خرج فيه يوم أحد والقلائس الثلاث قلنسوة السفر وقلنسوة العبيد وقلنسوة كان يلبسها.

ثم قال رسول الله (ﷺ): يا بلال علي بالبعثتين: الصهباء والدلدل، والناقتين: العضباء والصهباء، والفرسين الجناح الذي كان يوقف بباب مسجد رسول الله لحوائج الناس، يبعث رسول الله (ﷺ) الرجل في حاجته فيركبه، وحيزوم وهو الذي يقول أقدم حيزوم، والحمار اليعفور.

ثم قال: يا علي إقبضها في حياتي حتى لا ينازكك فيها أحد بعدي.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله (ﷺ) في مرضه الذي قبض فيه لفاطمة (عليها السلام): بأبي وأمي أنت، أرسلني الي بعلك فادعيه لي.

فقال فاطمة للحسين (عليه السلام): انطلق الي أبيك فقل: يدعوك جدي.
فانطلق إليه الحسين فدعاه فأقبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) حتى دخل على رسول الله (ﷺ) وفاطمة (عليها السلام) عنده وهي تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه.

فقال لها رسول الله (ﷺ): لا كرب على أبيك بعد اليوم يا فاطمة، إن النبي لا يشق عليه الجيب، ولا يخمش عليه الوجه، ولا يدعى عليه بالويل ولكن قل لي كما قال أبوك علي إبراهيم: تدمع العينان وقد يوجع القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنما بك يا إبراهيم لمحزونون ولو عاش إبراهيم لكان نبياً.

ثم قال يا علي أدن مني. فدنا منه فقال أدخل إذنك في في. ففعل.

فقال: يا أخي ألم تسمع قول الله تعالى في كتابه (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية)؟ قال: بلى يا رسول الله.

قال: هم أنت وشيعتك يجيئون غراً محجلين، شباعاً مرويين..

أولم تسمع قول الله في كتابه (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية)؟ قال: بلى يا رسول الله.

قال: هم أعداؤك وشيعتهم، يجوزون يوم القيامة ظمءاً مظمنين، أشقياء معذبين، كفار منافقين، ذلك لك ولشيعتك، وهذا لعدوك ولشيعتهم.

ولما حضره الموت كان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً عنده فلما قرب خروج نفسه عليه السلام قال له: ضع يا علي رأسي في حجرك فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك، ثم وجهني إلى القبلة وتول أمري وصل علي أول الناس، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله تعالى.

فأخذ علي عليه السلام رأسه فوضعه في حجره فأغمي عليه فأكبت فاطمة عليها السلام تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وتقول:

وأبيض يستقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة الأرامل

ففتح رسول الله عليه السلام عينه، وقال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمك أبي طالب لا تقوليهِ ولكن قولي: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم).

فبكت طويلاً وأوما إليها بالدنو منه فدنت منه فأسرَ إليها شيئاً تهال وجهها له.

ثم قبض عليه السلام أمير المؤمنين عليه السلام تحت حنكه ففاضت نفسه عليه السلام الطاهرة فيها فرفعها إلى وجهه فمسح بها، ثم وجهه وغمضه ومد عليه إزاره واشتغل بالنظر في أمره

لما أراد أمير المؤمنين عليه السلام غسل الرسول عليه السلام استدعى الفضل بن العباس فأمره

أن يناوله الماء لغسله فغسله بعد أن عصب عينيه، ثم شق قميصه من قبل جيبه حتى بلغ إلى سرتة وتولى عليه السلام غسله وتحنيطه وتكفينه والفضل يعطيه الماء ويعينه عليه.

فلما فرغ من غسله وتجهيزه تقدم فصلى عليه وحده، ولم يشترك معه أحد في الصلاة عليه، وكان المسلمون في المسجد يخوضون فيمن يؤمهم بالصلاة عليه، وأين يدفن، فخرج إليهم أمير المؤمنين عليه السلام وقال لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله إمامنا حياً وميتاً فليدخل عليه فوج بعد فوج منكم فيصلون عليه بغير إمام، وينصرفون، وأن الله تعالى لم يقبض نبياً في مكان إلا وقد ارتضاه لرمسه فيه، وإني لدافنه في حجرته التي قبض فيها.

فسلم القوم لذلك ورضوا به، ولما صلى المسلمون عليه أنفذ العباس بن عبدالمطلب برجل إلى أبي عبيدة بن الجراح وكان يحفر لأهل مكة ويضرح، وكان ذلك عادة أهل مكة، وأنفذ (أرسل) إلى زيد بن سهل وكان يحفر لأهل المدينة ويحده، فاستدعاهما، وقال: اللهم خر لنبيك.

فوجد أبو طلحة فقليل له: احفر لرسول الله. فحفر له لحداً، ودخل أمير المؤمنين

والعباس بن عبدالمطلب والفضل بن العباس وأسامة بن زيد ليتولوا دفن رسول الله صلى الله عليه وآله، فنادت الأنصار من وراء البيت: يا علي إنا نذكرك الله وحقنا اليوم من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يذهب، أدخل منا رجلاً يكون لنا به حظ من مواراة رسول الله صلى الله عليه وآله فقال ليدخل أنس بن خولي، وكان بدرياً فاضلاً من بني عوف من الخزرج، فلما دخل قال له علي عليه السلام انزل القبر.

فنزل ووضع أمير المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وآله على يديه ودلاه في حفرته، فلما حصل في الأرض قال له أخرج.

فخرج ونزل علي عليه السلام إلى القبر، فكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ووضع خده على الأرض موجهاً إلى القبلة على يمينه ثم وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب. وكان عليه السلام يرثي رسول الله ويقول:

الموت لا والداً يبقي ولا ولداً هذا السبيل إلى أن لا ترى أحداً

هذا النبي ولم يخلد لأمته لو خأد الله خلقاً قبله خلداً

للموت فينا سهام غير خاطنة من فاته اليوم سهم لم يفته غداً

وكان ﷺ يصلح قبر رسول الله بمسحاته.

الادلة الأخرى على تلك المؤامرة:

وإذا بحثنا في الوضع السياسي الاجتماعي في المدينة سنجد بأن الرسول الأكرم ﷺ توفي مستشهدا مسموما من قبل أناس كان همهم السلطة الدنيوية، ولذلك نجد أن هناك آراء دخيلة على الإسلام تمنع البحث في الماضي وتعتبره غير جائز.

وأن البحث يجب أن يتجرد من تلك الافكار المتمثلة بالعبادات والتقاليد والتي لا تمت بصلة للإسلام، وبسبب قمع حريات التفكير تخرجت اجيال لا تعرف الا القهر والاستبداد والقتل والكراهية وقطع الرؤوس..ولا يسمح للاحرار اليوم بالتفكير في أهم قضية تخص المؤمنين الأبرار الصادقين الموالين.

هذا وإنّ المصادر التاريخية للمؤلف والمخالف، ومن الخاصة والعامة تتفق على أن النبي ﷺ توفي مسموماً، ولكن بعض المصادر تحاول أن تتغاضى عن ذلك.

وهذا بحد ذاته يشير الى تورط شخصيات مهمة من الصحابة ومن المقربين في عملية القتل.

ولقد كان استشهاد الرسول الأكرم ﷺ في اليوم الثامن والعشرين من شهر صفر في السنة الحادية عشرة من الهجرة.. ثم إنه لا بد من الاشارة هنا لبعض الادلة على شهادته ﷺ:

١- جاء في السيرة النبوية لأبن كثير:- عن الأعمش عن عبد الله بن نمرة عن اب الاحوص عن عبد الله بن مسعود إذ قال: لئن أحلف تسعا إن رسول الله قتل قتلا أحب إلي من أن أحلف واحدة أنه لم يقتل، وذلك لأن الله اتخذ نبياً واتخذ شهيداً.

٢- وقال الشعبي: والله لقد سم رسول الله. ومما يؤيد هذه الحقيقة أيضاً: أن أعراض السم ظهرت على وجه وبدن الرسول الأعظم ﷺ قبيل وبعيد وفاته، إذ تذكر كتب السيرة أن درجة حرارة رسول الله ﷺ قد ارتفعت ارتفاعاً خطيراً في مرضه الذي توفي فيه وبصورة غير طبيعية، وأن صداعاً عنيفاً في رأسه المقدس الشريف قد صاحب هذا الارتفاع في الحرارة.

ومن المعروف طبيياً أن ارتفاع حرارة الجسم والصداع القوي هو من نتائج تجرع السم.

٣- يقول ابن سعد: فلما كان يوم الأربعاء بدأ برسول الله ﷺ الممرض فحم وصدع.
٤- كانت أم البشر بن البراء قد قالت للرسول: ما وجدت مثل هذه الحمى التي عليك على أحد.. وهذا النص يثبت بدلالة قاطعة أن الحمى التي اعترت المصطفى ﷺ لم تكن حمى طبيعية وذلك لأنها لم تر مثل هذه الحمى من قبل، وهذه الحمى ما هي إلا من السم الذي جرعه فقد تغير لونه و حالته.

٥- وفي الرواية التي ذكرها عبد الله الأندلسي في كتابه يقول:-
بعدهما لدوا رسول الله ﷺ رغماً عنه، قال (ﷺ): من فعل هذا؟ فقالوا: عمك العباس.

ويتضح من قبل المنفذين انكار فعلتهم الشنيعة وأتهمهم العباس عم النبي ﷺ إلا أن ذلك لم يخف عن رسول الله الذي قام بتبرئة عمه العباس من تلك الفعلة واتهامهم، ودليل ذلك حينما طردهم من داره وأبقى العباس يعاين حاله.

إذ قال ﷺ: لا يبقى أحد منكم إلا لد غير العباس فإنه لم يشهدكم.
ويلاحظ من تلك الروايات التي ينقلها علماء من العامة أنها تكشف لنا وجود مؤامرة بتخطيط مسبق للسيطرة على دفة الحكم وقلب النظام الإسلامي باغتيال الرسول الأكرم ﷺ، وتجريعه سما على أنه دواء للشرب.
ولا نعلم أي الحالتين كانتا أشد على النبي ﷺ اغتيال جسده؟ أم اغتيال نبوته وشخصه المقدس؟ والذي قال عنه رب العالمين: (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى).

وهنا لا بد لنا أن نتساءل هل من الممكن أن يستشهد الرسول الأكرم ﷺ وأن يترك الأمة بدون أن يكتب وصيته، والله تعالى قال في كتابه الكريم: (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية) // آل عمران: ١٤٤.
وهل يمكن أن يأمر النبي أمته بالوصية ويتركها هو؟ وهو القائل: (من مات بلا وصية مات ميتة جاهلية).

إن الحوادث التاريخية تثبت وبدون شك بأن الرسول الأكرم ﷺ قد أوصى وكتب وصيته، ولكن لماذا لم يطبقها المذكورين أعلاه؟

إن كل الاحاديث تشير الى أن الرسول بين وأوضح وأمر بالتمسك بالامام علي من بعده إماماً وخليفة وحاكماً وحجة من بعده، وهذا لم يكن اجتهاداً وهوى من عنده

وإنما بأمر من الله تعالى له ولكل الأنبياء أن يكون وصيا لهم من بعدهم وهي قاعدة كونية في الخلق.

لقد استشهد رسول الإنسانية ﷺ في حجر الامام علي عليه السلام.

ففي مسند أحمد والمستدرک عن أم سلمة قالت: والذي أحلف به، إن كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) لأقرب الناس عهدا برسول الله (ﷺ)، عدنا رسول الله (ﷺ) غداة وهو يقول: (جاء علي، جاء علي) مرارا.

فقالت فاطمة: كأنك بعثته في حاجة، قالت: فجاء بعد، قالت أم سلمة: فظننت أن له إليه حاجة، فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب وكنت من أدناهم الى الباب، فأكب عليه رسول الله (ﷺ) وجعل يساره ويناجيه، ثم قبض رسول الله (ﷺ) من يومه ذلك فكان علي أقرب الناس عهدا).

وفي تاريخ ابن كثير بسنده عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله قال في مرضه: (ادعوا لي أخي) فدعوا له أبا بكر فأعرض عنه، ثم قال: (ادعوا لي أخي) فدعوا له عمرا فأعرض عنه، ثم قال: (ادعوا لي أخي) فدعوا له عثمان فأعرض عنه، ثم قال: (ادعوا لي أخي) فدعوا له علي بن أبي طالب، فستره بثوب وأكب عليه، فلما خرج من عنده قيل له: ما قال؟ قال: علمني ألف باب يفتح كل باب الى ألف باب.

في طبقات ابن سعد في (ذكر من قال توفي رسول الله ﷺ في حجر علي بن أبي طالب) بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن كعب الأحبار قام زمن عمر، فقال ونحن جلوس عند عمر: ما كان آخر ما تكلم به رسول الله (ﷺ)؟ فقال عمر: سل عليا، قال: أين هو؟

قال: هو هنا، فسأله فقال علي عليه السلام: أسندته الى صدري فوضع رأسه على منكبي فقال: الصلاة الصلاة.

فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء وبه أمروا وعليه يبعثون، قال: فمن غسله يا أمير المؤمنين؟

قال: سل عليا، قال: فسأله فقال: كنت أنا أغسله وكان عباس جالسا، وكان أسامة وشقران يختلفان إلي بالماء.

٦- وكان ابن عباس يعتر عن أساءه لما حدث بقوله: (الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله).

من نتائج المؤامرة السقيفة بني ساعدة

لما استشهد الرسول الأكرم ﷺ اجتمع بعض الأنصار في سقيفة بني ساعدة، واختاروا سعد بن عبادة الخزرجي أميراً وخليفة للمسلمين، فوصل الخبر إلى أبي بكر وعمر فأسرعا إلى السقيفة ومعهم أبو عبيدة بن الجراح، ودخلوا على الأنصار، واحتجوا عليهم بأن الرسول منهم فهم أحق بمقامه، فقالوا: منّا أمير ومنكم أمير.

فقال أبو بكر: منّا الأمراء ومنكم الوزراء.

وبعد جدلٍ طويل، ضعفت جبهة الأنصار حينما ضمّ رأي البشير بن سعد وأسيد بن حضير الأنصاريين إلى جانب أبي بكر وصاحبيه، وعندما بايع بشير الأنصاري أبا بكر وبايعه عمر وأبو عبيدة، وبايع الحاضرون سوى سعد بن عبادة وقليل ممن يرى رأيه، فتمت البيعة لأبي بكر، والرسول ﷺ بعد لم يجهر.

وكان بنو هاشم وغيرهم من المسلمين مشغولين بتجهيزه، والصلاة عليه، إلى أن أخبرهم البراء بن عازب بما جرى في السقيفة، فاحتج بنو هاشم وعدد آخر من صحابة النبي ﷺ على البيعة لأبي بكر، واستمرّ الجدل والخلاف في الرأي حول بيعة السقيفة مدة سنة أشهر تقريباً.

وأما موقف الإمام علي عليه السلام في ذلك العهد فبعد أن أخذوا البيعة من الناس لأبي بكر جاءوا إلى علي عليه السلام ليخرجوه من البيت ليبايع لأبي بكر فلم تأذن لهم فاطمة عليها السلام بالدخول في بيتها، فصدر الأمر بالهجوم فهاجموا وأخذوا علياً عليه السلام بعد أن خلعوا عنه سلاحه وأخرجوه من البيت يريدون به المسجد، وخرجت فاطمة عليها السلام خلفهم وهي بأشد الأحوال، إذ إنها أجهضت جنينها فكانها نسيت ألامها فجعلت تعدو وتصيح: خلوا عن ابن عمي؟

خلوا عن بعلي والله لأكشفن عن رأسي ولأضعن قميص أبي علي رأسي وأدعوا عليكم. ووصلت إلى باب المسجد فرأت منظراً مؤلماً لا نستطيع أن نصفه إلا أنها

استطاعت أن تخلص زوجها من أيدي الناس وتحول بينهم وبين أخذ البيعة منه، ورافقت زوجها الى البيت سالماً.

لماذا لم يخبر النبي ﷺ عن قاتله؟

لقد سار رسول الله ﷺ وسبطه الحسن بن علي ﷺ على نهج واحد في عدم الكشف عن قاتلهما، كما لم يخبر ﷺ أحدا بأسماء المنافقين الذين حاولوا قتله في العقبة غير حذيفة بن اليمان.

فيقال: إن الحسن ﷺ سقي ثم نجى ثم سقي ونجى، ثم كانت الآخرة التي توفي فيها، فلما حضرته الوفاة قال الطبيب وهو يختلف إليه: هذا رجل قد قطع السم أمعاءه.

فقال الحسين ﷺ: يا أبا محمد: أخبرني من سقاك؟ قال: ولم يا أخي؟ قال: أقتله والله قيل أن أدفئك، وإلا أقدر عليه، أو يكمن بأرض أتكلف الشخوص إليه.

فقال: يا أخي إنما هذه الدنيا ليال فانية، دعه حتى ألتقي أنا وهو عند الله، فأبى أن يسميه.

قال: وقد سمعت بعض من يقول: كان معاوية قد تلمظ لبعض خدمه ان يسقيه سما.

وعدم الكشف عن قاتله في وقته حكمة من حكم الأنبياء والاصياء، متعلقة بذلك الزمن.

وبعد مرور ١٤٠٠ سنة على ذلك، نرى من الواجب علينا الكشف عن قاتله والفحص عنه لنصل الى حقيقة علاقة بعض الصحابة مع رسول الله ﷺ هؤلاء الصحابة الذين ذمهم القرآن الكريم بقوله تعالى: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) ، وللكشف عن حوادث أخرى لها علاقة متينة مع هذا الحادث الخطير.

ومن غير المنطقي إيقاع الناس في الشبهة بتصوير قاتل رسول الله ﷺ أنه حبيبه فتضيق على المسلمين الحقائق المسلمة.

لماذا ألقوا بتبعة موت الرسول ﷺ على سم خيبر؟

لقد أجمعت النصوص على مقتل رسول الله ﷺ مسموماً، وذكر الصحابة الأجلاء مقتله بالسم، وشاهد المسلمون آثار السم على وجه رسول الله ﷺ وبدنه، وظهرت أعراض السم على رسول الله ﷺ قبل وفاته، والمتمثلة بحمي عالية وآلام مبرحة لا تطاق ثم موت سريع.

ولأجل ذلك لم يتمكن رجال السلطة الذين سموا رسول الله ﷺ من تنفيذ ذلك، لأجل الشواهد الكثيرة المسلم بها، فأجمعوا على تصديق الناس في ذلك وتأييد تلك الظواهر، ولكن حرفوا القضية بشكل ماهر، وذلك بإلقاء تبعة الأمر على سم خيبر.

وهذا التفسير القرشي للعملية الخطيرة وراءه دهاء قريش، الذين شرحوا الأحداث التي افتعلوها بشكل تنبهر له العقول، وتندمض له الأذهان. لذلك جاء في الرواية المزيفة: (اليهود سموه ﷺ في خيبر).

بينما الحقيقة تنص على إخبار الله سبحانه وتعالى رسوله بذلك فامتنع عن الأكل.

لقد قتل رسول الله ﷺ في يوم الاثنين ٢٨ / صفر / ١١ هجرية. ثم حصل الهجوم على بيت فاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ في يوم الأربعاء بعد بيعة أبي بكر العامة.

وقد جاء في رواية الهجوم: أنهم كانوا يحملون نارا وحطبا، وهذا ما اشار اليه بوضوح المؤرخون حول القصيدة العمريه للحافظ إبراهيم، حيث يذكر ذلك الموقف والذي جاء في القصيدة :

وقولة لعلها عمر أكرم بسامعها أعظم بملقيها

حرقت دارك لا ابقي عليك بها إن لم تباع وبنيت المصطفى فيها

وممن ذكر هذه القصيدة العمرية، المسعودي في مروج الذهب والشهرستاني في الملل والنحل والطبري في كتابه احداث السنة وغيرهم..

ووقفت الزهراء خلف الباب وقالت: ويحك يا عمر ما هذه الجراءة على الله وعلى رسوله؟ فركل عمر الباب برجله فاخترت فاطمة بين الباب والحائط رعاية للحجاب، فدخل القوم الى الدار مما سبب عصرها واسقاط جنينها.

ثم أعلن أبو بكر عن ندمه بالهجوم على دار فاطمة بنت محمد ﷺ.

وشدة الهجوم على بيت فاطمة ﷺ وسعته وحدته يفصح عن شدة حقد الحزب القرشي على رسول الله ﷺ.

ومن جملة آثار حقد عصابة قريش على النبي ﷺ واتهامهم له في نسبه وهم في المسجد النبوي، فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه بذلك بواسطة جبرائيل، فغضب عليهم رسول الله ﷺ ووبخهم، فاعتذر عمر لذلك وكرر قول الشهادة رغم مرور سنين عديدة على دخوله الإسلام.

وكذا اتهام النبي ﷺ بالهجر بعد سمه فقال عمر لرسول الله ﷺ في أثناء مرضه ﷺ ذاك بفعل السم: أنه يهجر، وأيد أصحاب عمر ذلك القول بقولهم: يهجر يهجر.

إن تيقن عصابة قريش من موت النبي ﷺ بالسم هو الذي جعلها تنادي يهجر يهجر.

وبعد أربعين سنة تكرر الحادث إذ سقت جعدة بنت الأشعث زعيم كندة زوجها سبط الرسول ﷺ الامام الحسن بن علي عليه السلام، ولما سألوا الحسن عليه السلام عن الفاعل امتنع من ذلك.

ولولا اطمئنان عصابة قريش الى موت النبي ﷺ من ذلك السم، لما تمكنت من النطق بكلمة يهجر، ولما تمكنت من منع الناس من المجيء بصحيفة ودواة لرسول الله ﷺ ليكتب وصيته.

وقال صاحب كتاب الطبقات الكبرى: إن النبي ﷺ مات بعد قولهم له يهجر وإخراجه ﷺ إياهم من بيته، إذ لم يجروا عمر بن الخطاب وأعوانه من إهانة النبي

ﷺ قبل ذلك، بل إن عمر بن الخطاب قد اعتذر من النبي ﷺ بعد حادثة المسجد النبوي اعتذاراً مدهشاً.

ذلك أن النبي ﷺ كان قد أخبر عمر بن الخطاب والمرافقين له بإهانتهم للنسب النبوي الشريف، وإخبار جبريل له بذلك، وعندها اعتذر عمر وقال: اعف عنا، عفا الله عنك، اغفر لنا، غفر الله لك، احلم عنا حلم الله عنك.

وبرك عمر على ركبتيه، وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، وقال: إنا حديثو عهد بجاهلية وشرك، والله أعلم من أبوانا.

والمقايسة بين الموقفين تثبت بأن عمر بن الخطاب قد عمل بخلاف ما يؤمن به في المسجد النبوي فاعتذر اعتذاراً شديداً، وفي يوم الخميس ظهر عمر بمظهره الحقيقي والواقعي فأهان رسول الله ﷺ وأصر على ذلك ولم يعتذر من ذلك أبداً.

والذي سهل على عمر ذلك أمران: الأول هو وصول حالة الصراع بين الجانبين إلى مرحلة خطيرة.

والأمر الثاني: معرفة عمر بموت النبي ﷺ سريعا بعد اغتيالهم له بالسم.

لماذا انكروا موت النبي ﷺ

كانت مصلحة الحزب القرشي تتمثل في انكار وفاة رسول الله ﷺ انتظاراً لمجيء أبي بكر من خارج المدينة، وتهيئة الأوضاع لمشروع السقيفة.

فجاء في الرواية كان عثمان وعمر يرددان قول: لم يمّت، ومن قال إنه ﷺ مات توعداه، وجاء أيضاً: وكان أول من راه مسجى فأنكر موته عثمان، وقال عمر: إن رسول الله والله ما مات ولا يموت.

وقال أيضاً: ذهب ﷺ إلى الله تعالى في الأرض بجسده.

وقال: ذهب ﷺ إلى السماء بروحه وجسده مثل عيسى عليه السلام.

وقال أيضاً: عرج إلى السماء بروحه مثل موسى عليه السلام.

واستمر عمر في تصريحاته قائلا: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وأن رسول الله والله ما مات، وقال عمر أيضا: أنه ﷺ مغشى عليه.

وبينما صرح عمر مرارا بأن رسول الله ﷺ لم يموت ولا يموت، أمام الناس أرسل سرا سالم بن عبيد الى أبي بكر الموجود في منطقة السنح خارج المدينة يخبره بوفاة رسول الله، وأنه ذهب الى ربه، كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات.

والله ليرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات.

لقد اضطر عمر الى استخدام التهديد والوعيد والكذب لإقناع الناس بعدم موت النبي ﷺ قائلا: إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون أو يقولون إن رسول الله قد مات.

لماذا أشاعوا عدم موت رسول الله ﷺ؟

إن الذي يقرأ السيرة جيدا يجد عملية مخططة وخطيرة أعقبت وفاة الرسول ﷺ دعواها عدم وفاته، وأنه ﷺ سوف يعود الى هذه الدنيا.

ويلاحظ أن المجموعة التي عصت أوامر رسول الله ﷺ بالذهاب في حملة أسامة، هي نفس المجموعة التي عصت ورفضت المجيء بصحيفة ودواة لرسول الله ﷺ ليكتب وصيته.

وهي نفس المجموعة التي قالت للنبي ﷺ: إنه يهجر، وهي نفس المجموعة التي سقت رسول الله ﷺ شرابا قسرا وهو نائم.

وهي ذات العصابة التي ادعت عدم وفاة رسول الله ﷺ.

وهي ذات الفئة التي لم تشترك في مراسم جهاز الرسول ﷺ فذهبت وأست مراسم السقيفة وسيطرت على السلطة.

وهي ذات الجماعة التي هاجمت بيت فاطمة بنت محمد ﷺ بالنار والخطب والسيوف.

إذن هناك ترابط بين تلك الأعمال وأنها لم تأت اعتباطا ولا صدفة، بل كانت ضمن خطة مدروسة ومنظمة لإقصاء رسول الله ﷺ من الساحة.

وكان عمرو عثمان قد قالوا بعد وفاة رسول الله ﷺ عنه: أنه لم يمّت: والله ما مات ولا يموت: عرج الى السماء بروحه مثل موسى.

ومن هذه الادعاءات أن هذه الجماعة كانت تسعى الى ما يلي:

١- ذر الرماد في العيون وإبعاد أية شبهة عن ضلوعها في أمر منكر حدث ضد رسول الله ﷺ، وبيان حبها للنبي ﷺ وعدم رغبتها في موته ﷺ، بل هدفها استمرار حياته.

٢- تهينة الاوضاع لمشروع السقيفة بإثارة مسألة عدم موته ﷺ.

٣ - الإنتظار ريثما يعود أبو بكر من خارج المدينة من السنج وهذا الأمر يتطلب منع مراسم الدفن الى حين مجيء أبي بكر. علما بأن خطة الجماعة كانت تتمثل بتأسيس مراسم السقيفة والاستحواذ على السلطة أثناء اشتغال الناس وخاصة بني هاشم وفي طليعتهم علي بن أبي طالب وتقويت الفرصة عليهم وذلك بانشغالهم بمراسم جهاز الرسول ﷺ.

٤- ومن المستبعد تصور حب الحزب القرشي استمرار حياة الرسول ﷺ ومن تلك المجموعة التي قالت عن رسول الله ﷺ: أنه ليهجر، بحيث اضطر النبي ﷺ الى إخراج أفراد تلك المجموعة من بيته قائلا: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه.

وجاء في رواية: (فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي ﷺ قال: لهم ﷺ: قوموا).

وفي كل تلك الأثناء كان بنو هاشم يعارضون أفعال الحزب القرشي ويؤيدون مطالب رسول الله ﷺ وأهدافه؛ إذ طالب الرسول ﷺ بصحيفة ودواة، فنادى أهل بيته بتلبية طلبه، وعارضت تلك الجماعة ذلك، وقالت: إنه يهجر.

وطالب بنو هاشم بالإسراع في دفن رسول الله ﷺ فعارضت تلك المجموعة ذلك وذهبت الى السقيفة. وانفق رجال الحزب القرشي على خطة عاجلة لمنع مشروع رسول الله ﷺ لنقل الخلافة الى علي بن أبي طالب وإخراجهم الى الشام، واعتمدت خطتهم على أهداف محددة أهمها:

١- قتل رسول الله ﷺ: وهذه الخطة الخطيرة هي عملية استنساخ لخطة قبائل قريش في قتل النبي ﷺ في مكة لمنع هجرته الى المدينة.

والأطروحتان من قبل جهة واحدة وكانت الأولى تتمثل في منع الهجرة الى المدينة، والثانية تهدف لمنع ذهاب رجال الحزب القرشي في حملة الشام.

والاختلاف في العمليتين يتمثل في أن الهجمة الأولى جرت في مكة، والهجمة الثانية جرت في المدينة، والعملية الأولى كانت علنية، والعملية الثانية كانت سرية، والاختلاف الثالث أن عملية الاغتيال الأولى فشلت والثانية نجحت، ومواقف عصابة قريش في معارك المسلمين تؤيد هذا:

٢ - إظهار عدم رغبتهم في المشاركة في حملة أسامة.

٣ - فرارهم في معارك أحد وخيبر وحنين، وتركهم رسول الله ﷺ طعمة سهلة للكفار واليهود، ولولا العناية الإلهية لتغيرت معادلة الإسلام والمسلمين.

٤ - ومن أهداف قريش في إبقاء جثمان رسول الله ﷺ دون دفن هو إشغال بني هاشم والمسلمين بذلك ليتفرغوا هم لاستلام السلطة.

فما دام جثمان الرسول ﷺ في يد بني هاشم يستحيل عليهم تركه والمجيء الى السقيفة للمطالبة بالخلافة.

وقد نجحت تلك الخطة الشيطانية في وصول الحزب القرشي الى الحكم وحرمان علي بن أبي طالب ﷺ منها.

ويتوضح ذلك بهذا النص: إن عليا بن أبي طالب حمل فاطمة عليها السلام على حمار وسار بها ليلا الى بيوت الأنصار يسألهم النصر، وتسألهم فاطمة الانتصار لها فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر

ما عدلنا به. فقال علي: أفكنت أترك رسول الله ﷺ ميتا في بيته لم أجهزه وأخرج الى الناس انازعهم في سلطانه؟

فقال فاطمة رضي الله عنها: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله سبحانه حسيبهم عليه.

٥ - الامتناع عن المشاركة في مراسم جثمان النبي ﷺ، فلقد ابتعد الحزب القرشي عن المشاركة في تشييع خاتم الأنبياء ﷺ وذهبوا الى سقيفة بني ساعدة لانتخاب فرد من أفرادهم خليفة للمسلمين.

وقد أثبتت أمهات الكتب الإسلامية ابتعاد هؤلاء عن حضور مراسم دفن رسول الله، ويكاد الانسان المسلم أن ينفطر فواده وتخدم نبضات قلبه لسماع هذا الخبر، إذ كيف يمتنع بعض الصحابة عن حضور مراسم دفن افضل الأنبياء والمرسلين ﷺ وهم يعلنون إسلامهم ويظهرون إيمانهم.

والمدهش في الأمر أن الجماعة التي قالت لرسول الله ﷺ يهجر في يوم الخميس هي نفسها التي ادعت عدم وفاته، وتسببت في تأخير دفن جثمان النبي ﷺ، وإهانة مقامه الشريف.

وقد افتعلت ذلك لتهيئة الأرضية لمشروع السقيفة وإشغال بني هاشم بجهاز الرسول ﷺ والأعجب من ذلك امتناع حفار قبور المهاجرين من حفر قبر رسول الله ﷺ؛ إذ ذهب أبو عبيدة بن الجراح الى السقيفة لوضع حجر الأساس لخلافة قريش لرسول الله ﷺ على أن يكون هو ثالث الخلفاء.

ولما امتنع ابن الجراح من ذلك اضطر بنو هاشم لدعوة حفار قبور الأنصار أبي طلحة زيد بن سهل ليحفر قبرا للنبي محمد ﷺ، وقد كان ابن الجراح من دهاة قريش المتربصين للوصول الى سدة رئاسة المسلمين، وقد ذكره المغيرة بن شعبة قائلا: داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح.

وبعد الاطلاع على ترك الحزب القرشي لمراسم جهاز النبي ﷺ يمكن القول: إن العداء بين الحزب القرشي ورسول الله ﷺ لم يتوقف بل استمر واستفحل، وأفضل مصداق لذلك حادثة العقبة، وحادثة الامتناع عن الالتحاق بحملة أسامة،

ورزية يوم الخميس، وحادثة منع دفن جثمانه ﷺ وحادثة الامتناع عن المشاركة في مراسم دفنه.

والذين حضروا مراسم غسل ودفن النبي ﷺ هم مجموعة صغيرة من المسلمين على رأسهم بنو هاشم؛ إذ جاء عن زيد بن أرقم: لولا أن علي بن أبي طالب عليه السلام وغيره من بني هاشم اشتغلوا بدفن النبي ﷺ وبحزنهم فجلسوا في منازلهم ما طمع فيها من طمع..

روي في كشف الغمّة عن الامام الباقر انه قال: قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة، في سنة عشر من الهجرة، فكان مقامه بمكة أربعين سنة، ثم نزل عليه الوحي في تمام الأربعين، وكان بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر الى المدينة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فأقام بالمدينة عشر سنين.

فلما دنا أجله ﷺ حجب الناس عنه وتقل في موضعه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام لا يفارقه الا لضرورة، فقام في بعض شؤونه فأفاق رسول الله ﷺ إفاقة، فافتقد علياً عليه السلام فقال أزواجه حوله: ادعوا لي أخي وصاحبني، وعأوده الضعف فأصمت.

فقالت عائشة: ادعوا له أبا بكر، فدعي، فدخل عليه وقعد عند رأسه، فلما فتح عينه نظر اليه فأعرض عنه بوجهه فقام أبو بكر فقال: لو كان له اليّ حاجة لأفضى بها اليّ فلما خرج أعاد رسول الله ﷺ القول ثانية، وقال: ادعوا لي أخي وصاحبني، فقالت حفصة ادعوا له عمراً، فدعي فلما حضر وراه رسول الله ﷺ أعرض عنه فانصرف، ثم قال: ادعوا لي أخي وصاحبني فقالت ام سلمة رضي الله عنها: ادعوا له علياً فإنه لا يريد غيره، فدعي أمير المؤمنين عليه السلام فلما دنا منه أو ما اليه فأكبّ عليه فناهجه رسول الله ﷺ طويلاً ثم قام فجلس ناحية حتى أغفى رسول الله ﷺ فلما أغفى خرج فقال له الناس: ما الذي أوعز إليك يا أبا الحسن؟ فقال: علّمني الف باب من العلم فتح لي كل باب الف باب، وأوصاني بما أنا قائم به إن شاء الله تعالى.

ثم ثقل رسول الله ﷺ وحضره الموت وأمير المؤمنين عليه السلام حاضر عنده، فلما قرب خروج نفسه قال له: ضع يا علي رأسي في حبرك فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك ثم وجهني الى القبلة وتولّ أمري وصلّ عليّ أول الناس، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي واستعن بالله تعالى،

فأخذ عليّ عليه السلام رأسه فوضعه في حجره فأغمي عليه، فأكبّت فاطمة عليها السلام تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وتقول:

وأبيض يُستقى الغمامُ بوجهه شمال اليتامى عصمةً للأرامل

ففتح رسول الله ﷺ عينه وقال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمك أبي طالب، لا تقوليه، ولكن قل: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ).

كيفية تغسيله ﷺ:

فلما أراد أمير المؤمنين عليه السلام غسله استدعا الفضل بن العباس فأمره أن يناوله الماء لغسله بعد أن غُصبت عينيه، ثم شقَّ قميصه من قبل جيبه حتى بلغ الى سرتيه، وتولَّى غسله وتحنيطه وتكفينه، والفضل يعاطيه الماء ويعينه عليه، فلما فرغ من غسله وتجهيزه تقدم فصلَّى عليه وحده، لم يشركه معه أحد في الصلاة عليه. وكان المسلمون في المسجد يخوضون فيمن يؤمهم في الصلاة عليه وأين يدفن، فخرج اليهم أمير المؤمنين عليه السلام، وقال لهم: إن رسول الله ﷺ إمامنا حياً وميتاً، فليدخل عليه فوج بعد فوج منكم، فيصلون عليه بغير إمام وينصرفون وإن الله لم يقبض نبياً في مكان إلا وقد ارتضاه لرمسه فيه وإني لدافنه في حجرته التي قبض فيها، فسلم القوم لذلك ورضوا به.

ولما صلَّى المسلمون عليه أنفذ العباس بن عبدالمطلب برجل الى أبي عبيدة بن الجراح وكان يحفر لأهل مكة ويضرح، وكان ذلك عادة أهل مكة وأنفذ الى زيد بن سهل وكان يحفر لأهل المدينة ويلحد، فاستدعاهما وقال: اللهم خر لنبيك فوجد أبو طلحة زيد بن سهل وقال له: احفر لرسول الله ﷺ فحفر له لحداً ودخل أمير المؤمنين عليه السلام والعباس بن عبدالمطلب والفضل بن العباس وأسامة بن زيد، ليتولوا دفن رسول الله ﷺ.

إن يوم التحاق الرسول المصطفى ﷺ بالرفيق الأعلى ملياً نداء السماء يعتبر أعظم فاجعة على تاريخ البشرية على الإطلاق، كونها الفاجعة المزدوجة والتي تحمل بعدين مهمتين وعظيمين في حياة الأمة الإسلامية والأمم الأخرى. فأما البعد الاول: والذي يتمثل بانقطاع الوحي في تاريخ البشرية جمعاء بعد التحاق المصطفى بالملا الأعلى.

والبعد الآخر: وكان يتمثل بالفاجعة الكبرى داخل المجتمع الإسلامي بالإنحراف على يد المؤامرة الكبرى التي قام بها جناح من المسلمين بعد وفاة المصطفى ﷺ،

فاتحرف بذلك الخط الإسلامي عما كان مقررا له من قبل الله سبحانه وتعالى
والرسول ﷺ.

قال تعالى: (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم
على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين).
١- اقطاع الوحي:

إن هذا الجزء من الفاجعة، والذي يعني النظر الى الحدث الذي وقع في هذا
اليوم، بوصفه حدثا قد وضع حدا لتلك الظاهرة العظيمة، التي اقترنت مع هبوط
الإنسان على وجه الأرض، وهي ظاهرة الوحي، ظاهرة الاتصال مع الله سبحانه
وتعالى.

ففي مثل هذا اليوم وضع حد نهائي لهذه الظاهرة المباركة الميمونة. وفي بعض
الروايات أن جبرئيل عليه السلام حينما ارتفعت ملائكة السماء بروح المصطفى ﷺ
الى ربها راضية مرضية، التفت الى الأرض مودعا، ثم طار الى سماواته (وكان
آخر يوم يهبط فيه الى الدنيا).

هذا اليوم كان يوم انقطاع الإنسانية عن الاتصال المباشر بالله سبحانه وتعالى،
بأنتهاء حياة خاتم الأنبياء والمرسلين.

٢- الإنحراف عن وصية المصطفى:

كان هذا اليوم المؤلم والدامي، هو بداية الإنحراف الطويل، ونهاية عهد سعيد
بالوحي، تمثل في مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، كما في بعض الروايات المعتمدة،
وكان بداية ظلام، ومحن، ومأس، وفواجع، وكوارث.

ومن ناحية أخرى تمثل فيما عقب وفاة رسول الله ﷺ من أحداث في العالم
الإسلامي، وهذه الأحداث المرتبطة ارتباطا شديدا وقويا بما تم في هذا اليوم من
الفاجعة، سيما وأن الله أخبره بأن الأمة سترتد من بعده كما ورد في قوله تعالى: (وما
محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن
ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين).

وهذا دليل على انقلاب الأمة بعد التحاقه ﷺ بالرقيق الاعلى.

عندما أحس الرسول المصطفى ﷺ بأنه سيلبي نداء ربه في السنة الاخير، وقد
اشار الى أنه قد نُعتت اليه نفسه، وقد مرض الرسول ﷺ، وقد أمر الناس أن تجتمع،
فخرج ﷺ معصبا بعمامته متوكنا حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

معاشر أصحابي أي نبي كنت لكم ؟ ألم أجاهد بين أظهركم؟

ألم تكسر رباعيتي؟ .. ألم يعفر جيني؟ .. ألم تسل الدماء على وجهي؟

وأخذ يعدد المصائب عليه حتى قالوا: بلا يا رسول الله لقد كنت على بلاء الله صابرا فجزاك الله عنا أفضل الجزاء.

وعندما أحس بلقاء ربه أراد أن يعزز خلافة أمير المؤمنين عليه السلام والتي عقد أواصرها في غدير خم بعد حجة الوداع، وأراد أن يقضي على روح الشغب والثأر والتأمر، فرأى أن يثبتها في كتاب، فكان يوم الخميس والذي يسميه ابن عباس يوم الرزية. فقال عليه السلام: أنتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعدي أبدا. فتنازع القوم فقال أحدهم إن النبي ليهجر.

ولكن هل يصح على الرسول عليه السلام أن يُقال بأنه يهجر؟ وقد وصفه القرآن الكريم بقوله تعالى: (ما ضل صاحبكم وما غوى). ولقد زكى القرآن لسانه فقال تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى).

وزكى القرآن قلب الرسول عليه السلام، فقال تعالى: (فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى).

وزكى القرآن عينه قال تعالى: (أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصروما طغى). ولقد أمرنا القرآن باتباعه، قال تعالى: (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا). وقال تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول).

ولما فرغوا من دفن الرسول عليه السلام، أتت فاطمة الزهراء عليها السلام فقالت: كيف طاوَعْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عَلَى أَنْ تَهِيلُوا التُّرَابَ عَلَى وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام، ثم بكت، وفي رواية أنها أخذت كفاً من تراب القبر الطاهر فوضعتَه على وجهها وقالت:

ماذا على من شم تربة أحمد
الا يشم مدى الزمان غواليا
صببت على نوائب لو أنها
صببت على الأيام صرن لياليا
قل للمغيب تحت أطباق الثرى إن كنت تسمع صرختي وندائيا
بالأمس كنت ذات حما بظل محمد واليوم أدفع ظالمي برداءيا

فسلام عليه يوم ولد ويوم كان صادقا آمينا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، ويوم بُعث رحمة للعالمين وهاديا وشافعا ومشفعا للناس أجمعين، وسلام عليه يوم التحاقه بالرفيق الأعلى، ملتيا نداء السماء، وهو خير الأولين والآخرين، وسلام عليه يوم يبعث حيا وشفيعا لامته، وسلام على آله الطيبين الطاهرين، والذين ساروا على هديه، وجعلنا من المتمسكين والساكنين على نهجه وسيرته وأهل بيته وأن يحشرنا معهم في مستقر رحمته، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

الفصل الثالث عشر

مميزات وخصائص الرسول المصطفى ﷺ

إن الحديث عن رسول المصطفى ﷺ حديث عن الرسالات والكمالات، حديث عن كل هذا الصرح العظيم والمقدس الذي اختطته يد القدرة الإلهية واقتضته المشيئة الربانية ليكون منهجاً يسير بموجبه العباد لخير الدنيا والآخرة.

والرسول الأكرم ﷺ هو تلك الشخصية الجامعة التي جمع الله تعالى فيها كل معاني الفضيلة والأخلاق وأصول الكمال والحكمة، وما جعل الله شيئاً في خليقته من الفضائل إلا عنده اجتمعت، وما أعطى الله نبياً من أنبيائه مكرمة أو منقبة أو فضيلة إلا وسجلها لحبيبه ﷺ.

والقرآن الكريم لطالما أثنى على النبي الأكرم ﷺ بمختلف ألوان الثناء، ووصفه بصاحب الخلق العظيم، ووصفه بأنه رؤوف رحيم، ووصفه بأنه الرجل الذي حمل رسالة السماء الخاتمة وخاتم النبيين، وجاهد من أجلها حتى ضحى بوجوده الكريم، وأن له حقاً عظيماً على هذه الأمة، فإن أعظم نعمة بعد التوحيد ومعرفة المولى تبارك وتعالى هي معرفة الرسول ﷺ.

وفي الواقع أن معرفة الرسول، ومعرفة مقاماته صعب للغاية ولا يمكن لنا أن نتعرف على المصطفى ﷺ حق معرفته، أو يقف على حقيقة مقامه خصوصاً بعد أن عرفنا ما قاله هو ﷺ - وهو في مقام الحديث مع صنوه علي بن أبي طالب -: (يا علي ما عرفني إلا الله وانت).

وقد تميّزت شخصية الرسول الأكرم ﷺ بخصائص ومميزات كثيرة تميزه عن البشرية وعن كافة الأنبياء والمرسلين وبعضها لم نصل لمعرفة وقد ذكر القرآن بعضها وذكر التاريخ البعض الآخر، ولا بد من عرض بعض تلك الخصوصيات للرسول الأكرم ﷺ، ونحاول أن نذكر بعض أهمها ومنها:

١ - لقد جاء بكتاب من عند الله عجز عنه الخلق من الأولين والآخرين من الجن والأنس وتحداهم على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا مع كونه أمياً لم يدرس عند أي بشر.

قال تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين).

لقد أعطى الله تبارك وتعالى كل نبي من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من الآيات والمعجزات، الدالة على صدقه وصحة ما جاء به عن ربه، ما فيه حجة لقومه الذين بعث إليهم وهذه المعجزات كانت وقتية، لم يبق منها إلا الخبر عنها..

وأما نبينا ﷺ فكانت معجزته العظمى فهي خالدة مدى الدهر والتي اقتص بها دون غيره هي القرآن الكريم، فهو الحجة المستمرة القائمة في زمانه وبعده الى يوم القيامة، كتاب خالد، لا ينضب معينه، ولا تنفسي عجائبه، ولا تنتهي فوائده، محفوظ بحفظ الله، من التغيير والتبديل والتحريف..

يقول العز بن عبد السلام: ومن خصائصه ﷺ أن معجزة كل نبي تصرمت (انقطعت) وانقرضت، ومعجزة سيد الأولين والآخرين وهي القرآن العظيم، باقية الى يوم الدين.

وتأتي هذه الخصوصية على رأس الخصائص التي اقتص بها رسول الله ﷺ، والتي أكرمه الله بها، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَنزِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نُّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

وقال تعالى في قرانه المجيد: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ).

٢- اختصاصه بالخلق النوراني: قد أشارت بعض الروايات الدالة على أن الله تبارك وتعالى خلق نور محمد ﷺ قبل خلق السماوات والأرض، والعرش والكرسي، واللوح والقلم، والجنة والنار، وقبل خلق آدم ونوح وإبراهيم، وقبل أن يخلق الأنبياء كلهم بأكثر من أربعة الاف سنة، والتي دللت أنه سبحانه الله وعبدته قبل جميع العابدين والمسبحين، وأن الملائكة تعلموا التسبيح منه.

واختصاصه ﷺ بأنه أول المسلمين، وأخلص الموحدين، واخضع العابدين قال تعالى: (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ).

فهو ليس أول المسلمين في أمته فحسب، فكل نبي هو أول المسلمين في أمته، ولكنه الأول في الإسلام لله تعالى سبق كل الأنبياء والمرسلين، وحتى أن القرآن يقدمه على أفضل الأنبياء وهم أولي العزم.

قال تعالى: (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) ، مع كونه جاء في رسالته أخيراً فهو خاتم الأنبياء.

وهذا يعتبر تشرifa وإكراما له ﷺ من قبل الله سبحانه وتعالى، وهذا واضح من خلال آيات قرآنية كثيرة بإفراده وتقديمه على الجميع في شخصيته ومنها: (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين).

وقوله تعالى: (أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون). وقوله تعالى: (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا).

٣- خلقه علة الإيجاد: وهذا ما دلت عليه الروايات وأنه ﷺ علة غانية لإيجاد الخلق، كما ورد في الحديث القدسي: (لولاك لما خلقت الأفلاك).

٤- أخذ الميثاق له من جميع الأنبياء والمرسلين: رواية عبد الأعلى عن الصادق عليه السلام، والتي تدل على أن أخذ الميثاق من جميع الأنبياء لنبينا ﷺ: (إن بعض قریش قال لرسول الله ﷺ: بأي شيء سبقت الأنبياء، وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟ فقال: إني كنت أول من آمن بربي، وأول من أجاب حيث أخذ الله ميثاق النبيين، وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم، فكانت أنا أول نبي قال: بلى، فسبقتهم بالإقرار بالله عز وجل// الكافي.

وأيضاً دل على ذلك القرآن الكريم: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ// آل عمران: ٨١.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه ميثاق، لنن بعث الله محمدا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لنن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.. وقال هذا القول كثير من أئمة التفسير.

ومن ثم قال الرسول الأكرم ﷺ لعمر بن الخطاب: (والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني) // مسند أحمد .

٥- اختصاصه ﷺ بعناية الهية في حفظه وحراسته ابطلت كل ما عقده الكفار من المكر والغدر والمشاورة في القضاء عليه قال تعالى: (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

٤ - اختصاصه ﷺ بأنه جاء بدين فطري كامل يفوق جميع الاديان ومهيمن على الجميع قال تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

٦- اختصاصه ﷺ بأن صلاته ودعائه سكن لقلوب المؤمنين وطمئنته قال تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم).

٧- لقد وصف الله رسوله الكريم بأسمين من أسماءه حيث لم يجمع الله لأي أحد من البشر اسمين من أسماءه ووصفه أنه رسول رؤوف رحيم فإن الله وصف نفسه (إن الله بالناس لرؤوف رحيم).

وقال تعالى في وصف رسوله الكريم: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم).
٨- اختصاصه ﷺ بالمقام المحمود.

لقد نصّ القرآن الكريم على أن الرسول ﷺ يحشر في يوم القيامة في مقام يحمده عليه الجميع، وهذا المقام عبر عنه المولى تبارك وتعالى في سورة المزمل بالمقام المحمود (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً).

وعندما نأتى الى الروايات الشريفة الواردة عن الرسول الأكرم وعن الإمام علي عليه السلام نجدها تؤكد هذا المعنى وتفسر هذا المقام بمقام الشفاعة الكبرى لنبينا ﷺ.

وهذا المقام إنما سمّي بالمقام المحمود والذي ينفرد به خاتم الأنبياء والمرسلين؛ لأن الجميع سوف يحمد الرسول ﷺ الخلاق وهو مقام الشفاعة الكبرى له ﷺ يوم القيامة، ولقد اتفقت على هذا التفسير الروايات من طرق الفريقين عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام. لذا فإن الرسول المصطفى ﷺ يحشر يوم القيامة في مقام يحمده عليه الجميع، ويستفيد منه الجميع، وينتفع منه الجميع؛ لهذا عبر المولى تبارك وتعالى عنه بأنه رحمة للعالمين، فقال عز وجل: (وما أرسلناك الى رحمة للعالمين).

وواحدة من مظاهر هذه الرحمة العامة أن المذنبين من هذه الأمة المرحومة ومن الأمم السابقة التي قادها الأنبياء السابقون من لدن آدم الى نبينا ينتفعون به يوم المحشر؛ ولذا ورد في الرواية الشريفة: (ما من أحد من الاولين والآخرين إلا وهو محتاج الى شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. وهذه من خصائص نبينا ﷺ ولا يوجد أحد وصفه المولى تبارك وتعالى بأنه رحمة للعالمين غيره.

ومن مظاهر رحمة الرسول ﷺ أن الله ببركة وجوده وببركة دعائه رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة، فإن من سنن المولى تبارك وتعالى في الأمم السابقة أنهم كانوا حينما يعصون الله ويتمردون تمرداً عاماً فإن الله ينتقم من تلك الأمم عن طريق الإبادة الجماعية، كقضية الطوفان في أمة نوح (عليه السلام) أو مطر المنذرين أو الخسف، وما شابه ذلك.

وهذه السنة رفعت عن هذه الأمة ببركة وجود الرسول ﷺ وهذا ما أشار إليه المولى تبارك وتعالى بقوله: (وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون).

٩- تميز ﷺ بأنه الرحمة الالهية المهداة للعالمين جميعاً (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ، وما وصف الله تعالى غيره بهذه الخصوصية المتميزة في الخلق.

١٠- اختصاصه ﷺ بأنه كان أمياً عالماً مع أنه لا يقرأ ولا يكتب قبل النبوة قال تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) .. (فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي).

١١- اختصاصه ﷺ بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً) // الأحزاب: ٤٠ .

١٢- اختصاصه ﷺ بحلّة الزواج بالموهوبة للرسول دون المؤمنين (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين).

١٣- اختصاصه بجواز تزوجه بأكثر من أربع دون المؤمنين، قال تعالى: (يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك التي أتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك التي هاجرن معك).

١٤- اختصاصه ﷺ بلزوم الصلاة عليه، قال تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً).

١٥- اختصاصه ﷺ بأن في إيدانه ثلاث عقوبات عظيمة لمن يتجاوز عليه، وهي اللعن في الدنيا واللعن في الآخرة والعذاب المهين الى الأبد قال تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً).

١٦- اختصاصه ﷺ بعدم رفع الصوت عنده وعدم مناداته من وراء الحجرات والتعامل معه بأدب خاص وجميل قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون).. (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون).

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم). وقال تعالى: (إن الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم).

١٧- اختصاصه ﷺ بوجوب طاعته فيما أتى به والأنتهاء عما نهى عنه، قال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا).

١٨- تحريم زوجاته على غيره من الناس.

١٩- يبصر ﷺ من وراءه كما يبصر من أمامه.

٢٠- تنام عينه ولا ينام قلبه.

٢١- عن عائشة أنها قالت: قلت يا رسول الله إنك إذا دخلت الخلاء فخرجت دخلت في إترك قلم أر شيئا منك غير إني إجد رائحة المسك، فقال ﷺ: يا عائشة إنا معاشر الأنبياء بنيت أجسادنا على أرواح هل الجنة فما خرج منا من شيء ابتلعتة الأرض.

٢٢- اختصاصه بعلم الأولين والآخرين.

يقول العلامة الألوسي في النبي موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: له علم لا يعرفه الخضر وللخضر علم لا يعلمه موسى حسب ما ورد في القرآن على لسان موسى بقوله للخضر: (قال له موسى هل أتبعك على أن تُعلمن مما عُلمت رُشدا).

بينما يقول في نبينا الأكرم ﷺ: فإن لديه علم الأولين والآخرين، وقال: ما اجتمعت الحقيقة والشريعة الا لنبينا محمد ﷺ، ولم تكن للأنبياء الا أحدهما.

٢٣- ومن خصائصه القرب الالهي وقد بلغ سدرة المنتهى: فقد ورد في قوله تعالى: (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى).

٢٤- اختصاصه ﷺ بأن لا ظل له، وهذا ما يوضح شفافية جسمه وامتيازه عن غيره من البشر.

٢٥- أنه ساد على الكل، قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)، رواه ابن حبان والسيّد في من اتصف بالصفات العلية، والأخلاق السنية.

وهذا مشعر بأنه أفضل منهم في الدارين، أما في الدنيا فلما اتصف به من الأخلاق العظيمة، وأما في الآخرة فلأن الجزاء مرتب على الأخلاق والأوصاف، فإذا

كان أفضلهم في الدنيا في المناقب والصفات، كان أفضلهم في الآخرة في المراتب والدرجات.

وانما قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) ليخبر أمته عن منزلته من ربه عز وجل، ولما كان ذكر مناقب النفس إنما تذكر افتخاراً في الغالب، أراد ﷺ أن يقطع وهم من توهم من الجهلة أن يذكر ذلك افتخاراً قال: (ولا فخر).

٢٦- ومنها قوله ﷺ: (وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر).

٢٧- ومنها أن الله تعالى أخبره بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال الله تعالى: (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) // الفتح: ١-٢.

ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك، بل الظاهر أنه لم يخبرهم، لأن كل واحد منهم إذا طلبت منه الشفاعة في الموقف ذكر نفسه وقال: (نفسي نفسي)، وإذا استشفعت الخلائق بالنبي ﷺ في ذلك المقام قال: (إنا لها).

٢٨- ومنها إثارة ﷺ على نفسه، إذ جعل لكل نبي دعوة مستجابة، فكل منهم تعجل دعوته في الدنيا، وأخر هو ﷺ دعوته شفاعته لأمته.

٢٩- ومنها أن الله تعالى أقسم بحياته ﷺ فقال (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) // الحجر: ٧٢.

والقسم بحياة المقسم بحياته يدل على شرف حياته وعزتها عند المقسم بها وأن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها من البركة العامة والخاصة، ولم يثبت هذا لغيره ﷺ.

٣٠- التعظيم الرباني في الخطاب: ومن تلك الخصائص للرسول الأكرم ﷺ أن الله تعالى ناداه بوصف النبوة والرسالة وهي من أحب الأسماء وأسنى الصفات إليه ﷺ وفي ذلك زيادة في التكريم والتشريف، وهذان الوصفان من أهم الأوصاف التي اتصف بها نبينا ورسولنا الأكرم ﷺ، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) // الأنفال: ٦٤.

إن هذه الخصوصية لم تثبت لغيره من الأنبياء، فكل نبي ناداه الله باسمه، قال تعالى مخاطباً آدم عليه وعلى نبينا السلام: (وقلنا يا آدم).

وقال تعالى مخاطباً عيسى عليه وعلى نبينا السلام: (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم) وقال مخاطباً النبي نوح عليه وعلى نبينا السلام: (قيل يا نوح).. وقال مخاطباً موسى عليه وعلى نبينا السلام: (يا موسى). وقال مخاطباً النبي إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام: (وناديناها أن يا إبراهيم)، وقال: (يا لوط إنا رُسُلُ ربك). (يا زكريا إنا نبشرك).. وقال (يا يحيى خذ الكتاب). وهكذا باقي الأنبياء والمرسلين..

ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعى أحد عبده بأفضل ما وجد فيهم من الأوصاف العلية والأخلاق السنية، ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام لا يشعر بوصف من الأوصاف، ولا بخلق من الأخلاق.

إن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم، وهذا معلومٌ بالعرف أن من دعى بأفضل أوصافه وأخلاقه، كل ذلك مبالغة في تعظيمه واحترامه.

أما الآيات التي ذكر الله فيها نبيه باسمه، فإنما جاء ذلك على سبيل الإخبار، كقوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ) // الأحزاب: ٤٠.

ومما يتعلق بهذه الخصوصية أن الله سبحانه نهى عباده عن نداء رسوله الأكرم ﷺ محمد باسمه الذي سمي به، قال تعالى: (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) // النور: ٦٣.

فنهى سبحانه المؤمنين عن نداء نبيهم كما ينادي بعضهم بعضاً، وطلب منهم مناداة نبيه الكريم بصفة النبوة والرسالة، تشريفاً لقدره، وبيانا لمنزلته، وخصه سبحانه بهذه الفضيلة من بين رسله وأنبيائه.

٣١- اعتراف الجمادات له بالرسالة: ومنها تسليم الحجر عليه، وحنين الجذع إليه، والتي لم تكن ولم تثبت لأحد من الأنبياء.

٣٢- ومنها أنه وجد في معجزاته ما هو أظهر وأعظم في الإعجاز من معجزات غيره، كتفجير الماء من بين أصابعه فإنه أبلغ في خرق العادة من تفجيريه من الحجر؛ لأن جنس الأحجار مما يتفجر منه الماء، وكانت معجزته بانفجار الماء من بين أصابعه أبلغ من انفجار الحجر لموسى عليه السلام.

٣٣- ومنها أن الله تعالى يكتب لكل نبي من الأنبياء من الأجر بقدر أعمال أمته وأحوالها وأقوالها، وأمته شطر أهل الجنة، وقد أخبر الله تعالى أن أمته خير أمة أخرجت للناس وإنما كانوا خير الأمم لما اتصفوا به من المعارف.

٣٤- ومنها أن الله سبحانه أرسل كل نبي إلى قومه خاصة وأرسل نبينا محمد ﷺ إلى الناس عامة.

٣٥- ولكل نبي من الأنبياء ثواب تبليغه الى أمته، ولنبيينا صلى الله عليه وآله وسلم ثواب التبليغ الى كل من أرسل إليه، تارة لمباشرة الإبلاغ، وتارة بالنسبة إليه، ولذلك تمنن عليه بقوله تعالى: (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً) / الفرقان: ٥١.

ووجه التمنن: أنه لو بعث في كل قرية نذيراً لما حصل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أجر إنذاره لأهل قريته.

٣٦- ومنها أن الله تعالى كلم موسى ﷺ بالطور، وبالوادي المقدس في الأرض، وكلم نبيينا ﷺ عند سدره المنتهى في السماء في الإسراء والمعراج.

٣٧- ومنها ما ورد عنه ﷺ: (نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلاق، ونحن أول من يدخل الجنة).

٣٨- ومنها أنه ﷺ أخبر أنه يفزع اليه ويرغب إليه الخلق كلهم يوم القيامة، حتى إبراهيم على نبيينا وعليه السلام.

٣٩- لقد أعطاه الله سبحانه وتعالى الوسيلة والفضيلة ﷺ والوسيلة: أعلى منزلة في الجنة، ومنها أنه قال: (الوسيلة منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله تعالى، وأرجوا أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفا).

٤٠- ومنها أنه يدخل من أمته الى الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، ولم يثبت ذلك لغيره ﷺ.

٤١- ومنها: أعطي نهر الكوثر الذي أعطيه في الجنة، والحوض الذي أعطيه في الموقف وأعطى الزهراء ﷺ وجعل نريته منها وقد ملئت الدنيا وهي أكثر الذراري، وكما قال تعالى: (إنا اعطيناك الكوثر..).

٤٢- ومنها قوله ﷺ: (نحن الآخرون السابقون) الآخرون زماناً، السابقون بالمناقب والفضائل الخلق.

٤٣- ومنها أنه أحلت له الغنائم ولم تحل لأحد قبله، وجعلت صفوف أمته كصفوف الملائكة، وجعلت له الأرض مسجداً، وترابها طهوراً.

وهذه الخصائص تدل على علو مرتبته، والرفق بأمته.

٤٤- ومنها أن الله تعالى أثنى على خلقه فقال: (وإنك لعلى خلق عظيم) واستعظام العظام للشيء يدل على إيغاله في العظمة، فما الظن باستعظام أعظم العظام؟

٤٥- ومنها أن الله تعالى كلمه بأنواع الوحي، وهي ثلاثة: الرؤيا الصادقة. والثاني: الكلام من غير واسطة. والثالث: مع جبريل عليه السلام. ٤٦- ومنها أن القرآن الكريم الذي نزل على الرسول المصطفى أحدها عليه السلام مشتمل على ما اشتملت عليه التوراة والأنجيل والزبور، ومهيمننا عليها، قال تعالى: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه).

٤٧- ومنها أن أمته أقل عملاً ممن قبلهم، وأكثر أجراً كما جاء في الحديث الصحيح.

٤٨- ومنها أن الله تعالى أرسله (رحمةً للعالمين)، فأهل عصاة أمته ولم يعاجلهم بالعقوبة إبقاء عليهم، بخلاف من تقدمه من الأنبياء أنهم لما كذبوا عُجل مذبهم.

ومن خصوصيات الرسول عليه السلام أن الله تعالى أرسله رحمة للخلائق جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، وإنسهم وجنهم، ويؤيد هذه الخصوصية قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) // الأنبياء: ١٠٧.

٤٩- وأما أخلاقه عليه السلام فقد عرف بحلمه وشفوه وصفحه وصبره وشكره ولينه في الله، وأنه لم يغضب لنفسه، وأنه جاء بإتمام مكارم الأخلاق، وما نقل من خشوعه وخضوعه وتبتله وتواضعه، ففي مأكله، وملبسة، ومشربه، ومسكنه وجميل عشرته، وكريم خليقته، وحسن سجيته، ونصحه لأمته وحرصه على إيمان عشيرته، وقيامه بأعباء رسالته في نصره دين الله، وإعلاء كلمته، وما لقيه من أذى قومه وغيرهم في وطنه وغربته، وبعض هذه المناقب موجودة في كتاب الله وما كتبه المؤرخون في شمائله..

٥٠- أما لينه فقد أشير إليه بقوله تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم) // آل عمران: ١٥٩.

٥١- وأما شدته على الكافرين، ورحمته على المؤمنين ففي قوله تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) // الفتح: ٢٩.

٥٢- وأما حرصه على إيمان أمته ورأفته بالمؤمنين، وشفقته عليهم ففي قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) حيث يُشق عليه ما يشق عليكم، (حريص عليكم)، أي إيمانكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم) // التوبة: ١٢٨.

٥٣- وأما نصحه في أداء رسالته ففي قوله تعالى: (فتول عنهم فما أنت بملوم). أي فما انت بملوم لأنك بلغتهم فأبرأت ذمتك.

٥٤- المصطفى ﷺ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم.

٥٥- ومنها حفظ كتابه ما بين الدفتين من التحريف، قل لو اجتمع والآخرين على أن يزيدوا فيه كلمة، أو ينقصوا منه لعجزوا عن ذلك، ولا يخفى ما وقع من التبديل في التوراة والأنجيل، قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

وإذا كان القرآن الكريم في مقدمة الخصائص التي أكرم الله بها رسول الله ﷺ فإن حفظ الله سبحانه لهذا الكتاب من التبديل والتحريف خصوصية أخرى لهذا النبي الكريم، فقد أخبر سبحانه بأنه تولى وتعهده بنفسه حفظ القرآن.

٥٦- ومنها أنه فاق العرب في فصاحته وبلاغته، واختصر له الحديث اختصاراً كما قال عليه الصلاة والسلام: (أعطيت فواتح الكلم، وجوامع وخواتمه).

٥٧- لقد اختص ﷺ بالإسراء والمعراج إلى السماء وهبط في نفس الليلة، وكما ورد في القرآن الكريم بقوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى..).

٥٨- لقد اصطفى الله سبحانه وتعالى الرسول المصطفى ﷺ قبل بعثته وقبل خلق آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بل قبل الخلائق كلها وكما عرفت به ابنته الزهراء عليها السلام في خطبتها الفدكية والتي جاء فيها: (وأشهد أن أبي محمدا عبده ورسوله، اختاره قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونه، وبستر الأهويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علما من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدور).

٥٩- كل الأمم قد ضلت بعد التحاق نبيها بالرفيق الأعلى وحرفت شريعتها كالأنجيل والتوراة وأصبحوا في ظلام دامس وضلال مستمر الأمة المصطفى ﷺ فقد بقيت مع بقاء القرآن والأئمة المعصومين عليهم السلام بمواكبة الشريعة (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفئ ضلال مبين).

وهذا ما أشارت اليه الزهراء في خطبتها الفدكية أيضا في هداية أبيها للامة:
(ابتعثه الله إتماما لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذا لمقادير حكمته، فرأى
الأمم فرقا في أديانها، عكفا على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها..
فأنار الله بأبي محمد عليه السلام وظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الابصار
غممها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم
الى الدين القويم، ودعاهم الى الطريق المستقيم).

٦٠- أكرم الله تبارك وتعالى نبيه محمداً عليه السلام فجعل وجوده بين أصحابه أمانة لهم من
العذاب، بخلاف ما حصل لبعض الأمم السابقة حيث عذبوا في حياة أنبيائهم، قال
تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون).

وكان عليه السلام أمانة لأصحابه كذلك من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب
واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أندر به صريحاً ووقع بعد وفاته.

٦١- أكرم الله عبده ورسوله محمداً عليه السلام واختصه على غيره من الأنبياء بأن أعطاه
مفاتيح خزائن الأرض وهي ما سهل الله تعالى له ولأمته من بعده من افتتاح البلاد
المتعذرات والحصول على كنوزها وذخائرها ومغانمها واستخراج الممتنعات من
الأرض كمعادن الذهب والفضة وغيرها.

٦٢- ومنها إيثاره عليه السلام على نفسه، إذ جعل لكل نبي دعوة مستجابة، فكل منهم تعجل
دعوته في الدنيا، وخبا هو عليه السلام دعوته شفاعة لأمته.

كما ورد بأن النبي عليه السلام عندما سأله جابر بن عبد الله الأنصاري ما أول ما خلق الله؟
فأجابته نور نبيكم يا جابر، ومنه خلق كل خير..

واخيرا وليس آخرا فان الله تعالى عندما يذكر الانبياء بالعبودية يذكر اسمائهم (واذكر
عبدنا أيوب) .. (واذكر عبدنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولي الايدي..) ولكن لم
يذكر اسم المصطفى عند ذكره بل يكتفي بعبوديته فقال تعالى (سبحان الذي اسرى
بعبه ليلا..) وقال تعالى (فاوحى الى عبده ما أوحى ..) لكونه يمثل العبودية
المطلقة وهي من اختصاصه عليه السلام دون غيره فاذا ذكرت العبودية لوحدها فهي تمثل
المصطفى عليه السلام دون غيره.

عفو الرسول المصطفى عليه السلام عن المسيئين:

لقد عفى الرسول الأكرم عليه السلام عن أشد المعاندين له وهو ابو سفيان، فحينما دخل
مكة منتصرا فاتحا وبعد أن اخرجته المشركين من وطنه واهله وأرادوا قتله خاطبهم

بَارِقَ الكلمات قائلاً لهم: (ألا بنس جيران النبي كنتم لقد كذبتهم وطردتم وأخرجتم وقتلتم ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني فاذهبوا فإنتم الطلقاء).

ولقد عفا عن هَبَار الذي قتل حمزة عم النبي ﷺ وسيد الشهداء، كما أنه ﷺ عفى عن هَبَار الذي أسقط وقتل جنين زينب وهي حامل حيث أسقط جنينها، وهي بنت أخت خديجة رضي الله عنها وقد هدر الرسول ﷺ دمه، ثم جاء للرسول ﷺ وقال: أشهد الا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فقبل الرسول ﷺ اسلامه.

وعن ابن عباس قال: حينما كان هَبَار يعتذر للرسول ﷺ فرأيت رسول الله ﷺ وهو يطأ رأسه.. استحياء حينما يعتذر هَبَار، ويقول له قد عفوت عنك.

ولقد عفى الرسول ﷺ حتى على المنافقين الذين أرادوا قتله في بدأ الدعوة في قصة مشهورة، كما عفى عن غيرهم ممن هموا بقتله مع العلم أنهم كانوا أشد المجرمين .

وصايا الرسول الأكرم ﷺ الى علي عليه السلام:

ورد عن الرسول الأكرم ﷺ الكثير من الوصايا الى أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام، منها ما عن إسماعيل بن زياد السكوني، وإسماعيل بن الفضل جميعاً عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن أبيه عن أبيه الحسين بن علي عليه السلام قال: (إن رسول الله ﷺ أوصى الى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وكان فيما أوصى به أن قال له: يا علي، من حفظ من أمتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة حشره الله يوم القيامة مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.. فقال علي عليه السلام: يا رسول الله، أخبرني ما هذه الاحاديث؟

فقال ﷺ: (أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، وتعبده ولا تعبد غيره، وتقيم الصلاة بوضوء سابغ في مواقيتها، ولا تؤخّرها فإن في تأخيرها من غير علة غضب الله عز وجل، وتؤدي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إذا كان لك مال وكنت مستطيعاً، والأ نعتق والديك، ولا تأكل مال اليتيم ظلماً، ولا تأكل الربا، ولا تشرب الخمر ولا شيئاً من الأشربة المسكرة، ولا تزني، ولا تلوط، ولا تمشي بالنميمة، ولا تحلف بالله كاذباً، ولا تسرق، ولا تشهد شهادة الزور لاحد قريباً كان أو بعيداً.

وأن تقبل الحق ممّن جاء به صغيراً كان أو كبيراً، والأ تترك الى ظالم وإن كان حميماً قريباً، والأ تعمل بالهوى، ولا تقذف المحصنة، ولا تراني؛ فإن أيسر الرياء شرك بالله عز وجل، والأ تقول لقصير: يا قصير، ولا لطويل: يا طويل تريد بذلك عيبه، والأ تسخر من أحد من خلق الله، وأن تصبر على البلاء والمصيبة، وأن تشكر نعم الله التي أنعم بها عليك، والأ تأمن من عقاب الله على ذنب تصيبيه، والأ تقنط من رحمة الله، وأن تتوب الى الله عز وجل من ذنوبك؛ فإن التائب من ذنوبه كمن لا

ذنب له، والأَ تصرَّ على الذنوب مع الاستغفار فتكون كالمستهزئ بالله وآياته ورسله، وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك.
والأَ تطلب سخط الخالق برضا المخلوق، والأَ تؤثر الدنيا على الآخرة لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، والأَ تبخل على إخوانك بما تقدر عليه، وأن تكون سريرتك كعلائيتك، والأَ تكون علانيتك حسنة وسريرتك قبيحة؛ فإن فعلت ذلك كنت من المنافقين، والأَ تكذب ولا تخالط الكذابين، والأَ تغضب إذا سمعت حقاً، وأن تؤدب نفسك وأهلك وولدك وجيرانك على حسب الطاقة.

وأن تعمل بما علمت، ولا تعاملن أحداً من خلق الله عزَّ وجلَّ إلا بالحق، وأن تكون سهلاً للقریب والبعيد، والأَ تكون جباراً عنيداً، وأن تكثر من التسبيح والتهليل والدعاء وذكر الموت وما بعده من القيامة والجنة والنار، وأن تكثر من قراءة القرآن وتعمل بما فيه، وأن تستغنى البرِّ والكرامة بالمؤمنين والمؤمنات، وأن تنظر الى كلِّ ما لا ترضى فعله لنفسك فلا تقعله بأحد من المؤمنين، ولا تملَّ من فعل الخير، ولا تتقلَّ على أحد ولا تمنَّ على أحد إذا انعمت عليه، وأن تكون الدنيا عندك سجنًا حتى يجعل الله لك الجنة.

فهذه أربعون حديثاً من استقام عليها وحفظها عني من أممي دخل الجنة برحمة الله، وكان من أفضل الناس وأحبهم الى الله عزَّ وجلَّ بعد النبيين والصدِّيقين، وحشره الله يوم القيامة مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً).

التواضع المحمدي:

إذا كان التواضع معناه إظهار الضعة وذلك من رفيع القدر عالي المقام، شريف الأصل والمحتد، فإن خلق التواضع من أفضل الأخلاق وأسمأها، وقد بلغ فيه رسول الله ﷺ شأوا لا يلحقه فيه أحد من الأولين ولا من الآخرين.

وباستعراضنا لأقواله ﷺ وأفعاله وأحواله الظاهرة تتجلى هذه الحقيقة، ويطمع كل مؤمن يستعرض ما نوره في هذا الباب في أن ينال قدرًا من التواضع تأسيًا بنبيه محمد ﷺ وهذا ما رجونه من كتابة هذه السيرة العطرة وتقديمها للمسلمين.

مظاهر التواضع المحمدي:

أخبر ﷺ أنه قد خير بين أن يكون نبيًا ملكًا، أو نبيًا عبدًا فاختر أن يكون نبيًا عبدًا، وأخبر أن الله تعالى كافاه على اختياره العبودية بأن يكون سيد ولد آدم، وأول

من تتشوق عنه الأرض، وأول شافع، فاخياره العبودية على الملوكية أكبر مظهر من مظاهر التواضع المحمدي، وهنا لا بأس باستعراض بقية هذه المظاهر:

- وكذلك ما عرف به ﷺ وشهد به غير واحد من أصحابه من أنه كان يركب الحمار ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويحيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، وحيثما انتهى به المجلس جلس، وكان يدعى الى خبز الشعير والإهالة السنخة فيحيب.

- قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله).

- وفي حجه الذي أهدى فيه مائة بدنة حج على بعير فوفقه رحل عليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم.

- ولما فتح الله تعالى على رسوله مكة ودخلها ظافراً منتصراً والجيش الإسلامية قد دخلتها من كل أبوابها دخل راكباً على ناقته، وأن لحيته الشريفة تكاد تمس قائم رحله تطامناً وتواضعاً لله عز وجل، وهو موقف لم يفقه غيره في دنيا البشر قط.

- ما أخبر به بعض نساءه، وتحدثن به، وهو أنه ﷺ يكون في بيته في مهنة أهله يحلب شاته، ويرقع ثوبه ويخصف نعله (يلصق بعضه ببعض إذا تقطع ويخززه ليلصق ولا ينحل)، ويخدم نفسه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها.

- دخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة، فقال له: (هون على نفسك فإني لست ملكاً وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد).

- عن سويد بن قيس قال: دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل وقال للوازن: (زن وارجح) فوثب الوزان الى يد النبي ﷺ يقبلها، فجذب يده، وقال: (هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم)، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال: (صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله).

إن كل مظهر من هذه المظاهر التي بلغت أحد عشر مظهراً دالاً بمفرده على كماله ﷺ ثم تواضعه وأنه مضرب المثل في ذلك ولما كان كماله لا يدانى فيه فتواضعه يكون آية نبوته ومعجزة رسالته، ولا يمتنع الناسي به؛ لأن التواضع من الأخلاق المكتسبة وبقدر صدق النية والرغبة يحصل للعبد ما يرغب فيه من الكمالات المحمدية التي هي موضع التأسي به ﷺ.

حكومة الرسول المصطفى وعدالته

لقد كانت حكومة الرسول المصطفى ﷺ عادله، وقد وفرت للمسلمين والأمة بأجمعها الخير والرفاه والسعادة والاحسان، فكان في عهده أموال المسلمين وأعراضهم وأرواحهم في أمن وأمان، بل وغير المسلمين أيضا كذلك، الأ المناوئين والمحاربين للإسلام والمسلمين.

ثم إن الرسول (ﷺ) ومع شدة حاجته وحاجة أصحابه للمال لم يتناول حتى درهما واحدا من احد في غير الاطار الإسلامي العام، فكان يشد حجر المجاعة على بطنه وكان أحيانا يجوع ثلاثة أيام من دون أن يتناول شيئا، وقد رهن درعه الحربي عند يهودي لأجل الطعام لأهله في قصة مشهوره.

وفي الحديث أن فاطمة الزهراء عليها السلام جانت بكسرة خبز لرسول الله ﷺ، فقال لها ﷺ ما هذه الكسره؟

قالت عليها السلام قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسره، فقال الرسول المصطفى ﷺ: (أما انه لم يدخل جوفي طعام منذ ثلاثة أيام).

ولم يذكر التاريخ أن الرسول ﷺ ظلم أحدا أو اعتدى على أحد قط، بل هو العدل القرآني يمشي على الأرض، وقد ورد عنه ﷺ مخاطبا ربه: (اللهم أحيني مسكينا وتوفني مسكينا، واحشني في زمرة المساكين).

فصلى الله عليك يا أشرف خلق الله من الأولين والآخرين يوم ولدت طيبا وطاهرا ونبيا، ويوم دعوت الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وجاهدت في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، ويوم التحقت بالملا الأعلى، فاشفع لنا فإن لك الشفاعة يوم القيامة عند الله.. يا وجيها عند الله إشفع لنا عند الله. يا رسول الله يا شفيع المذنبين.. إشفع لنا عند الله..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين.

الخلاصة:

لقد اختار الله سبحانه وتعالى واختص عبده ورسوله محمدا ﷺ دون غيره من الناس ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين وحبیب اله العالمین، وخصه بخصائص كثيرة وأكرمه بمكارم جمّة، تشریفاً وتكريماً له، مما يدل على جلیل قدره وشرف منزلته عند ربه.. وأن واحدة من تلك المكارم والخصائص هي العهد والميثاق..

فلقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين، من لدن آدم الى عيسى ﷺ، إذا بُعث محمد بن عبدالله ﷺ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه، كما أمرهم أن يأخذوا هذا الميثاق والعهد على أممهم، لئن بعث محمد ﷺ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه.

قال الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) // آل عمران: ٨١.

ولقد أقر الأنبياء جميعاً بذلك، فأمنوا برسالته، وأقروا ببعثته، وهذه الخصوصية ليست لأحد منهم سواه.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه ميثاق، لئن بعث الله محمدا وهو حي ليؤمنن به ولينصرن، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرن.

وقد كان الأنبياء والرسل يرسلون الى أقوامهم خاصة، كما قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ) // الأعراف: ٥٩.

وقوله تعالى: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا.. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا).. أما نبينا الرسول الأكرم ﷺ فرسالته عامة لجميع الناس.

وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تشير الى هذه الخصوصية. قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) // سبأ: ٢٨.

وقال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) // الفرقان: ١.

ومما يدل على هذه الخصوصية في السنة قول النبي ﷺ: (أن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثلي رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين).

ومن خصوصيات النبي ﷺ أن الله تعالى أرسله رحمة للخلائق جميعا، مؤمنهم وكافرهم، وإنسهم وجنهم، ويؤيد هذه الخصوصية قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) // الأنبياء: ١٠٧ .. وقوله (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) // التوبة: ١٢٨.

إن الأنبياء والرسل هم الواسطة بين الخالق والمخلوق، وهم واسطة الفيض، فهم يعرفون البشرية بمنهاج السماء وهدايتهم الى طريق الخير والنجاة للتكامل الحقيقي وبالتالي للوصول الى مرضات الله سبحانه وتعالى.

فالأنبياء يمثلون مثال الإنسان الكامل على الأرض، فهم القدوة ليسير الناس على هديهم ويعلموهم الكتاب والحكمة، ولذا قدّم القرآن التزكية على التعليم، كما ورد في قوله تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).

كما وأن وجود الأنبياء بين الناس هو تولى القيادة في المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية والقضائية، حينما تتوفر الظروف اللازمة، وكذلك إرشاد الناس لعبادة الله وحده، لينالوا خير الدنيا والآخرة.

هذا ما أردنا بيانه وتبليط الضوء عليه من السيرة العطرة للرسول المصطفى ﷺ، ونسأل الله بمنه وكرمه أن يوفقنا لاتباع رسول الله ﷺ في سننه وطريقته وجميع أخلاقه الظاهرة والباطنة وأن يجعلنا من حزبه وأنصاره ومن أهل حوضه.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

المراجع والمصادر المعتمدة

- ١- القرآن الكريم/ كتاب الله المجيد.
- ٢- الإسلام يقود الحياة/ الشهيد محمد باقر الصدر.
- ٣- أم المؤمنين خديجة الطاهرة/ الشاكري.
- ٤- أنمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة/ محمد باقر الصدر.
- ٥- تاريخ ابن عساكر/ لابن عبد ربه الأندلسي.
- ٦- تفسير الميزان/ العلامة الطباطبائي.
- ٧- حياة الامام علي/ باقر شريف القرشي.
- ٨- خصائص النبي في القرآن/ علي الافتخاري.
- ٩- دروس في العقيدة الإسلامية/ محمد تقي مصباح.
- ١٠- زوجات النبي ﷺ/ سعيد أيوب.
- ١١- سيرة الرسول/ رافع الطهطاوي.
- ١٢- السيرة المحمدية/ جعفر السبحاني.
- ١٣- السيرة النبوية/ سيره ابن هشام.
- ١٤- الشمائل المحمدية/ الترمذي.
- ١٥- الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ/ السيد جعفر مرتضى.
- ١٦- كتاب المناقب للخوارزمي.
- ١٧- مجمع البيان في تفسير القرآن/ العلامة الطبرسي.
- ١٨- محاضرات/ للعلامة السيد محمد حسين فضل الله.
- ١٩- المرسل والرسول والرسالة/ الشهيد محمد باقر الصدر.
- ٢٠- مع المصطفى/ د. بنت الشاطي.
- ٢١- إغتيال النبي ﷺ/ الشيخ نجاح الطائي.

وكتب ومقالات ونشرات اخرى.

٥	١- مقدمة
٧	٢- الفصل الاول: نسبه وولادته وأسمائه <small>عليه السلام</small> .
٤٥	٣- الفصل الثاني: الرسول <small>عليه السلام</small> والجزيرة العربية.
٦٣	٤- الفصل الثالث: البعثة النبوية الشريفة.
٨٥	٥- الفصل الرابع: زواج الرسول.
١٠٩	٦- الفصل الخامس: أبعاد الهجرة النبوية.
١٤٧	٧- الفصل السادس: معوقات الدعوة الإسلامية.
١٦٩	٨- الفصل السابع: إنجازات الرسول في المدينة.
١٨٩	٩- الفصل الثامن: الاسراء والمعراج وفلسفته.
٢٠٣	١٠- الفصل التاسع: واجبات الرسول ومعالم الرسالة.
٢١٥	١١- الفصل العاشر: فتح مكة.
٢٤١	١٢- الفصل الحادي عشر: ماذا ترك لنا الرسول.
٢٥٧	١٣- الفصل الثاني عشر: الرسول يلبي نداء ربه.
٢٨٥	١٤- الفصل الثالث عشر: مميزات الرسول الأكرم.
٣٠١	١٥- الخلاصة.
٣٠٣	١٦- المراجع والمصادر.
٣٠٤	١٧- محتويات الكتاب.